فاضل العزّاوي

آخر الملائكة

السلسلة الروائية

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع .ح

twitter @baghdad_library

فاضل العزّاوي

آخر الملائكة

رواية

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

THE LAST OF THE ANGELS

BY

FADEL AL-AZZAWI

First Published in the United Kingdom in 1992
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Al-Azzawi, Fadel
The Last of the angels
I. Title
892-736 [F]

ISBN 1855131854 Paperback

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

الطبعة الأولى: كانون الثاني / يناير ١٩٩٢

twitter @baghdad_library

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع .ح

ما كان بالأمس خمراً أصبح اليوم خلاً ولن يرجع الخل خمراً أبداً. أبداً.

هيرمان هيسه ـ الطريق الصعب

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

twitter @baghdad_library

دخل حميد الذي ما كان قد عرف بعد بلقبه، الذي اشتهر به حتى آخر حياته، البيت الذي كانت تفوح منه رائحة البراري. دفع برجله، مثلما يفعل دائماً، الباب الثقيل، وهو باب مصنوع من خشب الجوز، زُيِّن بمسامير ذات رؤوس عريضة؛ والذي ما كان ليوصد بمزلاجه ذي الأسنان البارزة إلا في الليل، وقد نمت عليه الطحالب فبدت أطرافه خضراء زاهية. ثم ارتقى بضع درجات، صاعداً إلى الغرفتين الصغيرتين اللتين كانتا تقعان فوق المدخل المؤدي إلى الفناء.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يعود فيها حميد من عمله في شركة النفط في مثل هذا الوقت المبكر. لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، مما أثار استغراب زوجته فاطمة، التي لم تكن تنتظر أوبته قبل العصر، قاطعاً عليها ضحكاتها البريئة، وهي تقف على السلم، تتحدث عبر جدار واطىء من الجص إلى جارتها في البيت الملاصق الآخر عن مسرّاتها الليلية. ولكن هذه السعادة كانت ممتزجة، في الحقيقة، بالمرارة والهمّ. فقد مر أكثر من عام على زواجها دون أن تحبل. كانت قد قصدت معظم الأئمة المعروفين والمجهولين في المدينة ليكتبوا لها حجاباً ضد العُقم، يُبْطل السحر الذي كان من الواضح أن حاسداتها

الكثيرات قد دبّرنه ضدها. ورغم أنها لم تعلن ذلك أبداً، فإن شكوكها حامت، منذ البداية، حول نظيرة، أخت زوجها وأمها هداية؛ وهي عجوز بدينة، كانت تتعامل علناً مع الشيطان؛ إذ أن بيتها لم يكن يخلو قط من الأعشاب والأزهار المجففة والعظام المطحونة ومواد كيمياوية مختلفة، كانت تشتريها من العطارين اليهود، في القيصرية، الواقعة عند مدخل السوق القديم.

كان بين الأئمة الذين قصدتهم فاطمة إمام أعمى، كتب لها حجاباً لقاء درهم، وقال لها: «هذا الحجاب سوف يحرق أيّ شيطان، يجرؤ على الاقتراب منك». ولكنها من أجل مزيد من الحيطة، قصدت إماماً تركمانياً آخر، يسكن في زقاق لا اسم له، يتفرع من محلة الجاي. وبعد شهر أو شهرين، ولأن بطنها ظلت دون انتفاخ، فقد نصحت لها جارتها أن تقصد أضرحة الأئمة الأموات؛ إذ لم يعد ثمة نفع عند الأئمة الأحياء، الذين لا يكتبون أحجبتهم إلا بعد استلام النقود. وهكذا، قصدت فاطمة، متلفعة بعباءتها السوداء، الإمام أحمد، الذي كان ضريحه يقع وسط الشارع الكبير، الذي يربط منطقة المصلّى بالسوق القديم. هناك بكت وتوسلت، متعمدة إطالة الجلوس حتى لا يُغفل الإمام طلبها. وقد أوشكت سيارة عابرة أن تصدمها، إذ أنها نسيت، وهي في ذوبانها الروحي والدموع تنهمر من عينيها، أنها كانت تجلس وسط الشارع. ثم زارت بعد ذلك ضريح إمام كردي في مقبرة المصلّى، يقال إنه كان يكلّم الطيور، فتفهمه وتطيعه. وبعد شهر من ذلك، وإذ لم يحدث أيضاً أي تغيير عليها، رغم أنها كانت ترغم زوجها على النوم معها أكثر من مرة في الليلة الواحدة، جاءت أمها إليها، وقالت

twitter @baghdad_library

لها: «سوف نقصد هذه المرة ضريح ولي يهودي، فليس هناك من هم أكثر ولاءً للشيطان من اليهود. الشر لا يُبطله إلا الشر». ولكنها عندما روت ذلك، في صباح اليوم التالي، لجارتها، نصحت لها هذه، بأن تذهب إلى القلعة، وتطلب من أحد بيوت النصارى سنّ خنزير؛ قالت إنهم يضعونه، عادة، في خوابي الماء، ثم تدسّه تحت وسادة زوجها؛ إذ ما من شيء يخشاه إبليس أكثر من سنّ الخنزير. إلا أنها، وربما لكثرة النصائح التي كانت تتلقاها من هنا وهناك، وربما أيضاً بسبب اليأس من الأولياء الذين فقدوا كراماتهم، قررت الكفّ، ولو مؤقتاً، عن هذه المحاولات الخائبة وزيادة عدد المرات التي تنام فيها مع زوجها. فقد كانت تعرف، وربما عن حق، أن الأمر كله يتقرر فوق السرير أكثر من أي مكان آخر، حتى إذا كان هذا المكان مرقد أقرب الأولياء إلى الله.

ومع ذلك، فإن فاطمة لم تكن مكترثة كثيراً بالأمر لولا إلحاحات أمها، وتلميحات العجوز هداية وابنتها نظيرة اللتين كانتا تتعمدان الحديث معها بصورة ملغزة، كالقول: «إن البقرةالتي لا تنجب تذبح». وكانت سعيدة، بصورة ما، بابتهاجاتها الليلية مع زوجها، الذي لم يكن قد فكر، ولو مرة واحدة، في إنجاب الأطفال. فقد كان حبه للنساء يطغى على أي حب آخر في حياته. والأكثر من ذلك، أنه كان يريد أن يظل محتفظاً، أطول فترة ممكنة، بشعوره كشاب غير مثقل كثيراً بالأعباء؛ حيث يخرج صباحاً إلى عمله في شركة النفط، ولا يعود إلى البيت إلا عندما يطيب له ذلك. فقد اعتاد أن يعود أحياناً عصراً، ولكنه كثيراً ما كان يتأخر حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً، دون أن يزعج ذلك فاطمة، التي لم تكن لتعرف أي

شيء عن عمله سوى ما يرويه هو لها من القصص. كانت تعرف أنه يقود سيارة مخصصة لمهندس انكليزي وزوجته، حيث يقوم بنقلهما من مكان إلى آخر وانتظارهما، مدركة أن ذلك كان يتطلب منه التأخر في العمل في أغلب الأحيان. وكان يضطر، بين الحين والآخر، للسفر إلى مدن ومناطق أخرى، برفقة الصاحب ثم يعود جالباً معه إلى البيت، وخاصة أثناء الأعياد المسيحية، شوكولاته لندنية أو قطعاً من جوز الهند المحلّى بالسكر، والذي لم تكن قد تذوّقته من قبل. ولذلك، ما كادت ترى زوجها يدخل البيت، حتى هرعت إليه. فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يعود فيها في مثل هذا الوقت من العمل، منذ زواجها. وقد سبب لها ذلك بعض الحيرة والشعور بالقلق. وجاهدت للسيطرة على نفسها؛ حتى لا تسأل عن سبب عودته المبكرة. ولكنه بادرها مبتسماً: «أريد أن أتمدد قليلاً». عند ذلك فقط، واتتها الشجاعة، لتسأل مضطربة: «أرجو ألا تكون مريضاً»، «فردّ عليها، وهو يرتقي السلالم إلى غرفتيهما الواقعتين فوق مدخل البيت: «لا أبداً، إنني متعب فقط». وكان هذا جواباً كافياً، بالنسبة لها، لتقول له: «حسناً، سوف أسرع في الطبخ، لنتغدى معاً». وانصرفت تُعدّ الطعام، وهي ممتلئة، بصورة ما، بالرضا والسرور، لوجود زوجها معها في البيت. وحتى إذا كان ثمة شيء، فإنه سيخبرها به بالتأكيد. كانت واثقة من ذلك.

ولكن زوجها ظل صامتاً هذه المرة، على عكس عادته. والأكثر من ذلك، إنه لم يبرح سريره، حتى عندما حلّ العصر، ليذهب إلى المقهى أو يزور أصدقاءه، بل لم يخرج إلى الشارع، ليتحدث مع شبان المحلة، الذين يلتقون كل مساء أمام دكان يقع لصق مسجد المحلة. والأسوأ من ذلك، أنه لم يغادر البيت

twitter @baghdad_library

في اليوم التالي أيضاً، ليذهب إلى العمل. عند ذاك فقط، أدركت فاطمة أن هناك أمراً ما، يخفيه عنها أو لا يريد البوح بـه، وأنه لا بد من أن يكون خطيراً. وقد اضطرتها مخاوفها إلى الإلحـاح عليه ليخبرها بحقيقة الأمر، إلا أنه لم يقـل لها سـوى أنه قـد أخذ إجازة لبضعة أيام. شعرت بشيء من الطمأنينـة، ولكنها لم تكن واثقـة تمامـاً، فربمـا كان يحـاول الزوغـان، مفكراً بعـدم إزعاجها أو إقلاقها. فهي تعرف أنه عندما يكون في مزاج طيب، يـروي لها القصـة بعد الأخـرى عن المستـر مـاكنـلي وزوجتـه اللعـوب، هيلين، والانكليـز الآخرين، الـذين كانـوا يعملـون في منطقة بابا كركر في شركة النفط في كركوك. وكانت تعرف أن كل انكليـزي يلقّب بكلمة صـاحب، وأن الشركة هي ملكهم، وكـانـا يضحكان كثيراً وهو يروي لهـا كيف أن النساء الانكليـزيات لا يخجلن من عرض أجسادهن العارية أمـام العمال، وكيف أنهن يتقافزن بالفانيلـة والبنطلون القصـير إلى جانب أزواجهن ذوي القرون، الذين يتباهون بـزوجاتهم. بـل إنه اكتشف أن لـزوجة الصاحب أكثر من عشيق إنكليزي، كما كان مطلّعاً عـلى علاقـة الصاحب مع ابنة خمو، وهو آشوري، يعمـل في الشركة بـدرجة فص كلاص(*)؛ والأكثر من ذلك، أن والدهـا كان يشجعهـا على الاستمـرار في علاقتهـا به. أمـا الصاحب وزوجتـه، فلم يكونـا يحاولان حتى التستر على علاقـاتهما أمـامه، كمـا لو أن الأمـر طبيعي جداً، بل إن زوجة الصاحب البرونزيـة الجميلة، كـانت تخـرج من عنـد عشـاقهـا، وتستقـل السيـارة التي تكـون في انتظارها، كما لو أنهـا عائـدة من الصلاة. وذات مـرة، عندمـا

(*) فص كلاص: مأخوذة عن عبارة First Class الانكليزية والتي كـانت تشكل درجة متقدمة بين عمال شركة النفط.

كانوا في الحبانية، على ضفة البحيرة، تعرت هيلين حتى آخر قطعة ملابس. وإذ رأت حميداً يحدق في جسدها، بجنون واشتهاء وقد استولت عليه الدهشة، غمزت له، مبتسمة، بطرف عينها، قبل أن تنحدر في الماء. وكانت فاطمة كثيراً ما تداعبه ضاحكة: «ما الذي تريده أكثر من ذلك؟ إن الكثيرين مستعدون ليدفعوا من جيوبهم لقاء مثل هذا العمل الممتع». ولكن حميداً لم يكن ليجد، في الحقيقة، في عمله المتعة التي كانت تتصورها زوجته. فقد كان يرى نفسه، في أغلب الأحيان، مهاناً، وهو يجلس وراء مقود السيارة، ينتظر خروج هيلين من حفلة مضاجعة. وكانوا أحياناً يدعونه للدخول إلى البيت، مقدمين له الليمونادة، في غرفة الخدم، وليسمع بعد ذلك تأوهات سيدته على السرير في الغرفة الأخرى، مع عشيقها الذي تزوره. كان ذلك يدفعه إلى الجنون والهياج، دون أن يجرؤ حتى على الاحتجاج أو الرفض. وكان يأمل، بطريقة ما، أن تشتهيه ذات يوم، وتدعوه إلى مضاجعتها، ولكن ذلك اليوم لم يأت أبداً. وبعد حادث تعري المسز هيلين ماكنلي في الحبانية وغمزتها المتواطئة معه، ظل طيلة أكثر من شهر في حيرة من أمره، يرغب فيها، ولكن دون امتلاك الجرأة على كسر الحدود التي تفصله عنها، بل إن صورتها، وهي تقف عارية أمامه، لم تفارق رأسه؛ إذ كثيراً ما كان يفكر فيها وهو ينام مع زوجته. ولم يكن ذلك ليشكل، في نظره، انتقاصاً من حبه لزوجته، فهذه هي زوجته بعد كل شيء، أما المسز هيلين ماكنلي، فلم تكن أكثر من عاهرة، من حقه، كرجل، الحصول على فرصته معها. وكان متأكداً من أنه سوف يثبت لها في الفراش أنه أفضل من جميع عشاقها الآخرين، منتقماً بذلك لنفسه، وماحياً الإمتهان الذي كان يشعر به في كل مرة تصعد فيها إلى السيارة، قاصدة أحد عشاقها.

twitter @baghdad_library

لم يذهب حميد بعد ذلك أبداً إلى الشركة. وكان لا بد للسر من أن ينكشف في نهاية المطاف، على الرغم من أنه حاول تأجيله اليوم بعد الآخر. فقد عرف الناس في محلة جقور من العمال الآخرين، الذين يعملون في الشركة، أن حميداً قد فُصل من العمل، ولكنهم بدل أن يواسوه غرقوا في الضحك، وانتقلت قصته من فم إلى آخر، حتى عرفت بها المدينة كلها. ومنذ ذلك اليوم، حصل على لقب جديد، ظل مرتبطاً باسمه حتى النهاية؛ حتى لكأن هذا لقبه الحقيقي، ولم يعد حتى الأطفال الأبرياء ينادونه بغير هذا اللقب، الذي قَبِله هو الآخر في النهاية، وأضافه إلى اسمه: حميد نايلون.

والقصة، كما يرويها هؤلاء العمال، نقلاً عن عمال الشركة، هي أن حميداً، الذي كان يعمل سائقاً خاصاً عند المستر ماكنلي وزوجته، أراد أن يجرب حظه عند الزوجة وأن يكسب ودّها. فقد عاد ذات يوم من سفرة إلى أيج ثري والرطبة، وهو يحمل إليها هدية بسيطة، جورب نايلون. ولكن المسز ماكنلي، التي لم تكن لتعتبره أكثر من خادم لها، رمت الجورب في وجهه وطردته. وهناك من يقول إنها قد قبلت الهدية منه أولاً، ثم عندما سألته عن السبب، انحنى عليها، وأراد أن يقبلها، مقلداً في ذلك بعض مشاهد الأفلام، التي كان قد رآها. عند ذاك، صفعته على وجهه، صارخة ومتهمة إياه بمحاولة اغتصابها. وكان هناك آخرون ادعوا بأنها كانت تنام معه، غير أنها ملّت منه بعد مدة؛ ولذلك، اتخذت من جورب النايلون ذريعة لطرده. وزعمت نساء المحلة أنه كان صديقاً للمرأة الانكليزية، وأنه قد أهداها بالفعل جورب نايلون، إلا أن زوجها، الذي كان يشك في الأمر، اتخذ من هذا الجورب ذريعة لإبعاده عن زوجته، ففصله من العمل.

ظل حميد نايلون صامتاً أياماً عدة، يرفض أي كلام عن الحادث، ولكنه بعد أن استعاد توازنه مرة أخرى قال جملة واحدة فقط، واكتفى بذلك: «لا شيء صحيح في كل هذه القصص سوى جورب النايلون».

وعلى الرغم من أن الناس في محلة جقور اعتبروا فصله من الشركة أمراً طبيعياً، لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً ضده، فقد حاول بعض عمال الشركة ومعظم شبان المحلة، الذين كانوا يتدربون كل يوم في الزورخانة، التي حفروها في الخرابة الواقعة إزاء البيت، الذي كان حميد نايلون يسكن فيه، تحريض الناس في المحلة ضد شركة النفط، بل إن إمام محلة جقور ذكر في مجلسه، الذي كان ينعقد تلقائياً كل يوم في الجامع، بعد صلاة العشاء: «لقد قطع الانكليز رزق واحد من شبان محلتنا، بسبب جورب نايلون، وهذا أمر لا يمكن أن يقبل به الله أو نبيه». وقد بلغت الحمية ببعض النساء أن شتمن باعة النفط الفقراء وغافلنهم، فاتحات صنابير براميل النفط، التي كانت تجرها الحمير، وتركن النفط يتدفق في الشارع، قائلات للباعة، الذين لم يفهموا حقيقة الأمر حتى النهاية؟: «اذهبوا وافتحوا صنابير نفطكم في فرج الانكليزية». وتدخل عقلاء المحلة مرة أخرى: «ما ذنب هؤلاء الفقراء؟» ولم تكن عوائل عمال الشركة لتريد، بالتأكيد، أن تفقد امتياز شراء النفط بأسعار مخفضة، عن طريق كوبونات، تباع للعمال. والأكثر من ذلك، أن النقابة السرية، التي كانت قد نشطت بين عمال النفط، وزعت منشوراً ضد فصل حميد نايلون، مطالبة بإعادته إلى العمل، ولكن أحداً في محلة جقور لم يطّلع على هذا المنشور، وكان هذا أفضل؛ فلو شعر الناس أن القضية سياسية، لخافوا بالتأكيد. وإذا كانت

twitter @baghdad_library

محلة جقور لم تشترك في تاريخها، الذي يمتد إلى مئة عام على الأقل، في أية مظاهرة احتجاج، فإن العديدين فيها كانوا قد سمعوا بالمظاهرات، بل إن بعضهم كان قد شاهد المظاهرة التي مرت بالسوق الكبير، قبل شهور. وكان هناك أيضاً بعض القصابين الذين ساعدوا الشرطة في الهجوم على المتظاهرين وضربهم، بعد أن قيل لهم إن هؤلاء المتظاهرين يطالبون بإباحة النساء، مرة في الأسبوع، كل يوم جمعة.

وهكذا، تقرر بعد شهر من فصل حميد نايلون من عمله، أن تخرج المحلة، ذات يوم جمعة، في مظاهرة؛ تطالب بإعادة ابنها المطرود إلى عمله في الشركة. وقد تحمس الجميع للفكرة، بعد مناقشتها طويلاً في المقاهي، التي كانت تتحول إلى ندوات مفتوحة، عصر كل يوم. وتحول الأمر إلى ما يشبه الواجب الديني، عندما قال الملاّ زين العابدين القادري إن المسلمين كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وعلى أثر ذلك، قام نقّاش عجوز، اشتهر بحفر خطوط شواهد القبور على المرمر، بخط اللافتات التي ابتكر نصوصها بنفسه.

ذات يوم، بعد صلاة الجمعة، خرج الموكب الذي انضم إليه الأطفال والنساء. وكان الرياضيون من أبناء محلة جقور، وقد انضم إليهم رياضيو المحلات الأخرى، يحملون لافتات، كتبت عليها، بمختلف الخطوط؛ الرقعي والفارسي والكوفي: «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله» و«بسم الله الرحمن الرحيم»و«لك يوم يا غادر» و«حميد نايلون مظلوم» و«حميد نايلون صاحب عائلة والرزق على الله» و«يعيش حميد نايلون». وكانت ترتفع إلى جانب هذه اللافتات، رايات خضر، جلبوها من المساجد، تنتهي

رؤوس مساندها بنقوش: «الله» و«محمد» و«علي». وإذ رأى الأطفال ذلك، هرعوا إلى بيوتهم، وجلبوا أية خرقة وجدوها، وربطوها بأعواد، راحوا يهزونها، متقافزين داخل الحشد وأمامه. وأخرج دراويش المحلة سيوفهم وحرابهم، وراحوا يلوّحون بها، منتشين بالزغاريد، التي تطلقها النساء بين حين وآخر، وهتافات: «الله أكبر». وكان ثمة ثلاثة أو أربعة أيضاً، من بينهم اللص محمود العربي؛ الذي كان يسطو على البيوت ليلاً، خارج محلة جقور، بالطبع، قد ذهبوا وجلبوا مسدساتهم، بسبب شعورهم بالمسؤولية تجاه أبناء محلتهم، وراحوا يطلقون النار في الهواء. ولكن إمام الجامع نهاهم عن ذلك، فكفّوا عن إطلاق الرصاص، وإن ظلوا حاملين مسدساتهم في أيديهم. وكان الكثيرون من الأولاد قد لطّخوا وجوههم بالسخام، حتى بدوا أشبه بالعبيد أو بالعفاريت، في حين ارتدى آخرون رؤوس ماعز، مربوطة بجلود تنحدر حتى أقدامهم، طاعنين الهواء بقرونهم، بينما كان بعض الشيوخ يسكبون، من قارورات برونزية صغيرة، ماء الورد على المحتشدين. وحمل آخرون في أيديهم صور الحسن والحسين والقديس الذي يقتل التنين والملك الطفل فيصل الثاني والملك غازي وكمال أتاتورك، بل وحتى صورة ابنة التبان، التي جيء بها وهي داخل إطارها من مقهى في السوق الكبير.

وأخيراً، انطلقت المظاهرة. ولكن إلى أين؟ لم يكن أحد يعرف ذلك. اخترقت المظاهرة محلة جقور، ذهاباً وإياباً، داخلة كل الأزقة وخارجة منها، وتوهّمت النساء، اللواتي كنّ يتفرّجن من السطوح، أنها موكب دعاء لاستجلاب المطر، بسبب الوجوه المصبوغة بالسخام ورؤوس الماعز، فرُحن يسكبن الماء فوق

twitter @baghdad_library

رؤوس المتظاهرين، كبشارة خير. وبعد ذهاب وإياب، في المحلة، صاح أحد الأشخاص: «لنذهب إلى الشركة ونعرض مظالمنا». ونادى آخر: «بل لنذهب إلى القشلة ونعرض الأمر على الحكومة». ولكن الملاّ زين العابدين القادري، إمام الجامع، الذي كان يسير في المقدمة، وإلى جانبه شيوخ المحلة، وقف وألقى خطبة، ظل الجميع يتذكرونها فترة طويلة من الزمن. قال: «ليس من المعقول أن نسير من هنا حتى الشركة في بابا كركر، لنقدم التماسنا إلى الانكليزي وزوجته المستهترة، التي هي من أهل الكتاب. إذ أننا سوف نموت قبل ذلك من التعب في الطريق. والأكثر من ذلك، أن الله ورسوله ينهيان المسلمين عن إحناء رؤوسهم للكفار. فإذا ما ذهبنا إلى هناك، توجب علينا أن نقدم آيات الخضوع والطاعة، ونطلب الرحمة من قحبة وبعلها القوّاد. وهذا أمر لا يليق بكرامة محلة جقور. وقد سمعتُ آخرين يطلبون منا التوجه إلى القشلة أو السراي. ولكن ما علاقة الحكومة بفصل حميد نايلون من عمله؟ ان الذين فصلوه من العمل هم من الإنكليز، وليسوا من أبناء جلدتنا. الشيوعيون الحمر، وحدهم، يشاكسون الشرطة والحكومة، والحمد لله أننا لسنا شيوعيين أو موسكوفا». وعندما بلغ الإمام زين العابدين القادري هذا الحد من كلامه، ارتفعت من بين المحتشدين المتحمسين أصوات متسائلة: «ماذا نفعل إذاً؟» وأعطى الإمام جوابه بسرعة، وسط الصمت العميق الذي خيم على المكان، وكان جوابه حاسماً ومفحماً هذه المرة: «سوف نقصد الله». ولم يفهم الجمهور تماماً معنى هذه العبارة، ذات الجلال. ولذلك، واصل كلامه قائلاً: «صحيح أن حميد نايلون طرد من العمل، ولكن البلاء هو أكثر من ذلك. فنحن جميعاً مهددون بالقحط؛ إذ لم تسقط قطرة مطر واحدة حتى الآن.

وإذا لم يرحمنا الله، ويدفع بغيومه فوق مدينة كركوك، فسوف نتضوّر جوعاً. فلنذهب جميعاً إلى برية المصلّى، ونبتهل بالدعاء إلى الله ورسوله، من أجل هبوط المطر وحلول الخير والبركة على الجميع».

وهكذا، توجه الناس، وسط قرع الطبول ونقر الدفوف، حاملين راياتهم الخضر ولافتاتهم المطالبة بإنصاف حميد نايلون، إلى ساحة المصلّى التي عبروها إلى المقبرة المفتوحة، التي تختبىء بين صخورها الهداهد والقبّرات التي جفلت فراحت تحلق في الجو، حتى انتهى الحشد البشري إلى البرية التي كان التركمان يطلقون عليها اسم «بيدي قزلر»، حيث توجد بقايا مطاحن حجرية مهجورة. وهناك، وقف الجميع بخشوع ومهابة في مواجهة الله، رافعين أيديهم إلى السماء في صلاة موحَّدة ودعاء من القلب، مصحوب بالدموع، من أجل هبوط المطر وإعادة حميد نايلون إلى عمله. لقد مكثوا هناك أكثر من ساعة، طالبين إلى الله أن يغسل الوجوه، الملطخة بالسخام، بالمطر الغزير. وفجأة، تلبدت السماء بغيوم سود، قادمة من الشرق، فارتفعت التهاليل، مكبرة رحمة الله وقدرته، شاكرة إياه على سماع نداء أبناء محلة جقور. وبالفعل، أرعدت السماء وأبرقت، وفاجأ المطر المتظاهرين المصلّين، الذين لم يفلحوا في بلوغ بيوتهم إلا بشق الأنفس، مبللين وغارقين في السيول التي اجتاحت المحلات كلها. لقد حدثت معجزة جعلتهم ينسون تماماً قصة حميد نايلون، الذي راح هو الآخر يشارك الآخرين ضحكهم على غرامياته مع المسز هيلين ماكنلي.

هذه المعجزة تركت آثاراً لا تمحى في ذاكرة الناس، بحيث أنهم ظلوا فترة طويلة يتناقشون ويتشاجرون حول صاحب

twitter @baghdad_library

الفضل في المعجزة، وعما إذا كان الله قد استجـاب لنداء أحـد ما بالذات أو لندائهم جميعاً. وقد تـوصلوا، بصـورة ما، إلى أن اللـه لا يمكن أن يكون قـد استجاب لـدعـاء أحـد من العـرب القـلائل الـذين شـاركـوا في مـوكبهم ذاك، فهؤلاء لا يغسلـون مؤخراتهم أبداً، فضلاً عن أنه قد كُتب عليهم أن يكونوا خونـة إلى أبد الآبدين، فقد ساعدوا الكفار الانكليـز، في حربهم ضـد العثمانيين المسلمين، وقاتلوا إخوانهم الأتـراك، دون أي اعتبار للدين الذي يـوحدهم. وكـان التركمـان يهينون العـرب، في أي شجار ينشب معهم، بالقـول: «خائن عـرب»، أو «هؤلاء العرب، ذوو المؤخـرات الملطخـة بـالخـراء»، حتى بـات الكثـيرون من الأطفـال العرب يتمنَّـون لو أن اللـه خلقهم تـركمـانـاً، بـل إن بعضهم كـان يشارك الأطفـال التركمـان حماستهم وتـأييـدهم لبعض الأحـزاب الموجـودة في تركيـا، والتي كـان العـديـد من الشبان التركمان يعتبرون أنفسهم من أنصارها. وكـانت صورة كمال أتاتورك، وهو ببذلته العسكرية ونياشينه ووجهه المائل إلى الاستطالة، معلقة على جـدران معظم البيوت، في حـين لم يجرؤ إلا العـرب عـلى تعليق صـورة الملـك أو الـوصي أو حتى الملكـة عـالية، التي كـان الكثيرون يكنّـون لها الـودّ، وبصورة خـاصة النساء، ربما لأنها كانت أرملة، أو ربما لأن الانكليـز هم الذين قتلوا زوجها الملك غازي، طبقاً للروايـات الشائعـة، انتقامـاً من إقـدامه عـلى ذبح الآشـوريين، الـذين أرادوا أن يشكلوا دولـة خاصة بهم في العراق، برئاسة مار شمعون، الـذي نجا بجلـده، هارباً إلى أميركا. وكانت النساء يـروين لأطفالهن، بـزهو، كيف خرج الناس في كركوك، ذات يوم، لاستقبال الجنـود المنتصرين العائدين ورجـال العشائـر المسلحين، وكـل منهم يحمل في يـده رأس آشـوري كافـر. وتقول النســاء إن عيـون هـذه الـرؤوس

المقطوعة، كانت من قلة الحياء، بحيث أنها ظلت تبحلق فيهن، ملقية نظرات وقحة عليهن، مما دفع الكثيرات منهن إلى إسدال الحجاب مرة أخرى فوق وجوههن، وهنّ يلْعنّ إبليس والآشوريين.

وهكذا، إذا كان قد جرى حذف فضل العرب في صنع هذه المعجزة، فإنه لم يكن هناك، بالطبع، أي موقع للأكراد في ادعاء مثل هذا الفضل. والحق، أن الأكراد أنفسهم، وهم عائلتان أو ثلاث عائلات طارئة على محلة جقور، نفوا أن يكونوا طرفاً في هذه القضية المتعلقة بالله.

ولم يكن بالإمكان، على أي حال، أن يدّعوا العكس، فقد كانوا من ضعف العقل، بحيث أنهم لم يكونوا ليفرّقوا بين الزبيب الأسود والخنفساء. كانت محلة جقور كلها تعرف أنه جرت دعوة عدد من الأكراد، ذات مرة، فوُضع أمامهم زبيب أسود مخلوط بالخنافس، فراحوا يقتنصون الخنافس الشاردة ويلتهمونها، قائلين لبعضهم: «كلوا الزبيب الهارب أولاً، أما الزبيب الآخر، فإنه باقٍ في مكانه». فهل كان يمكن لله أن يستجيب لدعاء مثل هؤلاء الحمقى؟ لم يكن الأمر ليستحق حتى المناقشة أو الخوض في تفاصيله.

كان من الواضح أن الله قد استجاب لدعاء التركمان قبل غيرهم. ولكن هل استجاب لدعائهم جميعاً أم لدعاء واحد أو اثنين فقط؟ على الرغم من أنه كان من الصعب إثبات مثل هذا الأمر المعقّد، فإن الآراء تضاربت تماماً. فقد ادّعى بعضهم أن هذه المعجزة هي من صنع المجنون دلي إحسان، الذي رفع يده إلى السماء، كما كان يفعل دائماً، وأمر الغيوم أن تمطر، فأمطرت. وكانت لهؤلاء حجتهم التي لا ترد. وهي أن دلي

twitter @baghdad_library

إحسان ليس من البشر، وإنما من الجان، الفصيلة المسلمة منها. ولم يكن هذا سراً، فقد كان الجميع يرونه كل يوم، وهو يقطع محلة جقور أو يتجول في السوق الكبير، يقف المرة تلو المرة ويصرخ في وجوه الجان، الذين كانوا، كما يبدو، يشاكسونه أو يزعجونه، ثم يواصل سيره ليلتفت مرة أخرى إلى الوراء ويشتم الفراغ. وكان في إمكانه أن يقف أمام أي حانوت ويأخذ ما يشاء، دون أن يطالبه أحد بدفع الثمن، ولكنه والحق يقال لم يكن ليأخذ سوى ما يحتاجه هو بالذات، برتقالة من هنا وتفاحة من هناك، وكان يجلس أحياناً في زاوية منفردة في المقهى ويحتسي «استكاناً» من الشاي الذي لا يدفع ثمنه، بالطبع، وينصت، بانتباه، إلى راوية المقهى، وهو يقص سيرة عنترة بن شداد أو سيف بن ذي يزن أو نوادر الملاّ نصر الدين، فيبتسم هازّاً رأسه، ثم يخرج إلى الشارع. وعند ذاك، يتمتم بعض رواد المقهى: «يا له من محظوظ، لقد نادته ملكة الجن إليها». وكانت قصة علاقته بالجن قد انكشفت قبل سنوات طويلة، وهي قصة كان يعرفها حتى الأطفال في محلة جقور. وحقيقة الأمر، هي أن الحاج أحمد الصابونجي، وهو تاجر جملة في سوق الحبوب، والأكثر غنى في المحلة، استيقظ ذات ليلة من نومه على صوت يكاد يكون غير بشري أمام غرفة نومه، فتناوم، مصغياً بكل حواسه إليه. كان ثمة من يهمس في الظلمة: «هارون، هارون هل أنت مستعد؟» كان السائل قطاً غريباً لا يعرفه. ثم رأى هارون، وهذا هو اسم قط البيت، يأتي إلى القط الآخر، ويحييه ثم يقول له: «لقد استعرت بعض ملابس سيدي لنا»، فيرد القط الثاني: «خشيت أن تكون قد نسيت أو استولى عليك النعاس فنمت» ويجيب هارون: «ليس في ليلة مثل هذه. كيف يمكن أن أنسى حفلتنا السنوية؟» وأخيراً

وثبا بهدوء فوق الجدار، منحدرين مرة أخرى إلى الشارع. واستبد الفضول بالحاج أحمد الصابونجي، فخرج هو الآخر إلى الشارع، متابعاً إياهما من بُعد. سار القطان، وكل منهما يحمل كيساً في عنقه، باتجاه السوق ثم انسلا يميناً في زقاق جانبي، وانتهيا إلى الشارع العام المحاذي للقلعة، مواصلين سيرهما البطيء والهادئ حتى حمّام النساء. وأمام باب الحمّام الجانبي، رأى قطه هارون والقط الآخر يتحولان إلى رجلين. فتحا كيسيهما، وارتديا الجلبابين اللذين جلباهما معهما، ثم دفعا الباب واختفيا في الداخل، حيث سمع الحاج للحظات صوت موسيقى عذبة، مسكرة، تأتي من فناء الحمّام. ودقّ قلبه بعنف، فقد ميز أحد الرجلين. كان هو بعينه: دلي إحسان. وتردد الحاج لحظات، لا يعرف ماذا يفعل: هل يدخل هو الآخر أم لا؟ كان خائفاً، ولكنه بسمل وقرأ آية الكرسي، ثم دفع الباب ودخل، مسلِّماً مصيره للقدر. وهناك رأى منظراً، لم تره عين بشرية من قبل، وسوف لن يرى الحاج أحمد الصابونجي مثيلاً له ما دام حياً. كان فناء الحمّام الذي تقصده زوجته مرة كل أسبوع مع الأطفال، حاملة معها «بقجتها»، قد تحول إلى قاعة هائلة من الزجاج الملون، تتدلى من سقفها ثريات ضخمة من اللآلئ وتحيط بها دكّات من الذهب الخالص، وقد نُقشت عليها كتابات سحرية، ما كان في إمكانه أن يفقه كلمة واحدة منها. وكانت طيور خضر وزرق وحمر وصفر وبيض تحلّق في أعلى القاعة، عازفة موسيقى، كأنها غناء أهل الجنة. وشمّ الحاج رائحة بخور مسْكرة، جعلته ينسى أنه في حمّام في كركوك، بل إنه نسي أنه موجود في العالم أصلاً. وقد أثار استغرابه، بصورة خاصة، وهو أمر لم يجد له تفسيراً أبداً، أن القاعة كانت تنفتح على ساحل بحر هائل، تقطعه سفن

twitter @baghdad_library

قادمة من بعيد، تقودها قطط من كل الأصناف تقفز إلى الساحل، حال وصول السفن والقوارب إليها، وتتحول إلى شبان وشابات، رائعي الحسن. كان يعرف، هو الذي أمضى حياته كلها في هذه المدينة، أنه ما من بحر في كركوك، ولم يكن خاصة صو، الذي يخترق البلدة، أكثر من نهر، غريب الأطوار، يجف تماماً في الصيف، ويتحول إلى نهر هائج، متدفق في الشتاء، يفيض، أحياناً، فيهدد محلة الجاي بالغرق. وكان هناك خلق كثير، يرتدون أفخر الثياب. وفي صدر القاعة، جلس الملك والملكة على عرش مرصّع بالدر والياقوت، يحيط بهما الوزراء والأعيان، ويقوم بالخدمة غلمان وجوار، يرتدون الحرير، ويقدمون الطعام والفواكه في أطباق من الذهبِ الخالص. وقد عرف الحاج أحمد أن هؤلاء كانوا من الجان المسلمين، وأن اسم ملكهم هو حرذوب، أما الملكة فكانت تُدعى مرجانة.

وكان الحاج أحمد الصابونجي، الذي بهرته الأضواء وجلال المكان، قد اندسّ بين الحاضرين، دون أن يشعر به أحد، ثم رأى قوماً يدبكون، مغنّين، فشاركهم الرقص حتى لا ينتبه أحد منهم إلى هذا البشري المندسّ بينهم. كانوا يغنّون جميعاً بصوت واحد، في دبكة تشبه السحر:

رأيُت حبي بعين قلبي
فقال: من أنت؟ قلت: أنتا
أنت الذي جزت كل حد
لمحو أين، فأين أنتا؟
فالآن لا أين منك أين
وليس أين بحيث أنتا
وليس للوهم عنك وهم
فيعلم الوهم أين أنتا

وكان الحاج أحمد الصابونجي نفسه يحفظ هذه الأبيات، المنقولة عن الحسين بن منصور الحلاج، فراح يرددها معهم. وقد عرف، من الحاضرين، أن هذا الشاعر، الذي صُلب على جذع نخلة في بغداد، لم يكن إنسياً، في الحقيقة، وإنما هو واحد من الجان الأتقياء. وكانوا يعزّونه كثيراً جداً، حتى أن مركزه كان يأتي تالياً لمركز الملك سليمان الحكيم، الذي يمتلك سلطة، لا حدود لها، على جميع طوائف الجن.

وفي غمرة الفرح الذي كان يعم الجميع، أراد الحاج أحمد الصابونجي أن يترك أثراً، لا يمكن الشك به فيما بعد. وهكذا، اقترب من هارون، الذي كان يرتدي جلبابه الكحلي، وأحرق كم الجلباب من الخلف بعقب سيجارته، محدثاً فيه ثقباً صغيراً، دون أن يشعر به. وأخيراً، وجد فرصة، انسل فيها مرة أخرى إلى الشارع، وهو في حيرة من أمره. وفي الطريق إلى البيت، في الظلام الذي كان يبدّده، بين مسافة وأخرى، مصباح واهن، صادف لصوصاً، يحملون أكياسهم على ظهورهم وحراساً ينفخون في صافراتهم بين حين وآخر، وسكارى يغنّون بأعلى أصواتهم، منفردين، أغاني خوريات(*)، فيردّ عليهم سكارى في شوارع أخرى بأغاني خوريات، تكون أجوبة على أغاني الخوريات التي كانوا قد سمعوها لتوّهم، منتظرين الجواب من جديد. ولكن الحاج أحمد الصابونجي كان غارقاً في عالم آخر. ولم يكن ليهمه أحد، لا اللصوص الخائفون، ولا الحراس

(*) الخوريات: «نوع من الشعر الشعبي ينظم على شكل رباعيات جناسية... والخوريات يتناقلها التركمان أباً عن جد ويمكن اعتبارها أساساً للشعر التركماني». عبد اللطيف بندر اوغلو: التركمان في عراق الثورة، بغداد، ١٩٧٣.

twitter @baghdad_library

الليليسون ولا حتى أغاني الخـوريات القـريبة من نفسـه. كـان يرتجف من الإثارة والرهبة حتى لكأنه نبي، هبط عليـه الوحي، إذ ما كاد يبلغ بيته، حتى اندّس في فراشـه، متأمـلاً في أحداث ليلته العجيبة. حاول أن ينام، ولكن دون جـدوى، فظل سـاهراً حتى الفجر، حيث سمع هـارون يثب مرة أخـرى على الجـدار، ويتسلـل إلى البيت، ثم يقـول، من ثقب البـاب، لـدلي إحسـان، الذي ظل، كما يبدو، في الشارع: «لقد كـانت ليلة طيّبـة، أليس كـذلك؟ وسمـع دلي إحسان يهمس: «طبعـاً، طبعاً، ثم يضيف: «مع السلامة». فيرد هارون بمودة: «ليكن النبي سليمان معك». لم يغلق الحـاج جفناً طيلـة الليل، ولم ينهض إلا لأداء صـلاة الفجر، حيث شاهـد هارون يتمطّى عنـد العتبة، وكـأن شيئاً لم يكن. تعمّد الحاج ارتداء جلبابه البني، حيث وجد الثقب الـذي كان قد أحدثه فيه بعقب سيجارتـه. إذ ذاك، التفت إلى هارون، وسط دهشة زوجته، وقال له: «هل رأيت يا هارون؟ لقد أحـرقت جلبابي. كان ينبغي أن تستأذن مني قبل ارتدائه». فهم هارون أن الحـاج قد اكتشف حقيقتـه. فخفض رأسه، وغـادر المنزل، حيث لم يره أحد بعد ذلك.

منـذ ذلك اليـوم، وبعد أن روى الحـاج أحمد الصـابونجي قصته هذه في المقهى، اكتسب دلي إحسان هالـة من القداسـة. صحيح أن عامة الناس، وبخاصة السذج منهم والأطفال، كانوا يهابونه، إلا أن عقلاء المحلة كانوا يعتبرونه هديـة الله وبـركته لهم، فهـو كجنّي مسلم في هيئة إنسـان، لا يمكن إلّا أن يحمـل الخير لهم. وكان المجنون، على عكس جميع المجانين الآخرين في المـدينة، أنيقـاً حتى الإفراط ونظيف المـلابس دائمـاً، يتصرف برصانة مثيرة للإعجاب، مـا عدا منـاجياتـه العلنية مـع الجن.

وبالطبع لم تكن عنده عصا، يتخذ منها دابة، كما يفعل المجانين الآخرون. والأكثر من ذلك، أنه ما من طفل كان يجرؤ على متابعته أو الركض وراءه، على كثرة امتلاء المحلة بالأطفال. وما من رجل كان يمكن أن يفكر، مجرد أن يفكر، في السخرية أو الهزء منه، لأن أمراً مثل هذا كان يمكن أن يكلّفه حياته.

لم يكن ثمة شك عند الناس بالأصل الحقيقي لدلي إحسان، بل إنهم توصلوا حتى إلى معرفة أصله في عائلة الجن. فقد كانت هناك أولاً قصة الحاج أحمد الصابونجي، الذي لم يكن لأحد أن يشك في تقواه ونزاهته وصدق أفعاله. ولكن هذا لم يكن سوى واحد من الأدلة. فقد اضطرت أمه وهي عجوز، تجاوز عمرها المئة عام إلى الاعتراف وسط إلحاح الجيران، بأن واحداً من ملوك الجان، يُدعى قمر الزمان، كان يعشقها ويزورها سراً في الليالي، وأنها قد تزوجته على سنة الله ونبيه محمد، فأنجبت منه إحسان الذي حاولت إخفاء حقيقته عن الجميع. وقد أُسِر بعلها، بعد ذلك، في إحدى حروبه ضد الجان اليهود، وهلك غماً وحزناً على فراق زوجته وابنه.

كان من الواضح أن المجنون، الذي لم يكن ليكلم أحداً، هو الذي صنع معجزة المطر الذي غمر كركوك فجأة. فمَنْ غيره يقدر أن يأمر السماء أن تغيم فتغيم والغيوم أن تمطر فتمطر؟ ولكن كان ثمة أيضاً، كالعادة، أناس يهوون المشاكسة وإطلاق الآراء المتطرفة على عواهنها. فقد ادّعى هؤلاء أن الأمطار قد هطلت بفضل حميد نايلون. فلولا طرده من الشركة والمظاهرة التي نظمت من أجله، وخروج محلة جقور، لما حدثت المعجزة. كان هذا الرأي يبدو منطقياً بعض الشيء، ولكنه لا يوضح المعجزة. وقد ردّ آخرون على هذا الرأي بالقول: «إذا أخذنا

twitter @baghdad_library

بهـذا المنطق، فينبغي أن نذهب إلى أبعـد من حميد نـايلـون». وكانوا يعنون، بذلك، السيدة الانكليزية اللعوب. فلولا مغامراتها مع الرجال وخفّتها، لما فُصل حميد نايلـون. وانتهوا إلى القـول: «هذا الرأي سيؤدي بنا إلى الكفر لا محالة».

وقد انزعج الملاّ زين العابدين القادري من هذه الآراء، التي اعتبـرها دخيلـة على الإسـلام ومضّرة، معلناً أنـه لا الجان ولا حميد نايلـون وراء هذه المعجـزة، وإنما اللـه الذي تقبـل رجاء المسلمـين، فجعل المطـر يهطل عليهم مـدراراً. والحق، أن هـذا الرأي بدا منطقياً تماماً، ولاقى قبولاً حسناً في قلوب أبناء محلة جقور، وخاصة أن حميد نايلون نفسه كان قـد سخِر من فكـرة كونه السبب في حدوث المعجزة، قائلاً: «لو كنت قادراً على صنع المعجزات لجعلت القحبة الانكليزية تنام معي». وكان يعني ذلك بالفعل.

ظـل المطر يهطـل ثلاثـة أيام متتـاليـة، دون انقطـاع، حتى امتلأت البيوت الواطئة بـالمياه، وانهـارت سقوف بيـوت كثيرة، وفاض نهر خاصة صـو، فأغـرق المحلات القـريبة، حتى بـات النـاس يصلّون، هـذه المرة، من أجـل توقف المطـر. أما حميـد نايلون فقد رفع، في اليوم الثالث من هـذا الذي سمـاه طوفـان نـوح، رأسه وألقى نظـرة إلى السمـاء، ثم قـال لـزوجتـه التي انتهزت الفرصـة وأمضت معظم وقتها معـه في الفراش: «يبـدو أن السماء ستبول كثيراً، بعد أشهر من الانقطاع»، فردت عليه زوجته فاطمة، بعصبية: «لا تكفر يا حميد، إنها معجـزة»، فقال حميد، ضاحكاً: «صحيح إنهـا معجزة، ولكن لا ينبغي للسمـاء أن تبالغ كثيراً». وظل حميد نايلون، خلال ذلك الفيض الذي لا ينقطع من المطر، سجيناً في الغرفتين العلويتـين، اللتين كـان قد

استأجرهما في منزل أخته نظيرة وزوجها القصاب المتجول، خضر موسى، اللذين كانا يعيشان في غرفة كبيرة في نهاية الفناء في الأسفل، مع بناتهما الثلاث، اللواتي كانت كبراهن في الخامسة، وصغراهن لم تكمل العام الأول من عمرها.

في تلك الأيام الممطرة، لم يهبط حميد نايلون إلى الغرفة الكبيرة سوى مرة واحدة، حيث جلس على بساط قرب منقلة فحم يغطي الرماد جمراتها، وأمامه صحن من التمر الأشرسي مع الجوز، آمراً أخته، بلهجة ودّية، أن تصبّ له «استكاناً» من الشاي؛ فيما جاءت الطفلة ليلى وجلست فوق ركبته. وبدا خضر موسى مهموماً: «كيف يمكن أن أبيع خرافي إذا ما استمر هذا المطر فترة أخرى من الزمن؟» مازحه حميد نايلون قائلاً: «اعتبر المطر إجازة يا رجل. فلوسك تكفيك ألف سنة». وضحك خضر موسى: «هذا ما تشيعه عني أختي قدرية، لعنة الله عليها، تقول إنني أضع الدنانير تحت فراشي وأنام عليها حتى تبدو مكوية». وردّ عليه حميد نايلون: «وماذا في ذلك؟ إنها دنانيرك، تفعل بها ما تشاء». ثم التزم الصمت، محدقاً في ضوء القنديل الواهن، في صناديق أبواب مزخرفة بألوان ذهبية وفضية، رُسمت عليها، باللونين الأحمر والأزرق، طواويس ذات ذيول متناسقة وأغصان تقف عليها قبّرات، وزهور على الحافات. قال خضر موسى: «لم يعد هناك عمل كثير في كركوك. القصابون هنا بعدد الرمل. سوف أنتقل إلى الحويجة، حيث لا يوجد حتى قصاب واحد هناك».

كان حميد نايلون يعرف ولع خضر موسى بالنقود وبخله، حتى أنه ما كان يجلس في المقهى إلا بين الحين والآخر، بل وبدا له أن قدرية محقة في ادعاءاتها. ولكنه لم يكن يعرف أن

twitter @baghdad_library

من يكوي الدنانير هو أخته نظيرة، التي كانت تكسب، أحياناً، أكثر من خضر موسى، متاجرة بالأقمشة والملابس النسائية، التي كانت تسافر وتشتريها من مدن أخرى، لم يصلها أحد، حتى ليقال إنها كانت تذهب إلى حلب؛ وهي مدينة كانت النساء تقول إنها تقع في سوريا أو لبنان، وتجلب معها الأقمشة الملونة والبلوزات الجميلة وصابون الرقى، «أبو الهيل» التي تبيعها لنساء المحلة والمحلات المجاورة بالدَّين، ولكن لقاء أسعار مرتفعة. والأكثر من ذلك، أن أمها هداية، وهي عجوز تسكن في محلة اليهود القريبة، كانت تمتهن حفّ وجوه النساء بالسبيداج، وممارسة السحر وقراءة البخت، بل ويقال إنه كان بمقدورها أن تحول الحجر إلى ذهب، بقراءة تعاويذ غامضة، تعلمتها من جيرانها اليهود. وكانتا تتعمدان دائماً، هي وابنتها نظيرة، تزيين كاحليهما المكتنزين بالخلاخل ومعصميهما بالأساور وعنقيهما بالليرات الرشادية المشدودة إلى سلاسل من ذهب.

ما كاد حميد نايلون ينتهي من احتساء «استكانه» الأول من الشاي، حتى لحقت به زوجته فاطمة، مدّعية الضجر لوجودها وحدها في البيت. ولكنها كانت، في حقيقة الأمر، تخشى أن تكيد لها نظيرة عند زوجها حميد. وكانت تعرف أيضاً أن خضر موسى الذي لا يستطيع معارضة زوجته نظيرة، سوف يشاركها هو الآخر الكيد لها. وملّ حميد نايلون الجلوس في الظلام الذي لم تكن تبدّده سوى شعلة قنديل زيتي، اتسخ زجاجه، فنهض وقال: «من الأفضل للمرء، في مثل هذا المطر والظلام، أن ينام». وتبعته زوجته. وهو على السلّم المؤدي إلى غرفتيهما، سمع ثغاء أحد خرفان خضر موسى، فقال ساخراً: «وعليكم السلام».

وحـذرته زوجتـه، وهي تصعد خلفـه، من السـلالم المتهـدمـة، فأجاب في الظلام: «إنني أحفظها عن ظهر قلب». وكانت فـاطمة فرحة بعودتهما مرة أخرى إلى غرفتيهما، فقد أصبح بعيـداً عن كيد أخته، وربما واتته الـرغبة أيضـاً لينام معهـا. ولكن حميد نايلون، الذي استلقى على ظهره فوق الفراش، لم يسمعها حتى عندما سألته إن كان يريد شرب الشاي، فقد كان يحلم، وكـان حلمـه يعبر محلـة جقور ومـدينة كـركوك إلى فضـاء واسـع، لا حدود له، فضاء غريب لم يكن قد رآه في حياته كلها.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

twitter @baghdad_library

ما كان لمحلة جقور في الحقيقة همّ آخر غير الفقر والعفاريت. فإذا كان الفقر قد دفع الكثيرين، وهؤلاء هم من العرب الطارئين. إلى أن يمتهنوا اللصوصية، ساطين على الدكاكين والبيوت في الليل، فإن العفاريت التي كانت تمتلىء بها المحلة، بسبب قربها من المقبرة، أرغمت الكثيرين أيضاً، وهؤلاء هم من التركمان على الأغلب، على أن يكونوا دراويش وسحرة، يكرسون الكثير من وقتهم، وهو مبذول دائماً، لمواجهة الأشباح، التي كانت قد اتخذت من محلة جقور موطناً لها. وقد استغرب الناس عندما قال لهم برهان عبد الله، وهو صبي في السابعة من عمره، ذات يوم، إن العفاريت تتبع الفقر، واللصوص يتبعون العفاريت. وعندما سألوه عن معنى ذلك لم يحرِ جواباً. فقد كان، هو نفسه، لا يعرف معنى تلك الجملة. وإذ أراد والده عبد الله علي، الذي كان عاملاً في شركة النفط، أن يعرف مصدر تلك الجملة وعما إذا كان الملاّ الذي يتعلم عنده تلاوة القرآن هو الذي علمه إياها، أصر الصبي بعناد: «بل حلمت بذلك في المنام». وروى قصة حلمه. كان يجلس فوق تلة تطل على محلة جقور، مراقباً في خوف العفاريت واللصوص، الذين كانوا يملأون المكان. كان يصرخ ولكن شيوخاً ثلاثة بلحىً طويلة

مصبوغة بالحناء، يـرتدون ثيـاباً بيضـاً جاؤوا إليـه، ووضعوا أكفهم فوق رأسه قائلين: «لا تخف يـا بني فإن العفـاريت تتبع الفقـر واللصوص يتبعـون العفاريت». ثم ركـزوا راية خضراء، حيث يجلس الصبي، وانصرفـوا. فـهـز والـد الصبي رأسـه متأملاً، وقال لزوجته قدرية: «أعتقد أن ابننا سيكون نبياً»، بيد أن المرأة اعترضت على رأي زوجها، مـوضحة أن الـراية تعني القيادة، وأنه سوف يصبح مفوضاً في الشرطـة. وطلب الأب من ابنه أن يكتم حلمه هذا، وألّا يرويه لأحد.

كانت قدرية موسى، في الحقيقـة، بكشفها عن أمنيتهـا في أن يكون ابنها مفوضاً في الشرطة، إنما تكشف عن حسـدها للنعيم الذي كان يرفل به بيت حسنية، بنت دفّان الموتى، فقد جاهـدت حتى أصبح ابنها مفوضاً. وهكذا بدأت قوارير الـزيت وأكياس الرز والحنطة وأقفاص الدجاج وسلال البيض تدخل بيتهـا كل يوم، كرشـاوى تقدم لابنهـا، يحملها شرطيـون يرتـدون بزاتهم الرسمية دائماً. بل والأكثر من ذلك، إن المفوض نجيب الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، كان يأتي دائماً داخل سيارة جيب تنقلـه حتى باب بيتـه، حيث يبادره كـل شرطي يلتقيـه في الطريق بأداء التحية العسكرية حتى إذا كان لا يعرفه. كل ذلك كان قد جعله موضـع حسد من الجميـع، بل ان قلـوب صبايـا المحلة كانت تخفق إذ يمر، فيتعمّدن النظر إلى الشارع أو رفـع الستارة، التي توضع عادة وراء بـاب البيت، آملات في أن تقـع عينه على إحداهن، فيرسل أمه لخطبتها.

ومهمـا يكن من أمر، فـإنه قـدِّر لتلك الجملـة، التي لم يكن الصبي برهان عبد الله يـدرك معناهـا في ذلك الـوقت، أن تترك آثارها على حياتـه اللاحقـة. صحيح أن الـرجال الثـلاثة، ذوي

twitter @baghdad_library

اللحى الطويلة والثياب البيض، قد قالوا له ذلك في منامه، ولكنه كان قد سمعه، قبل ذلك، في الوادي السحري الغارق في الضباب، والذي وجد نفسه فيه حالما فتح صندوق أجداده السري، الصندوق الخشبي الذي عثر عليه في زاوية منسية من البيت. كان الصبي، في الحقيقة، محتالاً كبيراً، بل انه كان يرى نفسه مفكراً، واستهواه ما قاله والده عنه من أنه سيكون نبياً. فقد كان يرى نفسه جديراً بالقيام بمثل هذه المهمة، بعد أن حفظ القرآن كله عن ظهر قلب، في شهور قليلة فقط. ومن خلال ذلك، من رؤيته للحروف واكتشاف علاقاتها بالألفاظ، تعلم القراءة والكتابة، دون أن يبوح بسرّه لأحد، وخاصة أنه ما كان في إمكان أحد من والديه أن يكتشف هذا السر، لأنهما ما كانا قد تعلما القراءة والكتابة أبداً. أما الملاّ زين العابدين القادري، فقد كان يقضي معظم وقته في وضع أرجل تلاميذه المشاغبين داخل الفلقة والضرب على باطنها بالعصا.

لقد وقع برهان عبد الله على ذلك الصندوق العجيب بالصدفة. كانت ثمة في البيت غرفة كبيرة بدَكّتين من المرمر، كالعادة، مع مدخل ترابي يُستخدم كمطبخ. وكان هذا المدخل الترابي يمتد مؤدياً إلى غرفة مظلمة، متآكلة، لا يدخلها الضوء، بمحاذاة الغرفة الكبيرة. كانت شيئاً يشبه المخزن المهجور، يكاد لا يدخله أحد لامتلائه بالعقارب. وفوق هذا المخزن المهجور، كانت تقع عِلِّيَّة مطلية بالجص، بكُوَّتين مربعتين صغيرتين مفتوحتين على الشارع، تؤدي إليها بضع درجات حجرية، متهدمة بعض الشيء. كانت العِلِّيَّة مهجورة هي الأخرى، على الرغم من دخول الضوء إليها أثناء النهار، ينتشر في جانب منها حطام أشياء غريبة ومهملات متروكة هناك من زمن بعيد، ربما

منذ قرن. ما كان أحد في البيت قد فكر في يوم من الأيام أن يمد يده إلى هذه الآثار المنسية. فقد كانت هناك، لا تضر ولا تنفع، وربما ما كان أحد ليريد أن يزيل عن الماضي غباره. والأكثر من ذلك أن هذا الجزء من البيت كان مرتعاً للجن، منسياً، حتى لكأنه لا يوجد أبداً.

ولكن الصبي، الذي ما كان قد رأى جنيّاً، تسلل ذات مرة، خلسة، صاعداً إلى العِلِّيَّة، لعله يلتقي هناك جنيَّ البيت الطيب، الذي كانت أمه قد حدثته عنه. فقد كان في كل بيت جنيٌّ طيب يحرسه. ورغم أن هذه المغامرة لم تكن تخلو من الخطر، فقد كانت للصبي أسباب عميقة دفعته إلى ذلك. كان قد قرر ألا يخاف عندما يظهر له الجنيُّ، بل عزم على أن يتحدث إليه، مثلما يتحدث مع أي شخص آخر. وحتى إذا ما أراد الجنيُّ أن يأخذه معه، فلن يأسف على نزهة يتوق إليها داخل عوالم الجن الغريبة، التي تتضمنها القصص التي كان والده يرويها له. ولكن برهان عبد الله كان يحمل، في الحقيقة، قائمة من الطلبات التي كان يريد أن يقدمها إلى جنيّ البيت الطيب، فالجن قادرون على كل شيء. وهكذا فكر أن يطلب من الجنيّ أن يحوّل أبواب محلة جقور كلها إلى ذهب، وأن يمسخ العجوز هداية بقرة، وأن يجلب له طاقية الإخفاء التي كان يحتاجها، لضرب بعض الأولاد الكبار.

ظل الصبي يجلس في ركن من العِلِّيَّة، اليوم بعد الآخر، منتظراً الجنيَّ الذي لم يظهر له أبداً، حتى انه شك في وجوده، ثم انتهى إلى الاقتناع بأن الجن يظهرون حيث لا ينتظرهم أحد. ولذلك، عمد إلى عدم انتظارهم، فراح ينقب هناك بين الآثار المهملة منذ قرون. ولدهشته عثر على صندوق خشبي

twitter @baghdad_library

صغير بلون القهوة، صندوق مغلق، حُفرت عليه نقوش وخطوط غامضة، تشبه التعاويذ والطلاسم، يغطيه الغبار، ويحيط به نسيج العنكبوت، فمسحه بطرف كم دشداشته، وجلس متكئاً على الجدار، يحدّق فيه مبهوراً. كانت الخطوط المنقوشة على الغلاف ذهبية، دقيقة وجميلة أشبه ما تكون بالخطوط القرآنية التي كان يعرفها. وقد حَسِب، للوهلة الأولى، أنه عثر على نسخة من القرآن داخل الصندوق، ولذلك قبّله ووضعه على جبينه. ولكنه ما كاد يفتح الصندوق حتى اهتزت الأرض اهتزازاً عظيماً، وبرق نور ساطع في العِلِّيَّة، جعله يتكوّم على نفسه، ثم اختفى كل شيء، ووجد نفسه مقذوفاً في الفراغ، فأغمض عينيه، ربما من المفاجأة. هناك سمع الرياح الأربع تهبّ من كل الجهات، ممتزجة بموسيقى عذبة. ثم هدأ كل شيء، ما عدا الموسيقى التي ظلت تُسمع من بعيد. عندما فتح الصبي عينيه مرة أخرى رأى نفسه جالساً في وادٍ معشب، وعلى مبعدة يقف رجل أعمى، عند صخرة، يعزف على نايه. وفي أسفل الوادي، رأى ثلاثة شيوخ يرتدون البياض، مثل ملائكة هبطت لتوّها من السماء، يتقدمون نحوه مبتسمين، متكئين على عصيٍّ يحملونها في أيديهم، وعلى أكتافهم أكياس تهتز، مع كل خطوة إلى الأمام.

هنا بالذات، وهو في الوادي، سمع أمه تناديه. ولكنه ظل ينتظر وصول الملائكة الثلاثة حتى ناداه أحدهم: «مرحباً بك يا برهان. لقد وصلت أخيراً».

فردّ برهان مضطرباً وهو يحدّق في الوادي: «وصلت؟ ولكن إلى أين؟» فأجابه الرجل الذي كان لا يزال يبتسم: «اذهب الآن فإن أمك تناديك».

سأل برهان عبد الله: «كيف أذهب وأنا معكم في هذا الوادي؟»

ـ «أغلق الصندوق مثلما فتحته. سنكون معك بعد الآن أبداً».

وبالفعل ما كاد الصبي يغلق الصندوق حتى وجد نفسه جالساً في العليّة، متكئاً على الجدار، فأسرع هابطاً السلالم، يملأ قلبه الضوء والرعد.

كان والده يشرب الشاي. سألته والدته: «اليوم هو الأربعاء، موعد استلام أسبوعية والدك. عمله يبدأ بعد الظهر، ونحن بحاجة إلى النقود. هل تذهب معه لتجلب النقود إلى البيت؟» كان يسر الصبي برهان عبد الله أن تُسند إليه مثل هذه الأعمال، وأن يُعامل كشخص يمكن الاعتماد عليه. وكان والده قد أخذه معه، فيما مضى، إلى هناك، واضعاً «مظروف» النقود في جيبه، وموصياً إياه بالانتباه حتى لا يضيع أو يُسرق منه، بل ان والده، الذي كان يفتخر بشطارة ابنه وقدرته على تلاوة القرآن وترتيله، كان قد أخذه معه، أكثر من مرة، إلى مكان عمله في بابا كركر، فاندهش كثيراً لرؤية الأنابيب البيضاء الضخمة والخزانات الكبيرة واللوحات الدائرية، ذات المؤشرات والتي تشبه الساعات، والنار المشتعلة والسماء الحمراء والرمل. وظلت في أنفه إلى الأبد تلك الرائحة التي لا تُنسى، رائحة النفط المخلوطة برائحة التراب.

ذهب برهان عبد الله مع والده، هذه المرة أيضاً، إلى ذلك المكان البعيد الذي تُعطى فيه النقود في «مظاريف» مغلقة، تحمل أسماء أصحابها. ذهب سائراً إلى جانب والده الذي كان يحمل معه دائماً «سفرطاساً» من الألمنيوم، ذا طبقتين، يوضع في الطبقة العليا منهما الرز المطبوخ وفي السفلى المرق. أما الملعقة، فكانت تدخل في مقبض على جانب «السفرطاس» بعد

twitter @baghdad_library

إغلاقه. وعاد بعد أن ودّعه والده بابتسامة، سائراً كذلك على قدميه. ولكنه قطع بعض الطريق متعلقاً من الخلف بدعامة عربة، يجرها حصانان. ولم يترك العربة إلا بعد أن شعر به الحوذي فهوى بسوطه نحو الخلف بطريقة عشوائية، أصاب بها كتفه التي آلمته. وعبر الجسر الحجري الممتد فوق نهر خاصة صو، حيث رأى، مقابل القلعة، وفي الجانب الجاف من النهر، رجالاً ونساء وأطفالاً كثيرين يقرفصون على الحصى، وإلى جانبهم أمتعتهم، يحيط بهم عدد من رجال الشرطة. كان من الواضح أنهم جميعاً من الأكراد. وكان ثمة ناس كثيرون قد اجتمعوا يحدّقون فيهم من بعيد، ضاحكين. وبين حين وآخر، كانت ترتفع صيحة من السجناء، باللغة الكردية، تعني: «الحق، الحق»، فيردّد الجمهور، بإيقاع يتفق مع الكلمة، باللغة الكردية أيضاً: «ضع يدك على المطرق».

وتناهى إلى سمع الصبي، من الناس الواقفين، أن هؤلاء يتبعون نبياً كردياً ظهر لتوّه، يبيح الزواج من الأخت والأم ونهب أموال الاغوات. ويبدو أن هذا النبي كان يرى أن كل شيء حق: الحياة، الموت، المرأة، الجنس، وحتى النجوم في السماء والحجارة فوق الأرض.

وبدل أن يشارك الصبي، برهان عبد الله، الجمهور الضاحك هتافه: «ضع يدك على المطرق»، شعر بالأسى والمودّة تجاه هؤلاء الغرباء، الذين ربما كانوا فعلاً على حق، إذ مَنْ يمكنه أن يثبت العكس، ولكن الصبي امتلأ، في الوقت نفسه، بالمرارة. كان، هو نفسه، يريد أن يكون نبياً، ولكن ها ان ثمة من سبقه. وقال في نفسه: «لا بأس، ما زال أمامي الكثير من الوقت لأكبر». وشعر بالجوع، فانحدر إلى اليمين على ضفة نهر

خاصه صو، باتجاه السوق الكبير، حيث رأى باعة الأطعمة يضعون قدورهم فوق الرصيف، فمدّ يده إلى جيبه وأخرج عشرة فلوس، كان والده قد أعطاه إياها، وطلب صحن ملفوف من رجل تركماني، يقال إنه أمضى عشرة أعوام في روسيا، كأسير حرب، حيث عمل خبازاً هناك، وجلس يأكل إلى جانب ثلاثة حمالين، كانوا يجلسون على المساند التي يضعونها على ظهورهم عندما يعملون. كان في إمكانه أن يدخل من هناك إلى السوق الكبير، الذي يؤدي به إلى القيصرية ومن ثم إلى محلة جقور، ولكنه بدل ذلك، اتجه إلى سوق الدواب، القريب، الواقع تجاه النهر، عند مدخل محلة الجاي. فقد كان يسره التفرج على الحمير والخيول والأغنام والأبقار التي تباع وتشترى هناك. ورأى حماراً صغيراً يقف في ركن من الميدان، وسط الضجيج والصراخ القادم من الزوايا، فاقترب منه ووضع يده على رأسه، ممسّداً شعره، ثم قال له بمودّة: «ها يا حمار، كيف أنت؟» واندهش الصبي برهان عبد الله عندما رأى الحمار يرفع رأسه ويقول له، هامساً وبمودّة أيضاً: «لقد أصبحت حماراً لأنني لم أذهب إلى المدرسة، فهل تريد أنت الآخر أن تصبح حماراً؟» فأطلق الصبي رجليه للريح، ولم يتوقف عن العدو حتى دخل البيت لاهثاً. وروى الحكاية لأمه، فضحكت مهدِّئة من روعه، وقالت له: «تقول إنك رجل وتخاف من مثل هذا الأمر!» ثم أضافت: «أنه لم يكن حماراً بالتأكيد. لا بد أنه جنيّ مرح أراد مداعبتك». وأخبرته أن ثمة من الجن من يهوى الدعابة والفكاهة وتدبير المقالب، وروت له القصة التي كان قد سمعها منها أكثر من مرة. كان والدها الغنام قد خرج ذات يوم، مبكراً عند الفجر مع أغنامه إلى المرعى، فرأى كبشاً غريباً بين أغنامه، فذهب إليه وراح يتحسس أسفل بطنه، على عادة

twitter @baghdad_library

الغنامين، غير أن الكبش أدار رأسه فجأة إليه، قائلاً له: «ها... هل أعجبتك خصيان عمك؟»، ففزع والدها، ولكنه تماسك، وقرأ آية الكرسي، فاختفى الجنيّ المرح الذي لم يكن يقصد بالتأكيد سوى الضحك والمداعبة، ربما من الملل أو الوحدة.

وفي اليوم التالي، أمسك والده بيده وقاده حتى مدرسة المصلّى الابتدائية للبنين، المواجهة للمقبرة، بعد أن اشترى له سروالاً رصاصياً قصيراً وقميصاً وحذاءً من حانوت كان يملكه أحد أقاربه في سوق القورية، قائلاً له: «إذا كان الحمار قد أراد ذلك فلن نرد طلبه». وشعرت أمه أن آمالها في أن يصبح ابنها مفوضاً قد بدأت تتحقق. وعلى الرغم من أن الصبي، الذي كان يرتدي السروال لأول مرة في حياته، وهو السروال الوحيد الذي ظل يرتديه حتى في الشتاء، مرتجفاً في البرد القارس، قد قوبل بالاستهزاء والسخرية من قبل الكثير من أطفال المحلة، الذين تراكضوا خلفه عند عودته من المدرسة، فإنه كان مزهواً بنفسه، وهو يحمل بيده الكتاب الذي أعطي له والدفاتر وأقلام الرصاص البرتقالية التي سحرته رائحتها، حتى أنه لم يلتفت إلى الأطفال أو يشتمهم أو يتشاجر معهم. ومنذ ذلك اليوم، داخله شعور غامض بالقوة، وهو شعور لم يزايله بعد ذلك أبداً.

وقد أمضى فترة ما بعد الظهر كلها في البيت، متخلياً عن إغراء اللعب مع الأطفال في المحلة، بعد أن التهم رغيفاً حاراً أحرق أصابعه، أخرجته أمه لتوّها من التنور، الذي كان مشتجراً في الزاوية، وسط الحوش، قريباً من فسحة صغيرة، كان قد زرعها هو بنباتات عباد الشمس، ذات الورود الكبيرة. واستعاد في ذهنه الصور التي مرت به في الصباح في المدرسة. كان المدير قد قال لوالده الذي خاطبه بكلمة أفندي: «كان

ينبغي عليك أن تجلب ابنك مبكراً إلى المدرسة» فردّ عليه والده: «أفندي، كان الصغير عند الملاّ، وقد أردته أن يختم القرآن. أنت تعرف كم هو مهم ذلك!» وعند ذاك باغت الصبي المدير متحدياً: «أفندي، تستطيع أن تمتحنني، إنني أعرف القراءة». والتمعت عينا المدير. مد يده إلى كتاب ما على الطاولة، وفتحه على صفحة معينة، قائلاً: «حسناً، خذ إقرأ!» فقرأ الصبي جملاً عدة، بسهولة ويسْر. نادى المدير الفرّاش وقال له: «خذ هذا الصبي إلى الصف الأول ب. وقل للمعلم إنه تلميذ جديد!» وخرج حتى دون أن يقول شيئاً لوالده الذي كان يشكر المدير.

بعد عودة الصبي برهان عبد الله من المدرسة، قرأ الكتاب الذي كان المعلم قد أعطاه إياه حتى آخر صفحة فيه، وهو يسير جيئة وذهاباً في الحوض، ما بين باب الغرفة الكبيرة والبئر الواقعة في الجهة الأخرى، عند «طارمة» مفتوحة، تنتهي إلى غرفة أحدث بناء، كانت مؤجرة لرجل وزوجته، فاروق وكولبهار اللذين لم يكن قد مر على زواجهما أكثر من شهرين. وكانت كولبهار تقضي معظم نهاراتها في بيت أهلها في محلة بيريادي القريبة، حيث لا تعود إلا في المساء. أما فاروق فكان يخرج مبكراً في الصباح، ولا يعود إلا مع الظلام، حتى لكأنه ليس من سكان المنزل. وأخيراً، وقف برهان عبد الله عند فوهة البئر، التي كانت مسيجة بجدار يرتفع بحوالي متر عن الأرض، وضغط على البكرة العالية بعض الشيء، والمثبتة جانباً، ذراعاً فذراعاً، حيث كان الحبل، الذي ينتهي بدلو الماء، يلتف شيئاً فشيئاً وسط البكرة، ذات الأذرع، ويرتفع الدلو المليء بالماء قليلاً فقليلاً نحو الأعلى، خفيفاً في البدء ولكنه يثقُل كلما ارتفع عالياً. وكان الأكثر صعوبة هو التشبث باليد اليسرى بأحد

twitter @baghdad_library

أذرع البكرة وسحب دلو الماء إلى الخارج، عندما يكون قد بلـغ حافة الفوهة، باليد الأخرى، فقد كانت أمه تحذره من أن الدلو ثقيل، وقد يسحبه معه نحو القعر. ولكنه كان يفلح دائماً في جر الدلو إلى الخارج، متعمداً عدم جعله يمتـلىء بالمـاء كثيراً؛ حتى يسهل سحبه. سكب الماء البارد في «جردل» آخر، حملـه وسقى بـه حديقتـه الصغـيرة، فقـالت لـه أمـه: «لا تفـرط في السقي، فالنباتات لا تحتاج إلى الكثير من الماء في الشتاء». وإذ رأى أمه منهمكـة بعملها أمـام التنور، انسـل إلى العليّـة خِفْيـة، ليفتـح صندوقه المطل على وادي الملائكة.

ظـل مختبئاً هنـاك حتى العصر، ولم يهبط إلا عندمـا سمع، عبر الكوتين المفتوحتين على الشارع، هرج الأطفال وهم يلعبون في المحلة، حيث اشترك مع ثلاثة أطفال آخـرين في لعبة، كـانوا يسمونها لعبة اليهودي المخـدوع. كان أحـد الأطفال يجلب من البيت ورقـة نقديـة، دون علم أمه أو أهلـه بالطبـع. ثم يثقبون الـورقة من إحـدى حافـاتها، ويمـررون في الثقب خيطـاً رفيعـاً يواري بالتراب، ويمتد حتى مَكْمنهم. كانوا ينتظـرون حتى يروا يهودياً ما قادماً من بعيد، إذ ذاك، كانوا يتركون الورقة النقدية وسط الشـارع، ويختفـون في زاويـة مـا، عـارفـين أن اليهـود يسـيرون وعيونهم تبحث دائمـاً عن شيء مـا في الأرض، بحيث أنهم مـا كانـوا يرفعـونها إلى الأعـلى إلا لدعـاء الله أن ينـزل الخـراب وكل الكـوارث، المحتملة وغـير المحتملـة، بـالمسلمـين. وكانت عينا اليهودي تلتقطان، عادة، صورة الورقة النقـدية من بعيد، فتلتمعان سروراً وطمعـاً. ويسرع الخطى باتجـاه الورقـة النقدية المرمية، ملتفتاً يميناً وشمالاً، قبل أن ينحني لالتقـاطها. ولكن قبل أن تمس أصابعـه الورقـة، كان الأطفـال يسحبونهـا

ضاحكين، فيكتشف اليهودي المقلب، ويرفع يديه إلى السماء، حاثّاً الله على قتلهم، أو يغمغم بكلمات غامضة. أما إذا لم يحصلوا على ورقة نقدية، فإنهم كانوا يكتفون بصنع حفرة صغيرة وسط الشارع، يملأونها بالماء، ويغطونها بالتراب، آملين في أن يمر يهودي عائد من دكانه في السوق إلى بيته في محلة اليهود، ويغطس فيها. ولكن الكبار غالباً ما كانوا ينهرونهم لفعل ذلك، بل ويطاردونهم حتى أبواب بيوتهم، شاتمين. هذه المرة أيضاً، وضع الأطفال الورقة النقدية وسط الشارع، وانتظروا طويلاً، دون أن يمر أي يهودي. وأخيراً، يئس الأطفال من الإنتظار، فأخذوا الورقة وذهبوا إلى الخرابة، متفرجين على تمارين الأثقال، التي كان المصارعون الشبان يقومون بأدائها في حفرة «الزورخانة»، ثم وقفوا وراء صبيان كبار، كانوا يقامرون، لاعبين الواحد والعشرين، بالورق. ولكن أحدهم، وكان قد خسر بعض نقوده، طردهم: «هيا اذهبوا من هنا، إنني لا أطيق من يقف فوق رأسي». وعاد برهان عبد الله إلى البيت، حيث وجد والده وخاله خضر موسى وحميد نايلون يقفون أمام البيت، متحدثين فيما بينهم. ما كاد والده يراه حتى بادره: «ها... كيف كانت المدرسة؟» فأجاب الصبي باختصار: «جيدة». وقال عبد الله علي للرجلين الآخرين، مزهواً: «لقد دخل برهان المدرسة». فردّ خضر موسى: «لقد خسرته. كنت أريده أن يعمل معي». فقال الصبي، بامتعاض: «لست خروفاً عندك». فشتمه خاله، مداعباً، ولكن حميد نايلون ضحك قائلاً: «هذا الصبي يعجبني، إنه معتدّ بنفسه». أما الصبي فقد دخل البيت، وصعد مرة أخرى إلى العليّة، في ضوء المساء الواهن، الذي كان لا يزال يتسرب عبر الكوّتين. مرت أيام كثيرة على محلة جقور، دون أن يحدث فيها ما يشكل استثناءً كبيراً

twitter @baghdad_library

للقاعدة. كان كل شيء يحدث كما ينبغي له أن يحدث. كان الرجال يخرجون صباحاً إلى أعمالهم، وتحدث شجارات كثيرة بين النساء، بسبب الأطفال، وهي شجارات عادية، كان الرجال يحاولون ألا يتدخلوا فيها، رغم كلمات السباب الشديدة التي كانت النساء يطلقنها، وهنّ واقفات أمام أبواب بيوتهن، أو مطلات برؤوسهن من وراء ستائر أبوابهن. وكان يمر في المحلة كل يوم باعة ملح أعراب، يقودون حميرهم، وآخرون تركمان، بشوارب كثيفة، تغطي الفم، من قرية تسعين القريبة، يبيعون قناني ماء الورد. وكان الأطفال الذين تثيرهم شوارب هؤلاء يتبعونهم صائحين: «عمي، أين فمك؟» فيمدّ الواحد منهم يده إلى شاربه، ويزيحه بعيداً عن فمه، قائلاً: «وما هذا؟ أهو فرج أمك؟» وحداد وسكاكين، ينبعث الشرر من الدولاب الحجري الدائر لماكناتهم، حالما تمسه السكين، وتجار «خرداوات»، يشترون الحديد العتيق، وباعة قطع صغيرة من الثلج في الصيف. وبين حين وآخر، كان يأتي بدويون، شعراء ويجلسون أمام كل باب، ويعزفون على رباباتهم، منشدين القصيد في مدح رب البيت بالإسم، والذي يكونون قد عرفوه من الأطفال، قبل ذلك، ولا يغادرون مكانهم إلا إذا أثبت صاحب البيت كرمه معهم. وكان ثمة تركمان وأكراد يأتون مع قردتهم ودببتهم ويقدمون مشاهد تمثيلية في المحلة. كانت القردة تغمز النساء وتتحرش بهن، أما الدببة فكانت تقلد العجائز في مشيهن، بطريقة فكاهية، مثيرة الضحك. وكان الغجر الذين تشد نساؤهم رؤوسهن بمناديل حمر يطوفون المحلة، عارضين الغرابيل للبيع، فيما كانت النساء يوصين أطفالهن بالابتعاد عنهم، لأنهم لا يتوانَوْن عن خطف الأطفال، وخاصة البنات منهن، ليعلموهن الرقص والغناء في خيامهم، التي كانوا

ينصبونها في السهول على أطراف المدينة. ومن بين هؤلاء جميعاً، كان ظهور حنا المسيحي، مأمور قتل الكلاب السائبة، يثير ضجة كبيرة في المحلة، وهو يطارد هذا الكلب أو ذاك ببندقيته، التي كان يحملها دائماً على كتفه. ذات مرة، خرجت محلة جقور، كلها تقريباً، في المساء إلى ميدان المصلّى، حيث وقفت سيارة كبيرة، كُتب على جانبها، بالعربية: «الاستعلامات البريطانية»، ووضعت قماشة بيضاء على جدار المدرسة، جلس أمامها، على الأرض في الهواء الطلق، المئات من الرجال والنساء والأطفال، الذين جاؤوا من المحلات القريبة ليشاهدوا فيلماً عن الحرب. كان الفيلم نشرة إخبارية قديمة لوزارة الحرب البريطانية، عن ظفر الحلفاء في معاركهم ضد ألمانيا ودول المحور. وقد أثار مشهد الدبابات والطائرات وهي تقصف، الكثير من الناس، خاصة النساء، اللواتي كان بعضهن يرتجف من الخوف. وعلى الرغم من أن الحرب كانت قد انتهت منذ زمن، فإن الناس عادوا إلى بيوتهم، وعلى ثغورهم بسمات السخرية والاستهزاء: «دعاية انكليزية»، معتقدين أن جيوش هتلر ما زالت تُنزل الخسائر بالانكليز وتتعقبهم، وكان ثمة من يؤكد أن يونس بحري(*) قد أذاع، هذا اليوم بالذات، من إذاعة «هنا برلين»، أن الإنكليز قد خسروا الحرب.

وفي مرة أخرى، جاء المختار سلمان، الذي كان يسكن في محلة العرب، مع ثلاثة شرطيين ومفوض، في سيارة جيب، توقفت أمام المنزل الذي يسكن فيه حميد نايلون وفتشوا الغرفتين الواقعتين فوق المدخل، دون أن يعثروا على أي شيء،

(*) يونس بحري: صحافي عراقي، عمل في إذاعة برلين العربية أثناء الحكم النازي. توفي في بغداد في أوائل الثمانينات.

twitter @baghdad_library

ولكنهم اصطحبوا حميد نايلون معهم إلى المخفر، فيما ظلت زوجته فاطمة تبكي وتنتحب، لا تعرف ماذا تفعل. ولكن جارتها قدرية جاءت إليها، وأخذتها معها إلى البيت، محاولة تهدئتها. واجتمعت نساء كثيرات من المحلة، وقد أفزعهن ذلك.

وانتشرت في المحلة شائعة تقول إن حميد نايلون، يتاجر بالأسلحة. لكن الكثيرين استسخفوا ذلك، مؤكدين أن الأمر لا بد أن يكون متعلقاً بالمرأة الانكليزية اللعوب. واستبعد آخرون هذا الاحتمال، بعد أن مرت على الحادث شهور عديدة. كما همس ثلاثة أو أربعة منهم: «ربما كان شيوعياً، من يدري؟» ولكنهم سرعان ما استبعدوا هذا الخاطر من رؤوسهم: «لا، لا، إنه أعقل من أن يكون بلشفياً». وكانوا على حق. فقد عاد حميد نايلون في مساء اليوم نفسه، وهو يشتم الانكليز كلهم على وجه البسيطة. أحد ما كان قد أطلق بضع رصاصات... على الحي الانكليزي المشجر في شركة النفط من وراء السياج، مما جعل شرطة الشركة تتحرّى وتحقق مع كل من يخطر على بالها، ولكن دون تأكد.

بعد أسبوعين أو ثلاثة من هذه الواقعة، أخذ خضر موسى زوجته وبناته الثلاث معه إلى الحويجة، ليعمل قصاباً هناك، فراحت أخته قدرية تغتابه مع زوجها عبد الله علي، قائلة إنه هرب من الخوف إلى هناك، بعد أن رأى الشرطة تقتاد حميد نايلون إلى المخفر، وهو أمر غير صحيح بالتأكيد. فقد كان خضر موسى، الذي لا يعرف معنى للعالم غير جمع النقود، قد خطط، منذ شهور، لهذا المشروع الذي كان يعتقد أنه سيجلب له الغنى والثروة، لم يفتقد أحد، بالتأكيد، خضر موسى وزوجته نظيرة، ولكن انتقال العجوز هداية إلى البيت الذي تركاه خالياً

جعل الكثيرين يتشاءمون، مستعيذين من شر الساحرات الماكرات، ومن ضمنهم فاطمة، التي كانت مضطرة للسكن معها في بيت واحد.

وبالفعل، ما كادت هذه العجوز تنتقل من محلة اليهود إلى محلة جقور، حتى انتقلت اللعنة معها. فقد أصبح الرجال يضربون نساءهم، كما لم يضربوهن من قبل، بل وحدثت شجارات كثيرة بين الرجال أنفسهم، دون أسباب معقولة. وأصيب كثير من الأطفال بالتيفوئيد والملاريا والتراخوما. وفقد آخرون أعمالهم. وارتفعت الأسعار، وازداد الناس فقراً، بحيث أنهم استبدلوا أرغفة الحنطة بأرغفة الشعير وقنانيد السكر الأبيض التي كانت تكسر إلى قطع صغيرة، يتذوقها المرء ممسكاً بها بين إبهامه وسبابته وهو يحتسي الشاي، بالسكر الأصفر الغامق، وأخيراً بالتمر. ولكن الأسوأ، ما كان قد حدث بعد؛ فقد افتتحت الحكومة، لأول مرة في تاريخ المدينة، ملهى في شارع الأوقاف، ملأته بالراقصات والمطربات اللواتي كانت نساء المحلة يسمينهن القِحاب في كل حديث يدور بينهن حول هذا الوباء الجديد، الذي استقطب الكثيرين من شبان المحلة. كانوا يسطون على آخر فلس في البيت، بل ويبيعون كل ما تصل إليه أيديهم، على الرغم من احتجاجات النساء اللواتي كن يعقلن بعد ضربهن، ليقصدوا «ملهى الهناء»، على أمل أن تبتسم لهم هذه الراقصة أو تلك. كانوا يكتفون، بالطبع، بشرب قنينة أو قنينتين من البيرة، إذا ما كان في إمكانهم مجاراة الشيوخ من رؤساء العشائر، الذين كانوا يقدّمون للراقصات الويسكي ويشعلون لهن سجائرهن بأنواط الخمسة دنانير، كما كان يروى في محلة جقور، التي كانت تتضور جوعاً.

twitter @baghdad_library

وذات ليلـة، في الصيف، استيقظت المحلـة كلهـا من النـوم. بعضهم اكتفى بالوقوف عند حواجز السطوح ومشاهـدة المنظر من هناك، متحدثين إلى هذا وذاك في الشارع بصوت عال، بينما غـادر الكثـيرون أفـرشتهم. وحتى النسـاء خـرجن من الكلـل البيضاء المنصوبـة فوق السطـوح، ورحن يتحدثن إلى بعضهن الآخر: «هذا ما كنا نتوقعه». كان الجميع يغطون في نومهم فوق السطوح المفتوحة على سمـاء مغطاة بـالنجوم، تعبـرها الشهب المحتـرقـة بين فتـرة وأخـرى، تاركـة وراءهـا ذيـولاً طويلة من الضـوء، عنـدمـا سمعوا عويلاً حاداً في الليل، قادماً من الزقاق المغلق الـذي يلي الجـامع، وأعقبت العـويـل ضجـة وصرخـات شديدة وإطلاق رصاص. اعتقـد البعض، في البدايـة، أن الأمر قـد يكون متعلقـاً بصدام مـع اللصـوص، ولكن مـرأى وقـوف سيـارة شرطة عنـد مدخـل الزقـاق أبعد مثـل هذا الاحتمـال، فالشرطة لا تهتم كثيـراً بما يفعلـه اللصوص، وهي لا يمكن أن تأتي حتى محلة جقور لمطاردة اللصوص. والأكثر من ذلـك، أن الجميع كانوا يعرفون أن الشرطة تحصل دائماً على حصتها من كل سرقة تحدث. كان الأمر يتعلق إذن بشيء آخر، لا علاقة لـه باللصوص. وهكـذا كان الأمـر، فقد ألقت الشرطـة القبض على عبـاس بهلوان، الـذي كان يملـك دكانـاً لتصليح السيـارات في كـراج الرافـدين، والذي لم يكن يـأكـل «التمن» إلا بعـد صب العرق فوقه، كما تقول النساء، وهو أمر فيه الكثير من المبـالغة، إذ كل ما في الأمر أنه كـان يسكب قليلاً من العـرق في الحساء الذي يؤكل عادة مع «التمن» لا لكي يسكر، كما كـان يقول هـو نفسه، وإنما لأجل النكهة. وهكذا اقتيد عباس بهلوان، مغلـولاً، بعد أن اضطر رجـال الشرطة إلى مطـاردته من سطـح إلى آخر وإطـلاق الرصـاص لتخويفـه. وقد استسلم أخيـراً، فقد كـان

مخموراً إلى حد أنه شتم الحكومة أمام جمهور محلة جقور: «هذه حكومة خرائية، تحمي القِحاب». ولكن دون أن يأبه أحد لكلماته.

لم يحتج أحد من الناس في محلة جقور، هذه المرة، على هذا التدخل الفظّ من قبل الشرطة؛ فقد كان الأمر أكبر من أن يعترض عليه أحد. عرف الناس كلهم، في لحظات، بالقصة، وهزوا رؤوسهم قائلين: «لقد كنا نتوقع ذلك». وسواء كانوا قد توقعوا ذلك أم لا، فقد قتل عباس بهلوان، الذي كان يقصد كل ليلة تقريباً «ملهى الهناء»، ليرى الراقصة كواكب، التي كان يعشقها وينفق عليها كل ما يحصل عليه خلال عمله في النهار. ويبدو أنه في تلك الليلة، كان قد اصطحب معه اثنين آخرين من أصدقائه، متباهياً أمامهما بأنها لا تحب أحداً سواه. ولكن لسوء الحظ، كانت قد وقعت، في تلك الليلة بالذات، على صيد أفضل منه. دعاها في البداية إلى مائدتهم بكل أدب، ولكنها رفضت لانشغالها مع بعض الأغوات الأكراد. عاد وجلس، متجنباً النظر في عيون صديقيه اللذين راحا يسخران من ادعاءاته ضاحكين. شرب وشرب فزاد حزناً وثملاً. كان صديقاه يضحكان هازلين، وهما يحدّقان بكواكب، معشوقة عباس بهلوان، تتنقل من حضن آغا إلى حضن آغا آخر. ولم يعد في إمكان عباس بهلوان تحمل وطأة عذابه أكثر من ذلك. نهض واتجه إلى مائدة الأغوات ووقف يحدّق في كواكب. سأل أحد الأغوات الثلاثة، باللغة الكردية: «ما الذي يريده هذا الرجل؟» فأجابه أحد صاحبيه: «دعه، يبدو أنه مغرم بالقحبة». وانتبهت الراقصة كواكب إليه، وهو يقف، محدّقاً فيها بغضب، فقالت له: «هيا انصرف عن وجهي، ولا تكن حماراً»، ففتح فمه، بصعوبة: «يا لك من قحبة». ولكنها بدل أن تسكت أو أن

twitter @baghdad_library

تداريه، بصقت في وجهه: «أمك هي القحبة». كان ذلك أكثر مما يمكن أن يحتمله، هو المعتدّ بنفسه حتى الغرور. وفجأة، رأى يده تمتد إلى مسدسه الصغير، الذي كان قد اشتراه قبل أربعة أعوام من جندي بولندي، عسكرت وحدته الانكليزية، فترة من الزمن، داخل خيام، على مقربة من محطة قطار كركوك، وترفعه باتجاه كواكب التي بوغتت بالحركة، فظلت تحدّق فيه مشدوهة. وضغط باصبعه على الزناد، فانطلقت رصاصة، ثم رصاصة ثانية وثالثة. واستيقظ، ربما بسبب الدم الذي انبثق، فشعر بنثاره على كفه. فرمى المسدس على الأرض، واندفع خارجاً، ناسياً حتى صديقيه.

ومع موت الراقصة كواكب، مات ملهى الهناء أيضاً. فقد أصدر المتصرف أحمد سليمان، الذي كان قد استلم منصبه قبل فترة قصيرة جداً، أوامره بإبقاء أبواب الملهى مغلقة، مؤقتاً على الأقل. ولكن عندما أراد أصحاب الملهى، بعد أسبوع من ذلك، وبعد دفع رشاوى لمدير الشرطة، وبعد جهود خاصة بذلتها فنانات الملهى عند مسؤولي المدينة، فتح أبواب الملهى مرة أخرى، جمعت أم عباس بهلوان؛ وهي عجوز، كانت تعتقد أنه من غير الإنصاف أن يُسجن ابنها، لأنه قتل قحبة ما، نساء محلة جقور اللواتي انضمت إليهن نساء كثيرات، جئن حتى من المحلات البعيدة، في القلعة والقورية وشاطرلو وإمام قاسم وصاري كهية، وخرجن معولات إلى الشوارع وهنّ يصرخن: «ملهى العاهرات خرّب بيوتنا». وقد دلّهنّ بعض الصبيَة، الذين كانوا يتقافزون أمامهن كالشياطين، إلى حيث يقع الملهى في شارع الأوقاف. وفي الطريق أيضاً، انضم الكثير من الدراويش إليهن، حاملين شعارات: «القدس للمسلمين» و«تسقط الشيوعية» و«لا مكان لليهود في بلادنا». وقد أغاظ ذلك

الشيوعيين الذين بوغتوا بهذه المظاهرة، معتبرينها استفزازاً دبرته الحكومة نفسها. وقد تأكد هذا الاعتقاد عندما وقف الشرطيون يتفرجون على النساء وهنّ يقذفن الملهى بالحجارة ويحطمن شبابيكه. وقد فزع بعض الفنانات اللواتي كنّ يعشن في الملهى نفسه، بسبب عدم وجود فندق يستقبلهن، فاضطررن إلى الهرب، عبر السطوح المجاورة، وهنّ نصف عاريات. ويبدو أن المتصرف وجد في هذه الاضطرابات الفرصة التي كان ينتظرها، بل انه بالغ في تصوير الخطر الذي يتهدد الأمن، في تقريره الذي رفعه إلى وزير الداخلية، ملقياً باللوم كله على عاتق المتصرف السابق، الذي لم يفكر لحظة واحدة في ما يمكن أن يجره افتتاح ملهى في هذه المدينة من ويلات على سكانها الأبرياء. وهكذا أغلق الملهى نهائياً، وختمت أبوابه بالشمع الأحمر. فاضطرت الراقصات والمطربات إلى الرحيل مرة أخرى إلى بغداد، باحثات عن العمل السريع، بشروط سيئة، فيما عادت المصريات منهن إلى القاهرة، ما عدا واحدة منهنّ، أفلحت في البقاء، وأقامت وكراً سرِّياً للدعارة، على مقربة من دار الضيافة، يؤمه علية القوم، تحت حماية مدير الشرطة نفسه. واستجلبت له عاهرات درجة ثانية من الميدان في بغداد، ومن مبغى مدينة الموصل. وفي الوقت نفسه، حصل مدير الشرطة على سمعة طيبة في المدينة، عندما أمر بإطلاق سراح عباس بهلوان، بعد أيام قليلة من الهجوم على الملهى، بل ولم يقدَّم حتى للمحاكمة، بعد أن امتنع الجميع، بتوصية من المتصرف، عن الشهادة ضده. وهكذا سُجل الحادث ضد مجهول. فاستقبلت أمه الأرملة، ومعها محلة جقور، عباس بهلوان، كما تستقبل الحجاج الذين يعودون من مكة، بالطبول والدفوف. وقد بلغت الحماسة بها حداً، جعلها تهتف بحياة الملك غازي، الذي كان قد تعب من

twitter @baghdad_library

الموت في قبره الكائن في الأعظمية في بغداد.

ولكن إذا كان هذا الأمر قد انتهى إلى ما أسر محلة جقور، بعد قلق لم يستمر طويلاً لحسن الحظ، فإن ثمة أموراً أخرى، وقعت في هذه الفترة أيضاً، أزعجت المحلة وأقلقتها، بل وأخرجتها عن طورها. فعلى الرغم من أن اللص محمود العربي كان مسؤولاً عن المحلة، بطريقة ضمنية، ضد السطو في الليالي على البيوت، فقد وقعت سرقات ليلية عدة، عجز اللص محمود العربي عن إيجاد تفسير لها. فقد كان الجميع يعرفون أن محمود العربي على صلة وثيقة مع لصوص كركوك، وباعتباره لصاً محترفاً لا يمكن له أن يخرج على قاعدة، تكاد تكون عقيدة دينية، وهي أن محلة اللص تظل بمنأى عن السرقة. فإذا ما وقعت سرقة في المحلة، فإن الأمر يكون متعلقاً بشرف اللص وهيبته، بل ان بعضهم كان يلزم نفسه بالتعويض عن الضرر، حتى إذا اضطر إلى دفع ذلك من جيبه الخاص، إذا ما فشل في العثور على اللصوص الفعليين واستعادة ما سُرق. ولم يكن مثل هذا الأمر ليحدث، وهو نادر على أي حال، إلا عندما تنعدم الوحدة بين اللصوص، ويدب الخلاف والصراع بينهم، أو أن يقدم لصوص جدد على العمل، من دون معرفة أو اعتراف بالتقسيم الجغرافي للمدينة بين اللصوص. وكانت الحكمة وبعد النظر، يرغمان هذا اللص أو ذاك، أحياناً، على شراء المسروقات من اللصوص وإعادتها مرة أخرى إلى أصحابها في محلته، مع كلمة اعتذار مناسبة، بأن ما حدث لن يتكرر مرة أخرى.

لقد سرقت في ذلك الصيف، حيث يرقد الناس آمنين في الليالي على سطوح منازلهم، في محلة جقور، بيوت عديدة، من بينها بيت الحاج أحمد الصابونجي الذي كان معروفاً بثرائه.

كانت هذه البيوت قد نهبت تماماً، حتى لكـأنها نُظفت بمكنسـة سحرية. وقـد أحرج ذلـك اللص محمود العـربي الذي أقسم، أمام سكان المحلة الغاضبين، واضعاً يـده على القـرآن الكريم، بأن يقتفي أثر الفَعَلَة الذين استهانوا بـوجوده في المحلـة، وأن يصفّيهم واحداً بعد الآخر، مهما بلغت حماية الشرطة لهم. وقد غادر المحلة بالفعل، بعد أن دسّ مسدسه في حزامـه، ولم يشك أحد بأنه سيفي بوعده. وغاب ثـلاثة أيـام، لم ينم خلالهـا كما يبدو ولا لحظة واحدة. وعندما عاد، كـان مرهقـاً حتى الإنهاك، وأعلن، بيـأس: «لا علاقـة للصوص المـدينة بهـذه السرقـات». وعلمت محلـة جقور أن لصـوص كركـوك، ومعظمهم من العرب والأكراد، قد ذكروا، وأمامهم القرآن الكريم، أنهم لا يمكن أبداً أن يُقدِموا على محرمة من هذا القبيـل، والأكثر من ذلـك، أنهم أعلنوا النفير لمـواجهة هـذا التحدي الشرس. وقـد أعلن اللص محمـود العربي، في مجلس خـاص، انعقد في فنـاء بيت الحاج أحمـدالصابـونجي، وحضره المختار سلمـان حنش والمـلاّ زين العابدين القادري وآخرون من شيوخ المحلة ووجهـائها، أنـه لا يملك من المال ما يمكن أن يعوّض به المتضررين. ولذلـك، فإنـه يـوافق على أي قـرار، تتخذه المحلـة بشأنـه، بما في ذلـك طلب النزوح إلى مكان آخر، مؤكداً أنـه إذا امتلك الـوقت والفرصـة فإنه سيمسك باللصوص، حتى إذا كانوا قد جـاؤوا من مدينـة أخرى، وأنه لن تقع سرقة أخرى في محلة جقور.

كـان الجميع واثقـين مما يقـولـه، ولـذلـك أكـدوا لـه أنهم يحتاجونه الآن أكثر من أي وقت مضى. عنـد ذلك، نهض اللص محمود العربي وقال: «هناك ما ينبغي عليَّ القيام به. أمـا أنتم، فانصرفوا إلى بيوتكم وناموا مطمئنين على أموالكم وأرواحكم».

twitter @baghdad_library

وعلى اثر ذلك، انتشرت في المحلة إشاعة غريبة، تناقلتها العجائز في البداية، ثم انتقلت إلى الآخرين، كما تنتقل النار في الهشيم. فقد أخذ سكان المحلة يروون لبعضهم أن اللصوص ليسوا من البشر، وإنما هم من الجن.

وقد بلغ الفزع ببعضهم حداً، قصدوا معه بيت المجنون دلي إحسان، متوسلين وطالبين منه التدخل لوقف الغارات الليلية للجن والعفاريت على محلتهم. ولم يفعل دلي إحسان شيئاً سوى النظر في عيونهم، ثم نهض، هائماً على وجهه في المدينة، وتاركاً إياهم مع أمه التي قالت: «لقد ذهب يحشد جنود الملائكة ضد جنود الشياطين». وقد ازداد الأمر سوءاً، عندما أقدَم بعض الصبيَة، الذين تنقصهم التربية الحسنة، على الخروج من الزوايا فجأة، في الليل، لمباغتة النساء المنفردات، سائرين على أرجل خشبية طويلة، مثل عمالقة أسطوريين، وقد غطوا أجسامهم بعباءات أمهاتهم. وقد انهارت نساء عديدات، بسبب الخوف والرعب. وسقطن على الأرض، يرفسن بأرجلهن، مختنقات بالزبد الذي كان يملأ أفواههن، ويسيل مختلطاً بتراب الزقاق. كما أجهضت الحوامل منهن. وعند ذاك، لم يجد الآباء المتشددون بداً من شد هؤلاء الصبيان بالحبال، داخل بيوتهم. وقد وجدت المحلة في النهاية طريقة لا تخطىء في القضاء على الجن والعفاريت والشياطين وإبعادهم عن محلة جقور، حيث أقدَم الناس على تعليق آية الكرسي على أبواب بيوتهم، بنصيحة من الملاّ زين العابدين القادري، ولكن أيضاً بطلب من اللص محمود العربي، الذي ذكر صراحة: «اكفوني شر الجن، وأنا أكفيكم شر البشر». وقد بالغ بعض الناس، فعلق فوق مداخل البيوت نعال خيول وأقراصاً من الخرز الأزرق، كما

وضعت النساء النفساوات السكاكين والمدى تحت وسائدهن ووسائد أطفالهن الصغار لإبعاد الأرواح الشريرة، وبخاصة تلك الروح التي كانت مولعة بالنساء النفساوات، اللواتي كنّ يسمينها «أيية» التي كانت تتقمص شكل امرأة عجوز طيبة، وتخطف النفساء لتقدمها طعاماً للدببة أو تغرقها في النهر. وكان الرجال ينتبهون، أحياناً، إلى اختطاف نسائهم، فيلاحقون هذه الروح الشريرة وينقذون الضحية من الموت المحتم، ربما في آخر لحظة.

وهكذا، إذا كانت محلة جقور قد تكفلت بنفسها القضاء على الجن والأرواح الشريرة وإبعادها، فقد أوفى اللص محمود العربي بالوعد الذي قطعه على نفسه. كل ليلة، كان يأتي أكثر من عشرين رجلاً ملثماً، يضعون مسدساتهم في أحزمتهم، ويقفون عند المداخل والأزقة المؤدية إلى محلة جقور، فيما كان بعضهم يقطع المحلة جيئة وذهاباً، طيلة الليل، حتى الصباح.

ولم تدّخر محلة جقور وُسْعاً في تكريم هؤلاء اللصوص وإظهار احترامها لهم، فقد أبقى الكثيرون أبواب بيوتهم مفتوحة أمامهم، يمكن لهم الدخول إليها، فيما إذا احتاجوا لشرب الماء أو لقضاء حاجة، كما أن البيوت كانت تتناوب على تقديم الطعام والشاي لهم. ولكن الأهم من ذلك كله، هو أن المحلة كانت تريد أن تُظهر ثقتها المفرطة بهم. ولم تكن المحلة، بالتأكيد، على خطأ في تقديرها هذا. مع مجيء هؤلاء الرجال الملثمين، عمَّ الأمن والسلام المحلة، بطريقة لم يسبق لها مثيل، بل إن بعضهم صادق شبان المحلة، واشترك في ألعاب الزورخانة المغرية، كما أغرم أحدهم بفتاة، يبدو أنها كانت تشجعه هي الأخرى. لقد دخلت روح جديدة إلى محلة جقور،

twitter @baghdad_library

روح قـوة مغريـة، جعلت المحلات المجـاورة الأخرى تحسـدها عليهـا. وقـد أعمت الغـيرة بعض النفـوس الضعيفـة في هـذه المحـلات، بحيث أنها اتصلت سـراً بـاللص محمـود العـربي، عارضة عليه الانتقال إليها، لقاء مسكن مجـاني وراتب شهري تدفعه المحلة. ولكن محمود العربي ردّ عليهم بحزم، قائلاً، إنـه يمتلـك، قبل كـل شيء، مهنة تـدرّ عليـه الـذهب، ولن تبلـغ بـه الوضاعة، في يوم من الأيام، حد استلام الرشـوة من مواطنيـه أو ابتزازهم أو التسوّل منهم، لقاء واجب؛ والأكثر من ذلـك، ان الإنسـان لا يخون وطنـه ببساطـة لقاء كسرة من الخبـز. وكان يعني بالوطن محلة جقور.

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث

twitter @baghdad_library

في ذلـك الصيف الذي عبث فيـه اللصوص في محلـة جقور، انعقدت صداقة وثيقة بين حميد نايلون وعبـد الله عـلي وفاروق شامل، زوج كولبهار، والذي كان يعمل في مطبعة بلدية كـركوك، التي كانت تقع في شارع الملكة عـالية. وقـد انضم إليهم، فيما بعد، الشاب التركماني، ذو الوجه الهادىء الرقيق، نجاة سليم، الذي كان يدرس في مدرسة التدريب المهني التابعة لشركـة نفط العراق في نيوكركوك. كانوا يلتقون غالباً في المحلة، أو يقصـدون أحـد المقاهي القـريبة، ليلعبـوا الطاولي أو الـدومينو. ورغم أن الأمر بدا بريئاً، بالنسبة لمعظم النـاس في محلة جقـور، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم أصدقـاء لبعضهم الآخر، حتى من دون إعلان للصداقة، فإن الأمر كان أكثر من ذلك هـذه المرة. كـان ثمة مصير أقوى من الصداقة، يوحد هؤلاء الرجال. فقد أخذوا يبشرون بأفكار جديدة، لم تكن مألوفة لدى معظم سكـان محلة جقـور. كانـوا يشتمون الانكليـز ويسخـرون منهم، واصفينهم بالمستعمرين الذين يستغلون العمال. وقد ضحك فتح الله، ابن الملاّ زين العابـدين القادري، والـذي كان يملـك معملاً لصنـع عصير الناميت، وهو يتحدث إلى حميد نايلون: «أكاد لا أفهمـك يا حميد. لمـاذا تشتم الانكليز؟ ألا تعـرف أنهم أهل فضـل على

twitter @baghdad_library

في ذلـك الصيف الذي عبث فيـه اللصوص في محلـة جقور، انعقدت صداقة وثيقة بين حميد نايلون وعبـد الله عـلي وفاروق شامل، زوج كولبهار، والذي كان يعمل في مطبعة بلدية كـركوك، التي كانت تقع في شارع الملكة عـالية. وقـد انضم إليهم، فيما بعد، الشاب التركماني، ذو الوجه الـهادىء الرقيق، نجاة سليم، الذي كان يدرس في مدرسة التدريب المهني التابعة لشركـة نفط العراق في نيوكركوك. كانوا يلتقون غالباً في المحلة، أو يقصـدون أحـد المقاهي القـريبة، ليلعبـوا الطاولي أو الـدومينو. ورغم أن الأمر بدا بريئاً، بالنسبة لمعظم النـاس في محلة جقـور، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم أصدقـاء لبعضهم الآخر، حتى من دون إعلان للصداقة، فإن الأمر كان أكثر من ذلك هـذه المرة. كـان ثمة مصير أقوى من الصداقة، يوحد هؤلاء الرجال. فقد أخذوا يبشرون بأفكار جديدة، لم تكن مألوفة لدى معظم سكـان محلة جقـور. كانـوا يشتمون الانكليـز ويسخـرون منهم، واصفينهم بالمستعمرين الذين يستغلون العمال. وقد ضحك فتح الله، ابن الملاّ زين العابـدين القادري، والـذي كان يملـك معملاً لصنـع عصير النامليت، وهو يتحدث إلى حميد نايلون: «أكاد لا أفهمـك يا حميد. لمـاذا تشتم الانكليز؟ ألا تعـرف أنهم أهل فضـل على

هذه المدينة؟ كيف يستغلون العمال، إذا كان العامل في شركة النفط يقبض أضعاف ما يقبضه موظف عند الدولة؟».

الحق، أن موقف حميد نايلون والآخرين، الذين يؤيدونه، كان ضعيفاً في هذه المناقشات، يصعب الاقتناع به. فقد كان حتى الخبازون والقصابون وسوّاق السيارات يعترفون بفضل الانكليز على المدينة، حاسدين العمال المترفين، الذين يقبضون رواتبهم من الشركة. والأكثر من ذلك، أن الشركة كانت تعوض العمال الذين تفصلهم، بسبب الشيخوخة، بمئات الدنانير مع ميدالية ذهبية لذوي الخدمة الطويلة. وقد ترك هذا العطف الانكليزي أثره على قلوب الناس، حتى أن الملاّ زين العابدين القادري نفسه أعلن، ذات مرة، في خطبة الجمعة، أن الانكليز هم أكثر رحمة من كثير من المسلمين. وعلى أثر ذلك، أشاع حميد نايلون وأصحابه في المحطة أن الملاّ زين العابدين القادري يستلم كل شهر «مظروفاً» كبيراً ممتلئاً بالنقود من الانكليز. وأخذت النساء يتحدثن باحتقار عن الملاّ، زاعمات أنه يشرب العرق أيضاً، ويغطي الكأس، عادة، بعمامته، وأن العمال يكسبون نقودهم بعرق جبينهم، أما الملاّ فبدعايته للانكليز. وقد ساء موقف الملاّ زين العابدين القادري في المحلة إلى حد أن الكثيرين قاطعوا مسجده، وراحوا يترددون على مسجد آخر قريب، كان إمامه شاباً متحمساً يدعو إلى الحرب ضد اليهود في فلسطين وحماية القدس. وهكذا، لم يجد الملاّ زين العابدين القادري بداً من إلقاء خطبة نارية؛ شتم فيها الانكليز من دون مناسبة، معلناً الجهاد ضدهم في كل مكان من البلدان الاسلامية. فظهرت، في صباح اليوم التالي، شعارات، مكتوبة بالصبغ الأحمر على الجدران: «يسقط الاستعمار الانكليزي»

twitter @baghdad_library

و«تسقط الصهيونية» و«تعيش نقابة عمال النفط» و«عاش الحزب الشيوعي العراقي»، أثارت لغطاً شديداً بين الناس، الذين لم يكونوا يعرفون معنى النقابة أو الحزب الشيوعي. ولكنهم أدركوا، نوعاً ما، خطورة هذه الشعارات عندما رأوا عند الظهيرة سيارة جيب، تدخل المحلة ويهبط منها شرطيون، يرتدون سراويل خاكية قصيرة، تتهدل إلى ما تحت الركبة، حاملين في أيديهم سطلاً مليئاً بصبغ أبيض وبضع فراش، حيث راحوا يغطون الشعارات الحمر بالصبغ الذي معهم، ولأنهم لا يعرفون القراءة، فقد لطخوا أيضاً بصبغهم الشتائم التي كان الأولاد يدونونها على الجدران ضد بعضهم الآخر. وقد فرح الأطفال بالجد الذي أظهره الشرطيون في عملهم، فراحوا يدلونهم على كل الكتابات الموجودة فوق الجدران، ولكنهم إذ رأوا أن هدف الشرطيين هو إزالة الشعارات الشيوعية وحدها، ملأوا جدران المحلة، بعيداً عن مرأى الشرطة، بشعار «يعيش الحزب الشيوعي» و«تعيش نقابة عمال النفط» وعادوا ليدلوهم عليها مرة أخرى. وقد تسبب عبث الأطفال في إجهاد الشرطيين، الذين لم يفطنوا أبداً إلى هذه المكيدة، حيث ظلوا يعملون حتى المساء، فاضطروا إلى الانسحاب بعد نفاد صبغهم، ودون أن يزيلوا جميع الشعارات، واعدين بالعودة في اليوم التالي، وهو وعد لم يلتزموا به، على الرغم من أن الأطفال ملأوا جدران المحلة بشعارات أكثر من الشعارات التي أزيلت، بل إنهم ابتكروا شعارات أكثر إيلاماً وتقريعاً ومساً بكرامة الحكومة والدولة.

في الحقيقة، إن الشرطة عادت في اليوم التالي، ولكن من دون ملابس رسمية. فقد لاحظت النساء، اللواتي يجلسن، عادة،

أمام بيوتهن، ثلاثة رجال غرباء، يدخلون المسجد، كما لو أنهم داخلون إلى الصلاة، ثم يخرجون بعد دقائق ومعهم الملاّ زين العابدين القادري، الذي بدا مرعوباً من الخوف، وهو يرفع يديه عالياً نحو السماء، متحدثاً بصوت يكاد يقرب من الصياح. وعلمت النساء من الأطفال، الذين غادروا المسجد هم أيضاً، متابعين الموكب، أن الرجال الثلاثة هم سرّيون عند الحكومة، وأنهم أخذوا الملاّ زين العابدين القادري معهم، لحبسه، بتهمة الوطنية، فنهضن تاركات أطفالهن الصغار، الذين راحوا يزحفون على الأرض بين الأرجل، ورحن يشتمن رجال الأمن، الذين ترفعوا عن الردّ عليهن، تجنباً للفضيحة، حاثين الملاّ، المتباطىء في سيره، على الإسراع. ولكن بعض النساء، المشهورات بالوقاحة وقلة الحياء، لاحقن الموكب، تاركات عباءاتهن ترفرف في الريح، وهنّ يشتمن الحكومة والانكليز، حتى السوق الصغير، حيث لم تعد الملاحقة ممكنة. وعند ذاك التفت أحدهم إلى صاحبيه، قائلاً: «الحمد لله الذي خلصنا منهن». ثم وجه كلامه إلى الملاّ زين العابدين القادري، مستفزاً: «إذا كنت من الذين يخرون على أنفسهم بهذه السرعة، فلماذا تورط نفسك في شتم الحكومة؟» فأقسم الملاّ أنه كان دائماً من المؤيدين للحكومة ولنوري السعيد بالذات، وأنه هاجم رشيد عالي الكيلاني في خطبة الجمعة، بعد انهيار حركته، ملقياً بمسؤولية دم المسلمين الذي سُفك في واقعة سن الذبان في الحبانية على عاتقه. ضحك رجل الأمن، وقال له: «هذه قصص قديمة، لم تعد تهم أحداً».

وفي القشلة، الواقعة في الصوب الآخر من المدينة، مقابل النهر، اجلسوا الملاّ على كرسي من الخشب، مقابل منضدة

twitter @baghdad_library

عتيقة، جلس وراءها رجل، عرف أنه المفوض حسين الناصري. قال المفوض للملاّ زين العابدين القادري: «حسناً يا ملاّ، باعتبارك من رجال الدين الذين نقدرهم، ما كان ينبغي لك أن تكون شيوعياً». فامتقع وجه الملاّ حتى أنه ما عاد قادراً على التخلص من الرجفة التي داخلته: «استغفر الله، يا ابني، استغفر الله». وإذ لاحظ المفوض خوفه، طلب له كأساً من الماء و«استكاناً» من الشاي المحلّى بالسكر، حتى يهدىء من روعه، ثم قال له معاتباً: «إذا لم تكن شيوعياً فلماذا تهاجم الحكومة؟» ولم يجد الملاّ فائدة في ذكر الأسباب، فقال مبرراً: «لا أُنكر أنني قد تهجمت على الانكليز، ولكنني فعلت ذلك لفصلهم حميد نايلون من عمله، وهو أمر لا علاقة له بحكومتنا، حفظها الله، فأنا معروف في كركوك كلها بتأييدي لصاحب الفخامة نوري السعيد». فضحك مفوض الأمن، حتى يجعل الجو أكثر ودية: «هذا لا يهم، يمكنك أن تؤيد حتى الاشتراكي صالح جبر، فأنا نفسي اشتراكي متحمس. إن ما يهمنا هو القضاء على الشيوعية والنقابات السرية التي تدعو إلى الكفر والإلحاد». فوافقه الملاّ زين العابدين، قائلاً: «لعنة الله على ستالين وكل الحمر في العالم». وعند ذلك، عرض عليه المفوض، الذي لم يخفِ تعاطفه معه، أن يكون وكيلاً للأمن في المحلة، لقاء سبعة دنانير في الشهر؛ إذ أن كل ما ينبغي عليه عمله هو مراقبة الشيوعيين وأعداء الحكومة والإسلام والتبليغ عنهم، منبّهاً إياه إلى امتلاء جدران محلة جقور بالشعارات الشيوعية، مما يدل على وجود شيوعيين فيها. شكره الملاّ زين العابدين القادري على ثقة الحكومة به، نافياً أن يكون في محلته أي شيوعي، وموضحاً أن الذين خطوا الشعارات، ربما كانوا قد جاؤوا من محلات أخرى، ثم أضاف ان الله قد مَنَّ عليه بفضله، حيث

تملك العائلة معملاً لصناعة النامليت وآخر لصناعة الثلج، بالإضافة إلى مطحنة عصرية. وقد أنهى اعتذاره بالقول: «ان مركزي لا يسمح لي أن أكون جاسوساً، ولكنني سأتحدث مع الفقيه الذي يعيش عندي في الجامع، فهو فقير ومحتاج ومن أهل الله، فقد يقبل أن يعمل سرياً عندكم» فابتسم المفوض، قائلاً: «دع فقيهك وشأنه، فالأمر ليس على هذا القدر من الأهمية». ثم اعتذر منه، لإزعاجه، وودعه حتى الباب، قائلاً: «أرجو ألا تتدخل في السياسة بعد الآن. وإذا ما أردت التدخل فاشتم الشيوعية وحدها، فهي الشيء الوحيد الذي يسمح بشتمه في هذا البلد».

ولكن الملاّ زين العابدين القادري قرر، بعد إذلاله بهذه الطريقة، ألا يتدخل في السياسة بعد ذلك، ولا حتى أن يشتم الشيوعية. فإذا كان المفوض نفسه يؤيد الاشتراكية، فمَن يضمن أن مدير الشرطة لا يؤيد الشيوعية سراً؟ الحق، أن الملاّ زين العابدين القادري كان مخطئاً في بعض اجتهاداته، وبالذات في ما يتعلق بفقيهه، عزيز شيروان الذي رشحه أمام المفوض للعمل كوكيل في الأمن. فقد كان الملاّ يجهل أن هذا الشاب الكردي القادم من السليمانية، ليدرس الفقه عنده، والذي كان يقيم في المسجد، ويطرق أبواب البيوت عصر كل يوم، حاصلاً على رغيف أو كسرة منه، إذ كان الناس يعتبرونه ذلك واجباً دينياً لا يمكن نقضه، لم يكن شيوعياً فحسب، وإنما كان قد حوّل المسجد نفسه إلى مركز سري للبريد الحزبي. وكان قد فكر بالهرب عندما اقتاد رجال الأمن الملاّ معهم، ولكنه عاد فعدل عن ذلك، عندما عرف بالحقيقة، مطمئناً الملاّ المنزعج على أن رجال الأمن كثيراً ما يحاولون الضغط على رجال الدين، لتخويفهم.

twitter @baghdad_library

منذ ذلك اليوم، اكتسب الملاّ زين العابدين القادري احتراماً ما حظي به قط من قبل. فقد أخذ الناس يتحدثون عنه كوطني معارض، يلتزم بمبادىء دينه، بل ان بعضهم أشاع عنه أنه قد صفع مدير الشرطة نفسه، وأنه قد ذهب وفتح بوابة السجن وأطلق سراح السجناء، دون أن يجرؤ أحد على اعتراض سبيله. والحق، أن الملاّ زين العابدين كان يشعر بالزهو وهو يستمع إلى هذه الإشاعات، التي كان يواجهها بابتسامة ماكرة، رافضاً التعليق عليها، غير أنه أصبح أكثر حذراً، ملتزماً بنصيحة المفوض بعدم الخوض في السياسة، التي استبدل المناقشة حولها بالمناقشة حول جنس الملائكة: هل هم ذكور أم إناث؟ وكان من رأيه، على عكس رأي الكثيرين من العلماء المسلمين، أن الملائكة إناث، ولا وجود لملائكة ذكور. وكان يستدل على رأيه هذا بحقيقة أن كل ذكر لا بد وأن يمتلك قضيباً، وهو أمر غير ضروري عند الملائكة، الذين لا يمارسون الجنس، بالطبع. ومنطقياً، إذا لم يكونوا ذكوراً، فإنهم يكونون إناثاً، وهذا ما يقول به العقل السليم على أي حال. وقد ردّ عليه حميد نايلون، ذات مرة، أثناء جلسة مناقشة، كان يستمع إليها الرجال في المقهى، قائلاً: «لو أخذنا بمنطقك لتوصلنا إلى أن الملائكة مخنثون. لماذا ينبغي للملائكة أن تمتلك فروجاً، إذا لم يكن هناك ملائكة ذكور؟» كان رأيه مقنعاً، ومع ذلك رفضه جميع الحاضرين، نظراً لاحتقارهم للمخنثين. فابتسم حميد نايلون، وقال للملاّ: «إنني من رأيك يا ملاّ، فإن ذوق الله أرفع من أن يخلق ملائكة ذكوراً يشبهوننا، نحن الرجال القبيحين، بدل الحوريات اللواتي يبهجن القلوب». وغص الرجال بالضحك، فيما قال له الملاّ: «لعنة الله عليك يا حميد. أنت تحوّل كل شيء إلى نكتة». ومع ذلك؛ فإن حجة حميد نايلون

تملك العائلة معملاً لصناعة النامليت وآخر لصناعة الثلج، بالإضافة إلى مطحنة عصرية. وقد أنهى اعتذاره بالقول: «ان مركزي لا يسمح لي أن أكون جاسوساً، ولكنني سأتحدث مع الفقيه الذي يعيش عندي في الجامع، فهو فقير ومحتاج ومن أهل الله، فقد يقبل أن يعمل سرياً عندكم» فابتسم المفوض، قائلاً: «دع فقيهك وشأنه، فالأمر ليس على هذا القدر من الأهمية». ثم اعتذر منه، لإزعاجه، وودعه حتى الباب، قائلاً: «أرجو ألا تتدخل في السياسة بعد الآن. وإذا ما أردت التدخل فاشتم الشيوعية وحدها، فهي الشيء الوحيد الذي يسمح بشتمه في هذا البلد».

ولكن الملاّ زين العابدين القادري قرر، بعد إذلاله بهذه الطريقة، ألا يتدخل في السياسة بعد ذلك، ولا حتى أن يشتم الشيوعية. فإذا كان المفوض نفسه يؤيد الاشتراكية، فمَن يضمن أن مدير الشرطة لا يؤيد الشيوعية سراً؟ الحق، أن الملاّ زين العابدين القادري كان مخطئاً في بعض اجتهاداته، وبالذات في ما يتعلق بفقيهه، عزيز شيروان الذي رشحه أمام المفوض للعمل كوكيل في الأمن. فقد كان الملاّ يجهل أن هذا الشاب الكردي القادم من السليمانية، ليدرس الفقه عنده، والذي كان يقيم في المسجد، ويطرق أبواب البيوت عصر كل يوم، حاصلاً على رغيف أو كسرة منه، إذ كان الناس يعتبرونه ذلك واجباً دينياً لا يمكن نقضه، لم يكن شيوعياً فحسب، وإنما كان قد حوّل المسجد نفسه إلى مركز سري للبريد الحزبي. وكان قد فكر بالهرب عندما اقتاد رجال الأمن الملاّ معهم، ولكنه عاد فعدل عن ذلك، عندما عرف بالحقيقة، مطمئناً الملاّ المنزعج على أن رجال الأمن كثيراً ما يحاولون الضغط على رجال الدين، لتخويفهم.

twitter @baghdad_library

منذ ذلك اليوم، اكتسب الملاّ زين العابدين القادري احتراماً ما حظي به قط من قبل. فقد أخذ الناس يتحدثون عنه كوطني معارض، يلتزم بمبادىء دينه، بل ان بعضهم أشاع عنه أنه قد صفع مدير الشرطة نفسه، وأنه قد ذهب وفتح بوابة السجن وأطلق سراح السجناء، دون أن يجرؤ أحد على اعتراض سبيله. والحق، أن الملاّ زين العابدين كان يشعر بالزهو وهو يستمع إلى هذه الإشاعات، التي كان يواجهها بابتسامة ماكرة، رافضاً التعليق عليها، غير أنه أصبح أكثر حذراً، ملتزماً بنصيحة المفوض بعدم الخوض في السياسة، التي استبدل المناقشة حولها بالمناقشة حول جنس الملائكة: هل هم ذكور أم إناث؟ وكان من رأيه، على عكس رأي الكثيرين من العلماء المسلمين، أن الملائكة إناث، ولا وجود لملائكة ذكور. وكان يستدل على رأيه هذا بحقيقة أن كل ذكر لا بد وأن يمتلك قضيباً، وهو أمر غير ضروري عند الملائكة، الذين لا يمارسون الجنس، بالطبع. ومنطقياً، إذا لم يكونوا ذكوراً، فإنهم يكونون إناثاً، وهذا ما يقول به العقل السليم على أي حال. وقد ردّ عليه حميد نايلون، ذات مرة، أثناء جلسة مناقشة، كان يستمع إليها الرجال في المقهى، قائلاً: «لو أخذنا بمنطقك لتوصلنا إلى أن الملائكة مخنثون. لماذا ينبغي للملائكة أن تمتلك فروجاً، إذا لم يكن هناك ملائكة ذكور؟» كان رأيه مقنعاً، ومع ذلك رفضه جميع الحاضرين، نظراً لاحتقارهم للمخنثين. فابتسم حميد نايلون، وقال للملاّ: «إنني من رأيك يا ملاّ، فإن ذوق الله أرفع من أن يخلق ملائكة ذكوراً يشبهوننا، نحن الرجال القبيحين، بدل الحوريات اللواتي يبهجن القلوب». وغص الرجال بالضحك، فيما قال له الملاّ: «لعنة الله عليك يا حميد. أنت تحوّل كل شيء إلى نكتة». ومع ذلك؛ فإن حجة حميد نايلون

أثرت في الملاّ زين العابدين القادري، الذي راح يبحث عن أدلة لا تُدحض أبداً.

كان ما قـالـه المـلاّ زين العابـدين القادري للمفـوض حسين الناصري، عن عدم وجود شيوعيين في محلة جقور، هو فـوق كل شبهـة أو ريبـة، فلم يكن ليـوجـد في هـذه المحلـة أحـد من الكاكائيين، ذوي الشوارب الكثّـة، والتي كانت تعتبـر العلامـة الـوحيدة التي تـدل على الشيـوعية. وكـان النـاس محقـين في اعتقـادهم هذا، فقـد عمد الشيـوعيون في المـدينة، خـلال فترة الحرب العالمية الثانية، إلى تبنّي شارب ستـالين واتخـاذه رمزاً للكفاح الوطني، مما سهّل مهمة رجال الأمن في التعـرف عليهم ومطـاردتهم. وبالطبـع، كانت للفقيـه عـزيـز شـيروان ولحميـد نايلون، بل ولكل الرجال الآخرين في المحلة شوارب، إذ لا يمكن للرجل أن يكون رجلاً من دون شـوارب، حتى أن أسوأ شتيمـة كان الرجال يتبادلونها، أثناء مشاجراتهم، هي أن يهدد أحدهم الآخر بالقـول: «سوف أحلق شـواربك». ولكن شـواربهم كانت دقيقة، غير كثّـة، أشبه مـا تكون بضربتي فـرشاة رسـام تحت الأنف، بـل إن شوارب عـامل النفط عبـد الله عـلي، الأسمـر، النحيـف، ذي الطول المفرط، كانت مقصوصة من الجانبين وتكاد تشبه شوارب هتلر. ولذلك، ما كـان يمكن لأحد أن يتصـور أن لهؤلاء الـرجال عـلاقة مـا بالسيـاسة. فمـا عدا الفقيـه عزيـز شيروان، الذي كان شيوعيـاً قبل أن يقـدم إلى المحلة، وفـاروق شامل، الذي تعرف على الشيوعيين في المطبعة التي يعمـل فيها، وهو في كل الأحوال من الطارئين على محلة جقور، لم يكن هنـاك أي شيوعي أصيل في المحلة. أما الآخـرون، ومن ضمنهم حميد نايلون، الذي أخذ يقود سيارة خشبية عتيقة، لنقـل المسافـرين

twitter @baghdad_library

بين كركوك والحويجة، يملكها اليهودي شاموئيل، وهو صاحب متجر لبيع الساعات في شارع الأوقاف، والوكيل الوحيد لساعات فلكاً ونيفادا السويسرية، فكانوا مأخوذين بفكرة واحدة هي فكرة النقابة التي تدافع عن حقوق أعضائها. كانت الشرطة تعتبر النقابات الوجه الآخر للشيوعية، وتطاردهم دون رحمة. ولكن حميد نايلون كان يعتقد، جازماً، أنه لو كانت هناك نقابة علنية لعمال النفط لما استطاع المستر ماكنلي وزوجته العاهرة هيلين من رميه، هكذا مثل فأر، إلى الشارع، بل انه تأثر حتى اغرورقت عيناه بالدموع، عندما عرف أن النقابة السرية أصدرت منشوراً تدافع فيه عنه. وعندما أوصل نجاة سليم المنشور إليه، ظل يحدّق فيه المرة تلو الأخرى، ثم أخفاه في طي حقيبة في البيت. وفي اليوم نفسه، طلب إلى نجاة سليم أن يعرفه على هؤلاء الناس. فقال له نجاة سليم: «ولماذا أعرفك عليهم؟ أنهم أقرب إليك مما تعتقد». واستغرب حميد نايلون. فقال له نجاة سليم: «هيا نذهب، لنشرب الشاي عند النقابة». وقاده إلى الغرفة التي كان يسكنها فاروق شامل مع زوجته كولبهار، لصق بيته تماماً. وعند ذاك أطلق حميد نايلون ضحكة، أقلقت هدوء مساء محلة جقور وقال: «يا لي من حمار!»

وهكذا، وجد حميد نايلون طريقه إلى النقابة، فعلى الرغم من أن فاروق شامل لم يكن عامل نفط، إلا أنه كان في الخلية التي توجِّه عمل النقابات في المدينة. وفي هذه الجلسة، أبلغه فاروق شامل أن يحاول، ولكن بحذر، كسب عمال محلة جقور إلى النقابات وربطهم بقيادة الحركة العمالية في المدينة. اختفى حميد نايلون، بعد ذلك، أسبوعاً كاملاً. عاد بعدها ومعه قائمة بأسماء واحد وعشرين شخصاً في محلة جقور، بينهم أربعة

عمال نفط، يريدون الانتماء إلى النقابة. وقد اعتذر حميد نايلون لأنه لم يكن هناك ما يكفي من الوقت للاتصال بعدد آخر من الناس. كان هؤلاء، في الحقيقة، ينتمون إلى مهن مختلفة، بينهم ضابط برتبة ملازم ثانٍ، وشرطي، وثلاثة جنود، ودرويش كان معروفاً في المحلة بممارسة ضرب الشيش والتهام الزجاج، على الطريقة القادرية، في إحدى تكايا المتصوّفة، التي كانت تقع في المناطق الكردية من المدينة. واستغرب فاروق شامل أن يجد أيضاً في قائمة حميد نايلون اسم اللص محمود العربي. فقال لحميد، بكل وقار: «ما الذي قلته حتى كسبت واحداً مثل اللص محمود العربي إلى جانب النقابة؟» فرد حميد نايلون، ضاحكاً: «آه، كان ذلك سهلاً مع محمود. لقد اقترحت عليه أن يكون رئيساً لنقابة، تضم جميع لصوص كركوك. وقد كان هذا هو بالذات ما يحلم به».

ما كاد حميد نايلون ينتمي إلى النقابة ويتصل بالعمال، حتى حدث انقلاب واضح في موقفهم من الشركة التي اعتبروها مسؤولة عن الحيف الذي يحيق بهم، وخاصة بعد أن فصلت الشركة عدداً من الذين اعتبرتهم مخربين؛ انتهوا، بعد حين، إلى الوقوع في يد الشرطة، التي استخدمت في تعذيبهم كلابات خاصة لسحب الأظافر، ألمانية الصنع، اشتراها وزير الداخلية بنفسه، عندما كان يقضي عطلته السنوية في تركيا. هذا الهجوم الفظ على العمال جعلهم يدعون إلى الإضراب، كما لو أن الأمر يتعلق بشرفهم الشخصي الذي أُهين.

في الأسبوع الذي سبق الإضراب الذي أعلنه عمال النفط، شاهد رجال المحلة الذين يتجمعون، عادة، عصر كل يوم، أمام بيوتهم، رجلاً غريباً، يرتدي الدشداشة، يدخل المحلة على

twitter @baghdad_library

دراجة. وقد قطع هذا الرجل الغريب المحلة أكثر من مرة جيئة وذهاباً قبل أن يتوقف أمام الجامع، محدّقاً في الشبان المتجمعين في المحلة. وكان هؤلاء قد عرفوه: «أنظر، إنه سري، جاء يتجسّس علينا». أراد حميد نايلون أن يذهب إليه ليضربه، ولكن فاروق شامل منعه: «ما هكذا يكون العمل يا حميد. انتظر لحظة فقط!» ذهب فاروق شامل إلى بيته، وغاب دقائق قليلة، عاد بعدها ضاحكاً حتى من دون أن يلقي نظرة على الرجل، الذي كان قد جلس على دكّة الجامع، وأخرج من عبّه «صمونة» عسكرية سوداء، راح يقضمها بانتشاء. بعد لحظات، انتبه الرجال الواقفون إلى صوت كولبهار، وهي تصرخ في الرجل ذي الدراجة: «يا كلب، يا حقير، منذ أيام، وأنت تتحرش بنساء المحلة. أليست عندك ذرة من الغيرة والشرف؟» وقبل أن يتمكن الرجل من ازدراد اللقمة، التي كانت لا تزال بين أسنانه، نزعت نعليها محاولة ضربه. وفجأة، ضجت النساء، اللواتي يجلسن أمام بيوتهن، بالصراخ، بل وتركت أخريات أعمالهن وخرجن من البيوت، مهاجمات الرجل الذي انكفأ على نفسه وهو يردّد: «لا والله، لم افعل شيئاً». كانت الضربات تنهال على رأسه من كل جانب. واشترك الأطفال أيضاً في الصراخ والضرب، حتى أن أحدهم غافله وأراد أن يدخل قضيباً من المعدن في مؤخرته، جزاء على وقاحته تجاه نساء المحلة. ولم ينقذه سوى عباس بهلوان، الذي أمسك به مثل فأر مذعور، وصفعه أكثر من مرة، فهوى في مجرى المياه القذرة، الصغير، الذي يخترق المحلة. ثم رفعه وركله برجله مرة أخرى، فسقط على وجهه وانبثق الدم من أنفه. حاول الرجل أن يهرب، لكن الأطفال أمسكوا به، فسقط مرة أخرى. ورفع عباس بهلوان دراجته عالياً، ثم رمى بها بعيداً فتكسرت، وأمسك بالرجل فرفعه، قائلاً: «إذا دخلت هذه

المحلة مرة أخرى، فاقرأ السلام على مؤخرتك». وأقسم الرجل: «لن أمرّ في حياتي كلها، بهذه المحلة». عند ذاك، توجه عباس بهلوان نحو الأطفال والنساء، قائلاً: «دعوه يذهب. سوف لن تروا وجهه القذر بعد الآن». وغاب الرجل الذي كانت دشداشته قد تمزقت وتلطخت بالوحل والدم، يجر دراجته التي كانت تأبى السير، ولم يظهر بعد ذلك بالفعل.

في اليوم الذي أُعلن فيه الإضراب، وقف حميد نايلون مع أكثر من عشرين عاملاً على سكة القطار، التي تفصل ما بين المدينة والشركة، مانعين العمال الخائفين والمتردّدين من الذهاب إلى العمل، واصفينهم بالجبن والعمالة للانكليز. وقد حدثت مشادّات كثيرة بين المضربين وغير المضربين، سكبت فيها الأطعمة التي تحتويها «السفرطاسات» على الأرض، بينما استخدم بعضهم الملاعق وسكاكين الطعام للدفاع عن أنفسهم. وظلت الشرطة، طيلة اليوم الأول، تقف على مبعدة، وتتفرج على مشاهد القتال بين العمال، متحفزة للتدخل في اللحظة المناسبة. وانسحب حميد نايلون إلى الوراء مع ثلاثة من العمال الآخرين، حتى بدايات الأزقة، المؤدية إلى الشارع الرئيس. كان كلما رأى عامل نفط، يرتدي بذلته الزرقاء يحييه، قائلاً، بلامبالاة: «هيا عد، لقد أرجعونا هذا اليوم. استمتع بعطلتك يا أخي». وكان العامل يسأل مندهشاً: «عطلة؟ أية عطلة؟» فيجيب حميد نايلون بسرعة: «ألا تعرف؟ الملك يزور كركوك اليوم». كان هذا هو أسلوبه مع مَنْ كان يفترض فيه السذاجة. أما مع الذين كانوا أكثر فطنة، فكان يمثل دور الهارب، الذي نجا بجلده، مدّعياً أن معارك وقعت بين الشرطة والعمال، وأن الشرطة تلقي القبض، بل وحتى تطلق النار دون تمييز، على كل مَنْ تصادفه من

twitter @baghdad_library

العمال. ناصحاً لهم بالعودة من حيث أتوا. وكان الكثيرون يصدقونه حتى دون إلقاء المزيد من الأسئلة. وفي الحقيقة، فإن منطقه ما كان يُردّ إلا نادراً حتى مع العمال الذين كانوا مطلعين على حقيقة ما يجري. كان يقول لهم إن الإضراب يستهدف زيادة رواتبهم وتحقيق مكاسب لهم. ومن الأفضل لهم أن ينضموا إلى الإضراب، دفاعاً عن مصالحهم نفسها على الأقل، بدل إفشال العملية والإضرار بالآخرين. وفي كل الأحوال، فإنهم سوف لا يحاسَبون حتى إذا فشل الإضراب؛ لأنهم يستطيعون أن يدّعوا دائماً، أمام رؤسائهم، أن العمال المضربين هم الذين منعوهم من الوصول إلى العمل. كان عرضه مغرياً حقاً: «شاركونا النجاح، أما الفشل فارموه علينا وحدنا».

وهكذا، مرت أيام الإضراب السبعة عشر، ولكن دون نتيجة. صحيح أن العمل في الشركة قد شُلَّ، بعد أن كثر عدد العمال المضربين، ولكن ما من أحد كان يفكر بالتنازل أمام المضربين. كان ذلك، ببساطة، خروجاً على القاعدة، لا يمكن أن يسمح به مدير الشرطة ولا المتصرف ولا حتى وزير الداخلية نفسه. كان المستر تيسو، مدير الشركة، يميل، في الحقيقة، إلى التفاهم مع المضربين، فقد كان هو نفسه، ذات يوم، في حزب العمال، عندما كان طالباً في جامعة كيمبردج، ولكن المتصرف قال له، بأدب: «إنني أفهم مشاعرك الإنسانية يا مستر تيسو، فأنتم الانكليز مغرمون بالديمقراطية. ولكن كيف يمكن ممارسة الديمقراطية مع الحمير؟»

ويبدو أن المترجم، الذي كان المتصرف قد صحبه معه، والذي لم يكن يتقن الانكليزية تماماً، قد التبس عليه الأمر، فاستبدل كلمة الحمير بالقرود. وعند ذلك ابتسم المستر تيسو،

قائلاً: «ينبغي يا صاحب السعادة أن توجّه هذا السؤال إلى داروين».

في الواقع، إن الأمر كان أكبر من المتصرف نفسه، على الرغم من أنه حاول الظهور بمظهر الرجل القادر على اتخاذ القرارات. فقد اتصل به وزير الداخلية، هاتفياً، وأمره بقمع الإضراب، مهما كلف ذلك من ثمن. وكان وزير الداخلية نفسه قد تلقى أمراً مماثلاً من رئيس الوزراء، الذي قرر اللجوء إلى العنف، بنصيحة من مستشارة الانكليزي، الذي كان لسوء الحظ من حزب المحافظين ومن الحاقدين على العمال، بسبب خسارة حزبه في الانتخابات الأخيرة.

كان العمال يجتمعون كل يوم، منذ الصباح الباكر، في كاورباغي، وهو بستان يكاد يكون قاحلاً، لا يبعد كثيراً عن مكاتب شركة النفط، ويلقون قصائد لمحمد مهدي الجواهري ومعروف الرصافي وشعراء آخرين أقل شهرة. وبالطبع، فإن نصف سكان مدينة كركوك كان ينتقل كل يوم إلى كاورباغي، وخاصة النساء والأطفال، ليس بسبب تأييدهم للعمال، وهو أمر كانوا يفعلونه بالتأكيد، وإنما لأن الإضراب كان مهرجاناً غنائياً مثيراً، يستمر من الصباح حتى المساء، لم تكن كركوك قد شهدت مثيلاً له من قبل. وكان أطفال ونساء العمال المضربين يأتون حاملين إليهم الطعام حتى من أبعد محلة في المدينة. وقد منحت الهلاهل النسائية، التي لم تكن لتنقطع أبداً، القوة حتى لأولئك الذين كانوا يرتجفون خوفاً في دواخلهم، ثم اعتبروا الأمر قضية شرف، تخصهم شخصياً، كما لو أنهم في معركة ضد قبيلة معادية أخرى.

ومرت الساعات الأولى من اليوم السابع عشر للإضراب مثل

twitter @baghdad_library

كل الأيام السابقة الأخرى. العمال يخطبون ويهتفون في البستان. النساء والرجال والأطفال يحيطون بالمكان متفرجين. رجال الأمن يراقبون متنقلين على دراجاتهم. أطفال يجلسون على أغصان أشجار زيتون متناثرة هنا أو هناك. وظلت حتى سيارة الشرطة المسلحة واقفة، حيث هي، في بداية الشارع المؤدي إلى البستان. كان كل شيء يبدو طبيعياً حتى الظهر، عندما جاء مَنْ يقول إن قوات كبيرة من الشرطة الخيّالة تتجمع عند أول الشارع. دفع الخوف العمال إلى مزيد من الحماسة والمبالغة في الصراخ. وبصورة ما، كان الجميع ينتظرون حلاً ما. وأخيراً، اقتربت سيارة جيب مجهزة ببندقية رشاشة، يقف خلفها ثلاثة شرطيين ومعاون، فابتعد الجمهور المحيط بالمكان، فزعاً في البداية، ثم ما لبث أن عاد، ولكن بحذر، بعد أن أخذ المعاون، من مكانه داخل سيارة الجيب المفتوحة، يخاطب العمال: «إننا ننذركم بإخلاء المكان وإنهاء الإضراب والتوجّه إلى أعمالكم. إنكم ضحايا مؤامرة شيوعية. الشيوعيون يستغلونكم ويخدعونكم. الشيوعيون أصدقاء اليهود يريدون توريطكم. إذا لم تتفرقوا الآن فسوف تتدخل الشرطة».

قبل أن ينتهي المعاون من خطبته المنذرة، ارتفعت الصرخات الشاتمة من داخل البستان:

«أيها الحقير عد إلى سادتك وقبِّل مؤخراتهم». وتوجه الكثيرون إلى أغصان الأشجار، يقطعونها، محوّلين إياها إلى عصيّ، استعداداً للمعركة. وأطلق عامل ما هتافاً، ردّده الآخرون: «إضراب حتى الموت». وعند ذاك، تراجعت سيارة الجيب، وسط قهقهات العمال وسخريتهم: «الجبناء. انهم يفرون». ولكن ما كادت تمرّ سوى دقائق قليلة حتى عادت

السيارة المسلحة، يتبعها عدد كبير من الشرطيين المسلحين بالهراوات، وهم على صهوات خيولهم. عند ذاك فقط، أدرك معظم المتفرجين خطورة الموقف، فابتعدوا راكضين في كل اتجاه، دون أن يفقدوا الرغبة في متابعة المشهد، وظل آخرون في أماكنهم، إما خجلاً من إطلاق العنان لأرجلهم أو تضامناً مع المضربين، أو ربما بسبب خطأ في تقييم الموقف. وخيم الصمت على المضربين الذين ثبتوا في مواقعهم، ممسكين بأغصان الأشجار الطرية في أيديهم، كما لو أنهم يبعدون بذلك الخطر عنهم. وفجأة، دوّى سيل من الرصاص المتقطع، فأخفض العمال المضربون رؤوسهم، وسط ضجيج وصراخ شمل المنطقة كلها. وأعقبت الرشة الأولى رشة ثانية وثالثة، فتشتت العمال، محتمين بجذوع الأشجار القليلة، الموجودة في البستان. وأصيب المتفرجون بالذعر، فاختلطوا بالمضربين، حتى أصبحوا جميعاً كتلة واحدة. وفي هذه اللحظات نفسها، اهتزت الأرض تحت حوافر الخيول التي بلغت البستان، والتي كان الشرطيون الذين يعتلونها يندفعون بها نحو الكتل البشرية، وفي أيديهم الهراوات، غير آبهين لمن يسقط تحت حوافرها. ولم تعد تسمع سوى طلقات منفردة، كان الشرطيون ورجال الأمن يصوّبونها بين الحين والآخر. واشتبك عدد من العمال مع رجال الشرطة الذين سقطوا من فوق خيولهم. وفي هذه المعركة، أظهر حميد نايلون، الذي كان ملثماً بغطاء الرأس، مثل كل العمال الآخرين، على الرغم من قِصَره، شجاعة فوجيء بها هو نفسه، فقد أخرج من تحت قميصه خنجراً كان يحمله، مخالفاً بذلك تعليمات النقابة، وراح يطعن به بطون الخيول من الخلف، فكانت تصاب بالهياج، من الألم، فتقذف براكبها على الأرض أو يهويان معاً. وأمسك درويش كردي من أربيل، كان قد جاء

twitter @baghdad_library

ليقدِّم عرضاً لخوارقه في تكية قريبة، بشرطي سقط على الأرض، وجـرّه إلى وراء الأشجار، ثم ذبحـه، بعد أن قـرأ عليـه سـورة الفاتحة.

وأخيـراً، انتهت المعركـة بفرار العمـال المضربـين، مخلّفـين وراءهم ثلاثة عشر قتيلاً، بينهم طفل، أصيب برصاصة، وظل في مكانه بـين فروع الشجـرة التي كان يجلس عليهـا، وامرأتـان، وبائع باقلاء مسلـوقة تكـوّم فوق عـربته. كـان عدد الجـرحى، الذين جرى اعتقالهم، أكثر من عشرين شخصـاً، في حين تمكّن جرحى آخرون من الإفلات من أيدي رجال الشرطة والأمن. أما قتـلى المهاجمـين، فكانـوا ثلاثـة شرطيين، بينهم الشرطي الـذي ذبحه الدرويش. واعتبر جميع المهاجمين أنفسهم جرحى؛ وذلك للحصول على المكافأة التي خصصها وزير الداخلية للمصـابين، وهي عشرة دنانير لكل منهم. الكثيرون من محلـة جقور والـذين حشدهم حميد نـايلون شهـدوا المذبحـة، ولكنهم خرجـوا منها سالمين، سوى بعض الرضـوض التي أصيب بها هـذا أو ذاك، وهي مما لا يؤبه له، ما عدا الضربة التي كان قد تلقاها هـادي أحمـد في رأسه، وهـو صبي في العاشرة من عمـره، كان والـده يملـك جهاز تصـويـر متنقـل من النمط القـديم، الـذي ينتهي بقماشة سوداء، يدخل فيها المصور رأسه، بينما يجلس الزبون عـلى صفيحة فـارغة، تـوضع أمـام جـدار، مغطى هـو الآخـر بالسواد، في مواجهة العدسة المتحركة، على الرصيف عند رأس الجسر الحجـري إزاء القشلة. كـانت الضربة التي تلقـاهـا من هراوة شرطي على جواده قد جعلتـه يفقد الـوعي. ولولا عبـاس بهلوان، الذي اختطفه وحمله حتى البيت، لمـات بالتـأكيد تحت حـوافر الخيـول. عندمـا أفاق كـانت إحدى عينيـه ميتة. ولكن

الأسوأ من ذلك أنه كان قد أصيب بما يشبه اللوثة في عقله، فاقداً توازنه مرة وإلى الأبد، وهو أمر أخفق الأئمة والأطباء في إيجاد علاج له، على عكس عينه اليسرى، التي سرعان ما استعادت ضوءها، بفضل مهارة طبيب شاب، كان قد درس في تركيا، بعد أن فقد كل أمل في أن يُقبل في كلية الطب في بغداد؛ أولاً، لمعدل درجاته الذي لم يكن ليزيد على الخمسين؛ وثانياً، لتخرجه من القسم الأدبي. ولكن كل ذلك لم يمنع الطبيب من أن يُقدِم على تجربة لم يتوصل إليها أطباء العيون الأميركيون إلا بعد أربعين عاماً. فقد عرف هذا الطبيب التركماني أن ما يعانيه الصبي هادي أحمد هو مجرد هبوط في شبكية العين، وأن ما يحتاجه هو رفع الشبكية، ومن ثم تثبيتها في مكانها السابق. لم تكن المشكلة تكمن في رفع الشبكية، فهذا أمر يمكن أن يقوم به حتى المضمّدون، وإنما هي في تثبيت الشبكية، حيث ينبغي أن تكون. ولما لم يكن هناك ما يخسره، باعتبار أن تلك العين عمياء في كل الأحوال، خطرت له فكرة بسيطة، لا يمكن أن تخطر حتى على بال الشيطان نفسه، وهي أن يقوم بإلصاق الشبكية بالصمغ العادي. وهكذا تحققت معجزة أخرى في محلة جقور، وإن كانت طبية هذه المرة. فقد نهض الصبي بعد نصف دقيقة وهو يبصر أفضل من ذي قبل، لأن الطبيب أعاد الشبكية إلى حيث ينبغي أن تكون بالضبط، متجاوزاً حتى العيوب الطبيعية.

أعقبت المذبحة حملة اعتقالات، شملت قادة الإضراب. وقلبت الشرطة الحقيقة، مدعية أن العمال هم الذين بادروا إلى الهجوم، مطلقين الرصاص على المعاون الذي جاء يطلب منهم مغادرة المكان. ولكن محلة جقور ظلت بمنجى من هذه

twitter @baghdad_library

الاعتقـالات، التي تركـزت على الـذين كـانت الشرطـة تعـرفهم واحـداً، واحـداً، ولم يكن هؤلاء من محلـة جقـور. ومـع ذلـك اختفى حميـد نايلـون، دون أن يثـير غيـابـه الظنـون، وادعت زوجته، فاطمة، أنه سافر في رحلـة عمل إلى لبنـان، وأنه سـوف يعود. ولكن عندما طال غيـابه شهـوراً، أشاع بعض النـاس في المحلة أنه قد ذهب إلى تركيـا، حيث انضم إلى الفرقـة التركيـة التي أرسلت إلى كوريا، ليخوض الحرب إلى جـانب الأميركيـين ضـد الثوار الشيـوعيين. في حـين قال آخـرون إنه يقـاتـل، في الحقيقة، إلى جانب الشيوعيين ضد الأميركيين.

لقـد أخـافت المـذبحـة التي شهـدتهـا كـاوربـاغي العمـال المضربـين، فعادوا في اليـوم التالي إلى أعمـالهم في شركة النفط، كـأن شيئاً لم يكن، متجنبـين النظـر في عيـون بعضهم الآخـر، خشية أن يكشفوا عن خجل قلوبهم. لقـد خسروا معركتهم، ولم يعـد أمامهم سـوى العودة مـرة أخرى إلى أعمـالهم، من دون شروط، وقبل كل شيء، من دون نقابة.

وفي هذا الوقت بالذات، حيث اعترف العمال بهزيمتهم، أقدم المستر تيسو عـلى تلبية جميـع ما كـان العمال قـد أضربوا من أجله، ما عدا الاعتراف بالنقابة؛ وهو أمـر قال عنـه إنه يخص السلطات المحلية لا شركة الآي. بي. سي، مؤكداً أنه لا يريد أن يكون هناك ستار حديدي بين العمـال والشركة، شبيـه بالستـار الحديدي الذي أقامه الشيوعيون في أوروبا؛ وهو تعبير كـان قد اقتبسه من ونستون تشرشـل، الذي ابتكـره قبل ذلـك بشهور، ونقلته مجلة قرندل، التي كانت تصدر في بغداد، لأول مرة عـلى لسان المدير العام للشركة.

والحق، أن الموقف اللّيّن للمستـر تيسو، جـاء بعد اجتمـاع

خاص عقده مع قسم المخابرات البريطانية في شركة الآي. بي. سي. وحضره المستر جون براون، الذي كان يلقب بالعربي، ويمتلك صفة مستشار سياسي في السفارة البريطانية، الواقعة على نهر دجلة، من جهة الكرخ، في بغداد. فقد أولى المستر براون أهمية استثنائية لإضراب عمال النفط، أكثر مما كانت توليه الحكومة العراقية نفسها، مؤكداً أن الإضراب يعتبر حلقة في سلسلة المؤامرة الشيوعية العالمية، التي يقودها ستالين نفسه، لإنهاء النفوذ البريطاني في العالم، وإقامة دكتاتوريات شعبية، على غرار ما تفعله الشيوعية الآن في أوروبا الشرقية، واليونان الواقعة على تخوم الشرق الأوسط، وكردستان إيران الممتدة حتى العراق، والصين التي يسيطر ماوتسي تونغ على معظم أراضيها، وكذلك في كوريا وفيتنام. وأوضح المستر براون أن الحكومة العراقية معزولة تماماً، «ولكن شكراً لله على التشكيلة العشائرية لهذا الشعب، فالناس هنا تسير، عادة، وراء شيوخها، والشيوخ هم في جيب صديقنا المستر نوري السعيد. هذه هي ضمانة وجودنا في هذا البلد الآن، ولا شيء آخر». ثم كشف المستر براون أن المركز العام للمخابرات البريطانية في لندن، يمتلك معلومات تشير إلى احتمال أن يكون لبعض موظفي الشركة من الانكليز أنفسهم دور في تحريض العمال العراقيين على الإضراب. وقدّم قائمة بأسماء موظفين انكليز يعملون في الشركة، كانوا منتمين إلى الحزب الشيوعي البريطاني، أو أنهم كانوا من الفاعلين داخل الحركة اليسارية في بريطانيا. واختتم المستر براون حديثه بالقول: «إذا كان من الممكن القبول بمثل هذا الأمر، لاعتبارات تكتيكية، في زمن الحرب، فإنه من غير الممكن القبول به الآن». وفي هذا الاجتماع، الذي استمر أكثر من ساعتين، توصلوا، في النهاية،

twitter @baghdad_library

إلى ضرورة فرض رقابة سرية على الموظفين الانكليز اليساريين، حتى يتم نقلهم إلى انكلترا والاتصال بالمسؤولين العراقيين وإفهامهم أن الموقف الأفضل تجاه المضربين هو اللجوء إلى اللّين، لا التشدد، خشية انفجار العواطف الشعبية، وخاصة أن الكثيرين من العراقيين كانوا يعتبرون بريطانيا مسؤولة عن المذابح التي يرتكبها اليهود ضد العرب في فلسطين. وبعد ذلك، قاد المستر تيسو ضيفه المستر براون وأعضاء قسم المخابرات البريطانية في الشركة إلى حفلة عشاء خاصة، أقامها في النادي الانكليزي، أعقبتها حفلة راقصة، لم يشارك فيها المستر براون، بسبب التعب الذي كان يشعر به، بعد رحلته الشاقة من بغداد إلى كركوك، في مثل ذلك الحر الشديد الذي لم يتعود عليه، والذي كان يسبب له انخفاضاً مستمراً في الضغط. ولذلك انسحب معتذراً، طالباً من المستر تيسو ان يستمتع بوقته.

وفي اليوم التالي استغرب المتصرف أحمد سليمان عندما طلب منه المستر تيسو ضرورة استخدام اللّين مع العمال المعتقلين، بل وحتى إطلاق سراحهم، بعد محاكمة شكلية، مؤكداً على خطورة توتير الموقف الآن. نظر إليه المتصرف، وهو يجهد أن يكتم عواطفه الجياشة: «لو علم العمال بموقفكم الانساني هذا لما جرؤ أحد منهم على أن يفتح فمه، داعياً إلى الإضراب». فابتسم المستر تيسو، مزهواً: «أجل يا صاحب السعادة، إننا نضع الزهور، كل يوم، على قبر كارل ماركس في لندن». واتصل المتصرف بمدير الشرطة، ناقلاً إليه رغبة المستر تيسو في التساهل مع العمال المعتقلين. فقال مدير الشرطة: «لا أعرف إن كان ذلك ممكناً، فقد مات حتى الآن اثنان منهم تحت التعذيب والآخرون شبه موتى». أجاب المتصرف، بسرعة: «هذا

لا يغير من الأمر شيئاً، يمكنك أن تضيف هؤلاء إلى القتلى الآخرين، مدّعياً أنهم قد ماتوا في المستشفى، متأثرين بجراحهم. أما الآخرون فامنع رجالك من ضربهم، بل وعالجهم قبل أن نقدمهم إلى محكمة علنية، تطلق سراحهم، مؤكدين بذلك أننا ديمقراطيون بالفعل».

وهكذا، لم تجد المحكمة، التي انعقدت بعد ستة أسابيع من ذلك، ما يدين قادة الإضراب. وبرّأتهم من جميع التهم الموجّهة ضدهم، بل إن المحكمة تطرفت في نزاهتها، فأصدرت أمراً بإلقاء القبض على المعاون والشرطيين الثلاثة الذين كانوا معه في سيارة الشرطة المسلحة، متهمة إياهم بتدبير المذبحة. ولكن مدير الشرطة مزّق، فيما بعد، هذا الأمر بنفسه، قائلاً لرئيس المحكمة: «صحيح أننا طلبنا إليكم أن تكونوا نزيهين في إصدار حكمكم، ولكن ليس إلى الحد الذي ترسلون فيه رجالي إلى السجن». انزعج رجال الأمن، وهم يرون قادة الإضراب يعانق بعضهم الآخر، فرحين بإطلاق سراحهم، فاتجهوا إليهم هامسين: «لا تعتقدوا أنكم قد أفلتم من أيدينا. فسوف نعرف كيف نحطم جماجمكم إذا ما تنفستم مرة أخرى». ولكن العمال تجنبوا الردّ على هذا الاستفزاز، مستغربين النزاهة التي هبطت فجأة على الحكومة. كأن في الأمر ما يريب، ولكنهم فسّروا الأمر بتراجع الحكومة أمام الضغط الشعبي، مكتفين بالنجاة بجلدهم الذي كان لا يزال يحمل آثار السياط.

في الحقيقة، لم يحضر أحد من محلة جقور هذه المحاكمة، التي انعقدت في قاعة المحكمة الأولى في الطابق الثاني في السراي، والتي استمرت سبعة عشر يوماً سوى الملّا زين العابدين القادري الذي كان يريد التعرف على الشيوعيين عن

twitter @baghdad_library

كثب. وقد ساعده ذلك على تكوين انطباع إيجابي، بعض الشيء، عن هؤلاء الذين كان يسميهم الملاحدة. فقد عاد، وهو يقول إنهم لا يتميزون عن الآخرين إلا بعماهم وتعصبهم لبدعة اسمها الشيوعية، مؤكداً على أن كل بدعة هي ضلال، وخاصة عندما تكون بدعة إلحادية. ولكنه أوضح أيضاً للرجال الذين كانوا يحضرون مجلسه في الجامع أن الشيوعية، في الحقيقة، ليست من بنات أفكار ستالين، كما يزعم الشيوعيون، وإنما هي من صنع أحمد بن قرمط، الذي أسس أول شيوعية، مستهدفاً تدمير الدولة الإسلامية.

ما بين إضراب عمال النفط الفاشل والنزوح اليهودي العام إلى فلسطين، بعد ذلك بسنتين أو ثلاث، لم تقع أحداث تثير اهتمام محلة جقور، سوى التأييد الذي أظهره الناس لإعدام الجاسوس اليهودي عدس في بغداد، والموكب الذي نظمته محلة جقور بالطبول والدفوف، احتفاء بعودة ثلاثة من أبنائها الجنود الذين ذهبوا مع الجيش العراقي للقتال ضد اليهود في فلسطين، وهم الجنود أنفسهم الذين كان حميد نايلون قد كسبهم، ذات يوم، إلى جانب النقابة. وقد روى هؤلاء الجنود الثلاثة قصصاً مثيرة، تحولت، مع الزمن، إلى أساطير. فقد ذكر هؤلاء أن الجيش اليهودي ما كان ليستطيع أن يصمد حتى بضعة أيام أمام الجيش العراقي، الذي كان يزحف باتجاه حيفا ويافا وتل أبيب لولا خيانة نوري السعيد، الذي كان يأمر القادة العسكريين، في كل مرة، بالانسحاب من أي موقع يحتلونه. بل وأقسموا أنهم شاهدوا اليهود يرفعون صور نوري السعيد، ويهتفون باسمه. وكان الجمهور يضحك كلما رووا له الرعب الذي كان يصيب اليهود عند سماعهم باسم الجيش

العراقي، معتقدين أن العراقيين يأكلون البشر. فقد أسرَ الجيش العراقي، ذات مرة، عدداً من الهجّانة اليهود الذين وضعوهم داخل منطقة مغلقة. ثم جاء القائد العسكري العراقي وتفحصهم واحداً، بعد الآخر، ثم اختار خمسة منهم، وهو يقول: «خذوا هؤلاء الخمسة واذبحوهم، ثم جهزوهم للطبخ هذا اليوم، ثلاثة للغداء واثنان للعشاء». وهكذا اقتادوا هؤلاء اليهود المرعوبين إلى خيمتين منفصلتين، وجبة الغداء في خيمة، ووجبة العشاء في خيمة أخرى. ثم سهّلوا أمر هروب وجبة العشاء، التي نقلت الخبر المخيف إلى اليهود؛ وهو أن العراقيين يأكلون أسراهم، وكان ذلك، هو بالذات، الرسالة التي أراد القائد العسكري العراقي إيصالها إلى الجنود اليهود. وقبل ذلك، كانت قد وقعت حادثة، أثارت المدينة كلها، لا محلة جقور وحدها. فقد سقطت طائرة صغيرة، ذات راكبين؛ وهو أمر يحدث لأول مرة في كركوك فوق أشجار حديقة نادي الضباط، وهدمت جانباً من الجدار الخارجي، مطلّة بجناحها الأيمن على الشارع، والذي ظل الأطفال يؤرجحونه، متعلقين به، على الرغم من وجود شرطي حراسة، كان يضطر، أحياناً، للذهاب إلى المقهى القريب للتبول أو شرب الشاي. وقد تمكن هادي أحمد، وهو الصبي الذي ألصق الطبيب شبكية عينه بالصمغ، من التسلل إلى داخل الطائرة، من بابها المحطم، حيث عثر على بوصلة، ظل يعلقها في عنقه سنوات طويلة، مثل تميمة مباركة، لا ينزعها حتى عندما يدخل الحمام. بعد عودة الجنود الثلاثة من حرب فلسطين إلى محلة جقور، أخرجت الحكومة اليهود من البلاد، واضعة إياهم، مع حقائبهم، في شاحنات مفتوحة، كانت تتجه بهم، عبر الصحراء، إلى شرق الأردن، ومن ثم إلى إسرائيل. كان الكثيرون منهم يبكون، طالبين البقاء، وقائلين:

twitter @baghdad_library

«العراق هو وطننا». غير أن الشرطة كانت تعتقل أمثال هؤلاء الرافضين، متهمة إياهم بالجاسوسية والشيوعية، ثم تنقلهم في سيارات الشرطة لتقذف بهم إلى ما وراء الحدود. ولم يفلت من هذه المطاردة سوى بعض الفتيات اليهوديات، اللواتي كنّ على علاقة حب مع بعض الشبان المسلمين، الذين هربوهن وعقدوا قرانهم عليهن، بعد اشهارهن الاسلام. وقد رحبت محلة جقور كلها بالفتاة اليهودية حياة ساسون، التي غيرت اسمها إلى حياة يوسف، بعد أن تزوجت من نجاة سليم، الذي كان قد أنهى الدورة التدريبية في الشركة، واحتل مركزاً جيداً هناك، حيث أظهر براعة في اللغة الانكليزية؛ وهي براعة امتلكها من وَلَعِه بقراءة كتب مكسيم غوركي باللغة الانكليزية، والتي كانت مكتبة يوجين، الواقعة قرب سينما العلمين، تستوردها، من دون إثارة أية شكوك عند الشرطة، التي لم تكن تعرف الانكليزية بالطبع. وقد ذهبت نساء محلة جقور، ومعهن أطفالهن، للتفرج على الفتاة اليهودية المسلمة والترحيب بها. ففي صباح يوم الزفاف، رقصت أم نجاة سليم ونساء أخريات، استبد بهن الطرب، مشاركات الرقاص، وهو «الباقلة» التركماني، الذي كان يهز خصره على إيقاع فرقته المكونة من عازف مزمار وقارع طبل، رقصه. ولم تكن النساء ليخجلن من هؤلاء الرقاصين، الذين كانوا يحضرون هذه الحفلات المغلقة، مرتدين ملابس النساء، وواضعين الحمرة والبودرة على وجوههم. وبين حين وآخر، كانت إحدى النساء تدس قطعة نقد في يده وتبلغه بالاسم، فيتوقف، وهو يصيح بأعلى صوته: «شوباش» ثم يعلن عن اسم العائلة المتبرعة. ويضرب صاحبه مرة أخرى على الطبل، فيهتز خصره في حركة سريعة، تتابع الإيقاع.

وفي أثناء هذا الحفل، جاء من يقول أن والدَي حياة يقفان

أمـام البيت ويريـدان خطفهـا، فخـرجت أم نجـاة وقـذفتهمـا بالحجارة، شاتمة، وهي تقـول: «لقد أسلمت حيـاة، لا أمل لكم بعد الآن». فاضطرا إلى الانسحاب، وهما يبكيان. وعنـدما أراد الأطفـال ملاحقتهمـا منعتهم أم نجاة من ذلـك، قـائلـة: «هيـا ارجعوا إلى العرس. انهما والدا حياة، رغم كل شيء».

كانت الشاحنات تأتي كل يوم إلى محلـة اليهود، التي فتحت أبـواب منازلهـا أمام المسلمـين، بائعـة كل مـا يمكن بيعه، من الأثـاث المنزلي حتى القـدور واستكانـات الشـاي. ومن هنـاك، اشترت أم برهان سريراً حديديـاً بنصف دينار، استحـوذ عليه الصبي حال دخوله البيت. وعلى الـرغم من أنه سقط من فـوقه أثناء النوم مرات عدة، إلا أنه اعتاده في النهاية، بل انه أصبح أفضل مكان يكتب ويقرأ فيه، ومنع الآخرين من الصعود عليه.

وظهر حميد نايلون مـرة أخرى بعـد غياب استمـر أكثر من ثلاثة أشهر؛ كما لو أنه بزغ من باطن الأرض فجأة، مؤكداً أنه كان في لبنان، ومع ذلك لم يكن هنـاك ما يـوحي بأنـه قد جمـع ثروة ما. فقد عاد للعمل على خط كركوك ـ الحـويجة في سيـارة جيب، ناقلاً الأعراب مع أغنـامهم ودجاجـاتهم. في الحقيقة، ان حميـد نايلـون كـان قـد أخفى حتى عن زوجتـه، فـاطمـة، سر اختفـائه. فعنـدما أخفق الإضراب، الـذي واجهتـه الحكومـة بالرصاص، ركب السيارة واتجه إلى جمجمال التي تقع ما بـين كركوك والسليمانية، ومنها اتجه، مشيـاً على الأقـدام، حتى من دون دليل، إلى الجبال القريبة، باحثاً عن خولة بيس، وهـو لص كردي، قتل ثلاثة من رجال الشرطة، ثم لجأ إلى الجبل عـاصياً، حيث تبعـه كل من كـانت عنده مشكلـة مع الحكومة. وعنـدما حاولت الشرطة مطاردته؛ بعد ذلك، قتـل العشرات من رجالهـا،

twitter @baghdad_library

فرجعت مدحورة ذليلة. ظل حميد نايلون يبحث عنه من جبل إلى آخـر، حتى عثر عليـه، ذات يوم، أمـام مغارة في نهـايـة أحـد الأودية، فعرض عليه منذ لقائه الأول به أن يحوّل العصـابة إلى جيش للتحرير الشعبي، عـلى غرار جيش مـاوتسي تونـغ، ولكن هذا اللص، الذي كان أمّياً وقصير النظر، حدق في حميد نايلون ملياً، ثم قال له: «وماذا أكسب من ذلك؟» فأجابه حميد نايلون، بذكاء من يقرأ أفكار الآخر: «سوف تكون بطلاً شعبياً». ابتسم اللص، وقال: «ولكنني الآن بطل شعبي». وفشلت كـل الجهود، التي بذلها حميد نايلون معه بعـد ذلك، خـلال الشهور الثـلاثة التي أمضاها معه، فقد كانت في رأس الرجل فكرة واحدة فقط، هي أن يقتل أكبر عدد ممكن من رجال الشرطة؛ كما كـانت هذه هي أول مرة يفشل فيها حميد نايلون في إقناع أحد ما بفكرتـه. وقد فكر حميـد نايلـون أن يعلن هو بمفـرده العصيان والثـورة المسلحة، على غرار ثورة ماوتسي تونغ، الذي كـان يجلّه كثيـراً، لـولا أنه لم يكن يمتلـك حتى بندقيـة لإطلاق رصـاصة الثـورة الأولى. وهكذا، عاد حميـد نايلـون من حيث أتى، ولكن دون أن يفقد الأمل، فرحلة الألف ميـل تبدأ بخطـوة واحدة، كمـا يقول ماوتسي تونغ، وهي عبارة طالما رددها فاروق شامل أمامه.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع

twitter @baghdad_library

عاد الغنام خضر موسى من الحويجة بعد سنوات دون أن يحصل على الثروة التي كان يحلم بها، بل انه كاد ينتهي إلى السجن، لولا الرشاوى الكثيرة، التي دفعها لمدير الناحية والمعاون والمفوض، بل وحتى لرجال الشرطة الذين ظلوا يحومون حوله مثل الذباب. والحق، أنه أصاب في البداية حظاً كبيراً، وأصبح، خلال شهور قليلة، أحد المتنفذين وشريكاً لمدير الناحية والمعاون وبعض شيوخ القبائل في لعب القمار. عمل في البداية قصاباً. ثم سرعان ما بدل مهنته، وافتتح متجراً قريباً من منزله لبيع السكر والشاي والحبوب؛ بعد أن أصبح المتعهد الوحيد للتموين الحكومي في الناحية، لقاء مبلغ مئة دينار رشا بها الحكومة، استلمها مدير الناحية وطاقم الشرطة. ومع الزمن، تعلم أن يخسر، ولكن ليس كثيراً، عندما كان يلعب القمار مع ممثلي الحكومة. وكان عليه أيضاً أن يعلن ولاءه للحكومة باستمرار، عن طريق أكياس السكر والحبوب وصناديق الشاي السيلانية، التي كانت تحتوي عادة على فيلة سود صغيرة، لها أنياب من العاج، والتي كان الشرطيون يأتون من تلقاء أنفسهم، بحكم العادة، ويحملونها إلى رؤسائهم، هدايا من المتعهد خضر موسى. أما هم فكانوا يكتفون، شاكرين، حتى بحفنة سكر أو لفافة شاي

صغيرة، يجود بها المتعهد عليهم. ومع ذلك، والحق يقال، فإن تجارته هذه ما كانت لتقارن بمهنته السابقة كغنام أو كقصاب. فقد أقام، في البداية، علاقات وثيقة مع الأعراب، الذين كانوا يقصدونه من القرى المحيطة بالحويجة، مشترياً منهم أغنامهم التي كان يرسلها إلى كركوك، ولكنه اكتشف، مع الزمن، أن الأغنام كانت تبعده عن متجره، وتكلفه الكثير من الجهد والوقت، من دون أن تدر عليه ما يكفي من الأرباح. وهكذا، تخلى عن هذه التجارة، ولو جزئياً، عندما عثر على تجارة أخرى أكثر جدوى. فقد لاحظ أنه ما من تجارة يمكن أن تدر أرباحاً بقدر ما تدره تجارة الأسلحة المهربة، وبالأخص بنادق برنو البلجيكية التي كانت حلم كل فلاح، يسكن في أطراف الحويجة. فالبندقية، في هذه القرى الواقعة في السهول، رمز للقوة الاجتماعية والشرف، بقدر ما هي أداة للقتل، وسلاح مخيف في السلب والنهب ومواجهة القبائل المعادية، التي ما كانت الحروب لتنقطع بينها. بل انه كان يصعب على الأعرابي الحصول على زوجة له ما لم يقدِّم لوالدها بندقية جيدة، كمهر، يُسترجع إذا ما هجرته أو كانت عاقراً. ولما لم يكن هناك أعرابي واحد، لا يفكر في اقتناء واحدة أو اثنتين من النساء، اكتسبت البندقية، مع الزمن، منذ وصولها إلى رجال القبائل، عن طريق الهايته العثمانيين، في بدايات القرن التاسع عشر، بل وربما حتى قبل ذلك، قيمة استثنائية، لا يعادلها حتى الذهب نفسه. وهكذا، دخل خضر موسى عالماً جديداً، كاد يكلفه حياته أو ينتهي به إلى السجن. صحيح أنه اشترى بسهولة صمت الحكومة، وربح الكثير من المال، إلا أن الأمور انقلبت ضده في النهاية، بصورة غير متوقعة. وقد عزا ذلك، بكل بساطة، إلى الحظ أو القدر، الذي ما كان بمقدوره التدخل في مجراه. فذات ليلة، هاجم الفلاحون العبيد،

twitter @baghdad_library

وهو أمر لم يحدث إلا مرة واحدة في عشرة أجيال، قصر رئيس عشيرتهم الشيخ محمود الهندي نفسه في منطقة العاصي، معترضين على سلب أراضيهم وطردهم منها. ولكن الشيخ محمود الهندي، الذي كان قد احتاط للأمر، وحوّل قصره إلى حصن منيع تصدى، هو وأتباعه المدججون بالأسلحة، للفلاحين المهاجمين، مستخدمين الطلقات الضوئية، لكشف مواقع الخصوم، والتي كانت ترى من الحويجة نفسها، بل ويقال إن ابنه أسرع لنجدته بطائرة هليكوبتر، قصفت الفلاحين بالقنابل. وقد انتهت هذه المعركة، التي استمرت ليلة كاملة، إلى مقتل سبعة وعشرين رجلاً من الفلاحين. وقد نقلت الشرطة جثثهم في اليوم التالي إلى الحويجة. ولما لم يكن ثمة مكان في مركز الشرطة؛ وربما أيضاً للتخلص من رائحتهم، التي بدأت تزكم الأنوف، بسبب الحر الشديد، فقد صفهم رجال الشرطة، الواحد جنب الآخر، دون أغطية، على الأرض، أمام المقهى المواجه للمركز، عند ساقية ماء صغيرة، تدلت أرجل بعضهم فيها.

لا شك أن خضر موسى لم يكن مسؤولاً عن مقتل هؤلاء، ولكنه كان الرجل الذي باعهم ما يكفي من البنادق، لإعلان عصيانهم ضد شيخهم. ويبدو أن مدير الناحية ومأمور المركز والمحققين، الذين قدموا إلى الحويجة، وجدوا فرصتهم كي يجردوا خضر موسى من كل ما ربحه، وبالذات بعد أن أقسم الشيخ الهندي على قتله، عقاباً له على فعلته. فقد كادوا يرمون به في السجن، لولا أنه رشا الجميع، حتى آخر شرطي في الناحية. ثم هرب هو وعائلته، ناجياً بجلده، ولم يظهر مرة أخرى هناك.

عاد خضر موسى إلى محلة جقور، وهو لا يعرف من أين يبدأ، شاعراً بالمرارة والخيبة ووطأة الزمن، بعد أن تجاوز الخمسين

من عمره. فقد سلم ما بقي عنده من نقود إلى زوجته نظيرة، التي شاركت أمها العجوز هداية في شراء الأقمشة وبيعها. أما هو فلم يعد يفعل شيئاً سوى الجلوس ساعات طويلة والتحديق في الناس. وفي الأيام الباردة، كان يجلس على حافة التنور، ويدلي ساقيه فيه؛ بعد أن تكون زوجته قد انتهت من الخبز، وخفت حرارة التنور، متلقياً شتائم زوجته، التي ما كان يرد عليها إلا نادراً.

ثم بدأ، فجأة، يصلي؛ هو الذي لم يكن قد دخل مسجداً من قبل. وأهداه حميد نايلون سبحة من «الكهرب» لم يكن ليتركها تفلت من بين أصابعه حتى أثناء النوم. وأخذ يذهب كل ليلة جمعة، إلى حلقة ذِكْر، يقوم فيها شيخ الطريقة بطعن أتباعه بالسيوف والحراب، التي كانت تظل معلقة بأجسادهم، دون أن تسقط قطرة دم أو يظهر أثر لجرح. كانت الدفوف تضرب، على إيقاع التراتيل الصوفية، التي تمجد النبي وتشيد بذِكْره. وكان الذِّكْر يستبد ببعضهم، على الإيقاع المكرر اللانهائي لكلمة الله، فيمسك الحاضرون به بقوة أو يرمونه أرضاً، حتى يهدأ بعد حين، مكررين كلمة الله، المرة تلو الأخرى. وكان خضر موسى يصطحب معه، أحياناً، ابن أخته برهان عبد الله، الذي كانت تثيره كثيراً رؤية الدراويش، وهم يسيرون على النار المتقدة أو يلتهمون الزجاج، أو عندما يقدِم شيخ الطريقة على ذبح أحد أتباعه، حيث يلقون عليه، بعد ذلك، قطعة من القماش، يغطونه بها، يرفعها الشيخ بنفسه، بعد أن يدمدم بدعائه السري، صائحاً، بصوت يسمعه الجميع: «هيا انهض الآن». فينهض الرجل، كما لو أنه لم يذبح. وقلّما كان يحدث أن المذبوح لا ينهض. وعند ذاك، ينادي الدراويش الجمهور: «هناك من لم يغتسل بعد الجماع.

twitter @baghdad_library

فليغادر المكان رجاء!» ولم يكن الذبيح لينهض إلا بعد أن يتسلل واحد من الحاضرين ويغادر المكان. وكانت التهاليل تدوي في الحلقة عندما تعود الروح إلى الذبيح وينهض مرة أخرى. وكان خضر موسى يروي، أحياناً، لابن أخته، في طريق العودة إلى البيت، أن الشيخ وهو من النقشبندية، لا يؤثّر فيه حتى الرصاص. فقد أسند، ذات مرة، ظهره إلى الجدار، وطلب من أحد أتباعه أن يفرغ فيه كل رصاصات مسدسه، ففعل؛ وعجزت الرصاصات حتى عن خدش الشيخ.

وفكر الفتى: «كان ينبغي على الحكومة أن تعيِّن هذا الشيخ النقشبندي في الجيش، وتحوّل الجنود كلهم إلى دراويش عنده، ثم ترسلهم إلى الحرب ضد إسرائيل. ترى مَنْ يقدر أن يهزمهم بعد ذلك؟»

وفي النهاية، دخل خضر موسى الخلوة في تكية، كانت تقع بين محلة جقور ومحلة المصلّى. واعتزل الناس لمدة أربعين يوماً، لم يكلم فيها أحداً، حيث كان يمد بالطعام من فتحة في الباب المغلق.

كان هذا هو الامتحان الذي يفرضه الباحثون عن الحقيقة والأولياء على أنفسهم. لقد استغرب الناس، في البداية، هذا التّحوّل الروحي، الذي طرأ على الغنام، الذي لم يكن يعرف من دنياه غير كنز الأموال، بل حتى أخته قدرية سخرت منه إذ قالت: «أكيد انه اكتشف طريقة، يخدع بها الله للحصول على مزيد من الأموال». أما حميد نايلون، فقد ذكر، معلقاً: «لقد كشف الله أمامه الحقيقة في وجوه الفلاحين الذين قتلتهم بنادقه».

ما كاد الغنام خضر موسى يغادر خلوته، حتى أعلن في جامع محلة جقور، وسط دهشة المصلين وإعجابهم، أنه استلم، خلال خلوته، رسالة الغيب التي تأمره بالخروج والبحث عن شقيقيه،

الضائعين منذ الحرب العالمية الأولى. وكان هذان الشقيقان، اللذان يكبرانه، قد ذهبا، مع الجنود العثمانيين، للقتال ضد الروس، وانقطعت أخبارهما بعد ذلك. ثم انتشرت، بعد سنوات، إشاعة تقول إنهما قد قتلا في الحرب، ودفنا في جبال القفقاس. ومع الزمن، نسي الناس قصة هذين الشابين اللذين عثر الصبي برهان عبد الله على آثارهما المتروكة في العلّيّة. ولكن ها هي رسالة الغيب تهبط على شقيقهما خضر موسى بعد أكثر من ثلاثين عاماً، لتبلغه أنهما ما زالا أسيرين في روسيا، ينتظران منْ يأتي ليعيدهما إلى بيتهما في محلة جقور. وقال خضر موسى: «سوف أذهب، ولن أرجع من دونهما». ورغم أنه ما كان أحد ليجرؤ على الشك في رسالة الغيب، حتى إذا كانت مما يصعب تصديقه، فإن الكثيرين سعوا إلى إقناعه بالعدول عن هذه المهمة المستحيلة، مؤكدين له أن مَنْ يحكم روسيا الآن هم البلاشفة، الذين سوف لا يترددون في قطع عنقه إذا ما رأوه يصلّي. واستخدم حميد نايلون معه المنطق، مؤكداً: أولًا، أنه لا يملك عنوان شقيقيه؛ وروسيا بلاد واسعة جداً. وثانياً، أنه لا يتكلم اللغة الروسية، ليسأل عن الأسيرين. وثالثاً، انهما إذا كانا لم يقتلا في الحرب العالمية الأولى، فإنهما ربما قتلا في الحرب العالمية الثانية. واتهمته زوجته نظيرة بالخرف والجنون، مهددة بربطه بالحبل واقتياده إلى سيد عربي، كان يعيش في كوخ على طرف المدينة، ليُخرج الشياطين من روحه. ولكن الناس نهروها غاضبين، مؤكدين لها، أنه واحد من الذين أنار الله أفئدتهم، وفتح أمام عيونهم أسرار الغيب.

وهكذا، بدأت محاولات خضر موسى، الألف، للهرب من البيت، والتي كانت تنتهي دائماً بالفشل. فقد كانت زوجته نظيرة تلحقه،

twitter @baghdad_library

في كل مرة، وتعيده إلى البيت. ففي المرة الأولى، أمسكت به من تلابيبه، وهو يجتاز الجسر الحجري باتجاه القورية. وفي المرة الثانية، أعادته، وهو يصعد تلة مصافي إسالة الماء، عند حديقة أم الربيعين، باتجاه قرية شوان. وفي المرة الثالثة، لم تبلغه إلا في مدينة التون كوبري، وفي الرابعة في داقوق، وفي الخامسة في راوندوز، وفي السادسة في القرنة، وفي السابعة في وادي الذهب في الصحراء الغربية. كانت تندب حظها، قائلة: «سوف تفترسه الذئاب أو تمزقه الدببة، قبل أن يبلغ شقيقيه، اللذين لم يبق منهما حتى عظامهما». وكان المحير في أمره، هو أنه يسير في كل اتجاه، كما لو أنه سوف يبلغ روسيا أنّى وَلّى وجهه وسار. وأخيراً، وبعد محاولات كثيرة فاشلة، اختفى خضر موسى، ولم تعثر عليه زوجته التي ظلت تبحث عنه طيلة أشهر ثلاثة، متنقلة بين المدن والقرى، ثم عادت يائسة، وهي تشتم العثمانيين الذين أخذوا شقيقيه معهم، وتركوهما يقتلان بالحراب، على أيدي الجنود الروس، في مكان ما في القفقاس. وبكت قدرية موسى، أخت خضر، وهي تقول: «أكيد أنه سيموت فوق الجبال الوعرة أو في الصحارى المقفرة». وأوشك ابنها برهان عبد الله أن يبكي هو الآخر، متأثراً ببكاء أمه، إلا أنه فكر في أن يصعد إلى العلّيّة، ويهبط إلى وادي الملائكة، ليسأل الشيوخ الثلاثة السائرين منذ الأزل، متجهين إلى محلة جقور. حاملين إليها الربيع، عن خاله «المنور»، الذي ذهب يبحث عن قتيلين منذ الحرب العالمية الأولى، فلعلهم يخبرونه بمصيره.

كان الشيوخ الثلاثة، الذين يشبهون الملائكة، يسيرون في صحراء مفتوحة على الأفق، تاركين آثار أقدامهم على الرمل الذي تسفه الريح. وكانت الشمس تسطع فوق الرؤوس، والأرض،

التي ينتشر فيها العاقول والصبار، تحترق تحت الأقدام. ومن بعيد، رأى برهان عبد الله قافلة جمال تتجه نحو قباب من ذهب، مدينة اسطورية على امتداد الأفق، وفكر، لا بد أنه السراب، قائلاً في نفسه: «ترى لماذا مرَّ هؤلاء الشيوخ بهذه الصحراء المقفرة؟» ثم أجاب: «لا بد أن الطريق إلى محلة جقور يمر من هنا». ورآه الرجال الثلاثة، الذين يشبهون الملائكة، فصاحوا به: «ها قد جئت مرة أخرى يا برهان!» ثم مازحه أحدهم، قائلاً: «هيا سِرْ أمامنا وشاركنا التعب!» ولكن برهان عبد الله تردّد قليلاً، محدقاً فيهم، ثم قال: «جئت أسألكم عن مصير خالي خضر موسى». سأل أحدهم: «ما به؟» رد برهان عبد الله، بحزن: «خرج يبحث عن شقيقيه، المفقودين منذ زمن طويل في روسيا». سأل أحدهم، مبتسماً: «ألا تبحث عن أخيك إذا ضاع؟» فقال برهان عبد الله: «ولكنهما مفقودان منذ زمن بعيد». فوضع أحد الرجال يده على كتف برهان وقال: «لا يدفن الزمن الحقيقة، تذكّر ذلك يا برهان ولا تنسه!» وهبط برهان عبد الله من العلّية، وهو لا يعرف إن كان خاله على حق أم على ضلال.

وفي المساء، حضر برهان عبد الله جلسة خاصة في بيت يقع في محلة بيريادي، دعاه إليها معلم اللغة العربية، الذي كان ينتمي إلى جمعية «الحياة الآخرة»، التي كانت قد اتخذت مقراً لها في بداية شارع أطلس، إزاء معتقل القشلة. ما كاد الصبي يدخل الغرفة الطويلة التي فرشت بالبسط والسجاد، ويجلس على الأرض، في المؤخرة، عند الباب، حتى أطفئت الأنوار، ورأى في الضوء الشاحب، الذي كان يتسلل إلى الغرفة، شبحاً يخرج فجأة من سقف الغرفة، ويهبط على مهل، يستقر، متربعاً في جلسته، في صدر المجلس، فضج الحاضرون، الذين كان عددهم

twitter @baghdad_library

يربو على الأربعين، بالتهليل والتكبير. كان الشبح رجلاً ذا وجه واسع نوراني وعينين تلتمعان في الظلمة، حتى لكأنهما عينا قطّ في الليل. وسأل برهان عبد الله جاره، الذي كان يجلس لصقه على الأرض: «مَنْ يكون هذا الرجل؟» فأجابه، هامساً: «ألا تعرف؟! إنه المرشد العام بنفسه». وشعر برهان عبد الله أنه أمام حدث سوف يظل عالقاً بذهنه فترة طويلة من الزمن.

لا شك أن ذلك الهبوط الدراماتيكي للرجل من سقف الغرفة، مثل قديس هابط من سماء أخرى، كان ضربة معلم. وبدأ الرجل خطبته في الظلام، حيث بدا الصوت كما لو أنه آتٍ من لا أحد، بل من لا مكان. كان الصوت في الظلام أشبه بنداء، لا زمان له، يدخل القلب فيرهبه بتجريده. وبدأ المرشد العام يتحدث، كما لو أنه يغني. كان صوته يرتجف، فتهتز معه الجدران. وبدأ الرجل خطبته بآيات من القرآن الكريم قبل أن يقول ما كان يريد قوله: «جئت أعلّمكم تجارة، ما بعدها تجارة. انظروا إلى الباعة في السوق، كيف ينادون على بضاعتهم بأحب الأسماء إلى المشترين. انظروا إلى الشيوعيين، كيف يزينون مبدأهم، مغرين الشباب بالاشتراكية. انظروا إلى الغرب كيف يتحدث عن الحرية والديمقراطية. ان واجبنا هو أن نبيع الإسلام، ونتنادي عليه بأسماء أكثر جاذبية حتى من مسميات الآخرين».

وبعد ساعة أو أكثر من الخطابة، حول مأساة كشمير، وطغيان عبد الناصر في مصر، ومصدّق في إيران، طلب من الحاضرين العمل على محاربة الإلحاد الذي يعمّ العالم؛ وهو أمر يعتمد، قبل كل شيء، على الطريقة التي يُثبت بها المرء وجود الله: «لا تدّخروا جهداً في الوصول إلى مثل هذا الهدف،

فهو أكثر جدوى من كل العلوم التي تتلقونها».

ثم نهض وقدَّم عرضاً أخيراً؛ ربما كان قد أراد به إثبات وجود الله. رفع يديه عالياً، ومدّهما إلى الأمام، ثم راح يرفرف بهما، مثل عصفور. فارتفع في الظلام نحو السقف، كما لو أن قوة اجتذبته إليه، وهو يقول: «وداعاً». ثم اختفى، مثل نجمة يحجبها السحاب فجأة، أو دخان يتلاشى في الفضاء. وفي اللحظة عينها، أضيئت الأنوار، فضج الحاضرون بالتهليل والتكبير، مأخوذين بسحر المعجزة التي وقعت أمام عيونهم، وهي معجزة لم يكن لأحد أن ينكر حدوثها في ذلك اليوم المقدس، على الرغم من عتمة الليل.

في الطريق إلى البيت، فكر الصبي أن هذا لا يثبت وجود الله، ففي إمكان أي ساحر أن يقدِّم عرضاً أفضل منه. فقد رأى، ذات مرة، في النادي الرياضي، في العيد، ساحراً يأكل رأسه، بل إن أحدهما اختفى حتى من دون إطفاء الأضواء. ومنذ تلك اللحظة، قرر برهان عبد الله أن يقوم، هو نفسه، بمعجزة أكثر إثارة من مجرد الاختفاء في الظلام. والأكثر من ذلك، ان شكوكاً مبهمة، ساورته في أن الأمر كله، ربما، كان مسرحية مدبرة، تدرّب عليها الرجل طويلاً حتى أتقنها. وهكذا، بدأ، منذ اليوم التالي، بحثه المضني للوصول إلى أسرار السحر. فقد اشترى كل كتاب يتحدث عن السحر والتنويم المغناطيسي؛ وهي في معظمها كتب صفراء رخيصة، تباع على الأرصفة. كما اتصل بالمنجمين والفلكيين، الذين كانوا ينتشرون في رؤوس الأزقة في المدينة، بل انه حاول إغراء حتى العجوز هداية، لتبوح له بأسرار اتصالها مع الشياطين. إلا أنها طردته، شاتمة أمه، التي لا تعرف كيف تربي أطفالها. وفكر في الانضمام إلى

twitter @baghdad_library

الدراويش، ولكنه تردد خائفاً؛ لأن هؤلاء لم يكونوا يعرفون غير الذبح والطعن بالسيوف والشيش، ولم يكن هو ليريد أن يجازف. وفي النهاية، فإنه بعد أن جمع عدداً كبيراً من كتب السحر والتنويم المغناطيسي والفلك والأطباق الطائرة، القادمة من عوالم أخرى، جلس وقرأها بإمعان، مطبّقاً كل التعليمات والتوجيهات التي تتضمنها.

كان أحد كتب السحر يقول إنه يمكن للمرء أن يختفي عن الأنظار، إذا ما قرأ سورة الناس مئة وخمسين مرة متتالية دون توقف. ففعل ذلك. وخرج إلى الفناء، ليرى فيما إذا كان الآخرون يرونه أم لا. فأصابه حزن شديد، عندما سمع أمه تقول له: «لماذا تحدّق فيَّ هكذا، كالأبله؟» وتأكد من أنه ما زال مرئياً. فعاد وقرأ السورة مرة أخرى، ولكن دون جدوى. فتخلى عن الأمر، معتقداً أن ثمة إشكالاً، لا يعرف حله. وفي كتاب آخر، اطلع على طريقة تمكّن المرء من السيطرة على الآخرين؛ وهي طريقة تجمع بين السحر والتنويم المغناطيسي. كانت الطريقة تقول: سر وراء أي شخص في الشارع، مركزاً عقلك وبصرك على أسفل عنقه، حتى تشعر أنك تسيطر عليه. ثم مُره أن يلتفت يميناً أو يساراً، وحتى إلى الخلف، بل يمكنك أن تأمره بالوقوف والإستدارة والسير في الإتجاه الآخر. والحقيقة، أن برهان عبد الله حقق، هنا، نتائج أفضل من نتائج تجربته السابقة. فقد كان بعضهم يلتفت، أحياناً، بعد جهد جهيد، ولو إلى غير الجهة التي كان الصبي قد قررها. وإذ لم تثمر هذه المحاولة تماماً، انتقل إلى التنويم المغناطيسي؛ بعد أن جمع عدداً من رفاق صفه، الذين كانوا يلتقون، عصر كل يوم، في غرفة ما، متخذاً من أحدهم وسيطاً، ينوّمه بتركيز النظر على

طرف سبابته، التي كان يمررها أمام عينيه، مردداً في أذنه: «ها إنك تنام، استرخ، ونم. ستفعل كل ما أطلبه منك». كان ذلك يستمر، أحياناً، ساعة أو بعض الساعة، فينام الوسيط أو يتظاهر بالنوم، وسط الهدوء في الغرفة المعتمة. إذ ذاك، يطلب إليه برهان عبد الله أن يخبره عمن يمر، اللحظة، أمام الباب في الشارع، فيفتح الوسيط فمه، وربما يقول: «إنني أرى جندياً يسير». فيهرع واحد أو اثنان منهم إلى الشارع، ليروا إن كان يقول الحق.

وأخيراً، اشترى منظاراً مقرّباً بخمسين فلساً من دكان في السوق، راح يراقب به، وهو فوق السطح، أرجاء السماء الزرقاء الصافية، لعلّه يرى واحداً من الأطباق الطائرة، الكثيرة، التي تأتي من كواكب أخرى، وتزور عالمنا الأرضي.

وكان أحد الكتب التي اشتراها من بائع، يفرش كتبه على الأرض، عند جدار مقر الشرطة الخيالة، ينقل أقوال طيارين وقساوسة وشرطة ومعلمين وربات بيوت، شاهدوا بأمّ أعينهم هذه الأجسام الغريبة، القادمة من حضارات غير أرضية؛ بل ان سلاح الجو الأميركي نفسه، طارد هذه الأطباق الطائرة أكثر من مرة، ولكن عبثاً، فقد كان هؤلاء الزوار الغرباء يفلتون دائماً. وكان الكتاب يتضمن أيضاً حكايات عن أناس، تمكنوا من الإتصال مع هؤلاء الزوار. ولكن والحق يقال أن برهان عبد الله، كان يدرك أن مشاهدة هذه الأطباق الطائرة غالباً ما تعتمد على الصدفة، حتى مع الإمكانات التي يتيحها منظاره المقرِّب.

وإذ أخفقت محاولاته هذه في السحر والتنويم المغناطيسي والاتصال بالكواكب الأخرى، صعد إلى العلّيّة، منحدراً إلى

twitter @baghdad_library

الملائكة الثلاثة السائرين في الـزمن، والقاصـدين محلة جقـور، ليسـألهم العون. قـال الصبي برهـان عبـد اللـه: «جئت أطلب أسرار القوة». ابتسم أحد الشيوخ الثلاثة: «القوة؟ ماذا تقصد بـذلك؟» أجـاب الصبي بهدوء: «أن يقف الحبـل إذا ما أمـرته بالوقـوف، أن تشرق الشمس في الليل، أن ينهق الـديك، وينبـح الحمار، إذا ما أردت ذلك». ضحك الشيـوخ الثلاثـة، وجلسوا على الأرض، تحت شجرة مورقة، طلباً للراحة، ثم قال أحـدهم: «هـا أنت تطلب المستحيل يـا بـرهـان، تطلب أن تكـون اللـه». استغرب برهان عبد اللـه الأمر، وأجـاب، مستنكراً: «أردت أن تكون لي معجزاتي، مثل الآخرين. لقـد مشى المسيح فـوق الماء. ورمى موسى عصاه، فتحـولت إلى حية تسعى. ورفـرف المرشـد العـام بيديـه، مثل عصفـور، وطار». صمت الشيـوخ الثلاثـة، محـدّقين في الصبي، ثم قـال أحدهم مُطـرقاً بـرأسه ومتـأملاً: «نحن لسنـا سوى شيـوخ ثلاثـة، منهَكين، نسـير في الزمن، لا نملك في أكياسنا سوى هذا الربيع، الذي نحمله إلى جقور». ثم نهض الرجال الثلاثة، وحملوا أكياسهم على أكتافهم وابتعـدوا، سائرين مثل أشباح خـارجة من المـاضي. فعاد الصبي بـرهان عبد الله، أكثر حيرة مما مضى.

وعلى الرغم من اليأس الذي داخل قلب برهان عبد الله، فإن حياته شهدت، بعد شهر أو أقل من شهر، انقلابـاً، جعله ينسى كل محاولاته المحبطة السابقة. فقد قرر والده عبد الله علي مـد الكهرباء إلى البيت، بل انه اشترى أيضاً جهاز راديو خشبيـاً، كبير الحجم، كان يفتح، كل يوم، بأعلى صوته، إرضاءً للجيران، الذين كانوا يهوون الإستماع إلى الأغاني والأحـاديث الدينيـة. كما فرح سكان محلة جقور عندما جاءت البلدية وبلطت شـارع

المحلة. ولكن الفرحة سرعان ما تحولت إلى شتـائم للبلديـة التي جاءت تطالبهم بدفع كلفة التبليط، محتسبة الأمتـار المطلة عـلى الشارع لكل بيت. وأخيراً رضخ الناس لقدرهم، بعـد أن قررت البلدية تقسيط المبالغ. وهي مبالغ ظلـوا يماطلـون في دفعها إلى أن يئست البلدية فقررت إلغاءها.

كان برهان عبد الله يدرك، بصـورة غير واضحـة، أن الزمن يتغـير. فقد اختفى من المقـاهي الغرامـافـون، ذو الكلب الـذي يقرفص أمام مكبر الصوت، واستبـدل بأجهـزة راديو، تـوضع عـالياً، فـوق رفٍ في مقدمـة المقهى، كانت تبث دائمـاً، تقريبـاً، أغاني لميعة توفيق وخضير أبـو عزيـز. وفي الليالي، كـان صوت عبـد الباسط يمـلأ فضاء المـدينة كلهـا، ويضيء أرواح الفقراء بآيات القرآن التي يعيد ترتيلها المـرة تلو الأخـرى، حتى لكأن صـوته يتـدفق من نبع في الأبـدية. وفي ذات ليلـة صيف، أطل كثيرونَ من الناس في محلة جقور برؤوسـهم من السطوح، بل ان بعضـهم هبط إلى الشـارع، وهرع إلى بيت عـزة، وهو فتى كـان وحيد والديه العجوزين، ويملك دكاناً في المحلة، يـديره معهمـا. كان والدا عـزة العجوزان يتشـاجران ويشتم أحـدهما الآخـر بصوت عال. كـان الرجـل وزوجته يفضحـان عيوب بعضـهمـا، بطـريقـة لا ينبغي أن تصـل إلى آذان الآخـرين. وهكـذا، هبّ النـاس إليهما، لإسكـاتهمـا وإحـلال السـلام بينهمـا. ولكنهم بوغتوا عندما رأوهما يجلسان أمام البيت، مناديين على ابنهمـا أن يفتـح لهما بـاب البيت المغلق عـلى الأقـل. وسـأل النـاس، مندهشين: «ومَنْ هذان اللذان يتشاجران بأعلى صوتيهما فـوق السطـح؟» أجـابت أم عـزة: «لا أعـرف. انـه الشيطـان. لقـد تشاجرت مع العجوز ظهـراً، وها هـو الشيطان يعيـد شجارنـا

twitter @baghdad_library

كلمة، كلمة، في الليل». وهكذا، تعرف الناس على المسجِّل، الذي دخل محلة جقور بشجار علني بين العجوزين.

كان اختفاء خضر موسى المأساوي قد دفع قدرية، أخته، إلى البكاء عليه كل يوم، ناسية كل اغتياباتها السابقة ضده. أما زوجته، نظيرة فقد انتظرت أوبته ثلاثة أشهر، وعندما لم يعد ارتدت ثوب الحداد، وصلّى شيوخ محلة جقور على روحه صلاة الغائب. وكان ذلك إيذاناً بنسيان الرجل الذي خرج يبحث عن شقيقيه المفقودين.

ولكن هذا النسيان لم يدم طويلاً، فبعد أقل من عام من اختفاء خضر موسى، شاهد الناس، ذات صباح، منطاداً يحلّق فوق المدينة، كان أول منطاد تشهده كركوك على الإطلاق. أثار ظهور هذا المنطاد فوق مدينة كركوك فضول الناس ومخاوف المتصرف مدير الشرطة وقائد الفرقة الثانية، الذين اتخذوا الإجراءات الدفاعية الضرورية، خشية أن يكون المنطاد طليعة هجوم معادٍ. وبطريقة ما، وصل الخبر إلى مراسل إحدى وكالات الأنباء الأجنبية، فبث الخبر، مشيراً إلى وضع الجيش تحت الإنذار، توقعاً لتطورات محتملة. وظل الناس يعدون من شارع إلى آخر، متابعين حركة المنطاد، الذي كان يحلّق عالياً فوق المدينة. وأخيراً هبط المنطاد في حديقة المصلّى، حيث احتشد ألوف الناس، محيطين بالمكان، وخائفين، في الوقت نفسه، من الاقتراب من المنطاد. ولكن خوفهم تلاشى عندما رأوا ثلاثة رجال يغادرون المنطاد، ملوّحين بأيديهم للناس. وإذ اقتربوا أكثر، هتف القادمون من محلة جقور: «ها هو ذا خضر، لقد عاد. ولكن يا إلهي، لكم تغير!» فقد رأوا الغنام خضر موسى، الذي ما ارتدى، في حياته كلها، غير الجلباب يرتدي بذلة

كحلية أنيقة، ويعتمر قبعة سوداء، ويضع على عينيه نظارات طبية. وقف خضر موسى أمام المحتدشين، وألقى كلمة قصيرة، أوضح فيها أنه ذهب يبحث عن شقيقيه أحمد ومحمد، اللذين كانا مفقودين منذ أعوام طويلة، حتى عثر عليهما في الغربة وعاد بهما. وكان شقيقا خضر موسى يحدّقان، مبتسمَين، في وجوه الناس. وعندما وصل المتصرف ومدير الشرطة بنفسيهما، قال لهما خضر موسى بهدوء: «هل يمكن أن نتحدث في الأمر في مكان آخر؟» وصعد رجال المنطاد الثلاثة في سيارتي المتصرف ومدير الشرطة اللتين اختفتا عن الأنظار، فيما أحاط رجال الشرطة بالمنطاد، مانعين الناس من الوصول إليه.

بعد ثلاث ساعات أو أربع، عاد الأشقاء الثلاثة داخل سيارة المتصرف نفسه، مع سيارة شرطة ترافقها، إلى محلة جقور التي استقبلتهم باحتفال ما شهد له الناس مثيلاً من قبل، رافعة الأعلام واللافتات التي علقت فوق أعمدة الكهرباء: «محلة جقور ترحب بعودة أبنائها الغائبين». والحق، أن نصف سكان كركوك انتقلوا إلى هذه المحلة المنسية، لرؤية رجال المنطاد الثلاثة، مما أدى إلى سقوط الكثير من الأطفال والنساء تحت الأرجل، بل ان رجال الشرطة أنفسهم عجزوا عن إيقاف هذا المد البشري، الذي كان يكتسح كل شيء أمامه.

ورجا مدير الشرطة خضر موسى أن يلقي كلمة، يطلب فيها إلى الناس الإنصراف، لأن استمرار هذا الزحف على محلة جقور قد يؤدي إلى وقوع اضطرابات، تصعب السيطرة عليها. ولما كان من الصعب على أية بقعة في المحلة احتواء هذا الحشد البشري الهائل، اقترح الملاّ زين العابدين القادري أن يلقي خضر موسى كلمته من منارة المسجد، حيث توجد أربعة مكبرات

twitter @baghdad_library

للصوت. وهكذا، صعد خضر موسى إلى المنارة، وألقى خطبة قصيرة مؤثّرة، شكر فيها المتصرف ومدير الشرطة والمسؤولين الآخرين على حسن استقبالهم له ولشقيقيه، كما حيى أبناء محلة جقور ومدينة كركوك على عواطف أبنائها السامية، مؤكداً أنه عاد مع شقيقيه إلى الوطن بعد غياب طويل، ليعملوا من أجل رفعته وسموه، طالباً إليهم الإنصراف، ليتسنى لهم النوم، بعد رحلتهم الطويلة المضنية، التي قطعوها بالمنطاد. وهكذا، بدأ الناس ينصرفون، آسفين، وإن ظل بعضهم يجرجر رجليه، بتكاسل، وخاصة أولئك الذين جاؤوا من أحياء بعيدة، ليستمعوا إلى قصة الغنام، الذي عاد مع شقيقيه من روسيا، داخل منطاد قطع بهم ألوف الكيلومترات.

ومع ذلك، فإن القصة الحقيقية لهذه المغامرة، كانت على كل لسان في اليوم التالي. فقد تناقلها الناس، حتى دون حاجة لإضفاء شيء من الخيال عليها. ولماذا يفعلون ذلك إذا كانت هي نفسها أكثر إثارة من الخيال؟ وعلى أية حال، فإن خضر موسى نفسه، اضطر إلى رواية قصته المرة تلو الأخرى، دون ملل، ونشرتها جريدة «كركوك» في البداية، ثم ظهرت بطريقة مقتضبة ورديئة في جريدة «الزمان»، التي كانت تصدر في بغداد. وأخيراً قدِم صحافيون من أميركا وانكلترا وألمانيا وفرنسا، طالبين إليه شراء قصته. وهكذا، عادت إلى خضر موسى عادته القديمة في حب المال، فباع قصته، في وقت واحد، إلى عدة صحف، من بينها مجلة أميركية عرضت عليه مبلغ مئة ألف دولار، لقاء كتابة مذكراته، والتحليق مرة أخرى بالمنطاد فوق مدينة كركوك، لتصويره من جديد، فوافق بعد أن قال له المتصرف، الذي كانت المفاوضات تجري في غرفته، إن هذا المبلغ يزيد على

الثلاثين ألف دينار. في الحقيقة، إن خضر موسى، الذي حصل على ما يزيد على الخمسين ألف دينار، بضربة واحدة، بعد تقديم الهدايا المالية المناسبة إلى المتصرف ومدير الشرطة ورئيس البلدية، قرر أن يكون عادلاً هذه المرة. فوزع عشرين ألف دينار على شقيقيه وأختيه، قدرية وسلمى، وزوجته، نظيرة، وأمها الساحرة العجوز، هداية، وحميد نايلون وزوجته، فاطمة، بل وحتى على الصبي برهان عبد الله، الذي أفلح في أن يسلب منه مئة دينار. كما وزع خمسة آلاف دينار على بيوت محلة جقور، من دون استثناء أحد، اعترافاً منه بالاستقبال الحافل الذي أعدوه له ولشقيقيه، ولم يحتفظ لنفسه إلا بنصف المبلغ الذي هبط عليه من السماء، كما كان يقول. ولم يكن هذا كل ما في الأمر، فقد أصبح، فجأة، شخصية مرموقة في كركوك، حتى أن المتصرف عرض عليه الإنتقال إلى أحد الأحياء الراقية في المدينة، إلا أنه رفض ذلك، مشيراً إلى أنه لا يمكن أن يغادر محلة منحته الحياة.

روى خضر موسى قصته، التي جلبت له الجاه والمال، في الحقيقة، قبل أن يسمعها أحد، وهو يجلس بين شقيقيه على الأرض في محلة جقور، بتفاصيل لم يذكرها حتى للصحف والمجلات الغربية التي دفعت له بسخاء. وسط ضحك أبناء محلة جقور، روى الغنام كيف أنه ضلل زوجته نظيرة واستطاع الإفلات منها، وهي تلاحقه من مكان إلى آخر. اتجه أولاً نحو الجبال الكردية، سائراً على قدميه حتى بلغ وادي جبل حاج عمران، واتصل بشيخ عشيرة برزان، الذي أهداه بغلاً، وبعث معه مَنْ يرافقه في رحلته الصعبة تلك إلى روسيا. وهكذا سلك خضر موسى، مع دليله الممر الجبلي السري نفسه، الذي كان

twitter @baghdad_library

الملاّ مصطفى البرزاني قد قطعه قبل ذلك بسنوات، أثناء انسحابه مع قواته من الفلاحين الأكراد؛ شاقاً طريقه إلى روسيا، وسط معارك ضارية مع القوات العراقية والإيرانية التي كانت تطارده. وأخيراً، بعد مسيرة شاقة، وصل خضر موسى ودليله الحدود الروسية، حيث شاهدوا العلم الأحمر، ذا المنجل والمطرقة، يرفرف فوق مخفر الحدود السوفياتية التي اتجه إليها الدليل وطرق بابها المغلق، حيث استقبلهما آمر المخفر مرحباً بالدليل، الذي كان قد قدَّم إليه الهدايا، التي جلبها معه، والتي اعتاد البارزانيون تقديمها في كل مرة يعبرون فيها الحدود. وكان آمر المخفر من الكرم، بحيث أخرج ثلاث قنانٍ من الفودكا ووضعها أمامهما، طالباً إليهما مشاركته الشربَ، ولكنهما رفضا برقة، على الرغم من إلحاحه وإصراره. عند ذلك، قال الرجل: «لا بأس، سأشرب بدلاً عنكما»، فجرع القناني الثلاث وحده، قبل أن يودع خضر ودليله البارزاني، من دون أن يظهر عليه أي أثر للسكر، حتى أنه قدَّم لهما رقصة قوقازية، بقدمين ثابتتين، مثل قائمتَي الدب.

ثم سار الرجلان مدة ثلاثة أيام أخرى حتى بلغا قرية المهاجرين الأكراد، ذات الحكم الذاتي، حسب العادة السوفياتية. ولما كان الغنام، القادم من العراق، على عجلة من أمره، فقد صعد إلى القطار في اليوم التالي، متجهاً إلى طاشقند، وليس معه سوى رسالة توصية إلى مفتيها، من مدير الكولخوز الكردي، وبضعة روبلات، دسها رجال القرية في جيبه. وصل خضر موسى طاشقند في الصباح، فوجد الناس هناك يتكلمون لغة محلة جقور نفسها. قبل أن يقصد مقر المفتي، جلس في أحد المقاهي وشرب «استكاناً» من الشاي، رفض صاحب

المقهى أن يأخذ منه ثمنه، عندما اكتشف أنه من العراق، طالباً إليه أن يجلب له نسخة من القرآن الكريم، إذا ما زار طاشقند مرة أخرى، بل ان الرجل كان من اللطف، بحيث ترك عمله في المقهى، التابع للدولة، وصحبه إلى مقر المفتي، الذي كان من الصعب على رجل غريب، مثل خضر موسى، العثور عليه وحده. وقد فرح المفتي كثيراً، بعد أن قرأ رسالة صديقه، مدير الكولخوز، وقال، مداعباً: «كان ينبغي عليه أن يرسل لي معك خروفاً على الأقل». ثم اقترح عليه أن يعينه مؤذّناً في مسجد طاشقند الكبير، لأن الله منح العرب موهبة النطق الصحيح للكلمات العربية. وقد وافق خضر موسى على هذا الاقتراح، الذي كان يتناسب تماماً مع مؤهلاته، موضحاً للمفتي أن ما دفعه للمجيء إلى طاشقند هو رغبته في البحث عن شقيقيه الأسيرين عند الروس. فوعده المفتي بالإتصال بصديقه، مدير الشرطة، للبحث عنهما في كل الأماكن المحتملة.

مرت شهور عديدة قاسية على خضر موسى في غربته، وهو ينتظر في كل يوم خبراً، ينقله مدير الشرطة إليه. ولولا الأمل الذي كان يعمر قلبه لقفل راجعاً مرة أخرى إلى العراق. ولكن ما كان في إمكانه أن يعود خائباً، لأنه كان سيجعل من نفسه أضحوكة في محلة جقور كلها. ولذلك، صمد في زاوية المسجد، الذي كان يعيش فيه، وما من عزاء له سوى المرات الخمس التي كان يرتقي فيها شرفة المنارة، كل يوم، ليؤذّن، داعياً المؤمنين إلى الصلاة.

وفجأة، ذات يوم، عند الظهر، دخل المفتي ومعه مدير الشرطة إلى الجامع، يتبعهما رجلان عجوزان. فنهض خضر موسى لاستقبالهم محيياً، وقد أدرك، مثل ضوء يبزغ في العتمة،

twitter @baghdad_library

أنه يعرف الرجلين، اللذين كانا يحدقان فيه مندهشَين. فعانقهما حتى من دون أن يسألهما. كانا يشبهانه تماماً. وقال المفتي التركماني: «لقد جئناك بشقيقيك. فماذا تريد أكثر من ذلك؟»

وأخذه شقيقاه معهما إلى بيتهما الذي كانا يعيشان فيه معاً. ورويا له كيف أنهما أُسرا وأُخذا إلى طاشقند، وشهدا كل أهوال الحرب الأهلية، التي استمرت عدة سنوات. وبعد ذلك، منعا من مغادرة البلاد، أسوة بالمواطنين الآخرين. ولكنهما لم يفقدا الأمل في العودة ذات يوم إلى محلة جقور، ومن أجل ذلك، رفضا أن يتزوجا، حتى لا يستبدلا الوطن بالمرأة.

وكان عليهما الآن أن يتدبرا أمر عودتهما، بعد أن اعترفت الشرطة بكونهما أجانب، لا تنطبق عليهما القيود المفروضة على السفر. كان خضر موسى يريد العودة بهما من الطريق السري نفسه، الذي سلكه بين جبال كردستان، ولكن مدير الشرطة نهاه عن ذلك، مؤكداً أنهم إذا ما وقعوا في أيدي حرس الحدود في إيران أو العراق، وهَو احتمال قائم دائماً، فإنهم سيرمَون بالرصاص، كجواسيس، حتى قبل أن يستمع إليهم أحد. والأسوأ من ذلك، أنهم ما كانوا يملكون حتى جوازات سفر عراقية. واضطر مدير الشرطة للجوء إلى المخابرات السرية؛ فيما عرض المفتي قضيتهم على اللجنة المركزية، التي كان، هو نفسه، عضواً فيها لإيجاد حل للأخوة الثلاثة. كان الأمر معقداً للغاية، بحيث اضطرت اللجنة المركزية إلى عقد ثلاثة اجتماعات، دون أن تتوصل إلى حل، مما اضطرها إلى طلب النجدة من المخابرات، التي كان في إمكانها أن تفكر في كل شيء تقريباً، حتى التفاصيل الصغيرة. وقال كوليانوفسكي، مدير

المخابرات، للمفتي، مبتسماً: «لا عليك، كل شيء سيكون على ما يرام». وقد ارتعب خضر موسى، في البداية، عندما قيل له إنهم سوف يطيرون، إلى كركوك، داخل منطاد. إذ لم تكن في رأسه سوى فكرة مبهمة عنه، ولكن شقيقيه، اللذين كانا قد عملا في العديد من المصانع الحربية، أكدا له أن السفر في المنطاد متعة، ما بعدها متعة. وفي الحقيقة، ان المخابرات، التي قررت إعادتهم في منطاد إلى العراق، فكرت في كل الاحتمالات. فقبل كل شيء، كانت العلاقات الدبلوماسية والسياسية مع العراق مقطوعة؛ وهذا يعني أنهم سوف يتعرضون إلى خطر شديد، إن هي قذفت بهم، ببساطة، خارج الحدود، أو حتى لو أنها زوّدتهم بوثائق مزوّرة. أما السفر في منطاد، فكان يعني أنهم سيصلون إلى العراق بسرعة، تجنب الشيوخ الثلاثة وعورة الطريق، التي قد لا يتحملونها. ولكن الأهم من ذلك، وهو ما سيضلل السلطات العراقية، ويجعلها تغفر لهم كل شيء، هو أن يدّعي الرجال الثلاثة الهرب من الشيوعية في منطاد، في قصة متقنة، كرروها المرة تلو الأخرى، حتى لا ينسوا تفاصيلها، وهي القصة نفسها التي أعادوها أمام الجميع، من المتصرف وحتى المجلة الأميركية، التي نشرت مذكرات خضر موسى تحت عنوان مثير: «هربوا في منطاد من جحيم الشيوعية».

في الحقيقة، ان المخابرات السوفياتية، التي افتعلت هذه العملية، كانت قد قدرت أن الروح الدعائية عند الأميركيين سوف تعميهم عن رؤية أي شيء آخر. صحيح أن المخابرات السوفياتية كانت لا ترى بأساً في أن يعود الرجال الثلاثة إلى بلادهم، ولكن ما كان يهمها أكثر من ذلك، هو تحديد مواقع القواعد العسكرية التي كان حلف بغداد قد بدأ بإنشائها، وما

twitter @baghdad_library

إذا كانت تحتوي على أية أسلحة نووية. وهكذا، ملأوا المنطاد بغاز خاص، كان لا يزال يعتبر أحد أسرارهم العسكرية، يبث أشعة خاصة، تحدد موقع كل قاعدة عسكرية، بل وحتى أنواع الأسلحة التي تتضمنها. وبالطبع، فإن الشيوخ الثلاثة، بل وحتى المفتي ومدير الشرطة واللجنة المركزية كانوا يجهلون كل ذلك؛ وهو أمر لم يكن يخصهم على أية حال. وقد كانت رحلة المنطاد، التي استمرت سبعة عشر يوماً، ممتعة حقاً، لولا بعض المخاطر التي تعرضوا لها في الطريق؛ ومنها أن نسراً، كان قد أثاره، كما يبدو، المنظر السماوي الغريب، هاجم المنطاد حتى خشي شقيقا خضر، اللذان كانا يتوليان القيادة، أن يتسبب النسر في سقوطهم. ولكنه تركهم، عندما راحوا يصرخون، بأعلى أصواتهم، قاذفين إياه بكل ما يمكن رميه. وفي الطريق أيضاً، أطلق بعض الأكراد الجبليين النار على المنطاد، معتقدين أنه مركبة يقودها الشيطان، مما أرغم الرجال الثلاثة على الارتفاع أكثر في الجو. وما عدا ذلك، فقد سار كل شيء على ما يرام، مستدلين على الطريق تارة بالبوصلة وأخرى بعيني خضر موسى، الذي كان يحفظ، عن ظهر قلب، كل المعالم المهمة في الطريق.

وتركت عودة خضر موسى، مع شقيقيه، إلى محلة جقور، داخل منطاد، أثراً لا يمحى في قلب الصبي برهان عبد الله، الذي زاد إيمانه بقوة العلم والمخترعات الحديثة، وتخلى عن كل رغباته السحرية في التحليق أو الاختفاء على طريقة المرشد العام، مكرساً الكثير من الجهد لوضع نظرية علمية، ربما رياضية، تكشف سر وجود الكون، السؤال الذي لم يعثر على جواب له حتى في الدين.

وفي الحقيقة، ان هذا التـأثير لم يقتصر عـلى الصبي برهـان عبـد الله وحـده، فقد انقلبت حيـاة محلـة جقـور كلهـا. أعـاد الكثـيرون ترميم بيـوتهم، ومـلأوا مخـازنهم بـالحبـوب والـرز، واشترى بعضهم دكاكـين صغيرة في السـوق. كما تخـلى حميد نايلون، ولـو مؤقتاً، عن فكـرة تشكيل جيش للتحـرير الشعبي، بعد أن اشترى سيارة خاصـة به، وعثـر على عـاهرة، يـزورها خلسـة، مرتـين في الأسبوع، هـارباً من بكـاء وصراخ الطفلـين التوأمين، اللـذين وضعتهما زوجتـه، دفعة واحـدة، معتقدة أن ذلـك قـد حـدث بسبب قـوة الأدعيـة التي حصلت عليهـا من الأئمة.

وقـد اكتسبت محلة جقـور شرفاً كبيـراً، عندمـا جـاء الملـك فيصل الثاني إلى مدينة كركوك في سيـارة رولز رويس، يسبقهـا شرطيا مرور على دراجتين بخاريتين، وتتبعها سيارة جيب، تابعة للشرطة، يقف فيها ثلاثة رجال، للحراسة. كان تلاميذ المـدارس قـد خرجـوا واصطفوا في شـارع الأوقـاف، منتظـرين مليكهم الشـاب، الـذي كـان يحيي شعبـه، مبتسمـاً من وراء زجـاج السيارة. ذبح خضر موسى بنفسه خـروفاً أمـام السيارة. وهتف برهان عبد الله، الذي اختير من قبل مدرستـه: «يعيش صاحب الجلالة، مليكنـا المفدّى فيصـل الثاني». ولكن السيـارة الملكية كانت قد تجاوزته، فلم يسمع الملك هتافه. وفي المسـاء، استقبل الملك الشاب خضر موسى وشقيقيه، العائدين من روسيا، وقلدهم وسام الرافدين، من الدرجة الثانيـة، مشيراً إلى أن شجـاعتهم النادرة ومحبتهم لوطنهم، جعلت العالم كله يتحـدث عنهم. هذه اللمسة الإنسانيـة من الملك الشـاب مست أعماق الحـاضرين، حتى أن المتصرف نفسـه اغرورقت عينـاه بـالـدمـوع، وكـابـد الآخرون، كي لا تفضـحهم عواطفهم، التي فجرها حضور الملك.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس

twitter @baghdad_library

ما كاد الناس، في محلة جقور، يسمعون بنية البلدية في شق طريق عبر المقبرة القريبة، الواقعة في المصلّى، حتى اتصلوا بخضر موسى، طالبين إليه التدخل لوقف هذا الانتهاك الفظ، والتوسط لدى المتصرف أو حتى الملك، إذا ما أصرت البلدية على تحدي مشاعر المسلمين. كان ذلك، في الواقع، أكثر مما يطيقه أبناء مدينة كركوك، إذ يمكن للمرء أن يقبل أي شيء، ولكن أن تقوم الحكومة بنبش قبور الآباء والأجداد، وبينهم كثير من الأولياء الصالحين، فهو الكفر بعينه. ضم الوفد الذي تشكل، كالعادة، بطريقة عفوية، وجهاء المحلة وشيوخها، ومن بينهم الملاّ زين العابدين القادري، على الرغم من أنه كان قد قرر، منذ جره إلى مخفر الشرطة والتحقيق معه، بسبب شتائمه النارية ضد الانكليز، أن يطلِّق السياسة نهائياً، إلا أنه اعتبر الأمر، هذه المرة، قضية دينية، لا يجوز التهاون فيها. صحيح أنه كان قد قال للمفوض الشاب، وهو يودعه، عند الباب: «سوف أبتعد عن ذِكْر أبي ناجي(*) ما دام ذلك يزعج حكومتنا

(*) أبو ناجي: لقب كان العراقيون يطلقونه على الانكليز أيام الحكم الملكي في العراق.

الرشيدة»؛ إلا أنه لم يلتزم أمامه أبداً بالإبتعاد عن الله. بل إن المفوض نفسه طلب إليه الإلتزام بكتاب الله وسنة رسوله؛ فالسياسة للسياسيين، والدين لرجال الدين، ولا يصح لأحد الطرفين أن يتدخل في الشؤون الخاصة للطرف الآخر. وكان هذا الصواب عينه، في نظر الملاّ زين العابدين القادري. فالمقبرة تخص رجال الدين، ولا علاقة لها بأبي ناجي أو حتى بالحكومة. وقال خضر موسى، بعد صمت طويل، بدا مضنياً للرجال الذين حسبوا أنه قد نسي الكلام: «سوف نتصل برئيس البلدية أولاً، ونعرض عليه الأمر. لا ينبغي القيام بأي عمل طائش قبل انجلاء الموقف. هناك الكثير الذي يمكن عمله». ورد سلمان حنش مختار محلة جقور: «لا أشك أن رئيس البلدية مسلم، مثلنا، ولا يمكن أن يقبل بتدنيس قبور أجداده». وتدخل الملاّ زين العابدين القادري، مخاطباً خضر موسى: «كنت أحبذ أن تتصل بالملك فيصل نفسه، حتى يدرك الجميع أن محلة جقور ليست لقمة سائغة بيد كل من هب ودب». وابتسم خضر موسى: «لا ينبغي أن نشغل الملك بكل صغيرة وكبيرة. إنه موجود يمكن الاتصال به في أي وقت، إذا ما انغلقت في وجوهنا الأبواب الأخرى. تذكروا أن المقبرة لا تخص محلة جقور وحدها، وإنما كركوك كلها. لسنا وحدنا المسؤولين عن ذلك». وهكذا، قصد الوفد الذي قاده خضر موسى، والذي ضم الملاّ زين العابدين القادري والمختار سلمان حنش والتاجر الحاج أحمد الصابونجي، في اليوم التالي، مكتب رئيس البلدية، الواقع وراء حديقة العلمين. وقد قادهم الفرّاش، الذي يقف في الباب، إلى مكتب رئيس البلدية، الذي خرج، هو الآخر، لاستقبالهم، مرحباً بهم بحرارة. كان رئيس البلدية رجلاً في حوالي الأربعين من عمره، يضع وردة حمراء على الجانب الأيسر من ياقة

twitter @baghdad_library

سترته الزرقاء، وينتعل حذاء «جم جم»، أسود اللون، وهو حذاء ذو مقدمة منحنية إلى الأعلى، استمد اسمه الغريب من أغنية «جم جم» الهندية، التي انتشرت، في ذلك الحين، بطريقة غريبة، في كركوك وباقي المدن الأخرى.

ورغم أن منظر رئيس البلدية بدا فكاهياً، بشكل ما، بصلعته المبكرة، التي اجتاحت وسط رأسه، فغطاها بالشعر الأكثف عند صدغيه، مثبتاً إياه بـ «سبراي» كان يباع في معظم الحوانيت الموجودة في شارع الأوقاف، وبشاربه القصير، المعتنى به جيداً، فإنه كان من النمط القادر على كسب ودّ الآخرين، بسهولة، دون أن يُفقده ذلك هيبة الوظيفة التي يمثلها. وقد أضفت رائحة أعواد البخور الخضراء المحروقة، والتي وضعها، داخل زجاجة، فوق رف خشبي، وراءه على الجدار، تحت صورة الملك فيصل الثاني، والوصي عبد الإله، جواً من الإلفة على الغرفة الأنيقة المستطيلة، التي كانت تنتهي بمنضدة من المعدن الرمادي. وعلى طرفي المكتب، كانت توجد بضعة مقاعد من قماش أصفر، شحب لونه بسبب القِدَم، ولكنه ظل نظيفاً. ودخل الفراش بـ «استكانات» الشاي، التي وضعها على مناضد صغيرة، ملحقة بالمقاعد. ونهض رئيس البلدية مقدماً اليهم لفافات تبغ من علبة «جون بلاير»، بلاستيكية سوداء، مذهبة بحروف لاتينية. فقال الملاّ زين العابدين القادري: «جزاك الله خيراً يا بني». وتدخل الحاج أحمد الصابونجي: «أكاد أعرفك. قل لي، ألست أنت ابن عزة أفندي؟» وابتسم رئيس البلدية: «بالطبع، يا عم، إن والدي يذكرك دائماً بكل خير». وسأل الحاج أحمد الصابونجي، بمودة: «وكيف هو؟ إنني لم أره منذ مدة طويلة». وردّ رئيس البلدية: «انه يستمتع بوقته الآن في

تركيا. تعرف كم يحب والدي استانبول». وقال الحاج أحمد الصابونجي: «تذكرت الآن. أنت إحسان بالتأكيد». وضحك رئيس البلدية: «لقد عرفتني أخيراً». ثم حدّق في خضر موسى والملاّ زين العابدين القادري، مستطرداً: «إنني أعرفكم جميعاً، وانه لشرف كبير لي أن يتكرم بزيارتي أشخاص مثل خضر موسى والملاّ زين العابدين القادري وصديق شخصي لوالدي، مثل الحاج أحمد الصابونجي».

وعند هذا الحد، وجد خضر موسى أن الوقت قد حان للدخول في الموضوع: «تعرف أنه لا يحق لأحد إزعاج الموتى في الحياة الآخرة. ثم ان هؤلاء الموتى هم أباؤنا وأجدادنا الذين ينتظرون منا الدفاع عنهم وحمايتهم من الأذى. ولكن ها هي البلدية تريد نبش قبور موتانا، بحجة شق طريق جديدة. لقد جئنا لنقدِّم لك التماساً بالعمل على إيقاف هذا المشروع، الذي سوف يثير بلبلة شديدة بين كل أبناء كركوك». كان خضر موسى قد قال، في الحقيقة، كل ما كان يريد قوله، بأقل الجمل، إيجازاً، مشيراً في الوقت نفسه إلى العواقب الخطرة لمثل هذا العمل. وأطرق رئيس البلدية إحسان عزة أفندي برأسه، كما لو أنه يستجمع أفكاره، في حين راح الملاّ زين العابدين القادري يكرر، مع نفسه، دون انقطاع: «استغفر الله العلي العظيم، استغفر الله العلي العظيم». وأخيراً، قال رئيس البلدية، بحياء من يخجل من نفسه: «ان انزعاجي ليس أقل من انزعاجكم. ومقبرة المصلّى هي كل تاريخنا في هذه المدينة. يكفي أنها تضم رفات سيد قزي. ولكن الأمر ليس في يدي. إنه أمر من فوق». وتدخل الملاّ زين العابدين القادري، الذي كان يهمه تجنب الدخول في صدام مع الإنكليز، بعد الوعد الذي قطعه على نفسه

twitter @baghdad_library

أمام المفوض: «لا يمكن أن تكون للإنكليز علاقة بمثل هذا الأمر الذي يخص المسلمين وحدهم». ولكن الملاّ كـان على خطـأ هذه المـرة، فقد هـز رئيس البلديـة رأسه، قـائلاً: «ان الأمـر يتعلق بشركـة النفط التي تريـد شق هذه الطـريق، عبـر المصـلّى إلى حقولها النفطية الجديدة». هذا الأمـر فاجـأ وفد محلـة جقور، بحيث لم يجـد خضر موسى مـا يقولـه سوى: «سـوف نفكـر في الأمر من جديد». وأعلن رئيس البلدية أنه يضع نفسه وجميـع الموظفين والعمال التابعين لدائرته تحت تصرف محلة جقور، من أجل خدمة هذه القضية العادلة. وعاد الـوفد، وهـو أكثر حـيرة ممـا مضى. ومع ذلـك، فإن وجهـاء المحلة لم يقطعـوا الأمـل في وضع حد لمثل هذا العمل الجائـر. فهناك، بعـد كل شيء، خضر موسى، الذي سوف يتصل بالملك ويبلغـه بهذا الظلم الفـاحش، إذا ما أصر الانكليز على شق طريقهم عبر قبور المسلمين. ووجد الملاّ زين العابدين القادري أن من الشرف أن يتصل بالمفـوض حسين الناصري، ليحرر نفسه أمامه من الـوعد الـذي كان قـد قطعه على نفسه بعدم مهاجمة الانكليز أو التعرض لهم؛ فـالأمر لا يقبل الاجتهاد هذه المرة، وهـو، كما قـال الملاّ زين العـابدين القـادري للمفـوض الشـاب: «جهـاد من أجـل الـدفـاع عن المقدسات الاسلامية»، وبلغت الجرأة بالملاّ، الذي تملكه شعوره الإسلامي، حد الطلب إلى المفـوض حسين النـاصري أن ينضم هـو ورجالـه من الشرطة، العلنيـين والسريين أيضـاً، إلى جبهة مسلمي محلة جقور، في مقاومة هذا العمل المستهجن، الـذي لا يحترم حتى راحة الأمـوات. ولكن المفوض ابتسم، وهـو يقول: «لا بد أن ثمة خطأ في الموضوع. لا يمكن للإنكليـز أن يرتكبـوا مثـل هذه الحمـاقة. ومـع ذلك، نـرجوك أن تعمـل على تهـدئـة الخواطر، حتى يكون أمامنا ما يكفي من الوقت لعمل شيء مـا.

وثقْ أن كل شيء سيكون على ما يرام». وخرج الملاّ زين العابدين القادري من القشلة، مزهواً بنفسه؛ فقد أصبح، أخيراً، حراً من ذلك الوعد، الذي كان قد قطعه على نفسه في لحظة ضعف. فالمفوض لم يطلب إليه، هذه المرة، الابتعاد عن شتم الانكليز، بل رجاه العمل على تهدئة الخواطر. وشعر بالقوة، مكرراً مع نفسه: «صحيح أن الله ينهى الإنسان عن رمي نفسه في التهلكة، ولكن الجهاد واجب على كل مسلم ومسلمة». وفي المساء، انعقد اجتماعان في محلة جقور. أحدهما في جامع محلة جقور، على السطح، بعد صلاة العشاء، حضره شيوخ المحلة، كالعادة. والآخر في الخرابة، التي كانت تضم الزورخانة، وحضره شبان المحلة ومعظمهم من الرياضيين، بالإضافة إلى النساء اللواتي تكتلن حول الخرابة بعباءاتهن السود مع أطفالهن الصغار المحمولين على الصدور. وفي هذين الاجتماعين، اللذين انعقدا حتى دون دعوة، أعلنت محلة جقور التمرد ضد البلدية وإحباط مشروع شق طريق عبر المقبرة، مهما كلف ذلك من ثمن. كان القرار قاطعاً في الاجتماعين، على الرغم من اختلاف السبل. فإذا كان الشبان الرياضيون قد قرروا منع البلدية، بالقوة، من شق الطريق، فإن شيوخ المحلة، المجتمعين على سطح المسجد، كانوا قد قرروا الاتصال بالمتصرف، للتدخل ولإيقاف هذا العدوان الجائر.

وفي اليوم التالي، أصدرت اللجنة النقابية في المحلة بياناً، كتب بخط اليد، واستنسخ بالكاربون، دعت فيه عمال البلدية إلى الإضراب والتضامن مع الموتى المسلمين، الذين تريد شركة النفط الانكليزية الإستعمارية نبش قبورهم.

كان الموقف، في واقع الحال، متوتراً، على الرغم من الهدوء

twitter @baghdad_library

الظـاهري المضلّـل؛ وهو هـدوء ما كـان ليتحقق لولا إلحـاحات شيوخ المحلة بتجنب الصـدام مع الشرطـة وموظفي الحكـومة، انتظـاراً لما ستسفـر عنـه اتصـالاتهم مـع المسؤولـين. وكـان الكثيرون منهم يعولـون، في الحقيقة، عـلى ما يمكن أن يقـوم به خضر موسى، الذي راح بعضهم يلقبه بالبـاشا، اعتبـاطاً، وهـو لقب استنكره خضر موسى بشدة، مؤكداً لأبناء محلته أن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فضل لعـربي على أعجمي إلا بالتقوى. وكـان خضر موسى يـدرك هو أيضـاً أن ثمة امتحـاناً ينتظره، وأن عليه أن يجتـاز هذا الامتحـان بنجاح. فـإذا كان الله قد مَنَّ عليه بفضله ومنحـه هذه المـرتبة العـالية بـين أبناء مـدينته، فعليـه أن يثبت لهم الآن أنه جـدير بكـل ذلـك. ولكن موضوع الاتصال بالملك كان يقلقه، فإذا مـا رفض الملك طلبـه، فـإنه يكـون قد وضـع نفسه في مـوقف محرج. وقـد نصح لـه شقيقـاه، العائـدان من روسيا، واللـذان كانـا يمتلكـان خبـرة واسعة في التعامل مع السلطات البيروقراطية، أن يبدأ عمله من الأسفـل أولًا، قبل اللجـوء إلى الكبـار، وخـاصـة الملـك. فقـد يستطيع، أحياناً، موظف صغـير أن يحل مـا لا يستطيع رئيس الـوزراء البتّ فيه. ونصحـا له بتقـديم الهـدايا؛ لأن الهـديـة المناسبة، تفتح أكثر القلوب انغلاقـاً. وهكذا، حمـل خضر موسى هداياه في عربة يجرها حصانان، بينما صعد هـو ووفد شيـوخ ووجهاء محلة جقور في عربتين أخريين، متجهين جميعاً نحو بيت المتصرف، الذي كان يقع في منطقة شاطرلـو، في الجانب الآخـر من مدينة كـركوك، مـودعين بهـلاهل نسـاء المحلة وصلـواتهن وابتهـالاتهن إلى الإمام أحمـد والشيخ عبـد القادر الكيـلاني، القادر على كل شيء. وإذا كانت النساء قد اختـرن التوسـل إلى هذين الإمامـين، فذلـك لأن الإمام أحمـد، الذي لا يعـرف أحد

قصته بالضبط، كان يعتبر الإمام الحامي لكل منطقة المصلّى، التي تقع فيها محلة جقور، أما الشيخ عبد القادر الكيلاني، الأعلى مقاماً، بالتأكيد، من الإمام أحمد، فكان يستشيط غضباً في مواجهة الظالمين. فقد رأى مرة، وهو يتوضأ في بغداد، السلطان همايون، وهو يحكم، ظلماً، على مسلم هندي فقير في مدينة أكرا، التي سميت، فيما بعد، باسم أكبر آباد؛ نسبة إلى ابن همايون، الذي حكم أكثر من خمسين عاماً، فناداه الشيخ الكيلاني: «ارجع عن حكمك يا سلطان همايون، فأنت تمثل إرادة الله فوق الأرض. أطلق سراح الرجل، فإنه صاحب عائلة، تنتظره في البيت». ولكن السلطان، كما يبدو، لم يشأ أن يسمع صوت الحق. إذ ذاك، استشاط الشيخ عبد القادر الكيلاني غضباً، وأمسك بقبقابه، الذي كان يضعه قربه، عند حافة الحوض الذي يتوضأ إليه، في الحضرة الكيلانية، الواقعة في جانب الرصافة في بغداد، ورمى به السلطان همايون الجائر، في الهند، فأصابه في ذقنه، مطيحاً به أرضاً، من فوق العرش الذي كان يجلس عليه. وكانت نساء محلة جقور متأكدات تماماً من أن جيوش الانكليز كلها، لن تصمد لحظة واحدة أمام قبقاب الشيخ الكيلاني، إذا ما قرر مد يد العون إلى مسلمي كركوك في الدفاع عن قبور موتاهم.

ذات صباح، سارت العربات الثلاث، الواحدة بعد الأخرى، عبر السوق الصغير، ومن ثم السوق الكبير، حيث كان القصابون يجلسون على كراس موضوعة مباشرة أمام خطاطيفهم، التي تتدلى منها الذبائح، واضعين سكاكينهم في الأحزمة الجلدية التي يشدونها على أوساطهم، فوق دشداشات غامقة اللون، وملطخة بالدم، وفوق رؤوسهم «الجمدانيات»،

twitter @baghdad_library

التي يشـدونها بطـريقة تميـز التركمـان عن غيرهم من العـرب والأكراد، وأصحاب الدكاكين الصغيرة التي تبيـع العطاريـات، وباعة الفواكه والخضروات، الموضوعة في زنابيـل من القش على الرصيف، وباعة الكباب، الذي تشتهر به مدينة كركـوك، والذي يجهـز بطريقـة تكاد تكـون سريـة؛ حيث يخلط اللحم بـالخبـز اليـابس، الذي يسحق ويطحن وتضـاف إليه بهـارات خاصـة، كان العطارون اليهود يجلبونها من قرية تدعى قورخام، تقع على ممـر خيبر في أفغـانستان؛ وهـو الممر الـذي سلكـه الاسكنـدر المقـدوني بجيوشـه، ذات يوم، في طـريقه إلى الهنـد. كل هؤلاء كانوا ينهضون احتراماً، ويحيّون شيوخ محلة جقـور، المتجهين إلى بيت المتصرف داخل عربات سود مفتوحة، تجـرها الخيـول، بل ان الموجودين في حمام الســوق الكبير للـرجال، والـواقع إلى الجهــة اليسرى من الســوق، في زقــاق يـربط الســوق الكبــير بـالشــارع المؤدي إلى محلـة الجـاي، خـرجـوا هم أيضــاً إلى الشارع، شادّين الأزر الحمر على أوساطهم، وفي أيدي بعضـهم «استكـانات» الـدارسين، التي تحتسى بعـد أكـل البـرتقـال في الحمـام، لتقـديم آيـات الاحتـرام إلى الشيـوخ الـذين تنـاهت أخبـارهم إلى كل مكـان في المدينـة. واجتازت العـربات الثـلاث الجسر الحجـري الضيق، منحـدرة نحـو الصـوب الآخـر من المدينة. بعدما يقرب من نصف ساعة، كانت العربات تقف أمام بيت المتصرف، الـذي كان يحـرسه شرطي، يجلس في الحـديقة على كرسي خشبي، ويـرتدي سروالاً قصيـراً من الخاكي، يهبط إلى مـا تحت الركبـة، وقد وضـع بندقيتـه عـلى العشب. نهض الشرطي، مستغرباً، وهو يرى الرجال يهبطون من العربة، بينما تولى الحوذيون إنزال الهدايا التي يحملها الوفـد، والمكونـة من صفـائح دهن ودبس وراشي وأكيـاس سكـر وصنـاديق شـاي.

ونادى خضر موسى الشرطي: «تعال وساعدنا في الحمل». وخرج رجل آخر من البيت، كان من الواضح أنه من الخدم، بينما هرع البستاني الذي كان يعمل في الحديقة الخارجية الواقعة أمام البيت، وحملوا الهدايا إلى الداخل مع الحوذيين. وعاد الخادم إلى الشيوخ الأربعة الذين ظلوا ينتظرون في الحديقة، طالباً إليهم الدخول، حيث قادهم إلى غرفة الضيوف، وقدَّم لهم عصير البرتقال. كان الرجال الجالسون ينتظرون ظهور المتصرف في أية لحظة. وراح خضر موسى يستجمع في رأسه أفكاره، بل وحتى الجمل التي ينبغي قولها للمتصرف. ولكن غياب المتصرف طال، حتى شعر الرجال بالقلق. وأخيراً، عاد الخادم، ليعلن، بأسف، أن المتصرف اضطر إلى السفر إلى بغداد في صباح اليوم عينه، وأن «المدام» تشكرهم على هداياهم، وأنه يمكن لهم أن يبلغوه بما يشاؤون، لينقله إلى المتصرف عندما يعود. وقد أدرك الرجال، بالفطرة، أن المقصود بـ «المدام» هي زوجة المتصرف، حاسبين أن الخادم أخطأ في اللفظ، حيث تطلق مدينة كركوك لقب «مدامة»، في العادة، على كل سيدة سافرة، تنتعل حذاء ذا كعب عال. رغم أن غياب المتصرف أزعج الرجال، بصورة ما، إلا أن خضر موسى أنقذ الموقف، عندما قال: «ما من شيء مستعجل. بلِّغه فقط تحيات محلة جقور، عندما يعود». وهكذا، خرج الرجال، وقد انتابتهم الحيرة مرة أخرى، وسقطوا في اليأس. ولكن خضر موسى باغتهم، وأعاد الأمل إلى قلوبهم، عندما قال: «يبدو أنه لم يبق أمامنا بد من الاتصال بالملك نفسه». ووافقه الملاّ زين العابدين القادري، الذي قال، كما لو أنه يتفوه بحكمة: «من الأفضل دائماً أن يتجه المرء إلى الرأس، بدل التوسل إلى الأذناب». وهكذا، اتجه الرجال، هذه المرة، داخل العربة التي ظلت تنتظرهم، قاصدين دائرة البريد،

twitter @baghdad_library

الواقعة على ضفة نهر خاصة صو، مقابل حديقة العلمين، لمخابرة الملك، بينما ظلت العربتان الأخريان، تتبعان العربة الأولى، دون هدف واضح.

ارتعب موظف البريد، وهو شاب في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، كان قد نقل من قضاء طوزخورماتو إلى كركوك قبل حوالي ستة أشهر، عندما تقدم منه خضر موسى وسأله بلهجة ودية: «هل لك أن تطلب قصر الزهور في بغداد؟ أريد أن أتحدث إلى الملك». ظل الشاب يحدّق في خضر موسى، فاغراً فمه، كأنه يطلب المزيد من التوضيح. فقال له خضر موسى: «يمكنني أن أحدثك باللغة التركمانية إذا كنت تجهل العربية. لقد قلت: انني أريد مخابرة الملك». فهز الشاب رأسه، قائلاً: «لحظة، رجاءً». ثم نهض ودخل غرفة جانبية اختفى فيها بضع دقائق، حيث عاد بصحبة رجل بدين، يضع فوق عينيه نظارات طبية سميكة. وعرّف خضر موسى بنفسه: «إنني خضر موسى، حامل وسام الرافدين من الدرجة الثانية». فمد الرجل يده، وصافح شيوخ محلة جقور، الواحد بعد الآخر، ودعاهم للجلوس في غرفته. ولما لم تكن هناك كراس كافية، فقد طلب إلى خضر موسى أن يجلس على كرسيه وراء المنضدة، مكتفياً هو بالجلوس على طاولة صغيرة للشاي، بعد أن غطاها بنسخة من جريدة النهضة، التي كانت موضوعة أمامه على المكتب. وقال الرجل، مرحباً: «انه لشرف كبير لنا أن يزورنا رجال في مثل مقامكم». فقاطعه الحاج أحمد الصابونجي: «جزاك الله كل خير». قال الرجل: «إننا لا نملك رقم التلفون السري، الخاص بالملك، مع الأسف. ولكن تلفون قصر الزهور موجود، بالتأكيد، في الدفتر الخاص بنا». فانفرجت أسارير الملاّ زين العابدين

القادري، الذي قال: «ما الفارق؟ ان الملك يسكن في قصر الزهور، وهو أمر يعرفه الجميع». وغمغم الرجل: «هذا صحيح». ثم نهض ورفع سماعة الهاتف، الذي كان موجوداً أمامه على المكتب، طالباً إلى عامل البدالة الإتصال بقصر الزهور في بغداد.

بعد قليل، رن جرس الهاتف، فرفعه موظف البريد واستمع إلى شيء ما، ثم قدَّم السماعة إلى خضر موسى، قائلاً: «هذا قصر الزهور. هيا تكلم». شعر خضر موسى بحرج شديد. كان قلبه ينبض بقوة، وقد تدفق الدم إلى رأسه. ولم يعد يعرف ما يقول. كان يرفع السماعة، دون أن يلصقها بأذنه، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها بالهاتف. وخيم الصمت على شيوخ محلة جقور، حتى لكأن على رؤوسهم الطير، منتظرين ما سيقوله خضر موسى في هذه المكالمة التاريخية. ونهض موظف البريد، ضاغطاً على يد خضر موسى برقة، وهو يقول: «قرب السماعة أكثر إلى أذنك». وفي تلك اللحظة، سمع الرجال الجالسون، المرهوبون، خضر موسى يفتح فمه ويقول: «السلام عليكم. مَنْ يتكلم؟ حضرة الملك فيصل الثاني؟» مرت لحظات صمت، قال بعدها خضر موسى، الذي بدأ العرق يسيل من وجهه: «أنا خضر موسى، الحائز على وسام الرافدين من الدرجة الثانية. إنني أتحدث من كركوك». وانفرجت أسارير خضر موسى دفعة واحدة، حيث أطلق ضحكة مجاملة: «أنت تعرفني إذاً. أجل إنني الرجل الذي طار في منطاد من روسيا إلى العراق». ومرت لحظات صمت، كان خضر موسى يستمع فيها إلى المتحدث في الطرف الآخر، قال بعدها: «هناك وفد من أعيان مدينة كركوك يريد أن يتشرف بمقابلة جلالة الملك فيصل الثاني

twitter @baghdad_library

حفظه الله ليقدِّم له ولاء الطاعة». وأصغى مرة أخرى بانتباه، ثم قال: «مناسب جداً. يوم الخميس القادم: الساعة العاشرة صباحاً. سنكون هناك بإذن الله. بلغ سلامي إلى جلالة الملك، وكذلك سلام الملاّ زين العابدين القادري والحاج أحمد الصابونجي والمختار سلمان حنش. جزاكم الله خيراً. مع السلامة». وهكذا، انتهت هذه المكالمة التي ظل سكان كركوك يتحدثون عنها، بفخر واعتزاز، حتى مقتل الملك في الثورة، التي قادها العقيد الركن عبد الكريم قاسم، بعد ذلك بسنوات كثيرة.

لم يكن الرجل الذي تحدث مع خضر موسى من قصر الزهور في بغداد هو الملك، ولكنه كان، بالتأكيد، واحداً من العائلة الملكية، كما قال الملاّ زين العابدين القادري. فقد عرف الرجل خضر موسى منذ اللحظة الأولى، بل انه مازحه، قائلاً: «أما خفت أن تسقط من المنطاد؟ لقد أعجب صاحب الجلالة وسمو الأمير كثيراً بمغامرتك». وبصورة ما، كان الملاّ زين العابدين القادري على حق، إذ لا بد أن يكون الرجل من أقرب المقربين إلى الملك، ليعرف أن الملك فيصل والوصي عبد الإله معجبان بشجاعة خضر موسى. وقال المختار سلمان حنش، الذي شعر بالزهو وهو يسمع خضر موسى يذكر اسمه، لإبلاغ تحياته إلى الملك: «ربما كان المتحدث هو الباشا». ولكن خضر موسى استنكر هذه الفكرة، مؤكداً، أنه لو كان المتحدث هو نوري السعيد لتحدث معه، بالتأكيد، باللغة التركية التي يتقنها. وقد لام خضر موسى نفسه، علناً، أمام الآخرين، لأنه نسي أن يسأل الرجل عن اسمه. ولكن الحاج أحمد الصابونجي، الذي اختلط بالكثيرين من علية القوم، اعترض عليه، قائلاً: «حسناً فعلت. ما كان من اللائق أن تسأل الرجل عن اسمه. فهو يمثل الملك. وحديثك

معه هو مثل حديثك مع الملك نفسه». نادى خضر موسى موظف البريد، قائلاً: «كم هي أجرة التليفون يا بني؟» اعترض موظف البريد، قائلاً: «لا يمكن أبداً، إنها على حسابي». فقال له الملاّ زين العابدين القادري، بحزم: «لا يصح ذلك يا بني، فأنت تجلس على باب الله». رد الموظف، بخجل: «انه مبلغ تافه. ثلاثة دراهم. ما قيمة ذلك!» وتدخل الحاج أحمد الصابونجي مرة أخرى، مانعاً خضر موسى من مد يده إلى جيبه، وواضعاً في الوقت نفسه ورقة نقدية صغيرة في يد موظف البريد، كان من الواضح أنها ورقة ربع دينار. وخرج الرجال الأربعة مرة أخرى، حيث كان الحوذيون الثلاثة ينتظرونهم أمام عرباتهم. واقترح الملاّ زين العابدين القادري أن يتجهوا إلى مقهى الحاج أحمد آغا، لاحتساء «استكان» من الشاي «السنكين» بعد يوم ناجح من العمل، وللإلتقاء بوجهاء القورية، الذين يجلسون هناك، عادة، ويدخنون النرجيلة. وهكذا، صعدوا جميعاً، مرة أخرى، إلى العربة الأولى، التي راح الحوذي يستحث حصانيها بمهمازه الطويل، ذي القبضة الخشبية، وتبعتها العربتان الأخريان أيضاً، قاصدين جميعاً مقهى الحاج أحمد آغا. ولما لم يكن هناك الكثير الذي يمكن عمله في المقهى، إذ اتضح أن وجهاء المدينة يقصدون المقهى، عادة، في العصر، أمضى الرجال حوالى الساعة هناك، شرب خلالها كل واحد منهم «استكانين» من الشاي، كما لعب خضر موسى الطاولي مع الحاج أحمد الصابونجي الذي غلبه. واقترح الملاّ زين العابدين القادري العودة إلى محلة جقور: «ينبغي لنا أن نوصل بشرى مخابرة الملك إلى أهلنا في جقور». وهكذا، سار موكب العربات الثلاث، قاطعاً شارع الأوقاف، باتجاه الجسر الحجري. ولكن ما كادت العربات الثلاث تنحدر بمحاذاة القلعة، نحو السوق الكبير،

twitter @baghdad_library

حتى بـوغت الشيوخ الأربعـة بما لم يكـونوا يتـوقعونـه. فقـد اصطف الـرجـال العـامـلـون في السـوق والنسـاء الخـارجـات للتسـوق، واللـواتي يـرتـدين العبـاءات السـود ويضعن عـلى وجوههن براقع «البوشي»، والأطفال الذين خرجوا بدشداشاتهم الوسخة. اصطفوا جميعاً على جانبي الشارع وراحوا يصفقون للرجال الأربعة، الذين كانوا يردون على تحياتهم برفـع الأيدي. وألح الشيوخ الثلاثة على خضر موسى أن يقف، على الأقل، حتى يراه الناس الذين يحبونه. ثم قال الملاّ زين العابـدين القادري: «ربما كان من الأفضل أن تجلس جنب الحوذي». وتسلق خضر موسى الحاجز، ساحباً وراءه ذيل «زبونه» المخطط، وجلس قـرب الحوذي، رافعاً يديه إلى الأعـلى، محيياً أبنـاء مدينتـه الأوفياء. وقد تأثر كثيراً لهذا المشهد، دون أن يفطن حتى للـدموع التي ملأت عينيه.

شهدت محلة جقور عيداً حقيقياً، حيث نحرت الذبائح ووزع الأغنياء الصدقات على الفقراء. ولم يعرف خضر موسى والرجال الثلاثة، الذين كانوا معه، كيف عـرفت المدينـة كلها بـاتصالـه الهـاتفي بقصر الزهـور، بعد سـاعة أو سـاعتين فقط من تلـك المكالمة الهاتفية التاريخية. في الواقع، إن الحوذيين الثلاثة نقلوا الخبر إلى المارّة، حال دخول خضر موسى والرجـال الآخرين إلى دائرة البريد. وعندما وصل الخبر إلى غازي دعاية، وهـو شاب يتولى الإعلان عن الأفلام التي تعرضها سينما العلمين، بطريقة جذابة؛ إذ يسير أمام لوح ألصقت عليه صورة كبيرة من الفيلم ويقـدِّم بنفسه المشـاهد بصـوت عـال، يسمعـه المـارة حتى في الشـوارع الأخرى: «أقـوى بطل في العـالم. معارك بـالأيـدي. القوس والسهم. حرب القراصنة. طـرزان ملك الغـابة يصـارع

الأسد ويشطره نصفين. سوبرمان يعود ثانية» ـ رأى أن يستغل هذه الفرصة أيضاً، لاجتذاب أنظار الجمهور، فأضاف مكالمة خضر موسى مع قصر الزهور إلى دعايته للفيلم الذي يعلن عنه: «انتباه، انتباه، آخر خبر: ابن كركوك البار، خضر موسى، اتصل بالملك فيصل الثاني. بعد التحية، قال له الملك: انه لشرف كبير لي أن يزورني رجل عظيم مثلك. ليعش خضر موسى. فاتن حمامة في أروع فيلم لها حتى الآن. سامية جمال، ملكة الرقص الشرقي، تخلب الألباب بلوحاتها الرائعة. دعوة من جلالة الملك فيصل الثاني إلى خضر موسى لحضور عيد التتويج». وهكذا انتشر الخبر حتى قبل أن يكمل خضر موسى مكالمته مع قصر الزهور.

هذه المكالمة أحدثت وقعاً شديداً، ليس في محلة جقور وحدها، وإنما في مدينة كركوك كلها. فقد كان الشعور بالفرح شاملاً بين الناس، وخاصة في أوساط «الملالي»، الذين كرس الكثيرون منهم خطبة يوم الجمعة للإشادة بالاهتمام الملكي في الدفاع عن حرمة مقابر المسلمين، ذاكرين اسم خضر موسى بعد الملك والمتصرف مباشرة. ولكن كان ثمة آخرون أيضاً يتوجسون شراً، ولا يتوقعون خيراً من أحد، حتى من الملك نفسه. فالملك لا يزال في نظرهم شاباً، في مقتبل العمر، يسيطر عليه خاله، المتواطىء مع الإنكليز، ويقوده نوري السعيد، الذي كانوا يعتبرونه، سواء عن حق أو عن غير حق، رجل الانكليز الأول في العراق. لقد واجه خضر موسى، في الحقيقة، مشاكل كثيرة، كان عليه أن يحلها بحكمته وأناته اللتين عرف بهما، وقبل كل شيء بمعرفته الفطرية بطبيعة البشر وطريقة التعامل معهم. كان يعرف أن أية حركة مخطئة يقدِم عليها أحد ما، يمكن أن تنسف كل شيء.

twitter @baghdad_library

فقد أثار الشيوعيون ضجة مفتعلة، مدّعين أن محلة واحدة لا يمكن أن تمثل المدينة كلها. وأشاعوا أن الوفد يقتصر على العرب والتركمان وحدهم، ولا يضم حتى كردياً واحداً، وهو إغفال مقصود لدور الأكراد، الذين أكدوا حقهم في القيادة، معتبرين كركوك جزءاً من كردستان العراق، وهو أمر استنكره التركمان، الذين يعتبرون كركوك وطنهم القومي، بل ان شاكر أفندي الذي كان يصدر جريدة محلية، باللغتين العربية والتركمانية، تعمد كتابة مقالة افتتاحية، يؤكد فيها الطابع التركماني لمدينة كركوك، منذ أكثر من ألف عام. وعلى أثر ذلك أيضاً، قررت العوائل التركية العريقة في المدينة مفاتحة خضر موسى في أن يضم وفده إلى الملك الوجهاء الحقيقيين في المدينة، لا كل من هب ودب، من أمثال الملاّ زين العابدين القادري والمختار سلمان حنش، الذي هو في الواقع مخبر سري. ولكن هذا لم يكن كل ما في الأمر. فقد انتقلت العدوى حتى إلى محلة جقور، حيث علم خضر موسى أن الشبان الرياضيين، وربما بتحريض من حميد نايلون وفاروق شامل، قد اجتمعوا في الزورخانة، وقرروا تشكيل عصابة، أطلقوا عليها اسم العمالقة، مهمتها منع البلدية، بالقوة، من شق الطريق عبر مقبرة المصلّى، بعد أن أقسموا، واضعين أيديهم على القرآن الكريم، على الإخلاص والتفاني في الدفاع عن كرامة آبائهم وأجدادهم.

وبينما كان الجميع منهمكين في تدبير الدسائس والمؤامرات، متخذين من شق طريق المقبرة والسفر إلى بغداد لمقابلة الملك ذريعة للحصول على أي مغنم، حتى إذا كان مغنماً معنوياً، غادر خضر موسى منزله، ملقياً فوق كتفيه فروة من وبر الإبل، مزركشة باللونين الأزرق والأحمر، كان قد أهداه إياها شيخ عشيرة الجبوريين، التي ينتمي إليها، على الرغم من أن الشتاء

كان في نهايته ولم يكن الطقس بارداً، ولكنـه كان قـد اعتاد أن يفعل ذلك، كلما أراد الإختلاء بنفسه، منذ عـودته من روسيـا. كانت الأفكار تتضـارب وتتقاطـع في رأسه، وهـو يقطع شـارع بـيريادي، بـاتجاه وادي حصـان آدم، الذي يقـال إن آدم هبط إليـه، وهو عـلى حصانـه، قادمـاً من الجنة. ومـرّ، في طـريقـه، بالمدبغة، المفتوحـة على الطـريق، وزكمته رائحتهـا النتنة، التي كان قد اعتادها في الماضي، وهو يحمل جلود أغنامه عـلى ظهره، ليقبض ربع دينار عن جلد الخروف الصغير، وأكثر من ذلك عن جلـد النعجـة. ولم يكن في مـزاج يجعلـه يمـر عـلى أصحـابـه القدامى، ليسلم عليهم. ولكن أحدهم تعـرف عليه، فنـاداه، من بعيـد: «لم تعد تجلب لنـا الجلـود يـا خضر. هـل هـربت منـك خرافك؟» فرد خضر موسى، من بعيد: «بل أنـا الذي هـربت. لم تعـد يدي تطـاوعني على حمـل السكين». وسـار مخترقـاً ممراً داخـل حقل من الخيـار، حيث انحنى وقطف خيـارة، مسحهـا بكمه، قبل أن يقضمها. وما كاد يصل بستاناً للخس حتى رجع مرة أخرى إلى الطـريق الترابيـة، ليتجنب الخراء الـذي يحمله «نـزاحـو» المـدينـة إلى بســاتـين الخس، حيث يقبضــون من أصحابها عشرة فلوس عن كل برميل. ورأى خضر مـوسى نفسه خـارج المدينـة في منطقة الحجـارين، الـذين يقتطعـون الكتـل الحجـرية من الأرض الصخـرية، حـاملينها عـلى حمـيرهم إلى المدينة، التي كانت تستخدمها في بناء البيوت. وكان الحجـارون يتركون وراءهم حفراً كبيرة، تمتلىء بمياه الأمطـار، فتتحول إلى بـرك خطرة، يسبـح فيهـا أطفـال الأحيـاء القـريبـة في الأيـام القائظة؛ إذ ما كان صيف يمـر دون أن يغرق طفـل أو طفلان. وكـان الحجارون، المعـروفون بشـذوذهم الجنسي، يقفـون فـوق الصخور الناتئة، محاولـين استمالـة أنضر الأطفال إليهم. ولكن

twitter @baghdad_library

لم يكن ثمة أحد هذه المرة سوى بضعة حجارين، يضربون بمعاولهم الصخور في الطرف الآخر. كان وهو يرتقي الطريق الصخرية، مبصراً الفزاعات في الحقول الواقعة على منحدر وادي حصان آدم والغربان المتناثرة فوق الصخور، يفكر في مخرج من المأزق الذي وجد نفسه غارقاً فيه. كان في إمكانه أن يختار مَنْ يأخذهم معه لزيارة الملك. ولكنه كان يعرف أن ذلك يمكن أن يعرضه لسخط وجهاء المدينة، الذين كان يشعر باحترام خاص تجاههم، وهو سخط ما كان يريده بالتأكيد. وكان خائفاً، في الوقت نفسه، من أن يلجأ شبان المدينة المتحمسون إلى العنف في مواجهة عمال البلدية، أو حتى الاصطدام مع الشرطة، مما سيحرج موقفه أمام الدولة التي أولته ثقتها. ولكن ما كان يقلقه أكثر، هو أن يرفض الملك مسعاه أو أن يهمله ببساطة. وكان يعرف، بحكم خبرته الطويلة ومعرفته بحقائق الحياة، أن ذلك ليس مستحيلاً. وانتهى به السير إلى شجرة تين، أمام مغارة واقعة على سفح الهضبة. فنزع فروته، المصنوعة من وبر الإبل، وفرشها على الأرض وجلس، متربعاً، عليها، بعد أن نزع حذاءه وركنه جانباً، حيث راح يحدّق في الورود البرية، النامية بين شقوق الصخور، مؤْذنة بالقدوم المبكر للربيع.

رفع خضر موسى رأسه وحدّق في السماء الزرقاء، التي كانت تبقعها غيوم بيض هاربة في الريح. وكانت ثمة طيور ترتفع ببطء، مرفرفة بأجنحتها، ثم تسكن، عالياً، لحظات، تنحدر بعدها إلى سهوب يكسوها العشب وتمتد حتى الأفق. وتذكر خضر موسى تاريخه، كل هذا السقوط، كل هذا الصعود، الفقر والغنى، الذل والمجد: «إنها الدنيا يا خضر بن موسى، إنها

الدنيا، فلا تغرنك منها ضحكتها الغادرة». أحنى راسه، ممسكاً صدغيه بكفه اليمنى، واغمض عينيه، متأملاً في اللاشيء، في الظلام المحيط به، في الظلام الذي لا اسم له. وانتابته نوبة حادة من البكاء. كان يبكي على نفسه، وربما على الدنيا: «إبك يا خضر بن موسى، إبك على نفسك». وراح يشهق، بفعل عواطف وذكريات تعصف به من كل الماضي الذي يعرفه، ممتلئاً بسلام جديد مع نفسه، متذكراً أقوال جده، الذي كان يحضنه، وهو طفل صغير، قائلاً له: «إبك يا خضر، فالدموع تغسل النفس». كان يبكي داخل نفسه، المخدرة برائحة الربيع، الهابط فوق الهضبة، عندما شعر بيد تربت على كتفه وصوت أجش يقول: «هيا انهض يا بني، وكن ضيفي في مغارتي هذه». وجفل الغنام، الذي ما كان يتوقع أحداً، فرفع راسه، ملقياً نظرة على مَنْ حرمه من بكاءه، قائلاً: «لم أعرف أن أحداً يسكن هنا». وردّ الرجل العجوز، الخارج من المغارة بلحيته الكثيفة وثوبه الأسود والطاقية الحمراء، التي يضعها فوق راسه والقبقاب، الذي ينتعله: «هذه مغارة الله المفتوحة لمخلوقاته كلها». ودخل العجوز إلى المغارة، يتبعه خضر موسى الذي كان قد بوغت بالأمر، من دون أن يمتلك فرصة الاعتذار. كان المدخل فجوة بين صخرتين، تمتد قليلاً، ثم تنفتح على بهو واسع من الرخام، في وسطه حوض ونافورة ماء تتدفق. قال رجل المغارة، بنبرة لا تخلو من حنان: «كنت أتوضأ، إذ سمعتك تبكي. حسناً فعلت يا خضر، فالدموع تغسل النفس». واستغرب خضر موسى، قائلاً: «أنت تعرف اسمي أيضاً». ردّ الرجل العجوز، بشيء من الرصانة: «أجل يا خضر. وقد بلغني أنك ذاهب لزيارة الملك وأنت في حيرة من أمرك. لا تهتم يا خضر، سوف نجد حلاً لمشكلتك!» قال خضر موسى، وقد

twitter @baghdad_library

استبدت به الحيرة: «لو لم أكن مؤمناً لاعتقدت أنك الله». أطرق الدرويش العجوز برأسه طويلاً نحو الأرض، حتى حسب خضر أنه لا يريد البوح باسمه. ثم رفع رأسه وحدّق في الغنام القديم بعينين اتقدتا فجأة، وقال: «بل أنا الموت يا خضر». انتابت خضر موسى رجفة، هزت جسمه كله، ولكنه تمالك نفسه، وقال، كما لو أنه يخاطب نفسه: «هذا هو الموت إذاً. ما كنت أحسبه في مثال هذا اللطف». فقهقه العجوز الذي يُدعى الموت، حتى ظهرت أسنانه الاصطناعية التي تبيّنها خضر موسى جيداً، فداخلته الريبة من أن تكون للموت أسنان اصطناعية. وفطن الرجل إلى ما يقلق خضر موسى، فقال له، ممازحاً: «أظننت أن الزمن لا يؤثر فيَّ. حتى أنا أهرم يا خضر». وهز خضر موسى رأسه مرة أخرى: «هذا هو الموت إذاً. مغارة يدخلها المرء صدفة». قال الموت: «الموت شيء آخر تماماً يا خضر. اطمئن، فأنت ما زلت في مدخل المغارة، ولسوف ترجع إلى أهلك». ثم نهض وأمسك، برفق، بكتف خضر موسى، الذي ما عاد يعرف شيئاً، قائلاً: «تعال انظر إلى الموت إذا كنت تريد ذلك». كانت ثمة فتحة من زجاج رقيق في جدار المغارة، يتدفق عبرها الضوء الذي كان يُسقط ظلاله على المكان. ألقى الرجل العجوز نظرة خاطفة، عبر الفتحة، ثم انسحب، قائلاً: «هيا انظر فقد تتعلم شيئاً مما ترى». شعر خضر موسى بقلبه يضطرب، ولكنه تقدَّم، ملقياً نظرة على المملكة الأخرى، المملكة التي سوف يقصدها، هو الآخر، ذات يوم. وأذهله ما رأى. كانت جموع لا تحصى من الرجال والنساء والأطفال تتدافع بالمناكب، فوق جسر لا نهاية له، وجوه شاحبة وحزينة، وصراخ لا صوت له. تراجع، وسأل رجل المغارة: «ترى إلى أين تذهب كل هذه الجموع الغفيرة؟» ابتسم الموت، وقال: «هذا هو السؤال الذي لا أعرف حتى أنا

جوابه» نظر خضر موسى، عبر الفتحة، مرة أخرى، ثم قال: «يا إلهي إنهم ليسوا سعداء. لا يبدو أنهم سعداء أبداً».

كان خضر موسى قد اتكأ على جدار المغارة المقوس، طافياً فوق موجة غير مرئية، تضرب أغوار نفسه. وبدا، في الضوء الشاحب المتسلل إلى الداخل وكأنه رجل من عالم آخر. فتركه الرجل العجوز، الذي كان قبقابه يطقطق فوق المرمر، أثناء سيره، يلتقط أنفاسه، بعد أن ألقى نظرة على ما لم يره إنسان من قبل، مفكراً أن ذلك، ربما كان أكثر مما تحتمله أعصاب رجل، عرف أنه سيسير، هو الآخر، ذات يوم، على ذلك الجسر الذي لا نهاية له. ولما ظل خضر مغمض العينين، ساهياً عما يدور حوله، ناداه الموت بصوت، جاهد أن يكون رقيقاً، ففتح خضر موسى عينيه الفاحمتين، وتطلع في وجه الرجل، الذي خلا من أي تعبير، ثم انفرجت شفتاه المصفرّتان: «قل لي ما الذي تريده مني إذا لم تكن ساعتي قد دنت!» صمت الموت برهة قبل أن يقول: «لا شيء، لا شيء بالتأكيد». ثم نظر إليه، مثل من يريد أن يذكره بأمر كان قد نسيه: «اعتقدت أنك قد تحتاجني». لم يحرِ خضر موسى جواباً، إذ لم يكن يعرف كيف يمكن أن يحتاج هو الموت. وبدا الموت بلحيته الكثة، السوداء، التي خالطها البياض، وقامته الضامرة، محرجاً جداً وهو يعرض عليه، بأدب، أن يضمه، هو الآخر، إلى الوفد الذاهب إلى بغداد، لزيارة الملك. ولم يجد خضر موسى، الذي بوغت بهذا الطلب الغريب، والذي كاد يدفعه إلى الضحك، بداً من أن يسأله، من دون أن تفارق الابتسامة عينيه: «ولكن لماذا؟ أي مجد يعوزك حتى تطلب لقاء الملك؟» قال الموت، الذي بدا متفهماً لاعتراض خضر موسى: «لقد تعلمت ألا أؤمن بالمجد. كل

twitter @baghdad_library

مجد هو إلى زوال، وهمٌ وقبض ريـح». كان هـذا الرجـل، الذي يسمي نفسه الموت، قـد أثار إعجـاب خضر مـوسى، بهـدوئـه وتواضعه وحكمته وأطواره الغريبة، ولكنـه جاهـد في داخله ألا يستسلم أمامه. فإذا كان هذا الساكن في المغـارة يمثل الفنـاء، فهو يمثل البقاء. ينبغي أن يكون نداً له، ما دام حياً على الأقل. قال الموت: «إنني أحق من غيري في أن أكون في وفـدك. لا تنسَ أن الأمر يخص الأموات قبـل الأحياء. من حق الأمـوات أيضاً أن يقولوا رأيهم. أليس كذلك؟» التمع برق خـاطف داخل رأس خضر موسى، الذي بهرته الفكرة، وشعر أنـه على حق. مـد يده، وصافحه، بإخلاص: «يشرفني أيها السيد أن تنضم إلى وفـدي المتواضع». ثم اتجه نحو مدخل المغارة، ليخرج، ولكنـه استدار فجأة، كمن تذكر شيئاً، وسأل: «هل ينبغي أن أبحث عنـك هنا، عنـدما أريـدك؟ ردّ الموت: «لن تعثـر على هـذه المغارة ثـانيـة. ستجدني حيثما أردتني. ولكن لا تقل ما رأيتـه لأحد، فـالناس تؤمن بالأوهام والخرافات أكثر مما تؤمن بـالحقائق الظـاهرة!» فردّ خضر موسى، كما لو أنه يقرّ قاعدة راسخـة: «هناك أسرار، يحتفظ بها المرء لنفسه إلى الأبد. أنت تعـرف ذلك بـالتأكيـد». وغادر خضر موسى المغارة، حيث بهرتـه الحياة، التي شعـر كما لو أنه يراها لأول مرة، في الصخور التي نمت فـوقها الطحـالب الخضراء وفي الأصوات المختلطة، القادمة من بعيد، وفي الرهبة التي كـانت في قلبه. وانحـدر مرة أخـرى إلى الوادي المنبسط، المنحدر باتجاه المدينة، مفزعاً اليمامات البرية، التي كانت تحلّق مبتعدة، وهو يقترب منها. وسمع هديراً في الجو، فـرفع رأسـه، بتلقائية، محدّقاً في الطيور التي كانت تفر أمام طائرة هليكوبتر، محلّقة باتجاه المدينة. كان يريد نسيـان كل مـا رآه، وهو يعـود إلى محلـة جقور، ولكن منظـر الأموات المتـزاحمين عـلى الجسر

الممتد، ربما حتى الأبدية، كان ما زال عالقاً في ذهنه، لا يفارقه. وبدا له أنه رأى في تلك الزحمة الشديدة، وعَبْر كل تلك المسافة التي كانت تفصله عنهم، وجوهاً تعرّف عليها في حياته، ولكنه لم يكن متأكداً؛ «مثلما يتشابه الأحياء، كذلك الأموات». وشعر أنه لا يزال يسمع ذلك العويل، الخافت الرتيب، الذي كان يهز عظام جمجمته، آتياً من مملكة الأموات، كما لو أنه نداء صفارة إنذار أو موسيقى مكتومة بعيدة، تعزف خارج الزمن. التفت إلى الوراء، ليلقي نظرة أخيرة على المغارة التي رأى فيها الموت، ربما ليطمئن نفسه إلى أن ما رأته عيناه لم يكن حلماً. كانت المغارة تحترق. ثم سمع انفجاراً، اهتزت له الأرض تحت قدميه، ورأى الصخور ترتفع في الجو، ثم تختفي بين الغيوم البيض. ورفع الحجارون، الذين يعملون في الطرف الآخر من الوادي، رؤوسهم، متطلعين إلى الإنفجار الذي باغتهم، ثم عادوا إلى العمل مرة أخرى، معتقدين أن حجارين آخرين قاموا بهذا التفجير الذي ما كان غريباً عليهم. وكان ثمة خيط دقيق يشد خضر موسى إلى الحياة، وهو يرى المغارة تنهدم، وتختفي فجأة، مثل كل الأشياء الأخرى التي يعثر عليها المرء ويفقدها، مثل الحياة نفسها. وكان في قلبه ما بدا له أكبر من الحياة نفسها: سرها الذي رآه في وجه رجل المغارة، ذلك البهلول الذي يُدعى الموت. لم يكن ما داخله هو الخوف من الموت وإنما هو الرهبة من حضوره، ولكنه شعر بقوة لا تفسير لها، عبر اقترابه من الموت، الذي سيكون واحداً من أفراد وفده الذاهب إلى الملك. وأوحى له رجل المغارة على قدر عال من الحكمة، التي وقع عليها عند رجل المغارة. وهكذا، عاد خضر موسى إلى محلة جقور، دون أن يتوصل نهائياً إلى تسمية الذاهبين معه إلى البلاط الملكي. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد

twitter @baghdad_library

رأى، في عصر اليوم عينه، وهو يجلس في المقهى القريب من «ناقشلي منارة سي» صورة على الجدار لرجل مهيب الطلعة، ذي شعر كثيف ولحية، تذكر المرء بالقديسين. وعندما سأل عنه الملاّ زين العابدين القادري، الذي كان يجلس لصقه على التخت، ابتسم الملاّ قائلاً: «انه أعظم شاعر أنجبته كركوك حتى الآن. هذا هو دده هجري الكبير». وراح الملاّ زين العابدين القادري يقرأ مقاطع من شعره، المنظوم باللغة التركمانية، حتى شعر خضر موسى أن روحه تحلّق في سماء أخرى، لا تقطنها سوى الملائكة. وقال خضر موسى: «أعتقد أنه ينبغي علينا أن نضمه إلى وفدنا». وأجاب الملاّ، بعد تردد قصير: «انها فكرة جيدة، ولكنني لا أعرف إن كان الرجل لا يزال على قيد الحياة». وقال آخرون، كانوا يجلسون على مقربة منهما: «بل انه حي ومعافى، حيث يخرج كل يوم إلى البساتين القريبة، وينظم الشعر في الطيور والأشجار». وتبرع بعضهم: «هل تريدون أن نجلبه إلى المقهى؟ انه يسكن في القلعة». وهكذا، أصبح دده هجري الكبير واحداً من الوفد، الذي انضم إليه بعد ذلك المجنون دلي إحسان، وذلك بسبب إلحاحات والدته العجوز، التي وقفت في محلة جقور تشهّر بأعضاء الوفد، مؤكدة، أن للملائكة أيضاً الحق في تقبيل يد الملك. وكانت تعني بذلك، بالطبع، ابنها دلي إحسان. أما الشيوعيون، الذين قال خضر موسى عنهم، انهم لا يتقنون سوى فن الضجيج الفارغ، فقد وافقوا على أن يمثلهم حميد نايلون، ولكن دون إعلان ذلك، بصفته سائقاً للسيارة التي سوف تقل الوفد إلى بغداد. وقد فرض فتح الله إسماعيل، مدير أمن كركوك، نفسه على الوفد في اللحظة الأخيرة، بدعوى حرص الحكومة على ضمان أمن الوفد وكان خضر موسى قد وافق، قبل ذلك، على وفود أخرى، يختارها التركمان والأكراد والعرب

والآشـوريـون بأنفسهم، بالإضـافـة إلى وفد محلة جقور والوفد الخاص الذي اختاره هو بنفسه، على أن تلتقي الوفود كلها، قبل نصف ساعـة من الموعد، أمام قصر الزهور، وتقابل الملك، ممثلة مدينة كركوك كلها.

وخـرجت السيارات، قبـل يـوم من المـوعـد، متـوجهـة إلى العـاصمة، التي يحكم منهـا الملك العـراق. سارت في المقـدمـة سيـارة حميد نـايلون، الـذي رفع العلم العـراقي عليهـا، حيث جلس إلى جنبـه خضر موسى، الـذي أعطي موضـع الصـدارة. بينما انحشر مدير الأمن فتح الله إسماعيـل، الذي كـان يحاول إضفاء أهمية خاصة على نفسه، بين خضر موسى وحميد نايلون، وقد أخرج مسدسه مرة أو مرتـين، للتباهي، ولكن خضر مـوسى نهاه عن ذلك، قائلاً: «اخف مسـدسك. لن يتعـرض أحد لـوفد مثـل وفدنـا». وفي المقعد الخلفي، جلس كـل من المـوت، الـذي أطلق على نفسه، للتمويه، اسم درويش بهلول؛ وهو أمـر اعتبره نـايلون مـادة للتندّر والسخـرية، طـوال الطريق، ولكن دون أن يزعج ذلـك الموت، الـذي كان يشف عن ابتسـامة مـاكرة، بـين الحـين والآخر، قـائـلاً: «لا شيء أفضـل من الضحـك في هـذه الحياة». ودلي إحسان الذي ظل صامتاً، كعادته، متأملاً الفراغ الهـائل، الممتـد على مـدى البصر. وبينهما جلس الشـاعـر دده هجري مثل قديس هابط من الجبل.

ووراء هذه السيارة، انطلقت السيارات الأخرى، التي حملت وجهاء محلة جقور ومدينة كركوك، الذين شعـروا بزهـو خاص، لكونهم اختيروا ممثلين لطوائفهم أمام الملك، الذي كانـوا يكنّون له محبة لا تشوبها شـائبة. وكـانوا يـدينون، بهـذه الفرصـة، لخضر موسى، الذي ما عاد أحـد يشك في السلطـة الكبيرة التي يمتلكها، معتبرين ذلك امتيازاً لمدينتهم، التي كانوا يريـدون لها

twitter @baghdad_library

أن تحتل الموقع الذي تستحقه. كان الناس، في الحقيقة، قد خرجوا منذ الصباح الباكر، واجتمعوا على طول شارع المحطة، الذي كان يفترض أن تسلكه سيارات الوفد الذاهب إلى بغداد. فقد عطلت المدارس، وجاء المعلمون مع تلاميذهم، حاملين الأعلام العراقية، واصطفوا على جانبي الشارع. كما خرجت الفرقة الموسيقية العسكرية التي راح أفرادها، وهم ببذلاتهم العسكرية، يضربون على الطبول والصنوج، يتقدمهم عريف ضخم الحجم، أسود اللون يحمل في يده عصا ذات رأسين معدنيين، يتلاعب بها بمهارة مثيرة للإعجاب على إيقاع الموسيقى. واستبد المرح بحميد نايلون، فراح يقود سيارته، بالعكس، إلى الوراء، وسط تصفيق الجمهور وضحكه. ولم يعدل عن طريقته هذه في قيادة السيارة، التي كانت تتقدم الموكب، إلا بعد الخروج من المدينة، حيث تمتد السهوب المتموجة، المحيطة بالمدينة.

ما كاد الموكب يغادر مدينة كركوك، حتى غرق الشاعر دده هجري حزيناً، داخل نفسه، وقد استبد به قلق، لم يقدر حتى درويش بهلول على إزاحته عن صدره. ولم تعد الابتسامة إلى وجهه البرونزي، إلا بعد ولادة القصيدة، عند جبال حمرين، التي تشكل سلسلة صخرية، تمتد من العراق إلى إيران. وعلى الرغم من كل الإلحاح الذي واجهه، فإنه رفض البوح بأي بيت من أبياتها، بدعوى الرغبة في العودة إليها ثانية، عندما يكون خارج الحالة، حتى يستطيع الحكم عليها؛ لأن الحالة قد تطغى على الشعر نفسه، فيختلط ما لا يقبل الإختلاط، وهو أمر أيده فيه دلي إحسان، الذي بدا متأثراً أكثر من غيره بكلمات دده هجري التي قال مدير أمن كركوك إنه لم يفهم أي شيء منها،

بينما أشار خضر موسى إلى أنه لا يمكن للمرء أن يفهم كل شيء، إذ ثمة أمور تُدرك بالحس وحده، على العكس من كل منطق.

بلغ الموكب خان بني سعد عند الظهر. فتوقفت السيارات أمام مبنى طيني خرب، طُليت جدرانه بالجص، يقدم الطعام والشاي، وقد رُميت، أمامه وداخله، تخوت عتيقة، وُضعت فوقها حصائر من القش ومناضد خشبية طويلة، غُطيت بقطع من النايلون الذي يسهل تنظيفه. في هذا المكان القذر المفتوح على الغبار، والممتلىء بالذباب، ألقى خضر موسى كلمة قصيرة على أعضاء وفد كركوك من التركمان والأكراد والعرب والآشوريين؛ قال فيها انه من حق أعضاء الوفد أن يستمتعوا بوقتهم في بغداد، بالطريقة التي يرغبون فيها، وربما كان لبعضهم أقارب أو أصدقاء أيضاً يريدون زيارتهم. ولذلك، فإنه يمنح الجميع حرية الحركة التي تناسبهم، ولا يطلب إليهم سوى الحضور قبل نصف ساعة من موعد الزيارة، أمام قصر الزهور، للدخول معاً على الملك. ثم دعاهم لتناول «التشريب» على حسابه، الوجبة الوحيدة التي كان يقدمها هذا المطعم للمسافرين إلى بغداد أو القادمين منها. وهي وجبة وجدها الجميع لذيذة، ولكنهم استغربوا عندما جاءهم الشاي، الذي لا بد منه بعد «التشريب»، في قنانٍ حولت إلى كؤوس، بعد شطرها من منتصفها. وقد أثار ذلك غضب خضر موسى، الذي وبخ صاحب المطعم، طالباً إليه تقديم الشاي في «استكانات». ولكن الرجل اعتذر من أن «الاستكانات» تكلفه غالياً، وأنه لا يرى فارقاً كبيراً بين «الاستكان» وقعر القنينة؛ فالمهم هو الشاي الذي يحتسيه المرء، لا الوعاء الذي يوجد فيه. ولكن خضر موسى صرف هذا الرجل، الذي كان من الواضح أنه صورة

twitter @baghdad_library

بدائية للجشع. كان خضر موسى نفسه قد لجأ إلى أقداح قعر القنينة، ذات يوم، خلال فترة الحرب، عندما ارتفعت أسعار «الاستكانات» بصورة فاحشة، لم يكن الفقراء قادرين على دفع أثمانها. وتذكر كيف أنه كان يملأ القنينة بالنفط حتى منتصفها، ثم يضع سفوداً من حديد مسخن حتى الحمرة فوق النار، داخل القنينة. إذ ما يكاد السفود يمس النفط حتى تنفطر القنينة، عند مستوى النفط فيها. ولكن كل ذلك انتهى الآن، حتى إذا ادعى صاحب المطعم عكس ذلك.

انطلقت السيارات مرة أخرى، فبلغت بغداد بعد الظهر. كانت السيارات الأخرى قد اختفت في الشوارع، وهو أمر لم يكن يهم أحداً؛ ما دام الجميع قد اتفقوا على المكان الذي يلتقون فيه في اليوم التالي. ولم يبقَ من الموكب سوى السيارة التي يقودها حميد نايلون والسيارة الأخرى التي كان يقودها سليم عرب، الذي يعمل، في العادة، سائقاً على طريق كركوك ـ السليمانية، مُقلّة وجهاء محلة جقور.

اتجهت السيارتان نحو شارع الرشيد، ثم توقفتا في منطقة الميدان، حيث اقتاد حميد نايلون الرجال إلى فندق «وجنة النهر» الذي كان مدخله ملاصقاً لمطعم الشمس، الممتلىء بالجنود، والريفيين القادمين من كل أنحاء العراق، والموظفين الصغار، والقوادين الذين يشرفون على إدارة البغاء، في الأزقة القريبة المتفرعة من شارع الرشيد، والمخبرين الذين لا يبتعدون كثيراً عن مركز عملهم في موقف السراي، الواقع في الجانب الآخر من الشارع، وراء البيوت التي كانت، ذات يوم، قصوراً يسكنها كبار موظفي الدولة العثمانية. وصعد الرجال القادمون من كركوك السلالم ليجدوا أنفسهم أمام رجل في

حوالى الستين من عمره، يضع فوق رأسه العقال. نهض الرجل محيّياً، وقاد الرجال الذين كان قد بقي منهم ستة فقط؛ بعد أن انسحب مدير الأمن، الذي قال انــه مضطر للسكن في بيت ابن عمه في «الفضل»؛ إذ أنهم لن يغفروا له، إذا ما اختار البقاء في الفندق. وذهب الحاج أحمد الصابونجي إلى بيت أحد أصدقائه من تجار الشورجة. وقصد الملاّ زين العابدين القادري صـديقه القديم، الذي كانت الحكومـة قد عينتـه إمامـاً لجامـع الحيدر خانة، الذي يقع على بعد خطوات قليلة من الفندق. كانت هنـاك أسرّة متناثرة كثيرة داخل الغـرف، ولكن خضر موسى فضّـل أن تكون هناك غرفة خـاصة بهم؛ حتى يتسـامروا فيمـا بينهم، في الليل. وهكذا، احتـل كل من خضر مـوسى ودرويش بهلول ودلي إحسان ودده هجري أسرّتهم، في غـرفة أُخليت لهم. أمـا حميد نايلون وسليم عـرب فقد وُضعـا في غرفـة أخرى، مـع زبونـين آخرين غائبين. في الحقيقة، إن حميد نايلون وسليم عرب فضّلا الابتعاد عن الآخرين، لأنهما كانا يريدان أن يستمتعا بـوقتهما في بغداد، خارج كل رقابة ممكنة.

وبالفعل، ما كادت تمـرّ نصف ساعـة حتى كانـا في الشارع مرة أخرى، حيث انسـلا إلى الأزقة التي تبيـع الهوى. أبـواب البيـوت مفتوحـة، وثمة عـاهرات يقفن أمـام الأبواب، يتبـادلن أحاديث عابرة مع قوادين شبان، يتكئـون على الجـدران أو على أعمدة الكهرباء، ويرصدون ما يحـدث من بعد. ونـادت عاهـرة شابة حميد نايلون وسليم عرب: «هيـا ادخلا. لن تجـدا فتيات أفضل منا». كان ثمة فناء مفتوح، وبضعة رجال يجلسـون على التخـوت، وامرأتـان تتحدثـان إليهم. كـان من الـواضـح أنهم ينتظـرون خروج فتيـاتهم المفضّـلات، اللـواتي كنَّ مـع رجـال

twitter @baghdad_library

آخرين داخل الغرف. وفي صدر الفناء، جلست امرأة عجوز بدينة، كانت الفتيات ينادينها بـ «الحاجة»، تستلم النقود قبل الدخول، وتوجه الفتيات. ودخلت الفتاة التي كانت تقف أمام الباب، وقالت لحميد نايلون: «ألا أعجبك؟» ونادت القوادة، التي كانت تمسك بيدها سبحة، حميد نايلون بصوت يكاد يكون آمراً: «هيا ادخل يا رجل مع عواطف. إنها راغبة فيك كما ترى». وجرته عواطف من يده: «لن تندم على ذلك». ودخل سليم عرب مع فتاة أخرى، كانت قد عادت لتوها من الموصل، مزهوة بصديقها الضابط الذي ذهبت إليه. فقد قالت لها الحاجة، حال وصولها: «انتهت متعتك مع صديقك الضابط، وحان وقت الشغل». هذه المغامرة العاطفية، التي كلفت كلاًّ منهما مئة وخمسين فلساً، أعادت التوازن إلى الرجلين بعد تعب رحلة الطريق، فقد أسرّ حميد نايلون لسليم عرب بحقيقة عواطفه تجاه النساء: «لا شيء ألذ من الحرام». مما جعل سليم عرب يضحك، مؤكداً له أنه أمر لا يكاد يختلف عليه رجلان في العالم، وراوياً له قصة نجار، يمتلك محلاًّ في شارع النجوم في كركوك، كان يطلق زوجته كلما ألقى بنفسه فوقها، ثم يندم على فعلته بعد ذلك. وابتسم حميد نايلون، وهو يقول: «دون خطيئة لا تكون هناك لذة. الحلال واجب، أما الحرام فهو الاستثناء».

عندما عادا إلى الفندق، رآهما درويش بهلول الذي كان عائداً، لتوه، من المرحاض الوحيد، الموجود في الممر، فقال لهما، بصوت خافت إن خضر موسى قد سأل عنهما، وإنه ربما كان يريد التحدث إليهما. ولكن خضر موسى، الذي كان مضطجعاً على أحد الأسرة، وهو يستمع إلى دده هجري الذي كان يقرأ عليه بعض أشعاره، بصوت متهدج، وهو متكىء بمرفقه على

الوسادة، قال لهما إن الرجال لا يـريدون قضـاء الوقت كلـه في مثل هذا الفندق النتن؛ فما دام المرء قد بلغ بغداد، فـلا بد أن يرى شيئاً منها. وهكذا اتفقـوا على مغـادرة الفندق بعـد قليل. وقال دده هجري «اعتقدنا أننا نستطيع النـوم، ولو لمـدة نصف ساعة، ولكن ذلك صعب كما يبـدو. إن شعور المـرء بوجـوده في بغداد يجعله يقظاً، وهو شعور يلازمني في كل مرة أكون فيها في بغـداد». وإذ كان الـرجال يتهيـأون لمغادرة الغـرفـة قـال دده هجري: «كنت، في المرات السابقة، أقصد مقهى البرلمـان، حيث أجد جميل صـدقي الزهـاوي ومعروف الـرصافي في انتظـاري، ولكنهمـا لم يسلما من يـد الموت الغـاشمة». كـان دده هجـري يتحدث بتلقائية. وكابد درويش بهلول للسيطرة على نفسـه، ولم ينتبـه سوى خضر مـوسى إلى التمـاع الغضب في عينيـه، وهـو يقول: «هذا هو قدر الإنسـان فوق الأرض، لا يسلم منـه أحد. الموت هو الثمن الأخير للحياة».

بهت دده هجـري لهـذه الحكمـة العميقـة، التي أظهـرهـا درويش بهلـول، فجاراه في نظـرته العميقـة، مردداً ربـاعية من الشعر التركماني، على عادة أهل مدينة كركوك:

«خلف الجبال
استيقظت على صوت حبيبتي
حبيبتي ظبية وأنا صياد
يطاردها»(*)

(*) النص التركماني لهذه الرباعية (الخوريات) هو:

«Dağlarin ensesine
Uyandim yar sesine
Yarim Cayram men avci
= Düşmüem ensesine».

twitter @baghdad_library

وعند ذاك، ابتسم درويش بهلول، وردّ عليه برباعية، جعلت دده هجري ينحب، من العواطف التي انفجرت في قلبه:

«لا تبكِ
هذا اليوم سوف ينتهي أيضاً، لا تبكِ
ان من أغلق هذا الباب
سوف يفتحه ذات يوم، لا تبكِ»(*)

وضع حميد نايلون يده على كتف درويش بهلول، بإخاء، وقال له: «أنت تعجبني كثيراً يا درويش. إن من يراك لا يفطن إلى حقيقتك. الآن فقط، أدركت لماذا اختارك خضر موسى لتكون واحداً من الوفد. إن المرء قلما يلتقي أناساً في مثل حكمتك». فابتسم درويش بهلول، كما لو أنه يعتذر: «دعك من المجاملات يا حميد نايلون، فلربما كرهت لقائي ذات يوم أكثر من أي شيء آخر في الحياة». وبالطبع، لم يفهم المعنى الحقيقي لهذه الجملة سوى خضر موسى، الذي قال، محاولاً إنهاء هذا الحديث الملغز: «أعتقد أن الوقت قد حان لكي نهبط إلى الشارع. المدينة تنادينا». وهكذا، هبطط الرجال الستة إلى شارع الرشيد، مانحين أنفسهم للضجيج، وقد أسكرتهم رائحة الغبار، القادمة من الصحراء.

= منقول عن إبراهيم الداقوقي في كتابه: 1970, Ankara, Irak Türkmenleri.

(*) النص التركماني هو:

«Ağlama
Gundi geçer ağlama
Bu Kapini bağliyan
Birgün açar ăglama».

منقول عن ابراهيم الداقوقي (المصدر السابق).

twitter @baghdad_library

الفصل السادس

twitter @baghdad_library

كان خضر موسى، الذي اختبر الحياة أكثر من غيره، يدرك مخاطر الاقتراب من الملوك، فالجاه الذي ينعمه الملك على الذين يقرّبهم منه، يمكن أن يزول في لحظة واحدة، بل يمكن أن يتحول إلى كارثة، من دون أسباب مدركة في أغلب الأحيان. وكان يعرف من القصص التي حفظها عن والده، أن الملوك العرب القدامى، كانوا يقطعون بين الحين والآخر، رؤوس الذين يقرّبونهم، رغبة في التغيير، أو لدسيسة يدبّرها أحد الذين يستولون على عقل الملك أو قلبه. أما العثمانيون، الذين كان والده قد تعرف على بعض باشواتهم، فكانوا يلجأون إلى طرق تكاد تكون مضحكة. كانوا يُجلسون كبار رجالهم، الذين يغضبون عليهم، على الحمير، بالمقلوب، حيث يقودهم في أسواق المدينة منادٍ، جهوري الصوت، يعدد رذائلهم وخيانتهم، بينما كان الناس، الذين تُفرحهم مصائب غيرهم، يهجمون على الضحايا، فوق الحمير، وينهالون بأحذيتهم القذرة فوق رؤوسهم، أو يضربونهم بالعصيّ. ولكن الأفظع من ذلك كله، هو القتل بالخازوق الذي يوضع في مؤخرة الشخص، ويرغم على الجلوس عليه، حيث تخترق الحربة أحشاءه الداخلية، شيئاً فشيئاً. وهي طريقة في القتل، تميز بها الأتراك، الذين كانوا

يعتبرون التفرج على ضاحاياهم، وهم يعانون الموت البطيء، واحدة من المتع القليلة في حياتهم القاحلة. ولذلك، وعلى الرغم من تغير الزمن، فإن خضر موسى كان الأكثر قلقاً بين أعضاء الوفد، المتطلعين إلى لقاء الملك. ما كان يقلق خضر موسى ليس زوال النعمة، وإنما الشعور بالذل، ليس غضب الملك، وإنما الخوف من السقوط. ولكن مخاوف خضر موسى هذه ما كانت سوى مخاوف قلب مضطرب في حضور درويش بهلول، الذي كان يذكره بزوال كل مجد. ففي اليوم التالي، وجد وفد مدينة كركوك، الذي اجتمع عند باب قصر الزهور، ضابطاً قادهم، عبر حديقة مليئة بالأشجار والزهور والنافورات، إلى صالة واسعة، خالية من أي مقعد. وتركهم هناك، خارجاً من أحد الأبواب الجانبية، دون أن يقول شيئاً. في البداية، التزم الرجال الصمت، في انتظار خروج الملك عليهم. ولكن عندما طال الانتظار، راحوا يتهامسون فيما بينهم. بعد نصف ساعة من الانتظار المقلق، لم يجد بعضهم بداً من السير داخل الصالة، لإعادة النشاط إلى سيقانهم المتعبة، كما عمد بعضهم إلى الجلوس على الأرض، مقرفصين، عند الزوايا. وارتفعت الأصوات في ضجيج ملأ المكان كله. وأخيراً، تجرأوا على التدخين، فارتفعت سحابة من دخان سجائر «غازي» و«تركي» و«لوكس»، غطت الصالة كلها. بعد ساعتين، طلب بعض أعضاء الوفد إلى خضر موسى أن يفعل شيئاً: «لا يمكن أن ننتظر أكثر». فرد خضر موسى: «ماذا يمكن أن أفعل؟، في العادة الملوك يتركون رعاياهم ينتظرون». واقترح أحدهم: «ربما كان من الأفضل أن تقرع الباب وتنادي الملك». ولكن كردياً، في الجوار، اعترض، قائلاً: «لا يجوز ذلك، فقد يكون الملك مع عائلته». بعد دقائق من ذلك، رأى الرجال، عبر شباك الصالة، الملك فيصل

twitter @baghdad_library

الثاني مرتدياً «بنطلوناً» رياضياً أبيض قصيراً وفانيلة زرقاء، في مكان من الحديقة، وهو يؤدي بعض التمارين السويدية. كان ذلك أكثر مما يطيقه دده هجري الذي قال: «هذا كثير. سوف أذهب إليه، وأدعوه للمجيء». وقال خضر موسى: «لن يعرفك. سوف أجيء معك». وانضم درويش بهلول، هو الآخر، إليهما، حتى من دون دعوة. وخرج الرجال الثلاثة إلى الحديقة، قاصدين الملك. كان منظر الرجال مثيراً بعض الشيء، يفتقر إلى الانسجام؛ فخضر موسى يرتدي بذلة كحلية وقبعة رمادية ويضع نظارات سوداء فوق عينيه، ودده هجري بلحيته الكثّة «وجاكتته» المتهدلة فوق «بنطلون» تهرأت حواشيه من الأسفل، ودرويش بهلول كان يرتدي ثوباً من الخام الأبيض وقد وضع رجليه في «كلاش» عتيق. ولكن مرافقي الملك وحراسه، الذين رأوا الرجال الثلاثة يتقدمون نحو الملك، شهروا عليهم مسدساتهم وبنادقهم. وانتبه الملك إلى الضجة، فظل واقفاً في مكانه. ثم سرعان ما تعرف على خضر موسى، فضحك، وقال، بصوت عالٍ: «لا أكاد أصدق عيني. هذا هو خضر موسى بالتأكيد». ونادى عليهم: «هيا تعالوا، ما الذي تنتظرون؟» تقدم الرجال الثلاثة باتجاه الملك الذي صافحهم، وقدم خضر موسى صاحبيه الآخرين: «دده هجري، أعظم شاعر أنجبته كركوك، ودرويش بهلول، مالك حكمة البشرية». فمازحهم الملك الشاب، قائلاً: «ماذا يطلب الملك أكثر من ذلك؟ رجل شجاع مثل خضر موسى، وشاعر مثل دده هجري، وحكيم مثل درويش بهلول»، داعياً إياهم للجلوس على العشب. قال الملك: «كان بلاط جدي مرتعاً للشعراء. وقد عيّن محمد مهدي الجواهري كاتباً عنده. ولكن الجواهري، كما تعرفون، شاعر متقلب المزاج، انقلب علينا بعد حين، وراح يمدح أعداءنا. هكذا هم الشعراء دائماً. ماذا

نفعل؟ إن خالي والباشا يحفظان القصائد التي يهجوهما فيها». وعلّق دده هجري: «ولكن قصيدته التي يمدحك فيها تعتبر من عيون الشعر العربي». قال الملك: «تقصد قصيدته (ته يا ربيع)؟ حقاً إنها قصيدة جميلة. ولكن الملك يحتاج إلى ما هو أكثر من المدح. يحتاج إلى الثقة». ثم التفت إلى خضر موسى: «ألا تفكر في القيام بمغامرة أخرى أم أنك تقاعدت؟» فتنحنح خضر موسى، ضاحكاً: «تعرف يا صاحب الجلالة أن للعمر متطلباته. ما عاد قلبي يطاوعني على ركوب الأخطار». ضحك الملك: «لقد كبرت يا خضر إذاً». ودعا الملك ضيوفه الثلاثة إلى تناول الفطور معه، على الرغم من أن الوقت كان ظهراً. ولكن خضر موسى ذكره بموعد اللقاء المفترض مع وفد كركوك، المنتظر في الصالة؛ وهو أمر أثار استغراب الملك، الذي قال إن أحداً لم يبلغه به. ثم تدارك الأمر: «إذا كانوا قد جاؤوا من كركوك إلى هنا، فلا بد أن أسلم عليهم. ولكن ما الذي يريدونه؟»

قال درويش بهلول: «لقد جاؤوا للدفاع عن كرامة موتاهم».

واستغرب الملك: «كرامة الأموات؟ ما الذي تقوله أيها الدرويش؟ هل بقيت كرامة للأحياء حتى يدافعوا عن كرامة الأموات؟»

وتدخل خضر موسى، بلطف: «سوف نروي لكم القصة كلها يا صاحب الجلالة». فرد الملك، مازحاً: «ليس قبل تناول الفطور. لقد ظننت نفسي ملكاً على الأحياء وحدهم، ولكن إذا أراد الأموات أن أحكمهم أيضاً فلن أمانع». وضحك خضر موسى ودده هجري للفكرة الملكية، في حين أشاح درويش بهلول بوجهه جانباً، حتى لا يضطر، هو الآخر، إلى الضحك أو الابتسام، مجاملة للملك، الذي كان لا يزال غرّاً.

twitter @baghdad_library

وخطا الملك باتجاه الصالة التي انحشر فيها وجهاء كركوك، يتبعه خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري، فاستقبل الملك بعاصفة من التصفيق، ودوت الهتافات عالياً بحياته. وألقى الملك كلمة قصيرة، قال فيها إنه يكنّ مودة خاصة لأهالي كركوك، الذين أثبتوا ولاءهم دائماً للعرش الهاشمي، وإنه سيبذل كل ما في وسعه من أجل تطوير المدينة وحل مشاكلها، وإنه سيبحث الأمر مع صديقه خضر موسى أثناء تناول الفطور، شاكراً إياهم على تجشمهم عناء السفر لتقديم الطاعة والولاء له. وخرج الملك مرة أخرى، ممسكاً بيد خضر موسى، يتبعهما كل من درويش بهلول والشاعر دده هجري. ونادى الملاّ زين العابدين القادري خضر موسى: «سوف ننتظرك في الفندق يا خضر». فأسكته حميد نايلون: «أسكت يا رجل. إنه لن يضيع بالتأكيد».

واقتادهم الملك إلى غرفة الطعام، حيث احتسى الرجال الثلاثة القهوة مع البسكويت. أما الملك فقد شرب قدحاً من الحليب، وتناول ثلاث شرائح من الخبز مع الزبدة والمربى، واحتسى فنجانين من القهوة. وخلال ذلك، عرض خضر موسى على الملك قصة مقبرة المصلّى، التي تنوي البلدية ردمها، متجنباً، عن عمد، الإشارة إلى دور شركة النفط الانكليزية في القضية، وملمحاً، في الوقت نفسه، إلى أن ذلك يمكن أن يدفع الغوغاء إلى إثارة القلاقل والبلبلة. استمع الملك بانتباه إلى ما قاله خضر موسى، ثم أطرق برأسه قبل أن يقول: «إنني لا أحب التدخل كثيراً في شؤون الدولة، ومع ذلك سوف أبلغ طلبكم إلى رئيس الوزراء. وفي كل الأحوال، فإن حرمة الأموات يجب أن تظل مصانة في هذه البلاد». ونهض الملك مودعاً ضيوفه الثلاثة،

وممازحاً إياهم، إذ قال لخضر موسى: «في المرة القادمة أتوقع مجيئك في منطاد إلى بغداد». وابتسم وهو يصافح دده هجري: «إذا مدحتني في قصيدة، ذات يوم، فأرسلها إليّ». ولكنه توقف صامتاً للحظات، قبل أن يصافح درويش بهلول، ثم قال، بصعوبة: «أشعر أنني سألتقيك ذات يوم». فضغط درويش بهلول على يده، وهو يقول: «أعرف ذلك يا صاحب الجلالة». ثم انسحب تاركاً الملك يتأمل في معنى الجملة التي بدت غريبة له، إذ من أين يعرف هذا الدرويش أنه سيلتقيه، إلا أنه اعتبر قول الدرويش شطحة من شطحات الفكر، التي يتعمدها الدراويش في فتح أبواب الغيب المغلقة. عاد الرجال الثلاثة إلى الفندق، مثل أشباح خارجة من حفلة خرافية، من دون أن يتبادلوا سوى بعض الكلمات المقتضبة؛ كما لو أنهم كانوا يريدون إعادة تركيب مشاهد المنظر من جديد في رؤوسهم. فكر خضر موسى أن هذا الملك الشاب المدلل لا يملك، في الحقيقة، أية سلطة في الدولة التي يحكمها، وأنه ليس أكثر من فزاعة، للزينة. وأحزنته فكرة أن الملك نفسه لن يكون قادراً على فعل شيء، من أجل إيقاف انتهاك قبور آبائه وأجداده. وأدرك، ربما بصورة غامضة بعض الشيء، أن دماً كثيراً سوف يسيل، وأنه مسؤول عن ذلك. وكان دده هجري يفكر في قصيدة، يحتسي فيها الشاعر القهوة بحضور الملك. كانت الأبيات تتغير في ذهنه:

«ذات صباح،
شربنا القهوة معاً، أنا والملك
الحياة إلى يميننا،
والموت إلى يسارنا».

وكان ثمة أسى قد داخل قلب درويش بهلول، من البراءة

twitter @baghdad_library

التي أظهرها الملك. فقد كان يعرف أن تلك البراءة لن تدوم سوى أعوام قليلة أخرى، براءة سوف يخترقها الرصاص ذات صباح، حتى قبل أن يدرك الملك تماماً حقيقة ما حدث. كان درويش بهلول يعرف، من تجربته مع البشر، أن ثمة موتاً سهلاً وآخر صعباً. يمكن للمرء أن يقبل موته، عندما يكون قد وطد قلبه على ملاقاته. أما الموت، الذي يمكن أن يباغت المرء، فيسبب الأسى؛ إذ تظل هناك دائماً مشاريع ناقصة: كتابة رسالة ما، قراءة فصل أخير في رواية، إعتذار عن خطأ، إعلان عن حب أو مودة، رحلة إلى مكان ما. ثمة فارق دائماً بين الآمال المُطفأة والآمال المؤجلة. وما كان لأحد أن يدرك هذا الفارق الدقيق أكثر من درويش بهلول العائد من لقاء الملك.

كان حميد نايلون يقف أمام الفندق في انتظار الرجال الثلاثة، حيث قادهم إلى جامع الحيدر خانة الذي كان أعضاء الوفد قد اتخذوه مركزاً للقائهم. كانوا ينتظرون بلهفة الأخبار التي سوف يوصلها خضر موسى إليهم عن فطور الملك. ولكن خضر موسى التزم الصمت بطريقة مريبة، حتى اضطر العديدون إلى سؤاله عما جرى هناك. عند ذاك أشار خضر موسى إلى دده هجري أن ينهض، قائلاً: «أفضل أن نستمع إلى الشاعر ليروي لنا القصة من بدايتها». ونهض الشاعر متجهاً نحو المحراب، وقد تعلقت به العيون. كان آخرون قد جاؤوا أيضاً إلى المسجد صدفة، فانضموا إلى الجالسين، دون أن يعرفوا حتى حقيقة المناسبة. وبدأ دده هجري يغني رباعية تركمانية، مغمضاً عينيه ومتأرجحاً في وقفته، كما لو أنه ينهض من سبات طويل:

موضع الوردة

قم لنذهب الى موضع الوردة
ذهبت قاصداً موضع الوردة
ولكني وجدت الشوك موضع الوردة(*)

هذه القصيدة التي غناها الشاعر صدمت الحاضرين، فقد كانت تتضمن تعريضاً واضحاً بالملك، وهو أمر لم ينتبه إليه بالطبع سوى وفد كركوك الذي كان ينتظر أخباراً طيبة عن لقاء الملك. ازداد الحاضرون حيرة. كانوا يريدون معرفة ما قاله الملك للرجال الثلاثة، لا الاستماع إلى أشعار ملغزة، وتوجهت الأنظار إلى خضر موسى، طالبة إليه الكلام. ولكن خضر موسى كان محنياً رأسه، كما لو أنه يتأمل في ما يقوله الشاعر. كان دده هجري هو الآخر غارقاً في نفسه، يفكر في قصيدته غير المكتملة عن الفطور مع الملك، ولذلك هز كتفيه في حركة تمثيلية، متمتماً ببضع كلمات مبهمة، ثم غادر المحراب وفي عينيه حزن، لم يلحظه سوى درويش بهلول الذي نهض واتجه نحو المحراب، ملقياً كلمة جعلت الكثيرين يضطربون في أماكنهم، حتى لكأنهم يهتزون بين قطبين متنافرين: المعلوم والمجهول. كان صوت درويش بهلول يشبه الرعد عند المطر. ورفع خضر موسى عينيه إليه وابتسم، كما لو أنه يريد أن يشجعه على المضي في الكلام. قال درويش بهلول: «الليل والنهار يتعاقبان، ولكن من يعرف

(*) النص التركماني الأصلي لهذه الرباعية هو:
كول بيرينه
قاغ كيده غ كول بيرينه
كيتدم كولو كور مغه
تيكان وار كول بيرينه
منقول عن عبد اللطيف بندر اوغلو: التركمان في عراق الثورة (مصدر سابق).

twitter @baghdad_library

الليـل وينكر النهـار! اشربوا من النبـع الذي يتـدفق، اصعدوا الجبل حتى القمة ثم انحدروا لتلاقوني، أنا الذي ينتظركم منذ لحظـة الولادة. وداعـاً وإلى لقاء». لـوى درويش بهلـول رأسـه وخـرج، مغادراً المسجـد، دون أن يفقه أحـد كلمـة ممـا قـال. والأكثر من ذلك انهم استهجنوا غموضـه ومغادرتـه دون مبرر. صحيح أن خضر موسى هو الذي جاء به وفرضه على الوفد، على الرغم من أن أحداً لم يكن قـد سمع بـه من قبل، إلا أنـه وقد وافـاه الحظ للجلوس مـع الملك، مـا كـان ينبغي لـه أن يغـادر الجمع بهذه الطـريقة المسرحيـة، بعد بضـع جمل غـامضة، لا تعني شيئاً في واقع الحال.

لم يعد ثمة بد من نهوض خضر موسى. كان الجميع ينتظرون منـه أن يقول شيئـاً واضحاً هـذه المرة، عـلى عكس صـاحبيـه اللذين جعلا النـار تضطرم في قلـوب الحاضرين، حتى من دون أن يقولا شيئاً واضحاً. واضطر خضر مـوسى الذي كـان يعرف كيف يقنع الآخرين بأفكاره، إلى الاعتـذار عما بـدا من غموض في خطبة دده هجري ودرويش بهلـول، ملمحاً إلى أن ذلـك ربما كان صدى للرهبة التي تركها اللقاء مع صـاحب الجلالـة الملك فيصل الثاني، حفظه الله. قال وهو يحاول نقل انطبـاع جديـد إلى مستمعيـه إن الملك تـأثر كثيـراً للخطر الـذي يهـدد قبـور المسلمـين في كركـوك وإنه سيبلـغ رئيس وزرائه بـالأمر. وعـلى الرغم من أن ذلك كان أقل مما يتوقعـه منه مستمعـوه، إلا أنه حاول حسم كل اجتهاد، مشيراً إلى أن الأمـر أصبح الآن بيـد الملك. وهذا وحـده يعني الكثير. وهكـذا انفض هذا الاجتمـاع الذي ترك الأمر مفتوحاً. ولما لم يعد هناك مـا يفعله الـرجال في بغـداد، فقد قـرر الكثيرون منهم العـودة إلى كركـوك في اليـوم

التالي، بعد أن استبد بهم الحنين. وتفرق الجمع مرة أخرى. قصد خضر موسى، يتبعه شيوخ محلة جقور، سوق الهرج حيث اشتروا ملابس وأحذية تكاد تكون جديدة، مرسلة من أوروبا بأسعار رخيصة للغاية. وانتهز التجار الفرصة فعقدوا بعض الصفقات مع تجار الشورجة. وانسل حميد نايلون وسليم عرب مرة أخرى إلى الأزقة التي تبيع الهوى، قبل أن يجلبا من دكان يقع في العيواضية، مطبعة رونيو صغيرة أخفيت داخل صندوق من الخشب، كان فاروق شامل قد طلب إلى حميد نايلون نقلها إلى كركوك، بعد أن تم تهريبها من دمشق على ظهر بعير عبر الصحراء. وفيما بعد توزع الوفد في المقاهي القريبة، حيث قصد التركمان مقهى البرلمان، والأكراد مقهى البلدية الذي كانوا يقيمون أيضاً في غرفه الواقعة في الطابق الثاني. وكان ثمة آخرون قد ذهبوا إلى مقهى حسن عجمي، بينما جلس خضر موسى ودده هجري ودلي إحسان على كراس، وضعوها على الرصيف أمام الفندق، متفرجين على الناس الذين كان يضج بهم شارع الرشيد. وظل دده هجري قلقاً طيلة المساء على غياب درويش بهلول الذي لم يترك أثراً وراءه، على الرغم من أن خضر موسى طمأنه أكثر من مرة، مؤكداً له أنه ربما قصد مسجد الحلاج الواقع في الكرخ، أو ذهب لقراءة الفاتحة على قبر الإمام الأعظم في الأعظمية، فالرجل كثيراً ما يختفي ويتنقل بين البلدان والمدن، كما لو أنه موكل بمهمة، لا يعرفها أحد سواه.

حين أقفلت السيارات في اليوم التالي عائدة إلى كركوك التي بلغتها عند الظهر، كانت مهمة الوفد قد انتهت، إذ لم يبق سوى انتظار الأوامر العليا التي كان يفترض صدورها في أي

twitter @baghdad_library

وقت. ولكن المفاجأة التي واجهت الرجال العائدين من بغداد، كانت أكبر من كل خيال. فقد تمردت محلة جقور أولًا، ثم تبعتها المحلات الأخرى التي هاجمت جرافات وحفارات البلدية بالحجارة، مما جعل الشرطة ترسل قواتها إلى ساحة المصلى وتحتل الحديقة الواقعة في وسطها، ناصبة العديد من الرشاشات فوق سطح المدرسة الابتدائية المطلة على المقبرة. في البداية هاجم المتمردون سيارات البلدية بالحجارة واستولوا عليها متخذين منها متاريس ضد أي هجوم محتمل، يشنه العدو ضدهم. ولولا وصول فوج من الشرطة، لما تمكن عمال البلدية من النجاة بجلودهم. فقد انهالت الحجارة من السطوح القريبة من المكان، حتى لكأن السماء تمطر حجارة. ولم يفلح رجال الشرطة في إنقاذ العمال المحاضرين إلا بعد إطلاق زخات متتابعة من الرصاص في الهواء. وجاءت سيارة مسلحة للشرطة راحت تبث دون انقطاع من مكبرات صوت نداءات تطالب المقاومين بالانسحاب من المكان، مهددة بمعاقبة كل من يتحدى القانون والنظام. وقد رد المقاومون على هذه النداءات، التي كان يطلقها دلّال يعمل في سوق الحبوب، معروف في المدينة بفصاحة لغته وعلو صوته، جاءت به الشرطة عنوة، بنداءات مضادة، راحوا يطلقونها من مكبرات الصوت المنصوبة فوق منارات المساجد الموجودة في المنطقة. وانضم تلاميذ مدرسة المصلى الابتدائية مع معلميهم ومديرهم، بعد أن احتلت الشرطة سطوح مدرستهم إلى صفين منتظمين، مرددين نشيد «موطني» الذي جعل الناس يصفقون للتلاميذ الصغار الذين، ما كادوا يبلغون نهاية الحديقة التي كانت تفصل بين الجانبين، حتى انضموا إلى المقاومين الذين ارتفعت معنوياتهم، مشاركين التلاميذ نشيدهم المؤثر:

موطني... موطني
الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك
هل أراك
سالماً منعماً وغانماً مكرماً
هل أراك
في علاك تبلغ السماك
موطني ...موطني

كانت محلة جقور قد أعلنت تمردها في اليوم نفسه الذي التقى فيه خضر موسى الملك فيصل الثاني. وقد حدث ذلك كله بسبب خطأ ارتكبه مأمور البلدية. كان مدير الشرطة قد أصدر أوامره بالتوقف عن أعمال الحفر التي كانت البلدية تقوم بها، عندما عرف أن ثمة وفداً ذاهباً إلى بغداد، قاصداً الملك، وكان ذلك خطوة حكيمة منه، فقد أراد أن يستبق الأحداث ويتجنب العواقب. ولكن مأمور البلدية الذي كان يشرف على شق الطريق بدل أن يسحب الحفارات والجرافات من مكانها عند حافة المقبرة نقلها إلى ساحة في الطرف الآخر من المقبرة، حتى انجلاء الموقف. وهكذا، فإنه بدل أن يطلب من عماله التراجع إلى الخلف، أمرهم بالتقدم إلى الأمام. وعند ذاك اندفعت عصابة العمالقة التي كانت تكمن في زقاق واقع بين محلة العرب ومحلة اليهود «شانّةً» غارة سرية ومباغتة على عمال البلدية والشرطيين الذين كانوا يحرسونهم، يتبعهم الأطفال والنساء والشيوخ حاملين في أيديهم العصي والسكاكين والحجارة. أما عصابة العمالقة التي ما كان ينقصها سوى حميد نايلون الذاهب إلى بغداد، فكانت قد تسلحت بالمقابض

twitter @baghdad_library

الحديدية الصفر التي يمسك بها المرء بين أصابعه. وقد بدأ هذا الهجوم الذي قاده عباس بهلوان بصرخات «الله أكبر» وهلاهل النساء وموجات من الحجارة التي انهالت على العمال ورجال الشرطة الذين لاذوا بالفرار. وكان عباس بهلوان قد لحق بسائق إحدى الجرافات وتشبث بالباب، موجهاً إليه لكمة، انحرف عنها فأصابت كتفه، مما جعله يرمي بنفسه إلى الأرض من الجهة الأخرى ويولي هارباً، وهو يشتم ويصرخ من الألم. واندفع المهاجمون، يتقدمهم الصبي برهان عبد الله الذي كان يحمل العلم العراقي. هذا الهجوم المباغت أرعب عمال البلدية الذين لاذوا بالفرار باتجاه الحديقة، محتمين بأشجارها من الأحجار التي كانت تنهال عليهم. وحاول ثلاثة من رجال الشرطة الهجوم فراحوا يطلقون النار في الهواء من بنادقهم، ولكن رجال العصابة أحاطوا بهم وجردوهم من أسلحتهم، بعد أن أوسعوهم ضرباً، ثم اقتادوهم إلى إحدى الشاحنات المتروكة وربطوا أيديهم بالحبال. وقد انضم إليهم مأمور البلدية الذي كانت النساء قد لحقن به وأسرنه، وهو يحاول التسلل من أحد الأزقة الجانبية.

هذا النصر الساحق والسريع الذي حققته محلة جقور، لم يأت دون ثمن، وهو أمر لم يكن أحد قد وضعه في الحسبان. فعندما شنت محلة جقور هجومها الخاطف على عمال البلدية، سحب شرطي أمن، كان يجلس قبل ذلك بين القبور مسدسه وهرع باتجاه المهاجمين، ولكنه ما كاد يرى نفسه على وشك الوقوع في المصيدة، حتى لاذ هو الآخر بالفرار، شاهراً مسدسه، يتبعه عدد من الأطفال والرجال والنساء الذين طاردوه، منادين «حرامي، أمسكوا به». كان يركض لاهثاً،

يتبعه الحشد الصارخ، وحاول آخرون قطع الطريق عليه، مما أوقعه في رعب شديد، فرفع يده بالمسدس الذي يحمله في يده وأطلق ثلاث رصاصات باتجاه مطارديه الذين كانوا يقتربون منه، فأصابت إحدى الرصاصات حلاقاً أسود كان يجلس على كرسي أمام دكانه الواقع على مقربة من ضريح الإمام أحمد فأردته قتيلاً، حيث ظل جالساً في مكانه والدم يتدفق من ثقب في صدره، بينما انحدر رأسه إلى الأمام. ومر بعض الوقت قبل أن ينتبه ابناه الأسودان الصغيران، اللذان كانا يتفرجان هما أيضاً، إلى الدم الذي يلطخ صدر والدهما فراحا يصرخان بطريقة، جعلت المطاردين يقفون ويلقون نظرة على الرجل الميت، مما جعل شرطي الأمن يفلت من المطاردة، داخلاً زقاقاً مؤدياً إلى سوق الجلود. كان القتيل بالطبع طارئاً على المدينة، ينتمي في الأصل إلى عائلة من العبيد، جلبها الكابتن جيزني، وهو مساح انكليزي عمل أولاً في شركة الهند الشرقية ثم مع عائلة لنج، معه من أفريقيا في نيسان ١٨٢٦، على ظهر باخرة أطلق عليها اسم «دجلة» انطلقت من بيرة جك، ولكنها تعرضت بعد شهر من الأهوال إلى هجوم شنته عليها قبيلة الخزاعل المتوحشة وأغرقتها في مستنقعات اللملوم، بعد نهب ما فيها. وقد نجا العبد والمرأة التي كانت معه من المذبحة على فلك من الجلود المنفوخة، انحدر بهما حتى القرنة، حيث التقطهما زورق تركي مسلح، ثم ألحقا بخدمة الوالي رشيد باشا الكوزلكلي الذي أهداهما بدوره بعد شهر من ذلك إلى صهره عطا أفندي في سنجق كركوك، بعد اعتناقهما الإسلام. كان ذلك الرجل الأسود هو قرة قول محمود، جد الحلاق قره قول منصور الذي قتله شرطي الأمن. وقد اندمج هؤلاء العبيد القلائل الذين ما كان عددهم يتجاوز العشرة أشخاص في حياة المدينة، حتى

twitter @baghdad_library

أنهم راحوا يعتبرون أنفسهم اعتباطاً من التركمان السود. وكاد الناس ينسون منبتهم لولا الشر الذي كان يتميز به أطفالهم الذين كثيراً ما كانوا يقطعون الطريق على الأطفال الذاهبين إلى المدرسة أو العائدين منها، ولولا بشرتهم السوداء الداكنة التي يقال إنهم كانوا يدهنونها بسائل خاص، يستخلص من حبوب عباد الشمس ويغسلون أجسادهم بعطر ذي رائحة مدوخة، كانوا يجلبونه من سوق العبيد في البصرة.

على الرغم من أن قره قول منصور مات وهو جالس على كرسي أمام دكانه، فإن الناس اعتبروه شهيداً، سقط في المعركة، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين وانتشرت قصص كثيرة عن موته البطولي، نسبت إليه معجزات، لم يكن يستحقها. وبالتأكيد، فإن بعض هذه القصص اختُلق ليؤثر على عواطف الناس التي تؤججها مثل هذه القصص، وكان المؤلفون هم أعضاء المنظمات السياسية السرية العاملة في المدينة، والتي كان يهمها خلق البلبلة والإثارة والفوضى ضد الحكومة. ولكن كانت ثمة قصص أخرى، راح الناس يروونها في المقاهي، لا يعرف أحد حتى مصدرها أو دوافعها، وهي قصص خيالية، يصعب تصديقها. فقد ذكرت إحدى هذه القصص أن نسب قره قول منصور ينتهي إلى الصحابي الأسود بلال الحبشي الذي كان أول من أذن علناً، متحدياً الكفار والمشركين. واشتطت القصص في القول، ذاكرة أن قره قول منصور هو بلال الحبشي نفسه، وأن النبي محمداً أعاره البراق الذي هبط به من السماء السابعة إلى الأرض، ليرفع راية الإسلام من جديد. وظهرت بيانات مكتوبة بخط اليد حددت موعد يوم القيامة بالساعة العاشرة والربع من يوم الثامن والعشرين من مارس، أي بعد مرور

سبعة أيام بالضبط على مقتل قره قول منصور، وهي بيانات قال مدير الشرطة إن اليهود الذين ظلوا في كركوك، رافضين السفر إلى إسرائيل هم الذين أصدروها. وقد اعترف بالفعل عدد من اليهود الذين اعتقلتهم الشرطة بتحرير هذه البيانات، لإثارة الفوضى والاضطراب في دولة المسلمين. ولكن الشرطة أطلقت سراحهم بعد يومين من اعتقالهم، تجنباً لإثارة الرأي العام في الخارج ضد العراق.

وتحول تشييع جنازة قره قول منصور إلى حدث ما شهدت له كركوك مثيلاً قط من قبل. فقد خرج الناس من الأزقة والمحلات، لاطمين ناحبين وأقبلوا في موجات بشرية، رافعين الأعلام السود، تتقدمهم الطبول الجنائزية التي ظلت تقرع في المدينة كلها. وعلقت اللافتات عند مداخل الطرق والأزقة والشوارع «المجد والخلود لشهيد الانتفاضة قره قول منصور» و«دم الشهيد قره قول منصور لن يذهب هباء». وجاء الفلاحون من القرى القريبة من كركوك على حميرهم وخيولهم، أما البدو الذين يضربون خيامهم في بادية الحويجة، فقد جاؤوا على جمالهم التي تركوها ترعى العشب بين القبور في سهل بيدي قيزلر. ولم يتردد حتى الغجر الذين كانوا يقيمون حفلات راقصة داعرة في خيامهم المنصوبة في سهول المدينة الخضر، من النزول إلى الشوارع، جارين وراءهم الدببة التي جعلوها ترقص على إيقاع الضربات الجنائزية للطبول، والقردة التي ألبسوها ثياب الحداد. وخشي المتصرف الذي بوغت بالأمر، أن تفلت الأمور من أيدي الحكومة فأعلن حالة الطوارىء في المدينة بعد جلسة قصيرة عقدها مع مدير الشرطة وقائد الفرقة الثانية. واتصل رئيس الوزراء من بغداد بالمتصرف، مؤنباً إياه على

twitter @baghdad_library

فلتـان الأمور في مـدينته وطـالباً إليـه الاتصـال بخضر مـوسى ووجهاء المدينة الآخرين لإنهاء الاضطرابات. ولكن خضر موسى كان مع وجهاء المدينة في بغداد، ولذلك لم يعد بد من الانتظـار. وعلى الرغم من إعلان حالة الطوارىء فإن مدير الشرطة سحب قواته من المدينة، مكتفياً بالقـوة التي ظلت معسكرة في مـدرسة المصلى الابتدائية المطلة على المقبرة. أما قائـد الفرقـة الثانيـة، وهـو ضابط عـربي من الموصـل، فقد وضـع بعض قواتـه عند مـداخل المـدينة، ممتنعـاً عن إنزال الجنـود إلى الشوارع التي كان المقاومـون يسيطرون عليهـا. وصعد مـدير الشرطـة وقائـد الفرقة الثانية في طـائرة هليـوكوبتـر، ظلت تحلق فوق المقبـرة، مراقبة الألـوف من الناس الـذين جاؤوا لتـوديع شهيـدهم قره قول منصور الذي دُفن قريباً من ضريح إمام بدين أكلـه الناس في أيام المجاعـة الكبرى التي مـرت بالمـدينة في القـرن الماضي، ولكن عظامه نطقت فكشفت الفعلـة الذين أمـر القاضي بقتلهم، فأكلهم الناس انتقاماً للإمام المأكول.

ولكن الأمـر لم ينته مـع دفن قره قـول منصـور. فقـد ظـل المتمـردون، ومعظمهم من محلـة جقـور، وراء متـاريسهم التي أقاموها على حافة المقبرة من الجرافات والحفارات التي احتموا بها، مشعلين النار في إطارات السيـارات، وقاطعـين الطريق إلى المقبرة، في مواجهـة قوة الشرطـة التي ظلت هي الأخرى تحتـل مبنى مدرسة المصـلى الابتدائيـة. وسهر مـع المقاومـين أطفال المحـلات القريبـة الذين راحـوا يصغون بـاهتمـام وانتبـاه إلى القصص التي كـان يرويهـا الشيوخ عن أيـام الحرب العـالمية الأولى، عنـدما تـراجع الجيش التـركي أمام القـوة الانكليزيـة الغازية، مصادراً كل ما يصادفه في طريقـه، حيث كان الجنـود

الباشبزق يقتحمون البيوت ويطعنون بحرابهم أفرشة النوم، بحثاً عن الحنطة والدقيق، مستولين على جرار العدس الموضوعة داخل النار اللاهبة في التنور، والتي كانوا يخرجونها ثم يقرفصون على الأرض ويلتهمونها، مانعين حتى أطفال البيت الجياع ونساءه من الاقتراب من القصعة. وحملت النساء إلى المقاومين قدور الدولة، بينما انهمكت نساء أخريات في إعداد الشاي الذي كان يوزع على المتمردين. والتزمت قوة الشرطة المواجهة بالأوامر الصارمة الصادرة إليها، فلم تطلق النار سوى مرتين أو ثلاث، عندما تسلل بعض الأفراد إلى داخل الحديقة الفاصلة بين الجبهتين، محتمين بجذوع الأشجار والظلام وقذفوا الشرطة ببضع قنابل مولوتوف، قام بصنعها طلاب ثانوية الصناعة، وقد رد المقاومون على نيران العدو بإطلاق النار في اتجاه المدرسة من البنادق الثلاث التي كانوا قد استولوا عليها من الشرطة في بداية المعركة ومن بعض المسدسات التي كان الرجال يضعونها في أحزمتهم. وجلب ثلاثة رجال مدفع رمضان االلذذيي كان متروكاً في مكان ما بين القبور، آملين بطريقة ما في استخدامه رغم عدم وجود قذائف لديهم أو لتخويف العدو ورفع معنويات المقاومين على الأقل.

في الحقيقة إن تلك الليلة التي أمضتها محلة جقور والمحلات المجاورة عند حافة المقبرة على ضوء الفوانيس التي وضعت فوق القبور المرمرية شهدت أحداثاً، جعلت رجال الشرطة الذين ظلوا يراقبون الموقف من فوق سطح المدرسة يتركون أسلحتهم ويفرون في الظلام، بعد أن ملأهم الخوف والرعب مما شهدته أعينهم. فعندما جلب الرجال الثلاثة مدفع رمضان، ضحك حتى عباس بهلوان الذي كان يقود المعركة، قائلاً: «ما الذي

twitter @baghdad_library

نفعله بمدفع يشبه الحمـار؟» وكان الأطفـال قد اعتلـوه، بل إن برهان عبد الله مد يده داخل ماسورة المدفـع وراح يتحسسها، كما لو أنه يبحث عن شيء ما، ولكن كـولبهار نهـرته خـائفة من انفجار المدفع الذي لم تكن تملـك فكرة واقعيـة عنه. عنـد ذاك قال برهان عبد الله مخاطباً عباس بهلوان: «ليس صعباً صنـع القـذائف. يمكننا أن نصنـع قـذائف من كبـريت الثقـاب». رد عباس بهلوان: «هل تعرف مـا تقول أيهـا الصبي؟ لا أعتقد أن الأمر بالسهولة التي تعتقدها». ولكن عـريفاً كـان قد شـارك في حرب فلسطين قال: «قد نحتـاج إلى القليل من الكبـريت، ولكن الأهم من ذلك هو الحصـول على كميـة كافيـة من البارود». لم يكن الحصول على البارود مشكلة، فقد كان ثمة الكثير منـه عند الحجارين الذين لم يكونوا ليبخلـوا به عـلى االمقاومـين، إذ مـا كـاد كيـس البارود يصـل إلى المقبرة عـلى ظهر حمـار، كـان معتـاداً عـلى نقـل الجص في النهـار، حتى تـولى فـريق من العسكريين القدامى أمر المدفع الذي أبعدوه عن النـاس الذين أحاطوا بهم متفرجين، محذرينهم من خطر الاقتراب منه. وأفلح العسكريون في تلقيم المدفع الذي قالوا عنه إنه قد أصبح معداً للإطلاق. عند ذاك اقترب عباس بهلوان من سور الحديقة وراح يصرخ بصوت عال طـالباً إلى قـوة الشرطة المعسكـرة في بنايـة المـدرسة الاستسـلام أو الاستعـداد لتلقي القصف المـدفعي. ولكن صوتاً متحدياً رد عليـه من فوق السطـح: «من أنت لتهدد الحكومة يا ابن الكلب؟». إذ ذاك رد عليه عبـاس بهلوان: «أنـا عباس بهلوان يـا ابن العاهـرة. لو كنت رجـلاً فانـزل إلى تحت حتى أضعك في جحر حكومتك». وأصـدر عباس بهلـوان أوامره بـالقصف. فانسحب النـاس إلى الوراء في الـوقت نفسه الـذي تقـدم فيه الجنـدي الذي كـان قد اشتـرك في حـرب فلسطـين

وصوب المدفع باتجاه المدرسة، ثم أشعل النار في فتيل مربوط بالمدفع وهرول عائداً إلى الوراء، طالباً إلى الناس التمدد على الأرض بين القبور. مر بعض الوقت من دون أن يحدث شيء ما، فرفع الكثيرون رؤوسهم من الملل أو الفضول. وأخيراً حدث الانفجار الرهيب المنتظر الذي هز الأرض تحت أقدام المقاومين الذين رأوا المدفع يتحول إلى كتلة هائلة من النار ترتفع في السماء، عابرة أشجار الحديقة الباسقة ثم تسقط في الشارع قبل أن تبلغ المدرسة. وفزع رجال الشرطة المختبئون وراء ساتر سطح المدرسة في البداية، ولكنهم ما إن أدركوا حقيقة الأمر عندما شاهدوا المدفع مرمياً أمامهم مثل جثة في الشارع، حتى راحوا يضحكون ساخرين، بصوت عال، مرددين أهزوجة جاءت عفو الخاطر:

«طوبك ما ينوش الناس
يا عباس بن فرناس»

ولم يكفّ رجال الشرطة من ترداد اهزوجتهم إلا عندما أطلق محمود العربي ثلاث رصاصات باتجاه سطح المدرسة الابتدائية فأصاب شرطياً في كتفه، كان يدخن متكئاً على الجدار الساتر. ورد رجال الشرطة على النار بزخات من الرصاص فأصيب الحمار الذي حمل البارود إلى المقاومين والذي كان قد تسلل إلى الحديقة وراح يرعى العشب، وهو أمر لم ينتبه إليه أحد إلا في صباح اليوم التالي، عندما رأوا خيطاً من الدم المتخثر يمتد من ثقب في رأسه، مرمياً على جنبه الأيمن تحت شجرة يوكالبتوس.

لا شك أن هذا الإخفاق الذي مني به المقاومون أزعجهم، فقد كانوا يريدون تلقين رجال الشرطة المعتصمين وراء جدران

twitter @baghdad_library

المدرسة درساً قاسياً. ولكن الأمر لم يكن مهماً. بل إن بعض شيوخ محلة جقور حمد الله على أن مدفع رمضان طار في الهواء، بدل أن تصيب القذيفة المدرسة. فقد كان يمكن لذلك أن يؤدي إلى كارثة، لا يمكن التنبوء بعواقبها. وقالت إحدى النساء: «لا تنسوا أن رجال الشرطة مسلمون مثلنا». ولكن الاعتراض الأشد على تلك العملية المخفقة جاء من معلمي المدرسة الذين كانوا قد انضموا إلى المقاومين. فقد استنكر هؤلاء نسف مدرستهم، متسائلين في الوقت نفسه عن جدوى العملية كلها: «ما الذي تريدونه من رجال الشرطة؟ دعوهم حيث هم». ورد عباس بهلوان بعصبية: «هل تعتقدون أنهم احتلوا المدرسة طلباً للعلم؟ لقد جاؤوا لإرهابنا وحماية عمال البلدية الذين يريدون نبش القبور. لا بد من طردهم». كانت حجج عباس بهلوان دامغة، بحيث اضطر المعلمون إلى الانزواء جانباً واللجوء إلى الصمت. وفكر بعض العمالقة في اللجوء إلى عملية تكاد تكون انتحارية، وهي مهاجمة المدرسة بقنابل مولوتوف، يلقونها من داخل الحديقة، محتمين بجذوع الأشجار. ولكن فاروق شامل استسخف الفكرة وكشف خطرها، مؤكداً أن ذلك يمكن أن يؤدي إلى سقوط ضحايا غير ضرورية: «المهم كسب المعركة بأقل قدر ممكن من الخسائر». كانت تلك جملة، قرأها في كتاب لمؤلف روسي عن الحرب العالمية الثانية. وفي الوقت نفسه كان برهان عبد الله وبعض الصبية الآخرين قد حصلوا على صواريخ ألعاب نارية، راحوا يشعلونها، موجهينها باتجاه المدرسة، حيث كانت تنطلق مئزة ومضيئة المكان كله قبل أن تسقط فوق سطح المدرسة أو ترتطم بجدرانها، كاشفة رجال الشرطة الذين كانوا يراقبون المشهد. ولكن الرجال منعوهم من ذلك، لأن الضوء كان يكشف المقاومين أيضاً ويجعلهم هدفاً

سهلاً لنيران العدو. كان الليل قد ازداد حلكة وعاد الذين شعروا بالنعاس إلى بيوتهم القريبة، حيث ظلوا يتحدثون إلى بعضهم الآخر عبر سطوحهم المتلاصقة التي ما كانت تفصلها سوى جدران واطئة عن أحداث اليوم الذي عاشوه، ممتدحين بسالة عباس بهلوان، ومنكتين في الوقت نفسه على الأزياء الغريبة التي كان العمالقة يرتدونها: «هكذا هم الشباب دائماً: قلب شجاع وعقل صغير». في الحقيقة ان ذلك لم يكن رأي الجميع. فقد وصفهم عبد الله علي الذي كان قد أمسك بيد ابنه برهان وأعاده إلى البيت لجاره، وهو صاحب مطعم كباب صغير في السوق الكبير قائلاً: «هؤلاء الشبان ليسوا سوى مهرجين. المعركة في نظرهم ليست أكثر من لعبة. هل رأيت كيف أنهم كانوا يتباهون بأنفسهم أمام الناس؟». وقالت زوجته قدرية منوهة بمركز شقيقها خضر: «ما كان ينبغي على خضر أن يذهب إلى بغداد. لو ظل هنا لما حدثت كل هذه المصيبة».

في هذه اللحظة بالذات وكانت ساعة الحائط الموجودة في بيت عبد الله علي قد دقت لتوها اثنتي عشرة دقة. عدها الصبي برهان وهو مستلق على فراشه، شاهد المقاومون الكامنون عند حافة المقبرة ورجال الشرطة الموجودون فوق سطح المدرسة الابتدائية والناس في المحلات القريبة المطلة على المقبرة، السماء الخالية من الغيوم تبرق فجأة مرتين أو ثلاث مرات ثم ترعد بقوة، جعلت الأرض تهتز تحت أقدامهم، وفجأة اختفى القمر والنجوم وانطفأت أضوية المصابيح الموجودة في الشوارع، فغرقت المدينة في ظلام دامس، وراحت الكلاب السائبة التي تملأ المدينة تعوي بصوت رتيب موحد، والقطط تموء والديكة تصيح، معلنة الصباح الذي ما كان موجوداً. واستغرب الناس

twitter @baghdad_library

الأمر، فقد كان ذلك مثيراً للريبة والشك، وظلوا يتطلعون إلى السماء التي كانت قد تحولت إلى فضاء هائل من الظلام. ولكن قلقهم لم يستمر طويلاً. فقد انبثق فجأة من مكان ما من المقبرة عمود من النور، راح يرتفع حتى بلغ عنان السماء، محولاً الليل إلى نهار. وتطلع الكثيرون إلى الموضع الذي كان ينبثق منه النور واقترب منه آخرون بقلوب مضطربة وجلة، ولكن النور أعشى أبصارهم فتراجعوا أو ظلوا واقفين. وعندما تأكد الناس من أن النور يتدفق من قبر قره قول منصور، راحوا يكبرون الله واستبدت الحماسة بجماعة صغيرة من أعضاء «الحياة الآخرة» انضم إليهم بعض الدراويش فراحوا ينشدون على نقر الدفوف:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

وزغردت النساء فدوّت هلاهلهن المعلنة للعيد. وأطلق المقاومون الرصاص في الهواء، شاكرين الله على هذه المعجزة التي لا يمكن نكرانها. وقد أصاب الاضطراب حتى رجال الشرطة فراحوا يستغفرون الله، وقد تملكهم الخوف من غضبه. ولكن هذه المعجزة لم تكن في الحقيقة سوى فصل من معجزة، امتدت أخبارها إلى العالم كله وتحدث عنها علماء الروحانيات في حلقاتهم المنتشرة في إيران والهند وتركيا وأذربيجان. ظل النور الساطع يتدفق ساعة أو بعض الساعة قبل أن يرى الناس حصاناً أبيض مضيئاً، يثب من داخل القبر ويرتفع في الجو، وعلى ظهره قره قول منصور الذي كان لا يزال داخل كفنه. ظل الحصان وفارسه يرتفعان داخل عمود النور حتى أصبحا مثل غيمة معلقة فوق المدينة. كان الميت قره قول

منصور يمسك بيده مهمازاً، يهزه كما لو أنه يلوح لألوف الناس الباهتين الذين وقفوا يحدقون فيـه. وصهل الحصـان ثم انطلق يعدو في السماء المفتوحة أمامه، يضيئه عمود النور الموجه إليه. وساد المدينة صمت يكاد يكون شاملاً، ما خـلا بعض الهمسات التي كان الناس يتبادلونها فيما بينهم: «أنظـر، هذا هـو البراق الذي امتطاه النبي في معراجه إلى السماء السابعة». بصورة ما كان الناس واثقين من أنه البراق، وقد أرسلـه الله إلى الشهيـد قره قول منصور، لأنه مـا من حصان كـان قادراً عـلى الطيران سـوى البراق الـذي يرعى عشبـه في الجنة. وطـاف قره قـول منصور وهو على البراق دورة كاملة فوق المدينة قبل أن يتـوقف مرة أخرى فوق المقبرة، حيث رفع يده الخارجة من الكفن مثـل من يصدر أمراً إلى جيش سري مختبيء وراء جبل. وبالفعـل ما كـادت يـده تهبط مـرة أخـرى إلى الأسفــل حتى رأى النـاس موجات من طيور لم يروا مثلها من قبل، طيور من ذهب هي بين اللقلق والصقر، تحمل في مناقيرها أحجاراً ملتهبة وترميهـا فوق رجـال الشرطـة الـذين لاذوا بـالفـرار، تـاركـين وراءهم حتى بنادقهم. كانت الحجـارة تسقط فوق الأرض فتحـرقها، محـدثة أحياناً ثقباً يمتد عميقاً في باطن الأرض. وعرف الناس حتى من دون أن يقول لهم ذلك أحد أن الله قد أرسل طيراً أبابيل لتمطر الشرطة بحجارة من سجيل. وأخيراً رفع قره قـول منصور يـده عالياً، آمـراً الطيور بـإيقاف هجـومها، فتـراجعت مرة أخـرى، موجة بعد موجة واختفت في الظلام. ثم ضرب قره قول منصـور حصانه بالمهماز، لاوياً عنقه بـاتجاه السمـاء فانطلق مثـل برق واختفى في الأعـالي، في اللحظة نفسهـا التي انقطع فيهـا تدفق النـور من القبـر. وعـاد القمـر والنجـوم إلى الظهـور وأضيئت المصابيح في الشوارع مرة أخرى ودقت ساعة الحائط القـديمة

twitter @baghdad_library

في بيت عبد الله علي اثنتي عشرة دقة، عدها الصبي برهان عبد الله، وهو أمر أثار استغرابه. فهذه هي المرة الثـانية التي تعلن فيها السـاعة منتصف الليل، كما لو أن ما حدث كان خارج كـل زمن. ولما لم يجد الصبي برهان عبـد الله تفسيـراً لذلـك وضع رأسه على الوسادة ونام.

عندما بلغ موكب وجهاء كركوك ضواحي المـدينة التي كـان يحتلها الجيش الذي وضع دبابـاته عـلى مفارق الطـرق، أوقف الجنود السيارات القادمة من بغداد، طالبين إلى الوجهاء إظهار دفاتر نفوسهم التي تثبت هوياتهم الشخصية. ولما لم يكن أحد من الرجال يحمل معه أية وثيقة، إذ ما احتاجها أو سأل عنهـا أحد من قبل، فقد فتح حميد نايلون باب سيارته وقـال للجندي الذي كان يتحـدث معه: «لمـاذا كل هـذا؟ لا أريد أن أجـادلك. اذهب وناد ضابطك قبل أن تقع كارثـة. قل لـه إن خضر موسى يأمره بـالحضور». واحتـار الجندي تجـاه اللهجة الآمـرة التي تحدث بها حميد نايلون معه، فنكس رأسه واتجه إلى خيمـة من خيام عدة، كـانت قد نصبت عـلى جانب الطـريق، وقريبـاً منها وقفت دبابتان وشاحنة عسكرية للجنود. بعد لحظـات خرج من الخيمـة التي دخلها الجنـدي ثلاثـة ضباط، اتجهـوا إلى حميد نايلون وخضر موسى الذي كان قد نـزل هو الآخـر من السيارة، واصطفوا مؤدين التحية العسكرية التي رد عليهـا خضر موسى بشيء من التعالي، قائـلاً: «أنا خضر مـوسى وقد عـدت لتوي من لقاء صاحب الجلالة الملك فيصل الثـاني. ما الـذي حدث حتى تطلبوا إلى الناس دفاتر نفوسهم؟». اعتذر أحد الضباط بلهجـة مرائية عن سلوك جنوده، قائلاً إن تمرداً وقع في المدينة وأعلنت الأحكام العرفية وإنهم كانـوا يتوقعـون وصولـه لنقله إلى مقـر

الفـرقة الثـانية، حيث ينتظـره قائـد الفرقـة والمتصرف ومديـر الشرطة. رد خضر موسى الذي بوغت بـالأمر: «تمـرد، لا أصدق ذلك. حسناً سوف أتوجه مباشرة إلى هناك». ولكن أحد الضباط أبلغه بأدب أن الأوامر الصادرة إليهم تقضي بنقله داخل دبابة، خشية وقوع ما لا يحمده عقبـاه. ابتسم خضر موسى: «حسنـاً إذا كنتم تعتبرون ذلك ضروريـاً». ثم طلب إلى حميد نـايلون أن يقود الوفد وراءه إلى مقر الفرقة الثانية. وصعد إلى الدبابة. ولما كان المكان ضيقاً وخانقاً في الداخل فقد فضل الوقوف. وتقدمت الدبابة على طريق المحطة باتجاه المدينة، يتبعها رتل السيـارات العائدة من بغداد.

واستقبل خضر موسى داخل مبنى الفرقة الثانيـة التي كانت تشبـه قلعة مسـورة تقع في قلب المـدينة عقيـد، عربي قـال ان اسمه سالم، قـاده إلى مكتب يقع في الجهـة اليمنى، قريبـاً من المـوقف العسكري الـذي كانت نـوافذه تطـل عـلى شـارعـين، تفصلهما ساحة، أقيم فيهما مقهيـان صيفيان، يمتـدان طويـلاً بمحاذاة الشارعين. ورفع العقيد سماعة الهاتف، وأدار القرص أربع مرات ثم تحدث مع أحد ما في الطرف الآخر، متبادلاً معه بضع جمل مقتضبة، نهض بعدها وقال: «الجماعة تنتظـركم في النادي». وكان يعني بالنادي نادي الضباط الـذي كان يقـع في الجهة الأخرى من الشارع. وسار الرجلان مشياً على الأقـدام، حيث أوقف الجنود السير في الشارع العام أثناء عبور الرجلين. واجتاز خضر موسى والعقيد مدخـل النادي الـذي كانت تظللـه الأشجـار، منتهيين إلى غـرفة أنيقـة، كان يجلس فيهـا خمسـة رجال، نـهضوا وصافحوا خضر مـوسى الذي كـان يبدو متعبـاً، وهو ما لاحظه المتصرف أحمد سليمان الذي قال: «يؤسفنا أننا

twitter @baghdad_library

لم نمنحك وقتاً للراحة. ولكننا محتاجون إلى مساعدتك»، ثم أضاف بعد وقفة قصيرة «لا أدري إن كنت قد التقيت من قبل صاحب المعالي سعيد خوشناو، وزير الداخلية والمستر جون تيسو، المدير العام لشركة النفط»، فقال خضر موسى بلباقة: «لقد حصل الشرف الآن». أما الرجلان الآخران وهما قائد الفرقة الثانية عدنان الدباغ ومدير الشرطة ناجي الراوي، فكان خضر موسى قد التقاهما فيما مضى، ولو بصورة عابرة. وسأله وزير الداخلية، وهو كردي من السليمانية، بعربية لا تخلو من لكنة: «كيف كان لقاؤكم مع صاحب الجلالة؟»، فأجابه خضر موسى باللغة الكردية، متبسطاً: «كان لقاء لا ينسى»، ثم أضاف بالعربية: «لو فكركل العراقيين مثل ملكنا لما حدثت أي مشكلة». وقال المستر تيسو الذي كان يترجم له مدير الشرطة، معلقاً بابتسامة مداهنة: «ولكن عندنا مشاكل كثيرة كما ترى يا مستر موسى».

وتدخل وزير الداخلية: «من المؤسف أن ينهار الأمن في مدينة مثل كركوك بالطريقة التي حدث فيها. كان ينبغي تدارك الخطر قبل وقوعه. من المؤسف أن أحياء بكاملها في المدينة ما زالت متمردة على الرغم من إعلان الأحكام العرفية. ولكننا لا نريد وقوع مجزرة، يروح ضحيتها الأبرياء».

وقال مدير الشرطة: «المشكلة هي مع الخرافات التي تملأ المدينة قبل أن تكون مع البشر. المدينة كلها تتحدث اليوم عن الميت الذي نهض من قبره وصعد على حصان إلى السماء وعن طيور أبابيل يفترض أنها هاجمت مقرات الشرطة».

وسأل خضر موسى بلهجة جادة: «متى حدث ذلك؟» أجاب مدير الشرطة: «في الليل كما افترض. كنت نائماً على أية حال».

ودخل النادل باستكانات الشاي وأقداح عصير الرمان التي كانوا قد طلبوها. قال وزير الداخلية مخاطباً خضر موسى: «لقد أبلغ صاحب الجلالة نوري باشا بالحديث الذي جرى معكم. ليس صعباً إيجاد حل لقضية الطريق الذي تحتاجه الشركة. والمستر تيسو متفق تماماً معنا. يمكن للطريق أن تنحرف عن المقبرة وتمر من موضع آخر. هذه مشكلة لن يصعب على المهندسين حلها. ولكن ما هو أخطر من ذلك هو تمرد محلة جقور والمحلات الأخرى وإطلاق الرصاص طيلة الليلة الماضية على رجال الشرطة. لا بد من معاقبة المحرضين قبل أن يفلت زمام الأمور من أيدينا. لا يمكن أن نسمح بالمزيد من أعمال العصيان».

ورد خضر موسى: «يصعب علي تقييم ما حدث خلال اليومين اللذين أمضيتهما في بغداد. لقد نبهت إلى الخطر قبل وقوعه. ومن أجل ذلك قصدت الملك. ولكنني لا أعتقد أن الانتقام من الناس يحل المشكلة». ثم سأل: «ولكن هل هناك ضحايا؟». أجاب مدير الشرطة: «لقد قتل عبد زنجي، يعمل حلاقاً، مصادفة عندما كان المتمردون يطاردون أحد رجالنا». قطب خضر موسى جبينه وقال: «كنت أعرفه، رحمه الله».

وتدخل المستر تيسو الذي ظل صامتاً معظم الوقت: «إنني أميل إلى رأي المستر موسى. لا بد من اللجوء إلى التساهل في التعامل مع الدهماء وإلا انقلب الأمر إلى ضده. في الحقيقة إننا لا نريد التدخل في شؤونكم الداخلية، ولكننا سوف نبذل جهدنا من أجل إيجاد علاقة طيبة مع سكان المدينة. ولذلك أعلن أمامك يا مستر موسى إلغاء طريق المقبرة. وسوف يبحث مهندسونا عن طريق أخرى، تتجنب المرور بالمقابر. وسوف

twitter @baghdad_library

ندفع تعويضات مجزية عن البيوت التي قد نضطر إلى هدمها، بسبب وقوعها على الطريق. والأكثر من ذلك أن الشركة سوف تتولى بناء سور حول المقبرة وترميم أضرحة جميع الأولياء المسلمين المدفونين فيها وتخصيص معاش شهري لرجلين، يتوليان حراسة المقبرة». شكره خضر موسى على هذه اللفتة الطيبة التي قال انها تعيد ثقة الناس بالشركة التي تعتبر عصب الحياة في المدينة، مقترحاً على المستر تيسو تقديم مبلغ مناسب أيضاً كتعويض لأهل القتيل، وهو أمر استحسنه المستر تيسو نفسه، الذي قال إنه لم يكن قد انتبه إليه. وعند ذاك قال مدير الشرطة بصورة مفاجئة: «حسناً، لقد تنازلنا بما يكفي أمام العصاة. فإذا لم يطلقوا سراح رجالي الأسرى ويعيدوا الأسلحة التي استولوا عليها فسوف أجعلهم يرون الجحيم بعينه». كان ذلك تهديداً واضحاً، مبطناً بالعداء، ولكن خضر موسى تجاهله، مؤكداً: «لا تقلق، سوف يسوى كل شيء»، ثم أضاف، كما لو أنه يرد الصاع صاعين لمدير الشرطة: «ولكن لا بد في الوقت نفسه من معاقبة الشرطي القاتل. أرجو ألا يكافأ على صنيعه». ثم نهض معتذراً بدعوى اللحاق بأعضاء الوفد الذي كان قد حجز في مقر الفرقة الثانية، مغادراً النادي فلحق به قائد الفرقة الثانية، يتبعه حراسه وقاده مرة أخرى إلى القلعة الحجرية، حيث أشار له بطريقة مبهمة: «يمكنك أن تعتمد علي. لن يخذل الجيش الشعب أبداً». وكان خضر موسى قد لاحظ أن عدنان الدباغ ظل صامتاً طيلة الجلسة، فأدرك أن الرجل من معدن آخر. وقد صافح وجهاء كركوك واحداً واحداً معتذراً عن ازعاجهم، وقال لخضر موسى وهو يودعه عند البوابة الخارجية، ضاغطاً على كفه: «لا تنسَ أن تزورني. سأفرح بذلك»، فرد خضر موسى باحترام: «سوف أفعل ذلك بالتأكيد».

اتجه الوجهاء بعد أن التهموا الكباب في مطعم عثمان كبابجي الذي لم يكن ليبعد كثيراً عن مقر الفرقة العسكرية الثانية إلى مقبرة المصلى التي كان المقاومون لا يزالون يحتلونها، في موكب مهيب، مخترقين حواجز الشرطة والمقاومين على حد سواء. وقد هز الكثيرون منهم رؤوسهم حزناً على الفوضى التي آلت إليها المدينة التي شعروا أن موجة متعاظمة مقبلة من زمن مجهول ضربتها فامتلأ قلبها بالدموع. «لا لم يضع كل شيء. ما زال هناك الأمل بعد كل شيء»، هكذا فكر خضر موسى، محدقاً من وراء نظاراته الطبية في البيوت المنخفضة التي يتكوم فوقها الغبار والزمن. وانتاب دده هجري الذي ما كان يفقه أمراً غير أحلامه حنين يكاد يشبه كأساً من الحنظل، يجرعها في كل مرة يأخذه الشعر فيها إلى مغارة الجنون، حنين أسود مثل لطخة من حبر صيني، وقد رشت عليها نقاط بيض وحمر مضيئة وملتمعة، إلى درويش بهلول الذي غاب عنهم في بغداد، ذلك الرجل الذي كان وجهه يذكره بأنبياء التوراة القدامى والذين كانت تصاويرهم تباع على الأرصفة الترابية في الطرف الآخر من المدينة بعشرة فلوس، مع تصاوير أخرى للإمام علي على صهوة جواده وهو يرمح الوحش الأفعوي الذي يهاجمه، وللشمر الذي يحمل في يده رأس الحسين الذي ينقط دماً، وعيناه تحدقان في الموت. وكان حميد نايلون قد سبقهم وانضم إلى المقاومين الذين انتظروه، ربما أكثر من أي شخص آخر، فقد كان وجود حميد نايلون بينهم يمنحهم الشعور بالسخرية من العالم كله. وشعر حميد نايلون أن شيئاً ما قد فاته، فقد كان يريد أن يكون مع أبناء محلته في المعركة التي خاضوها ضد العدو، وطمأن نفسه «ربما لم ينته كل شيء. معركتنا أكثر من مجرد قتال من أجل الأموات».

twitter @baghdad_library

واستغرقته الآمال حتى أنه أهمل إيصال مطبعة الرونيو التي كانت قد أرسلت معه من بغداد، دون تفكير حتى بمخاطر عثور الشرطة عليها داخل سيارته. وهذا أمر كان يمكن أن يكلفه أعواماً طويلة في السجن. ولكن رجلاً مثل حميد نايلون ما كان يمكن أن يفكر في الأمور على هذا النحو، إذ أن الخطر وحده كان يحرره من الخوف، شاعراً بنشوة حلمية ترج أعماقه، شبيهة بالنشوة التي يشعر بها عندما يكون مع النساء.

عندما بلغ وجهاء كركوك المقبرة خرجت فجأة من بين القبور أعداد لا تحصى من النساء المتشحات بالسواد وهن يعولن ويلطمن، كما لو أنهن في مسرحية مدبرة. وصاح خضر موسى بهن: «ما هذا الذي تفعلنه؟» ولكن واحدة منهن لم ترد عليه، فتجاهلهن واتجه إلى حيث كان يتجمع الرجال، حيث نادى على عباس بهلوان وشبان محلة جقور الذين كانوا يقفون مع الآخرين، قائلاً: «اسكتوهن بحق الله. لماذا كل هذا العويل؟» ثم اعتلى خضر موسى جداراً مهدماً وألقى خطبته التي كان قد فكر فيها طوال الطريق والتي قال فيها: «يا أبناء كركوك الكرام، لقد محق الله الباطل، ان الباطل كان زهوقاً»، معلناً بقاء المقبرة وبناء سور حولها وترميم أضرحة الأولياء وتعيين حارسين لها وتعويض أهل الشهيد قره قول منصور ومبلغاً إياهم أنه جاء يحمل اليهم تحيات الملك فيصل الثاني شخصياً. ما كاد خضر موسى يوصل إليهم كل هذه الأخبار المبهجة حتى دوى التصفيق في كل مكان من المقبرة ودوت هلاهل النساء. ولكن صوتاً ما ارتفع من داخل الحشد: «نريد أن يعدم الشرطي القاتل علناً هنا وتعلق جثته ليفرح بمرآها الشعب». ورأى آخر أنه لا بد من معاقبة مدير الشرطة نفسه وطالب

شيوعي، ارتدى قناعاً للتمويه بطرد المستعمرين الانكليز من كركوك والاستيلاء على شركة النفط وتوزيع أرباحها على العمال والفقراء.

أنصت خضر موسى لكل ذلك بهدوء الواثق من نفسه: «لا تبدو كل هذه المطالب صعبة ما دام الملك نفسه يقف إلى جانبنا»، ثم قال: «والآن أعتقد أن علينا واجب قراءة الفاتحة على قبر شهيدنا قره قول»، من دون أن يترك مجالاً للمزيد من الاعتراض. كان القبر لا يزال في مكانه، حتى وان اعتقد الكثيرون من الذين رأوا معجزة صعود قره قول على ظهر البراق إلى السماء أنهم سيجدون القبر خالياً من ساكنه. وتمتم بعض الحائرين: «لقد رأيناه بأم أعيننا يصعد إلى السماء». ولكن الملّا زين العابدين القادري الذي تقدم الجمع وقرأ الفاتحة ثم أدى صلاة الشهيد، أعلن بصوت هادر سمعه كل الذين وقفوا وراءه أن الذي صعد إلى السماء والذي رآه المسلمون هو روح قره قول منصور التي قصدت الجنة. أما جسده، وهو بيت الروح فسوف يفنى مع الزمن مثل كل البيوت الأخرى. ولكن ما حاجة الروح التي تحررت من أغلالها إلى الأغلال؟ وأعلن أن الشرف الذي حظي به قره قول منصور من قبل ملائكة الله التي حملته وسط النور إلى السماء هو شرف نادر، يمكّنه من أن يحتل مرتبة الأولياء الخالدين. كانت ثمة في الحقيقة هواجس كثيرة في قلوب الذين عرفوا قره قول منصور عن كثب. فقد كان الرجل حقوداً وكذاباً ومدمناً على الخمرة. ولكن ما دام الله اصطفاه إليه بالطريقة التي شهدها الناس، فلا بد أنه فعل ذلك عن حكمة، يجهلها البشر. وندم الذين كانوا قد خاصموه في حياته أنهم لم يدركوا حقيقته الأخرى التي تجلت في موته.

twitter @baghdad_library

وانتـابت العاطفـة الناس، تلـك العاطفـة التي تقـرب المـرء من الغياب وتطغى على كل قاعدة وعرف، فهجموا على القبـر، رجالاً ونساء وراحوا يتمرغون فـوقه. غسـل العميان عيـونهم المطفأة بترابه حتى ترى النور، وزحف المشلـولون فـوقه حتى تستعيـد أرجلهم وأيديهم قوتها، ودست النسـاء العواقر حفنات من تراب القبـر، وهن ملفوفـات بعباءاتهن، داخـل فروجهن حتى ينجبن الأطفال، والتهم المرضى المصابون بـالسل والـزهري والبـواسير والتيفــوئيـد والسرطــان التـراب حتى يشفــوا من أمــراضـهم وأوجـاعهم، وانتهز الشبـان الفرصـة فأسقطـوا أنفسهم فـوق النسـاء، ملتصقين بمؤخـراتهن اللدنـة أو ممسكين بـأثـدائهن المتـرجرجـة. واشتد الهجـوم البشري أكثر فـأكثـر. ألـوف من الناس تتدافع نحو القبـر من كل مكـان، تريـد الوصـول إليه. وزحفت الجمـوع التي تناهت إليهـا الأخبـار واختلقت قصص ومعجزات، لم يقم بها حتى المسيح نفسه. وزحف القرويون من الأرياف القريبة حتى لكأنها القيامـة التي تنبأت بهـا النشرات التي وزعت قبـل أيام في كـركوك، وسحقت الجمـوع الـزاحفـة الساقطين عـلى الأرض بأقـدامها وأجهضت الحـوامل واختنق الأطفال. أراد شبان جقور الرياضيون السيطرة على المـوقف في البـداية فـأطلقوا النــار في الهواء لتخـويف الناس وردعهم من الوصول إلى القبـر، ولكن الجموع التي هـزت ضميرهـا معجزة قره قول منصور اكتسحتهم أمامهـا، فاستسلمـوا أمام المـوجة الهـادرة من كـل مكـان. ولم يسلم وجهـاء كـركـوك من المـوت اختناقاً إلا لأنهم تراجعوا في اللحظـة المناسبـة، معتمدين عـلى شجاعة شبان جقور الـذين شقوا طـريق خروجهم من المقبـرة بالقوة، منقذين حياتهم من خطر حقيقي.

ورغم أن الحكومة ما كانت لتـريد أن تتـدخل في قضيـة، لا

تخصها، فإنها أرسلت في البداية ثلاث طائرات هليكوبتر، راحت تحلق فوق الحشود البشرية المحيطة بالقبر ساكبة الماء البارد فوق الناس للتخفيف من وطأة الحرارة الشديدة التي كانت تجعل الناس يصابون بالإغماء. لم يكن أحد يعرف تماماً ما يحدث عند القبر. فقد كانت الكتلة البشرية المحيطة به تمتد مسافة طويلة من كل الجهات. وخشي خضر موسى عاقبة إبقاء القبر مفتوحاً أمام الناس، فاتصل بالمتصرف، طالباً إليه ضرورة التدخل والسيطرة على الموقف، قبل أن يصبح خارج كل سيطرة. واضطر المتصرف إلى طلب المعونة من قائد الفرقة الثانية الذي وضع مع ضباطه خطة للسيطرة على قبر قره قول، أطلق عليها اسم «عمليات شعبان مبارك» التي قام خلالها الجنود بالهبوط بالمظلات فوق القبر واحتلاله بعد معارك مع الناس المحيطين بالمكان، في الوقت نفسه الذي احتلت فيه الدبابات منافذ الطرق المؤدية إلى المقبرة، مانعة الناس من الوصول إليها. ولكن الجنود الذين أرغموا الناس على التراجع، وجدوا القبر مفتوحاً تماماً وقد اختفت منه جثة قره قول منصور التي كان الناس قد نهبوها قبل ذلك. فأمر الضابط الذي كان يقود العملية جنوده بطمر القبر مرة أخرى، في محاولة يائسة لإخفاء سر ما كان يمكن إخفاؤه. وقد أحزن اختفاء الجثة المتصرف الذي قرر استعادتها، مهما كلف ذلك من ثمن، قائلاً: «لا يمكن للجثة أن تكون قد تبخرت في الهواء». وأخيراً اتصل مدير الأمن بالمتصرف، مبلغاً إياه أن رجاله عرفوا أن رجالاً من قرية طاووق القريبة هم الذين اختطفوا الجثة، آملين بدفنها في قريتهم التي تخلو من ضريح أي ولي لتحل عليها البركة. وهكذا انطلقت مفارز الشرطة المسلحة إلى القرية التي لم تكن تبعد أكثر من نصف ساعة عن المدينة

twitter @baghdad_library

وحاصرتها من جميع الجهات، مطلقة الرصاص في الهواء. ولكن الخاطفين الذين كان عددهم يزيد على عشرين قروياً مسلحاً قرروا المقاومة، أثناء انسحابهم إلى البساتين والغابات القريبة، ساحبين وراءهم الجثة التي لفوها ببطانية، شدوها بالحبال. وتابعهم رجال الشرطة الذين تبادلوا معهم إطلاق النار. استمرت المعركة أكثر من ساعة، سقط خلالها قتيلان من القرويين وجرح ثلاثة آخرون وأصيب شرطي برصاصة في قلبه، فسقط على ظهره ميتاً وجرح شرطي آخر في كتفه. وفي طريق الهروب الذي شقه الخاطفون بين الحقول والبساتين انحلت عقدة الحبل الذي شدوا به البطانية فتدحرجت الجثة التي كانت عارية تماماً بعد أن نهب الناس أكفانها عند إخراجها من القبر، إلى إحدى السواقي، فمد أحد القرويين يده وأمسك برجل الجثة، ساحباً إياها وراءه أثناء التقهقر أمام نيران الشرطة. وتبادل الرجال سحب الجثة التي كان جلدها الأسود الملتمع قد انسلخ وتلطخت بالوحل والعشب، ولكنهم اضطروا إلى التخلي عنها عندما اشتد ضغط الشرطة عليهم، مطلقين أرجلهم للريح ومختفين داخل الغابات الكثيفة التي ما كانت الشرطة لتجرؤ على اقتحامها. وهكذا أنقذت الشرطة جثة قره قول منصور الذي كانت روحه قد صعدت قبل ليلة واحدة من ذلك إلى السماء، ممتطية البراق. وألقيت الجثة التي كانت قد نتنت تماماً داخل سيارة جيب، نقلتها إلى القشلة. وطبعت الحكومة على عجل منشورات، ألقيت من الطائرة فوق أحياء كركوك كلها، تبشر الشعب بإنقاذ جثة الولي قره قول منصور من بين أيدي مختطفيه الآثمين، معلنة اليوم التالي عطلة رسمية لتشييع الجثمان في موكب تشترك فيه الحكومة والشعب معاً.

هذه اللفتة التي تعبر عن النية الطيبة للحكومة جعلت الناس

ينسـون حتى المعارك التي خـاضوهـا ضد الشرطـة. وانتشرت إشـاعة تقـول إن الشرطي الذي قتـل قره قـول منصور سـوف يعـدم بعد التشييـع مباشرة. وقـام الشبان، بتـدخل من خضر موسى نفسه بإطلاق سراح الرهائن التي كان قد جرى حجزهـا داخـل غرفـة في جامـع محلة جقـور. ولكن البنـادق التي كـان المقاومون قد صادروهـا من رجال الشرطـة اختفت تمامـاً، وهو أمر اضطر معه مديـر الشرطة إلى الصمت وإغفـاله، في انتظـار فـرصة أخـرى، يستعيد فيهـا البنادق التي أخـذت من رجالـه عنوة.

وفي اليـوم التـالي بـدأ مـوكب تشييـع الجنـازة من سراي الحكـومة، حيث سـار في المقدمـة عـازفـو الأبـواق بـألحـانهم الجنائزية الرتيبة ووراءهم حملة الأعلام السود المنكسـة. وكان جثمان قره قول منصور الذي ألقيت فوق صدره باقة من الورود الاصطناعية قـد وضع في سيـارة عسكريـة مفتوحـة تحيط بها الـدبابـات من كل جـانب، تحوطـاً من مهاجمـة الجنازة ثـانية واختطافها. ووراء الدبابات سار موكب رجال الحكومة ووجهـاء كـركوك وكبـار الاقطاعيـين الأكراد الـذين كانت الحكـومة قـد استـدعتهم ورجال الـدين من المسلمين والمسيحيـين واليهـود، يليهم مـوكب عسكـري كبـير، كـان يتقـدم ببطء عـلى إيقـاع المـوسيقى، وأخيراً مـوكب الناس الـذين التـزمـوا هـذه المـرة الهدوء. وفضل الكثيرون، ومن بينهم النساء والأطفـال الوقـوف عـلى الأرصفة والتفـرج عـلى هـذا المشهـد المهيب. وفي مقبـرة المصلى كان البناؤون وعمالهم ينتظـرون وصول الجنـازة، إذ ما كاد الجنود يعيدون الجثة إلى قبرها حتى بـدأوا ببناء الضريـح بالمرمر والجص، وأحاطوه بقبة هائلة، ذات نـوافذ من الأعمـدة

twitter @baghdad_library

الحديد المتقاطعة وباب خضراء اللون، وضعت فوقها قطعة من البرونز، كتب عليها بالخط الكوفي «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون». وتحت ذلك عبارة «هنا يرقد الشهيد الولي قره قول منصور الذي صعد إلى السماء». وأعلن المتصرف في كلمة مقتضبة ألقاها أمام الضريح أن صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني قرر تعيين مدير عام، يشرف على إدارة شؤون الضريح وتخصيص ما يكفي من الأموال لترميم قبور جميع الموتى المسلمين الفقراء المدفونين في مقبرة المصلى، تكريماً للشهيد قره قول منصور كرم الله وجهه. وقال أيضاً إن مفرزة من الشرطة سوف تحرس الضريح ليل نهار حتى لا يجرؤ أحد على انتهاك قداسة قبور الأولياء.

كان ذلك في الحقيقة أكثر مما ينتظره الناس. فقد أظهر المتصرف كرماً فائقاً، يكاد يكون خيالياً. ولكن قلوبهم لم تهدأ. فقد كانوا يريدون الانتقام من قاتل وليهم الشهيد، وهو أمر أوقع مسؤولي الحكومة في حيرة من أمرهم. كانوا يعرفون أن الناس لن يرضوا بأي عقاب، أقل من الشنق. ولكن مديري الأمن والشرطة اعترضا على ذلك: «كيف يمكن أن نجعل رجالنا يعملون إذا ما عرفوا أن دفاعهم عن أنفسهم يمكن أن يقودهم إلى الشنق؟». وأخيراً اقترح مدير الشرطة أن تكتفي الحكومة بجلده في ميدان عام تاركة قتله للناس، وهو أمر لم يكن يشك فيه أحد. وفي اليوم التالي اقتيد القاتل إلى ميدان المصلى وعري من ثيابه ثم شد على بطنه إلى خشبة وغطيت قفاه بقماشة حمراء، مبللة بالماء، ووقف وراءه عريف ضخم الحجم، جلده عشرين مرة بخيزرانة، كان يحملها في يده ويهوي بها على مؤخرته أو ظهره. حاول القاتل أن يسيطر على نفسه في البداية

ولكنـه أخذ يصرخ بطـريقة تشبـه العواء بعـد الجلدة الثـالثة، بطريقة أثارت ضحك الناس الذين جاؤوا للتفرج عـلى الشرطي الذي قتل الولي قره قول منصور. وأخذ العرق ينزح من الجلاد الذي كان حفيف خيزرانته وهي تشق الهـواء يسمع من بعيـد، أما الضحية فكـانت قد تلطخت بـالدم وكفت حتى عن الأنـين. وتنفس العريف الصعداء بعد الضربة الأخيرة، قائلاً: «هذا هـو جزاء من يقتل الأولياء». ثم فك الحبال التي كانت تشد القاتـل إلى اللوحة الخشبية فحمل الـرجال الـذين كانـوا معه الحبـال والخشبـة وانصرفـوا، بعـد أن ألقـوا بـالضحيـة عـلى الأرض وبصقوا عليها. وحاول الرجل الذي شعـر بالخطـر يحيق به أن ينهض في حـركة يـائسة للنجـاة بنفسه، ولكن رجليـه خـانتـاه فسقط عـلى وجهه مـرة أخرى. وعنـد ذلك تقـدم ابنا قـره قول منصور الأسودان وهما صبيان في العـاشرة والثانيـة عشرة من عمرهما، وكل منهما يحمل في يده سكـين حلاقـة، جلباهمـا من دكان والدهما القتيل وقلبا الرجل المنهك على جنبه، حيث أمسك أحدهما بشعـره وجره إلى الخلف بينمـا أمسك الثـاني بذقنـه بيده، محاولاً ذبحه. ونهرهم رجـل دين كان قـد خرج من بـين الجمـوع التي تراقب المنظـر: «لا يجوز يـا بني ذبحه هكـذا». ولكن أحـد الصبيين طـرده: «لا تتدخـل. هيا ارجـع لقـد قتـل والدنا». فرد رجل الدين مضطربـاً: «أعرف ذلـك يا بني. وجّـه رأسه إلى القبلة أولاً ثم قل بسم الله الـرحمن الرحيم واذبحـه بعد ذلك على بركة الله». وساعدهما في وضع رأس الرجل الذي كان يرفس التراب برجليه ويبدي محاولات مضطربـة للنهوض، باتجاه القبلة. ولكن الشرطي الذي كان قد سمـع الحديث ورأى السكين تقترب من عنقه انتفض فجأة، فجفل الصبيان اللـذان ازدادا تشبثاً به. وعنـد ذاك جاءت أمهمـا وهي امرأة سـوداء

twitter @baghdad_library

بدينة وجلست فوقه ضاغطة على صدره فكف عن المقاومة، وقالت لابنها الأكبر: «هيا اذبحه، ما الذي تنتظره؟»، فجز الصبي عنقه فاصلاً الرأس عن الجسد وتدفق الدم مثل نافورة فوق التراب. ثم رمى بالرأس الذي ظل في يده فوق الأرض ونهض.. ولكن ما كادت المرأة البدينة تنهض من فوق الجسد الذي فصل عنه رأسه حتى انتفضت الجثة وانتصبت على قدميها ثم راحت تعدو هنا وهناك قبل أن تصطدم بعمود كهرباء وتسقط مرة أخرى على الأرض، هامدة إلى الأبد.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

twitter @baghdad_library

ترك الضريح الذي أقامته الحكومة لقره قول تأثيراً عميقاً على حياة محلة جقور، بل ومدينة كركوك كلها. فقد أخذ الناس يتوافدون من كل صوب وحدب لزيارة ضريح الرجل الذي صعد إلى السماء على البراق داخل غيمة من نور. امتدت أخباره في البداية إلى القرى المحيطة بكركوك، ثم سرعان ما انتقلت إلى التون.كوبري وجمجمال وقرة تبة والسليمانية وأربيل والموصل، ثم وصلت بغداد عن طريق المسافرين التجار والجنود. ومنها خرجت الأخبار ليس إلى مدن العراق الأخرى وحدها، وإنما أيضاً إلى سوريا ولبنان وشرق الأردن، بل وحتى إلى العرب الباقين في إسرائيل عن طريق مهربي الأغنام. أما استانبول وأنقرة وأدنة والاسكندرونة، فقد عُرفت بصعود قره قول إلى السماء عن طريق المسافرين التركمان الذين كانوا يقصدون المدن التركية أكثر مما يقصدون بغداد نفسها. ونقل الحجاج الشيعة من الفرس والهنود إلى كربلاء والنجف والكاظمية روايات مختلفة عن معجزات قرة قول إلى طهران وقم وخراسان وإسلام آباد وكشمير. وقد أثارت هذه الروايات في الحقيقة الكثير من الخلافات بين العلماء والمجتهدين والفقهاء المسلمين من السنة والشيعة، وخاصة في تركيا وإيران. فإذا كان الشيعة

قد رفضوا في البداية الاعتراف بمعجزات قره قول، فذلك لأنهم لم يصدقوا أن الله يمكن أن يسبغ مثل هذا الشرف الكبير على سني من غير أهل البيت، وهو اعتبار أناني، رده العلماء السنة، مؤكدين على أن الإسلام ساوى بين الناس أجمعين وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. ولكن كان ثمة ما يدل على التشفي في الطريقة التي نظر فيها العلماء الأتراك إلى الأمر، إذ لم ينسوا أبداً الإشارة إلى أن جد قره قول عمل في خدمة الولاة العثمانيين الذين أنقذوه من غدر العرب الذين كانوا يبغون الإمساك بالعبد لبيعه إلى شيوخ الأحساء في الجزيرة، وهو أمر أنكره العرب بالطبع. فالرجل ما كان يمكن أن يجترح معجزاته المشهودة من دون الإسلام الذي هبط على العرب قبل غيرهم. ولكن هذه المنازعات الدينية سرعان ما انتهت، حيث راح الشيعة يروجون أن الرجل كان شيعياً حتى إذا لم يعلن ذلك، خوفاً من انتقام السنة الذين يعتقدون أن الشيعي يمتلك ذنباً قصيراً في مؤخرته، يعقد على شكل ضفيرة، تحاك بالنمنم. وقد حدث ذلك بعد أن قام شاه إيران رضا بهلوي بإهداء الضريح بابا من الذهب الخالص، مرصعاً بالجواهر، نقشت عليه أبيات من شعر سعدي الشيرازي وعمر الخيام. وأشاع بعض الناس الذين ارتبطت حياتهم بالضريح في محلة جقور وكركوك أن قره قول كان سنياً وشيعياً في الوقت نفسه. كان الهدف واضحاً من هذا الادعاء الغريب، وهو اجتذاب أكبر عدد من الناس الذين كانوا يأتون لزيارة ضريح قره قول. فقد امتلأت الخانات والفنادق بالزوار الوافدين إلى كركوك، وبنيت خانات وفنادق جديدة، من بينها خان الدواب الذي كان يقع عند مدخل محلة الجاي وخان النجوم على طريق محطة القطار وفندق العلمين المطل على نهر حاصة صو والذي

twitter @baghdad_library

كان يديره ساقي باقي، وهو شاب رياضي طويل القامة من محلة جقور، شارك في معركتي كاورباغي والمقبرة وأصيب في كلتيهما بجروح في رجله اليمنى، جعلته يعرج فترة من الزمن. وازدهرت مطاعم بيع الكباب التي رفعت أسعارها. وامتلأت جيوب الفقهاء من طلبة مدارس الجوامع الذين صاروا يقضون معظم أوقاتهم بين المقابر، قارئين سورة البقرة التي كثيراً ما كانوا يختصرونها لقاء عشرة فلوس، يستلمونها من الزوار على روح الولي قره قول. وكانت تنشب أيضاً معارك بين هؤلاء وتلاميذ المدارس الذين كانوا يأتون إلى المقبرة، حاملين في أيديهم نسخاً من القرآن وينافسونهم في اصطياد الزبائن.

وانتشرت تجارة أخرى في محلة جقور، احتكرها الصبي برهان عبد الله الذي ذاع صيته لبراعته في كتابة الرسائل. وقد اكتسب هذه الشهرة في الحقيقة حتى قبل وقوع معجزة قره قول بسبب الرسائل الغرامية التي كان يكتبها لنساء محلة جقور اللواتي كن يجهلن القراءة والكتابة. كانت الشابات اللواتي يمتلكن صلات غرامية مع شبان، يعيشون في مدن أخرى، ويأملن أن يتقدموا لطلب أيديهن يأتين إلى الصبي ويجلسن إزاءه على الأرض، فاتحات أمامه قلوبهن التي لوعها الهوى والشوق، فيحول ذلك كله إلى كلمات حب ملتهبة ومناجيات غرام، ربما ما تبادل مثلها عاشقان في كركوك من قبل، تعلمها من مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه عن الشاعر العاشق سيرانو دو برجراك، وهو الكتاب الذي كان يقرؤه المرة تلو الأخرى، دون أن يصيبه الملل. كانت الشابات العازبات اللواتي لا يخجلن من الإفصاح عن عواطفهن يكتفين بإعطائه عشرة أو عشرين فلساً. أما المتزوجات اللواتي يمتلكن عشاقاً

سريين ويخفن الفضيحة فكن يغدقن عليه العطاء، لضمان صمته. جاءت النساء إليه هذه المرة، لا ليكتب لهن رسائل غرام، فقد كن في معظمهن من العجائز والمتزوجات اللواتي أهملن أنفسهن، وإنما رسائل شكوى موجهة إلى الولي قره قول، يشكون فيها ظلم الزمان وجوره عليهن، طالبات إليه الانتقام لهن من أزواجهن الذين هجروهن أو من ضرائرهن أو جاراتهن. وكانت ثمة أخريات، يطلبن وساطته لتعيين أبنائهن في شركة الآي. بي. سي أو لدفع البدل النقدي عن مدة خدمتهم الطويلة في الجيش. وكن يأخذن هذه الرسائل إلى ضريح قره قول ويقفن باكيات، ناحبات أمامه ثم يرمينها عبر أعمدة شباكه المتقاطعة داخل القبة التي كان يوجد فيها القبر الذي غطي بقماشة خضراء مطرزة بالأبريسم، تكومت فوقه الرسائل والنقود، متطلعات في الوقت عينه إلى العربة الذهبية التي كانت قد ركنت جنب القبر، في مواجهة الشباك، وهي العربة التي كان الملك ابن سعود قد أهداها للضريح، حتى لا يبدو الشاهنشاه الإيراني أكثر تمسكاً بالإسلام منه، على الرغم من أن المذهب الوهابي الذي يدين به يحرم مثل هذه المظاهر. والحق أن ابن سعود الوهابي الذي أمر بصنع هذه العربة الذهبية من أمواله الخاصة التي كانت تأتيه من واردات آبار النفط التي يملكها في الجزيرة العربية، لم يكن قد فكر في النهاية التي آلت إليها هذه العربة الذهبية المخصصة للمقعدين والتي كان وجودها داخل الضريح يفتقر إلى أي معنى، وهو أمر لم يفكر فيه أحد. وواقع الحال أن فكرة صنع هذه العربة الذهبية خطرت في بال الملك ابن سعود قبل أعوام من مقتل قره قول نفسه، وبالذات في الرابع عشر من شباط العام ١٩٤٥ عندما التقى الملك في أول زيارة له إلى الخارج، بعد ثلاثين عاماً من زيارة كان قد قام بها

twitter @baghdad_library

إلى البصرة، الرئيس الأميركي روزفلت على ظهر الطـراد كوينسي في منطقة البحيرات المـرة في مصر. قال الملـك للرئيس الأمـيركي الذي كان مقعداً، يجلس على عـربة سيـارة للمقعدين: «أشعـر أنك شقيقي التوأم»، فـرد عليه روزفلت: «ولكنـك سعيد سعيـد جيداً، لأنك ما زلت تملك رجلين، تحملانك إلى حيث تريد». شعر ابن سعود بالحرج إلا أنه تخلص من الأمر قائلاً: «السعيد هو أنت، أيهـا السيد الـرئيس. إن رجلي سـوف تثقلان العـام بعد الآخر. أما أنت فتستطيع أن تعتمد على عربتك السيارة». عنـد ذاك قال روزفلت: «من هذه العربة عندي اثنتان، همـا توأمـان أيضاً. أتراك تقبل إحداهما، كهديـة شخصية؟». ولم يجـد ابن سعود ما يقوله سوى: «بكل سرور. ولسوف أستخدمها كل يـوم حتى أظـل أتذكـر دائماً مهـديها، صـديقي العظيم الطيب». في نهاية هذا اللقاء الحميم أمر ابن سعود وزير ماليته عبد الله بن سليمان بصنع عربة سيـارة من الذهب، يـرد فيها عـلى هديـة الرئيس الأميركي(*). ولكن روزفلت مات قبل أن ينتهي الملـك من صنع العربة التي لم يعرف ما يفعل بها، فظلت مرمية في حديقة قصره، يلعب بها الأطفال والخدم والعبيد أعـواماً طـويلة، حتى سمع بخبر الباب الذهبي الذي أهداه شـاه إيران لضريـح قره قول. وعند ذاك خطرت في ذهنه فكرة إهدائها إلى الضريح. فمـا يهم بعد كل شيء هو أنها كـانت تتضمن ذهباً أكثـر من الذهب الـذي وضعه الشـاه في باب الضريـح، آمـلاً أن تكسبـه هـذه المكرمة ود العراقيين وتقيه شر الهاشميين الذين كانوا يحكمـون العـراق. وهكذا أمـر أحد عبيـده بإحضـار العربـة التي كانت

(*) Wilhelm Kopf: Saudiarabien -Insel der Araber, Seewald Verlag, Stuttgart 1982, S. 78-79.

مغطاة بالطين والغبار وخراء الأطفال، وقام بغسلها بنفسه في طرف الحديقة بأنبوب من المطاط، مربوط بحنفية ماء، فاستعادت عربة الذهب أبهتها وبهرجتها السابقة، حتى أنه راح يتجول فيها بين أجنحة حريمه، مثيراً ضحك الأطفال الصغار الذين كانوا يعدون وراءه ويقفزون فوق ظهره. ثم قام وفد من كبار رجال المملكة والدين بإيصال هدية الملك الذهبية إلى ضريح قره قول، وهي هدية، شكره الملك فيصل الثاني نفسه عليها. كان الناس، رجالاً ونساء يتوافدون من كل مكان ويقذفون برسائلهم عبر الشباك داخل القبة، مع قطع النقود المعدنية أو الورقية التي كانوا يجوعون من أجل ادخارها وتقديمها هدية للولي قره قول. أما الذين كانوا عاجزين عن المجيء إلى كركوك وزيارة ضريح قره قول فكانوا يرسلون رسائلهم بالبريد، حيث يتولى موزعو الرسائل الذين كانوا يستخدمون الدراجات الهوائية، إيصالها إلى الضريح وتفريغها عبر أعمدة الشباك المتقاطعة، وهي رسائل كانت مكتوبة بلغات كثيرة كالعربية والتركية والفارسية والأوردية، ولكن كانت هناك أيضاً رسائل بالعبرية، قام بإرسالها اليهود الذين نزحوا من كركوك، بل وحتى بالروسية والانكليزية والألمانية والفرنسية والتي كتبها أناس كانوا من أهل الكتاب، ثم اهتدوا إلى الإسلام فاعتنقوه. في الحقيقة ان تحول هذا الضريح إلى مزار جلب معه الشر أيضاً مثلما كان قد جلب الخير. فقد أصبح الناس في محلة جقور وكركوك مولعين بجمع النقود التي أثارت بينهم الكثير من المشاجرات والخلافات. فقد خاصم الملاّ زين العابدين القادري الذي كان يتطلع إلى أن يعين مديراً عاماً للضريح خضر موسى، متهماً إياه بأنه لا يبذل ما يكفي من الجهود عند المسؤولين لتعيينه في هذا المنصب الذي كان يعتقد

twitter @baghdad_library

أنه يستحقه أكثر من غيره، وهو اتهام لم يكن صحيحاً. فعندما طرح خضر موسى اسمه على المتصرف كان متأكداً من نجاح مسعاه، وهو ما حدث، حيث رفع المتصرف الأمر إلى وزير الداخلية والأوقاف، منتظراً صدور قرار التعيين الذي تأخر كثيراً. فقد اكتشف وزير الداخلية الذي كان يحيل الطلبات بطريقة روتينية إلى مديرية الأمن العامة أن الملاّ زين العابدين القادري يمتلك ملفاً خاصاً به وأنه متهم بالشيوعية، وهو أمر أخفاه خضر موسى عن الملاّ حتى لا يثير القلق في نفسه. ولم يعرف الملاّ بالحقيقة إلا عندما استدعته الشرطة وأجرت معه تحقيقاً للهوية وفتحت له صحيفة أعمال، ثبتت فيها براءته من تهمة الشيوعية وولاءه للعرش والملك فيصل الثاني. وظل الملاّ القادري محبطاً، لا يكاد ينام بسبب الكوابيس التي كانت تثقل صدره، ولم يستعد حيويته إلا عندما قصده خضر موسى بعد أسبوعين من ذلك في المقهى وقال له: «لقد أردت أن أكون أول من يهنئك يا حضرة المدير العام، لكي أخفف من زعلك علي». فلم يجد الملاّ المضطرب ما يقوله سوى: «هل صدر أمر تعييني؟» عند ذاك ناوله خضر موسى كتاب التعيين قائلاً: «تستطيع أن تقرأه بنفسك. والآن لا بد أن تعزمنا على الشاي. «وألقى الملاّ نظرة سريعة على الكتاب ثم نهض وقبل خضر موسى في رأسه، معتذراً عن سلوكه الذي قال إنه يخجل منه. ولكن خضر موسى صده برقة: «كفى يا رجل. الأصدقاء يتزاعلون أيضاً». وأمر الملاّ صاحب المقهى أن يجلب صينية بقلاوة ويوزع الشاي على الحاضرين الذين علموا بالأمر فأقبلوا عليه يهنئونه على منصبه الجديد. في اليوم التالي قصد المدير العام الملاّ زين العابدين القادري المتصرف الذي هنأه على نيل المنصب، عارضاً عليه مكتباً مؤقتاً في السراي، مع اثنين من

كتاب الصادرة والواردة، إلى حين العثور له على مكتب خاص به وتعيين الموظفين الذين قد يحتاجهم. ولكن الملاّ رفض هذه الفكرة، مؤكداً له أن آخر ما يهمه هو المظاهر والفخفخة وأنه إذا كان قد أراد الإشراف على إدارة شؤون الضريح، فذلك حتى يكون قريباً منه، لا أن يسجن نفسه في غرفة في السراي مثل أي موظف آخر. وعند ذاك قال له المتصرف: «إن الأمر متروك لك، لتقرر ما تراه صحيحاً». واتجه الملاّ بعد ذلك إلى المقبرة، حيث خرج ثلاثة شرطيين من غرفة مستطيلة، اتخذت مخفراً على مقربة من الضريح، مؤدين له التحية العسكرية، فقد كان خبر تعيينه مديراً عاماً قد بلغهم في اليوم نفسه. ورافقه اثنان منهم خلال جولته التي تفقد خلالها الضريح والقبور القريبة منه قبل أن يعود مرة أخرى إلى المخفر ويجلس على كرسي في الهواء الطلق عند مدخل الغرفة المستطيلة التي كانت قد وضعت فيها أربعة أسرة نوم سفرية، متفرجاً على الزائرين الذين كانوا يتقاطرون من كل مكان للحصول على بركات قره قول. وقد اعتاد الملاّ الجلوس على هذا الكرسي كل يوم طيلة الفترة التي أمضاها البناؤون في تشييد المبنى الذي اتخذه مقراً لدائرته. وكان هذا المبنى الذي بني من الجص والحجارة والذي يقع خلف مخفر الشرطة، محاذياً لقبة الضريح يشتمل على مدخل، رفع فوقه العلم العراقي بألوانه الأبيض والأحمر والأسود والأخضر والنجمتين اللتين كانتا تمثلان دجلة والفرات، تقع على جانبيه غرفتان متقابلتان، فرشتا بسجاجيد عجمية، كان الحجاج الفرس قد أهدوها إلى الضريح، ووسائد مطرزة تبرع بها الحاج أحمد الصابونجي. وكان المدخل ينفتح على فناء، يتوسطه حوض ماء من المرمر ونافورة، لا يتوقف تدفق الماء منها وينتهي بإيوان واسع، ذي أرضية من المرمر

twitter @baghdad_library

أيضاً، وضع فيها تابوت كان الملاّ قد أحضره من مسجده في محلة جقور واتخذه مكتباً له يدير منه شؤون دائرته ويستقبل زائريه ومراجعيه وهو جالس داخله. بل وكان ينام فيه أحياناً أيضاً، مستمتعاً بقيلولة الظهيرة التي ما كان بوسعه الاستغناء عنها، وخاصة بعد رش الفناء بالماء البارد. ورغم أن هذه العادة الغريبة جوبهت بالاستهجان من قبل الكثيرين الذين اتهموا الملاّ زين العابدين القادري تارة بخفة العقل وأخرى بحب الظهور ومحاولة جذب الأنظار إليه، ورغم أن المتصرف اعتبر هذا السلوك غير لائق بمقام موظف كبير في الدولة، إلا أن الملاّ أصر على موقفه، مؤكداً على أنه لا ينبغي على المرء مهما رفعه الزمن أن ينسى لحظة واحدة الموت الذي يترصده في النهاية. وقال الملاّ في خطبة ألقاها، ذات يوم جمعة في مسجده، واشتهرت باسم «خطبة التابوت» إن ما يفسد قلب المرء ليس إغراء الحياة وإنما نسيان الموت. إن من حق كل كائن حي أن يستمتع بزمنه ولكن هذه المتعة تمتلك أبعاداً خيالية، إذا ما عرف المرء أن ثمة موتاً يترصده في النهاية. وإذا ما تذكر الناس هذه الحقيقة فلن يكون هناك حاكم يظلم رعيته أو وجيه يتباهى بمجده أو غني يبخل بماله. وقال الملاّ القادري أيضاً: «إن الحكمة الحقيقية في هذه الحياة تتجلى مرتين، مرة عندما يولد المرء وأخرى عندما يموت. كلنا محكومون بالولادة وكلنا محكومون بالموت. وما عدا ذلك زبد تتركه الموجة على الساحل». وتأثر الملاّ زين العابدين القادري بهذه الحقائق التي تجلت له دفعة واحدة، حتى من دون أن يكون قد فكر فيها فانسكبت الدموع من عينيه وهو يقول: «لا ينبغي لي وقد أصبحت مديراً عاماً أن أنسى هذه الحقيقة. ما من نبي أو ولي إلا وكان يحمل تابوته على كتفيه. فلماذا لا يكون لي أنا الآخر أيضاً تابوتي؟».

هـذه الخطبة المؤثـرة التي أفحمت المتقولـين وأغلقت أفـواههم رفعت في الحقيقـة من قدر المـلاّ زين العابـدين القادري الـذي أظهر براعـة فائقـة في الوصـول إلى الحكمة الإلهيـة، حتى أن المتصرف نفسـه اضطر بعـد أيام من هـذه الخطبة التي نشرت نصـها جريدة «كركوك» إلى القيام بزيارة مجـاملة لـه في مكتبه، حيث استقبله الملاّ كالعادة، وهو مضطجع داخل التابـوت الذي كان قد عبـأه بفراش ووسـائد من الـريش. وجلس المتصرف في الإيوان الذي كان الملاّ قد فرشه بالسجاد والوسائد، على طريق الدواوين العربية واحتسى فنجانـين من القهوة المـرة قدمهـا له رجل من دلة يحملهـا في يده، كـان من الواضـح أنه يخـدم في الدائرة. وبادره المتصرف ممازحـاً: «ما كنت أعتقـد أنك تملـك مثل هذا المكتب المريح. إنك لن تعاني من وجع الظهر مثـلي على الأقل». فرد الملاّ الذي كان قد انسحب قليلاً إلى الخلف، رافعاً رأسه إلى الأعلى: «لقد جربته يومين من دون فراش فكاد ظهري ينقصم من الألم. إنه لا يطاق حقـاً. فليرحم اللـه الموتى الـذين يوضعون فيه عراة، لا يستر أجسادهم سوى الكفن».

كان سلوك الملاّ زين العابدين القادري بدعة ما قام بها أحد قبله، ولكنها أثبتت لسكان محلة جقور أن نبع النور الذي ظلـوا يغرفون منه طيلة أجيال لم يجف، رغم الفساد الذي جلبه تدفق الحجاج الإيرانيـين والهنود والأتـراك على المـدينة. فقـد أهمل الرجال أعمالهم وهرب التلاميذ المراهقون من مدارسهم وراحوا يحومون حول الضريح، محاولين اصطيـاد الزائـرات الغريبـات القادمات لطلب شفاعة قره قول. وقد ابتكر بعضـهم طرقاً غريبة في اجتذاب النساء وإغرائهن مثل ارتداء الجبة والعمامة ووضع اللحى المستعـارة، كما ادعى بعضهم الحـوز على ملكـة السحر

twitter @baghdad_library

وذبـح الجن الذين يتلبسـون أجسـاد النسـاء ويمنعـونهن من الإنجاب. وكانوا يستدرجـوهن إلى باديـة المصلى الـواقعة عـلى الطرف القصي من المقبرة في الليـالي المظلمة ويقيمـون ما كـانوا يسمـونه «ليلـة الجن». وسواء كـانت الزائـرات الباحثـات عن الأمل يتبعن هؤلاء الشبان عن إيمان بالقدر الذي ينتظـرهن أو رغبـة في الوصـول إلى عالم الأرواح، فـإنهن كن واثقات من أن ثمة عالماً تسقط فيه الحـدود بين الممكن والـلاممكن وينقلب فيه كـل شيء إلى نقيضه، حتى لكـأن العالم يسـير بـالمقلـوب. وكن يردن الوصول إلى هذا العالم الذي ربما حمل اليهن الخـلاص. كانت النساء الملفعـات بالعبـاءات يتسللن في الليل الـداكن عبر القبور وهن يقرأن سورة الفاتحة إلى أنقاض طاحونـة من القرن الماضي، مهتديات بضوء شمعة خافتة، وضعت فوق جـدار خرب مواجه للمدينة. وفي داخل الطاحونة كـانت ثمة شمـوع مضيئة فوق حجر الرحى الدائري الكبير الـذي يتوسط المكـان، يجلس فوقه رجل عار تمـاماً إلا من قنـاع أحمر، يغطي عينيـه ويرتـل بطريقة رتيبة هي ما بين الغناء والعواء آيات بالمقلوب من قـرآن مسيلمـة الكذاب ومن ربـاعيات عمـر الخيام بـالعـربيـة والتي نظمهـا أحمد الصـافي النجفي، وهو يقـرع بقبضته بـين الحين والآخر إناء من الألمنيوم الرخيص. وحول حجر الرحى كان ثمة شبـان عراة يطـوفون، بـاكين ولاطمـين بأكفهم عـلى صدورهم. وكـانت النساء اللـواتي يصلن إلى الطـاحـونـة يؤمـرن بنـزع عباءاتهن والطواف حول حجر الرحى، حتى يتملكهن التعب. ثم يهبط الرجل الجالس فوق حجـر الرحى، حـاملاً في يـده خنجراً ويمسك بواحدة من النساء من يدها ويجعلها تصعد فوق حجر الرحى ويطفىء الشموع بنفسه. وعند ذاك كـان كل واحـد من الشبان يحتضن امرأة في زاوية مظلمة من الطـاحونـة ويرتفـع

نداء حيواني جماعي متكرر رتيب «أخـرج، أخرج» بينمـا تظل المرأة الواقفـة فوق حجـر الرحى تتمـايل يمينـاً ويساراً، حتى تـدخل في الحـال وتقترب من النشـوة فيصعد الشـاب، حامـل الخنجر ويعريها من ملابسها قطعة بعد أخرى، فتفعـل النساء الأخريات مثلهـا، ثم تتمدد فـوق حجر الـرحى ويرمي الشـاب فـوقها عبـاءة، يغطي بها جسمهـا، ثم يدخـل هو الآخـر تحت العباءة، مردداً كلمات غامضة، هي أقرب إلى لغة الشيطان منها إلى لغة البشر:

تعم لبم باخو هلم
سر يا مجل تاج محل
جان قدر سنبل بحر
بلبل دلم قلب الجلم

وخـلال ذلك كـانت النساء الأخـريات يتمـددن هن أيضاً في زوايا الطاحونة فيغطيهن الشبان بعباءاتهن ثم يدخلون تحتهـا، بادئين ذبح الجن، حيث كان الواحد منهم يذبح في الأغلب أكثر من جني يتقمص المـرأة التي يعالجهـا، حتى أن أحـدهم ذبـح ذات مرة خمسة من الجان المردة الـذين كانـوا يقيمون في رحم إحدى النساء. وكان الشبان يلفون بعد ذلك حول زنودهن تمائم خـرق خضراء، تقيهن شر الجن إلى الأبـد. وعنـد ذاك كـانت النساء يمددن أيـديهن إلى جيوبهن ويـدفعن بسخاء، مقبـلات أيديهم على إنقـاذهن من شرور الشيطان، ثم يتسللن، ملفعـات بعباءاتهن السود ويغبن داخل الليل.

صحيـح أن الناس راحـوا يحمدون قـره قول الـذي أفادهم ميتاً أكثر مما فعل ذلـك حياً، إلا أن منظـر الأموال التي كـانت تمطر فوق ضريحه جعلتهم ينسون حتى معجزة امتطائه البراق

twitter @baghdad_library

والصعود إلى السماء. وقد شعر الكثيرون منهم أنهم أحق من ضريحه الحجري بهذه الأموال. فالضريح لا يأكل في حين أن أطفالهم يجوعون. وماذا يفعل قره قول الذي لا بد أنه يتوسط الآن حلقة من الملائكة، جالسة في حديقة غناء في الجنة تسبح بذكر الله، بالذهب والفضة والدينار العراقي والتومان الإيراني والليرة التركية والروبية الهندية؟

هذه الأفكار الشيطانية راودت الكثيرين حتى أنهم ما عادوا يأبهون بشيء من أصول الدين، بل إنهم نسوا أركان الإسلام الخمسة التي استبدلوها بأركان أخرى، قالوا إنهم أرغموا على اتباعها. وكان أول الذين أغواهم المال هم سعاة البريد الذين راحوا يفتحون الرسائل الموجهة إلى قره قول، بحثاً عن النقود الورقية التي كانت النساء في العادة يضعنها وسط الأوراق المطوية لرسائلهن. ثم تبعهم رجال الشرطة الذين كانوا يحرسون الضريح. فقد فرض هؤلاء على كل زائر وزائرة للضريح ضريبة زيارة، سنها المفوض المسؤول عن المخفر. وعلى الرغم من تفاهة قيمة هذه الضريبة فإن المدير العام الملاّ زين العابدين آلغاها، مهدداً بإنزال أقصى العقوبات بكل من تسول له نفسه وضع حاجز بين المسلمين والوصول إلى ضريح قره قول. ولم تجد نفوس رجال الشرطة الراحة إلا بعد أن قام المدير العام بتعيين كل من عباس بهلوان ومحمود العربي مشرفين على الضريح، مكافأة لهما لبطولتهما في المعركة التي قاداها ضد الشرطة دفاعاً عن مقبرة الأجداد، على حد زعمه، في حين أن ما أرغمه على فعل ذلك هو خوفه منهما ومحاولة كسب ولائهما له. في الحقيقة أن عباس بهلوان ومحمود العربي لم يلجأ حتى إلى الوساطة. فقد التقيا الملاّ ذات يوم في محلة جقور

وقالا له بين الجد والهزل: «لقد سمعنا أنك عينتنا مشرفين على الضريح. ما كان ينبغي لك أن تفعل ذلك يا ملّا قبل أن تستشيرنا على الأقل، ولكن الخير في ما حصل. إننا موافقان». وارتبك الملّا معتذراً: «كنت أعرف أنكما ستوافقان. ما كنت لأقبل أن أكون مديراً عاماً من دون وجودكما إلى جانبي». وقد بدأت صداقة عميقة بين عباس بهلوان ومحمود العربي ورجال شرطة المخفر منذ اليوم الأول من عملهما في «المديرية العامة للإشراف على ضريح الولي قره قول». وهذا هو الإسم الرسمي الذي أطلق على الدائرة منذ البداية، والذي قام هاشم الخطاط، وهو أشهر فنان في بغداد بكتابته بالخط النسخ على لوحة فضية، علقها الملّا زين العابدين القادري في الواجهة المقوسة لمدخل مديريته الذي صبغه باللون الأخضر. فعندما أبدى رجال الشرطة ما يعتمل في صدورهم من شكوى، بسبب إقدام المدير العام على إلغاء ضريبة الزيارة ضحك عباس بهلوان قائلاً: «إذا كانت همومكم متعلقة بالنقود فانسوها بعد اليوم. سوف تكون لكل واحد منكم حصة من النقود التي يستلمها قره قول. هل كنتم تعتقدون أن باباً مغلقاً، يضع الملّا مفتاحه في جيبه يمكن أن يعيقنا من الوصول إلى الأموال التي يمتلىء بها الضريح؟ ترى ما الذي تعلمه محمود العربي طوال حياته غير معالجة الأبواب المقفلة؟». ورد محمود العربي الذي كان يحتسي استكاناً من الشاي في مخفر الشرطة، قائلاً: «هناك دائماً طريقة واحدة على الأقل لحل أي معضلة». هذا التأكيد الذي أعاد الأمل إلى قلوب رجال المخفر بعد الضيق الذي عانوه، جعل مفوض الشرطة ينهض ويعانق كلاً من عباس بهلوان ومحمود العربي وهو يقول: «لقد استبشرت خيراً بكما منذ البداية. كنت أعرف أنكما ستفكران بنا». وقلده رجاله في ذلك، حتى أن

twitter @baghdad_library

شرطياً من تلعفر قبل يد محمود العربي، وقد غلبته عواطفه قائلاً: «ليبارك الله لك يدك يا بني. هذه اليد سوف تمنعنا من أن نمد أيدينا لنتسول كل من هب ودب وتصون لنا كرامتنا». وتأثر عباس بهلوان ومحمود العربي بعواطف هؤلاء الناس، فقد كانا يعرفان أن رواتبهم التافهة لا تكفي حتى لإشباع أطفالهم. صحيح أن العمل عند الحكومة يمنح المرء مقاماً، يحسد عليه داخل المجتمع، حتى إذا كان مقام شرطي، ولكن كيف يمكن للمرء أن يعيل أطفاله إذا كان ما يستلمه في نهاية كل شهر هو سبعة دنانير، تتبخر خلال أسبوع واحد فقط؟ وقد طاف الرجلان حول الضريح بعد ذلك، متفحصين كل شيء في المكان حتى لكأنهما يريدان التعرف على قوة الخصم الذي سيواجهانه. وألقى محمود العربي نظرة على القفلين المزدوجين لباب الضريح وقال، مخاطباً عباس بهلوان: «لن يكون صعباً كسر هذين القفلين. ولكن ليس هذا ما نريده، إذ أن الملاّ سوف يكتشف الأمر في اليوم التالي. هناك طريقة أسهل بكثير من كسر القفلين. سوف نحصل على ما نريده حتى من دون فتح الباب»، فرد عباس بهلوان ممازحاً: «أعرف أنك لص، أما إذا كنت تمارس السحر أيضاً فهذا أمر جديد علي». فألقى محمود العربي نظرة متأملة على عباس بهلوان وهو يضيق ما بين حاجبيه الكثيفين: «لا يحتاج الأمر إلى سحر وإنما إلى عقل. وهذا هو بالضبط ما ينقصك»، فشتمه عباس بهلوان بود «وهذا هو بالضبط ما يجب أن تثبت وجوده في رأسك الفارغ»، فقال محمود العربي: «حسناً، سوف ترى ذلك في المساء عندما يكف الناس عن زيارة الضريح». وكانت الطريقة التي ابتكرها محمود العربي للوصول إلى النقود المتناثرة داخل الضريح بسيطة حقاً، حيث جلب عصا طويلة، ألصق بطرف منها قطعة

من اللبان المعلوك، مررها عبر الأعمدة المتقاطعة لنافذة الضريح، ملتقطاً بها النقود الورقية والمعدنية، قطعة بعد الأخرى، تاركاً عن عمد بعضها حتى لا يفطن الملاّ زين العابدين القادري إلى الحيلة والذي كان يفتح باب الضريح عادة مرة في الأسبوع، وهو صباح كل يوم جمعة، لجمع النقود المهداة والتي كان يسجلها فقيه مسجده عزيز شيروان الذي اعتمده سكرتيراً خاصاً له في دفتر كبير كان قد اشتراه له لهذا الغرض، معتبراً إياها تبرعات أوقاف للضريح. ولم تكن هناك بالطبع خزانة يضع فيها الملاّ النقود وإنما أكياس من الخام، كان ينقلها معه إلى البيت، واضعاً إياها في جرار دفنها تحت نخلة غير مثمرة، مؤكداً على أنها أمانة عنده وأن على المرء أن يصون الأمانة مثلما يصون ماله الخاص.

في الحقيقة إن الهدايا الكثيرة التي كانت تقدم إلى الضريح ويستلمها الملاّ زين العابدين القادري بنفسه كانت من التنوع بحيث يصعب حصرها؛ ليرات ذهب وقلائد جواهر وأسورة فضة وساعات نادرة من الصين وتحف من سوريا، كان الملاّ زين العابدين القادري يضعها في جرار إضافية ويدفنها تحت النخلة الوحيدة في فناء بيته، مخفياً سرها حتى عن زوجته التي كان يتعمد دفعها إلى زيارة بيت أختها أو الجيران، لينفرد بنفسه بعد أن يكون قد أغلق باب البيت بالمزلاج. ولكن كانت ثمة أيضاً هدايا أخرى، لا يمكن دفنها. كان القرويون يأتون بالكثير من البيض والدجاج والماعز والغنم. أما التجار فكانوا يقدمون أكياس سكر ورز وحنطة وصناديق شاي. وبالطبع ما كان كل ما يقدم من هدايا يصل إلى الملاّ زين العابدين القادري. فقد كان رجال الشرطة ومعهم عباس بهلوان ومحمود

twitter @baghdad_library

العربي يستقبلون حاملي الهدايا من بعيد ويغرونهم بوضعها في مخفر الشرطة، باعتبار أن المخفر هو مخفر قره قول نفسه. ولكن الكثيرين كانوا يرفضون ذلك، مصرين على إيصالها حتى شباك الضريح ومن ثم تسجيلها رسمياً عند كاتب الواردة. وهنا أيضاً كان جزء من الهدايا يتوزع بين الكتاب والموظفين ومن بينهم سكرتير المدير العام عزيز شيروان الذي كان يسلم معظم ما يصله من بيض ودجاج وخراف وسكر وشاي ورز وحنطة إلى القيادة الشيوعية للمدينة. وقد جعلت هذه الخيرات قائد المنظمة يقر: «لولا هذا الولي قره قول لمات الحزب جوعاً»، مقترحاً رفع توصية إلى اللجنة المركزية لمنحه ميدالية «النجمة الحمراء» عندما يصل الحزب إلى السلطة.

واحتار الملاّ زين العابدين القادري في ما يمكن أن يفعله بالهدايا التي يصعب وضعها داخل جراره. فقد قام في البادية، والحق يقال بتوزيعها على فقراء محلة جقور والمحلات الأخرى، ثم عدل عن ذلك، معتقداً أن الإفراط في الأمر قد يفسد الفقراء، حيث راح يبيعها لأصحاب الدكاكين، مضيفاً نقوداً جديدة إلى النقود المدفونة. ثم انتهى إلى فتح حانوت في السوق الصغير، يشرف عليه صهره الذي كان عاطلاً عن العمل، لتسويق ما يصل إلى الضريح من هدايا غير قابلة للدفن، أطلق عليه اسم «مخزن الضريح الإسلامي».

وعلى الرغم من الحرص الذي كان الملاّ زين العابدين القادري يظهره تجاه أموال المسلمين التي كان يقول إنها أمانة في عنقه، فإنه لم يسلم من القيل والقال، وهذا أمر مألوف في مدينة مثل كركوك معروفة بحسد سكانها. وقد ارتكب الملاّ زين العابدين القادري الذي لم تغادره عقلية إمام المسجد حتى بعد

أن أصبح مديراً عاماً، أكثر من خطأ في تعامله مع منصبه الكبير. فقد كان من اللياقة أن يحول جزءاً من خيرات الضريح إلى المتصرف ومدير الشرطة وكبار رجال الدولة الآخرين في المدينة ولكنه لم يفعل ذلك. بل انه نسي حتى وزيري الداخلية والأوقاف وكأنهما فزاعتا عصافير، على حد تعبير خضر موسى الذي لمح إلى الأمر مواربة في إحدى جلساته في المقهى مع الملاّ زين العابدين القادري. ولكن الملاّ رد عليه بطريقة، جعلته لا يعود إلى الموضوع ثانية: «أنت: تريدني إذن أن أدفع رشوة من أموال هي ليست لي وأن أفرط بالثقة التي وضعها المسلمون في».

أما الأمر الآخر الذي استفز به مشاعر الناس وأثار حفيظتهم فهو أنه راح يُخرج عصر كل يوم عربة الملك ابن سعود الذهبية ويستقلها، متوجهاً بها إلى المقهى، بدعوى أن رجليه تعانيان من الروماتيزم وأنه يصعب عليه السير على الأقدام. ورغم أنه كان يأخذ معه دائماً شرطيين مسلحين لحراسة العربة الذهبية، فإن الأطفال كانوا يتعقبونه، صارخين ومغنين حتى باب المقهى. وكان الرجال الذين يصادفونه في الطريق يقفون، مبهورين بما تراه أعينهم والنساء يندفعن إلى أبواب بيوتهن، لإلقاء نظرة على الملاّ وهو يقود عربته الذهبية.

لم يكن الملا زين العابدين قد قصّر بحق أرملة قره قول البدينة وأطفالها الأربعة، رغم الإشاعات التي تناهت إلى سمعه من أن ثمة غرباء يترددون على بيتها وأنها تتزين أكثر مما ينبغي، وهو أمر لا يليق بأرملة ولي من أولياء الله، مردداً أمام الآخرين: «إن بعض الظن إثم». فقد كان يرسل إليها كل أسبوع ما تحتاجه من سكر وشاي ورز ودجاج، فضلاً عن

twitter @baghdad_library

خمسة عشر ديناراً، وهو راتب شهري خصها هي وأطفالها به، كانت تأتي وتستلمه بنفسها. ومع ذلك فإن الشيطان وسوس لها فراحت تطالب، ربما بتحريض من عشاقها أو جيرانها أو حتى بتأثير من العبيد الذين كانوا يتوافدون على بيتها من مصر والسودان والحبشة والسنغال وساحل العاج، بحصة فعلية لها في الهدايا التي تقدم إلى ضريح زوجها، مشيرة إلى أن أطفالها الصغار اليتامى أحق بركوب عربة الملك ابن سعود الذهبية من الملاّ زين العابدين القادري المبتلى بالخرف وحب العظمة. ورفعت عن طريق محام، عرف بكسب قضاياه التي يرافع فيها عن طريق رشوة الحكام، دعوى إلى محكمة بداءة كركوك الثانية، طالبت فيها باقتراح من قاضي كركوك الشرعي، بالحصول على أربعة أخماس الهدايا التي تقدم إلى ضريح زوجها، مستندة في ذلك إلى الفقه الإسلامي الذي يحدد حصة بيت المال من أي ربح أو تجارة بالخمس. وقد أغاظ ذلك الملاّ زين العابدين القادري كثيراً، حتى أنه راح يتهمها جهاراً بتحويل بيتها إلى ماخور، يجتمع فيه الرجال والنساء، وبممارسة السحر الأسود، وهو أمر لا يليق بمقام قره قول. أما الأرملة السوداء البدينة فقد ادعت، من دون أن يصدقها أحد، أن الملاّ زين العابدين القادري راودها أكثر من مرة عن نفسها وأنها التزمت الصمت، خشية الفضيحة واحتراماً لمقام زوجها العالي. وأصيب الملاّ زين العابدين القادري بما يشبه اللوثة وهو يسمع هذا الاتهام ينقل إليه فراح يصرخ بأعلى صوته: «إنه لأهون عندي أن أضاجع بقرة على أن أقترب من فرج هذه القربة السوداء»، وقال بعد ان سيطر على نفسه: «لا أدري لماذا يبتلي الله عباده الصالحين بنساء فاسدات من أمثال هذه الأرملة؟ لا بد ان في ذلك حكمة، لا تدركها عقولنا القاصرة. كان الله في عون قره قول

الذي عاش مع هذه القحبة. ولكن سبحانه وتعالى عوضه عن دنياه بالآخـرة، حيث يعيش الآن في الجنة، تحيط به الحور الحسان. وشتان بين جمال تلك الحوريات وأدبهن وقبح هذه الأرملة وفساد أخلاقها».

وانقسمت مدينة كركوك إلى فئتين متنازعتـين، كل فئـة تؤيد طرفاً في هـذا النزاع الـذي اعتبره الكثـيرون متعلقاً بمصـيرهم نفسـه. فقد رأت فئـة من الناس أن الأمـوال كلها هي من حق قره قول نفسه. وهذا يعني شرعاً أنها تؤول إلى زوجته وأبنائـه، ما دام هو نفسـه غير قـادر على استـلامها، بسبب انتقـاله إلى السكن في الجنة. وأعلن علماء دين عـديدون في بيـان أصدروه بتأثير من محاميها الذي كان يأمل في كسب الدعوى، أن تجارة المسلم تؤول بعد وفاته إلى أبنائـه وأنه لا يحق للحكـومة أو أي جهـة السطو عـلى هذه التجـارة ومصادرتهـا، مؤكدين رفضـهم للشيوعية التي تنهب أموال المسلمين أو تؤممها، دون وازع من أخـلاق أو ضمير. وطـالب هؤلاء العلمـاء في بيـانهم الحكـومـة بإعادة الحق إلى أهله، والملاّ زين العابدين القادري بالتخلي عن وظيفة، قائمة على انتهاك مبادىء الدين.

وشعر الملاّ زين العابدين القـادري بالخطـر يحيق به وبـأنه مهدد بخسارة كل شيء. واضطر أن يلجأ مرة أخـرى إلى خضر مـوسى، عارضـاً عليه الأمـر، ولكن خضر موسى الـذي كان قـد ضغن على الملاّ منـذ اليوم الـذي رفض فيه أن يقـدم جزءاً من خيرات الضريح إلى مسؤولي الدولة متهماً إياه بمحاولة إفساده، ظل بارداً وكـأن الأمر لا يهمـه. ولم يفتح فمـه إلا ليقول للمـلاّ زين العـابـدين القـادري: «لقـد بـذلت جهـدي لتحصـل عـلى منصبك. أما ما عدا ذلك فلا علاقة لي به. دبر أمـورك بنفسك».

twitter @baghdad_library

هـذه الكلمات القليلـة وحدهـا كانت كـافيـة لتجعـل المـلاّ، ذا الأعصـاب المنهـارة أسـاسـاً، ينفجـر في فـورة غضب، أثـارت استغراب خضر موسى نفسه: «أعرف أنك تحسدني عـلى النعمة التي حصلت عليها. لا تنسَ أنك كنت غناماً وسوف تظل كـذلك في نظري»، فرد عليه خضر موسى بـإباء: «لن أنسى ذلـك أبداً»، ثم نهض خضر مـوسى وغادر المقهى، عـائداً إلى بيتـه. وانتابت الملاّ نوبـة من السعال الشـديد الـذي جعله يبلـغ حد البكـاء، مدركاً أنـه قد ذهب أكثـر مما ينبغي وأنـه قد غـامر بكـل شيء عندما تطاول على رجل يدين له بكل ما حصل عليه. وعلى الرغم من شعور الملاّ بالخسارة، فقد قرر مقـاومة أطمـاع أرملة قـره قـول ومحاميهـا. كانت تنتظـره معـركـة صعبـة بعـد أن فـرط بصداقة خضر موسى وحمايته له. وفكر في أن يذهب إليه ويعتذر عما بدر منه تجاهه. ولكن خجله من نفســه منعه من أن يفعـل ذلك. «يمكن أن أفعل ذلك غداً. سوف أفعل ذلك فيما بعد، وإلا بدوت أهوج وأخرق». دفع ثمن الشاي الذي احتساه وخرج إلى الشارع، وقد خـالطه شعـور بأنـه ليس سوى جثـة تسير عـلى قدمين. ما كاد المـلاّ يبلغ حـانوت الحـلاقة القـريب، حتى رأى حميد نايلون يخرج من المحل. كانت آثـار البودرة لا تـزال على مؤخرة عنقه ورائحة عطر تفوح منه. قـال حميد نـايلون: «هـل تعجبك يا ملاّ تسريحة شعري؟ هذا الحلاق الصغير ياووز يملك أصابع، تعرف كيف تقص الشعر. مشكلته دائماً هي مع القمل الذي يحمله النـاس إليه داخـل شعورهم». وانفـرجت أساريـر الملاّ: «هل تعـرف يا حميـد؟ أنت تعرف كيف تتعـامل مـع هذه الدنيا اللعينة».

قال حميد هازلًا: «يمكنك أن تتعلم ذلك إذا أردت». والتمعت

عيناه المستديرتان مثل العيون التي يرسمها الأطفال في دفاترهم بابتسامة ود.

- «لا، لن أتعلم ذلك أبداً. الشيطان يسكن تحت لساني. ما إن أفتح فمي حتى تندلق منه رائحة المزبلة».

وفكر حميد نايلون: شيخ خرف. أمر محزن حقاً. لا يزال يعيش على الأحلام. لماذا يظل المرء يأمل حتى النهاية؟ ما الذي يريده هذا الملاّ من العالم؟ ربما اعتقد أنه باق إلى الأبد. أنه مسلم على أية حال «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً». أما أنا فأعمل لدنياي كأنني أموت غداً. لا ينبغي أن أقول له ذلك. إن المرء يموت في اللحظة التي يفقد فيها الأمل. هذا العجوز ما زال قادراً على الأمل.

وخطا الملاّ إلى الأمام، واضعاً كفه اليابسة على كتف حميد نايلون برفق. ثم انتبه فجأة: «لحظة»، وتحسس بإبهامه الزلف: «كان ينبغي لحلاقك أن يقصر الزلف أكثر مما فعل. الشبان يطيلون زلوفهم هذه الأيام، متشبهين باليهود. آه، لا يهم ذلك. لماذا لا تأتي إلى الصلاة في الجامع يا حميد؟ لا ينقصك شيء سوى الاهتداء إلى الله».

- «هل تعتقد حقاً أن الجامع هو بيت الله؟ أعتقد أنه يحبذ السكن في القلوب، بدل جامعك الذي يمتلىء برجال يضرطون مع كل ركعة».

فرد الملاّ مداعباً: «يا لك من زنديق. ولكنك دون ذلك لا تعادل فلساً واحداً».

توقف حميد أمام دكان، يشبه حفرة داخل جدار واشترى علبة سجائر ماركة كات. قدم لفافة إلى الملاّ الذي قال بإباء: «أنت تدخن سجائر أبو البزون وتصفف شعرك بالدهن الأزرق.

twitter @baghdad_library

هكـذا هو الشبـاب دائماً. أمـا نحن العجائـز فليتغمدنـا اللـه برحمته الواسعة».

أشعـل حميد نـايلون لفـافته. بـدأ المساء يهبط وئيـداً فوق المدينة. قال الملاّ زين العابدين القادري: «إذا لم يكن عندك مـا تفعله يمكننا أن نجلس في المقهى. أريد أن أدعوك إلى احتسـاء استكان من الشاي على حسابي».

ـ «اعتقدت أنك تريد أن تـدعوني إلى وليمـة خروف محشي. ما الذي يضمره قلبك؟ أعرف أنك مرهق بسبب قحبة قره قول. هيا قل لي ذلك. إنها حيـة تسعى. ما كـان ينبغي لك أن تتـورط معها».

ـ «أجـل، إن الأمر يتعلق بهـذه القحبة. ولكنني غلطت مـع خضر مـوسى، وتجاسرت عليـه. رفض أن يستمـع إلي، ففقـدت أعصابي».

ـ «هذا خطأ كبـير يا مـلاّ. تعرف أننـا جميعاً مـدينون لـه، وبالذات أنت. ولكن دعنا من ذلك الآن. ماذا عن القحبة؟».

ـ «سوف أخسر كل شيء. لقد أسأت التقدير. إن قحبـة مثل أرملة قره قول أظهرت حصافة أكثر مني. حتى علماء المسلمـين وقعوا في حبائلها. تعد الجميع بالأموال والعطايا. لقد أصـدروا فتوى ضدي. يريدون أن يسرقوا مني ضريح قره قول».

ـ «حقاً، انها أكثر حصافة منك. لقـد تغيرت كثيـراً يا مـلاّ، غيرتك النقود. لم تعد تعرف إلهاً غير الأصفر الرنان. لا تـزعل. يجب أن أقـول لك ذلـك. أنت تعرف أنـه ما من أحـد مستعـد للدفاع عنك، إذا ما أصررت على اعتبار أمـوال الضريح أمـوالاً خاصة بـك. لا الحكومـة تقبل ذلـك ولا العلماء ولا حتى أبنـاء كركوك. وإذا ما أردت الحق فإن أرملة قره قول أحق منك بهذه

الأموال، لأنها كانت زوجته على الأقل».

واحمر وجه الملاّ الذي نادى على النادل طالباً الشاي: «ما دمت مديراً عاماً للضريح فعليهم القبول بشروطي. هذه الأموال ليست لي بالتأكيد. إنها أموال المسلمين وهي أمانة في عنقي. لست مستعداً للتفريط بها. هذه الحكومة ليست حكومة إسلامية حتى أسلمها هذه الأموال. أما قحبة قره قول فلا علاقة لها بالأمر. ليس الضريح دكاناً، كان يملكه زوجها حتى ترثه هي وأبناؤها».

وتساءل حميد بهدوء كما لو أنه يريد أن يسر أمراً، لا يريد أن يسمعه الآخرون: «حسناً، متى تريد أن تعيد الأمانة إلى أهلها؟ وزع الأموال بنفسك على الناس إذن حتى لا تكون هناك حجة».

أطلق الملاّ زين العابدين القادري ضحكة ساخرة ليخفي الغضب الذي بدأ يهز جسده كله: «أنت تريدني أن أكون شيوعياً إذن يا حميد. تريدني أن أوزع أموال الله على الناس هكذا لقاء لا شيء، حتى ينفقوها على احتساء الخمور ومضاجعة العاهرات».

- «حسناً، إذا كنت تريد أموال قره قول لنفسك، فلماذا ينبغي علينا أن نقف إلى جانبك؟».

ونهض حميد نايلون يريد أن يغادر المقهى. لم تعد ثمة فائدة ترجى من الجلوس مع الملاّ الذي كان حرنا مثل حمار توقف عن الجري فجأة. كان المساء قد هبط فوق السوق الصغير، حيث راحت الكلاب السائبة تنهش بعضها الآخر أمام حوانيت القصابين المغلقة، متصارعة على العظام المرمية فوق الرصيف، وكانت ثمة كلاب أخرى، استبد بها الجوع، وقد

twitter @baghdad_library

انزوت جانباً وراحت تأكل بقايا قطع البطيخ التي كان أصحاب الدكاكين قد رموا بها في الشارع. وفي المقهى الذي كان يرتفع عالياً على الرصيف، فوق دكة يصلها المرء بدرجتين كانت الأضوية الخافتة تلقي بظلالها فوق وجوه زبائن قليلين، كان بعضهم يلعب الدومينو. وانتبه حميد نايلون وهو ينهض إلى أن ثمة صفرة في وجه الملاّ، يصعب تحديدها. أهي صفرة الحقد أم صفرة الخوف؟ ونادى عليه الملاّ الذي بدا أنه يريد أن يكون ودياً: «لا أريد أن أخاصمك أنت الآخر يا حميد. لقد بدأت أفقد أقرب الناس إلي. هيا اجلس يا حميد. لا ينبغي أن تزعل مني. إنني أكبر منك سناً».

رد حميد ممازحاً: «لقد أتلفت أعصابي يا ملاّ. لا بد من بضع كؤوس من العرق حتى أستعيد هدوئي. لولا أنني أخشى غضبك لدعوتك إلى تذوق الحرام معي».

شعر الملاّ بالغبطة تسري في نفسه، وهو يرى حميد نايلون يمازحه، بعد أن شعر لبرهة أنه ربما كان قد أغضبه هو الآخر. استعاد الملاّ هدوءه فراح يردد بود: «لعنة الله عليك يا حميد نايلون. تريد أن تجرني إلى الفسق والفجور أيضاً. إن حديثنا لم ينته. أريدك أن تمر علي غداً حتى نذهب ونصالح خضر موسى. سوف أفكر في ما قلته لي. ربما كنت على حق. هل تعتقد أنني عجوز خرف، كما يقول أعدائي؟».

رد حميد عابثاً: «كل الناس تعرف ذلك. لا شك في خرفك. ولكن لماذا هذا الاهتمام بالأمر؟ سوف نعالج الأمر غداً. إطمئن».

وضحك الملاّ شاتماً إياه بمودة: «لا أحد يقدر على لسانك يا ابن الزانية. أنت إبليس بعينه».

مـا كاد حميـد يغادر المقهى حتى شعـر الملاّ زين العـابدين القادري مرة أخرى بالوحدة. كان يريد أحداً مـا يتحدث إليـه، أحداً ما يشاطره همومه.

«أصبحت مزعجاً. هذا واضـح. كلهم يتجنبونني. لقد تركني حميـد نايلـون أيضاً وراح يحتسي العـرق. لا شـك أنني رجـل خرف. لقد بدأت أهمل كل شيء. كان ينبغي أن أمسـح حذائي. انه متسخ منذ أيام. هـذا لا يليق بي. القحبة البـدينة أحـرقت أعصـابي. كان ينبغي أن أضـاجعهـا حتى أشتـري صمتهـا. حميد نايلون يمكن أن يدبر مثل هـذا الأمر؟ أتـراه يقبل ذلـك؟ لعنة الله عـلى الشيطان. حسنـاً. يبدو أنـه لا بد من الـرشوة. ولكن لماذا ينبغي علي أن أرشـو الصغار؟ حقـاً، لماذا الصغـار؟ إذا كان لا بد من الرشوة فسـوف أرشو الملـك نفسه. ولكن لا، قد يزعج ذلك خضر موسى المقرب من الملك ويعتبره تحـدياً لـه. ربمـا كان من الأفضـل أن أكون شيـوعياً، كمـا يقـول حميد نايلون. سوف أوزع أموال قره قول على الناس. ولكن لماذا أفعل ذلك؟ سوف يستلم هؤلاء النـاس هدايـاي اليوم ثم يشتمـونني غـداً. أنا أعـرف هؤلاء الناس جيـداً. إنهم جاحـدون ونـاكـرو جميل. اهدأ يا رجل، اهدأ يا رجل. مسكين قـره قول. لقـد نجا بجلده من هذه العاهرة التي تشبه جراباً نتناً. ولكن لماذا صعد إلى السماء على البراق؟ لماذا اختاره الله هـو بالـذات لمثل هـذه المعجزة؟ الحق، أن الرجل كان كذاباً ومـداهناً، يثـير الأعصاب بأنفه المفلطح وباطن كفـه التي كان يصبغهـا بالحنـاء، والقرط الـذي كان يـزين به لحمـة أذنـه اليمنى، متشبهـاً بعنتـرة بن شداد. ولكن لا بد أن الله يعرف شغله. لقد اختاره هو بالذات. لا يمكن أن أجأر بالشكوى. فقد كـان موت الـرجل نعمـة حلت على المدينة، لولا الغولة التي خلفها وراءه».

twitter @baghdad_library

عندما غادر الملاّ زين العابدين القادري المقهى وقد فكر في العودة إلى البيت سمع أمعاءه تقرقر وعند ذلك عرف أنه جائع، حيث نسي أن يأكل شيئاً طوال النهار. فكر «من الأفضل أن أنسى الأمر كله الآن. إن حميد نايلون على حق. ينبغي أن أتعلم أنا الآخر كيف أتعامل مع هذه الدنيا اللعينة. ينبغي أن أتعلم كل شيء من جديد».

لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء عندما وجد الملاّ نفسه مرة أخرى في الشارع الذي كاد يخلو من البشر. كان يريد العودة إلى البيت، ولكن عواطفه كانت تصعد وتهبط به، مثل طفل لا يعرف ما ينبغي عليه عمله «العودة مرة أخرى إلى البيت، حيث لا شيء ينتظرني سوى النوم». ولكن ها هو الليل قد هبط فوق المدينة. لا شيء هنا سوى الكلاب التي تعدو من شارع إلى آخر والقطط التي تموء قافزة من خرابة إلى أخرى. «لا لن أذهب إلى البيت. ماذا أفعل هناك؟ لن أقدر حتى على النوم. ذهب حميد نايلون ليجرع العرق، فإلى أين تذهب أنت أيها الملاّ؟». وسخر من نفسه قائلاً بصوت مسموع: «سفينتك اقتربت من الغرق يا ملاّ زين العابدين. كل ذلك بسبب تلك القحبة التي صعد بعلها إلى السماء». فكر الملاّ في أن يقصد بيت أرملة قره قول ويسترضيها. «لا بد من شراء صمتها. لم أكن سيئاً معها. قد توافق على سحب دعواها إذا ما عرضت عليها المزيد من الأموال. فهي قد تخرب كل شيء. قد تضر حتى نفسها. من يدري؟ قد تتخذ الحكومة من الأمر كله ذريعة لتستولي على الضريح. وعند ذاك نكون جميعاً قد ذبحنا الدجاجة التي تبيض ذهباً».

وجد الملاّ نفسه يتجه نحو بيت الأرملة مرغماً، كما لو أن قوة، لا يعرف مصدرها تملي عليه أفعاله. في الظلام الذي كانت

تبدده مصابيح واهنة، تتدلى من أعمدة متباعدة كانت رجلا الملّا المصابتان بالروماتيزم تضربان خبط عشواء، جارتين وراءهما رداء، تمسح أذياله الأرض. كان بوسع المرء أن يستشعر الصمت المخيم على المحلة. بعد دقائق توقف الملّا أمام بيت أرملة قره قول. خفق قلبه بعنف، وهو يقترب من الباب ليقرعه. مد يده ولكن شيئاً ما جعله يتردد مرة أخرى، فقد تناهت إلى سمعه أصوات غريبة من شقوق الباب الخشبي. وفكر الملّا «لا بد أنهم عشاقها». وانحنى، محدقاً بعين واحدة من شرخ الباب، داخل البيت، ولكنه ارتد إلى الوراء، مرتعباً. ثم استجمع قواه وألقى نظرة متأملة أخرى، جعلته يفقد حتى القدرة على نطق البسملة والتعوذ من الشيطان. كان ما رآه أمراً مثيراً للحيرة والغرابة، حتى أنه راح يفرك عينيه المرة تلو الأخرى ويعيد النظر من الشرخ. كان قره قول منصور يجلس إلى جوار درويش بهلول في فناء البيت على كرسيين من الألمنيوم، وهما يحتسيان الشاي، مع ثلاثة موتى، كانوا يقتعدون بساطاً مرمياً فوق الأرض، تلتمع هياكلهم العظمية البيض في ضوء المصباح الذي كان معلقاً فوق رؤوسهم على الجدار. جاهد أن يسمع حديثهم ولكن عبثاً، فقد كان ثمة جهاز راديو، ركن قريباً منهم يذيع أغنية لصديقة الملاية. انتابت الملّا رجفة راحت تخض جسده كله، بينما امتلأ رأسه بالأسئلة: «إذا كان قره قول في الجنة فما الذي جعله يعود إلى أرملته؟ ماذا يفعل درويش بهلول هنا بين هؤلاء الأموات؟». بصعوبة انسل الملّا، متراجعاً. ثم راح يعدو في الظلام، كما لو أن وحشاً يلاحقه، كما لو أن الأموات الثلاثة انتبهوا إليه فراحوا يطاردونه. وهوى على الأرض أكثر من مرة، ولكنه واصل عدوه رغم السعال واللهاث، تنبح وراءه الكلاب.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن

twitter @baghdad_library

في الليلة التي رأى فيها الملاّ زين العابدين القادري ذلك المنظر المرعب في بيت·أرملة قره قول والذي جعله يلازم فراش المرض في البيت، بعد أن فقد القدرة على الكلام، ظل حميد نايلون يتنقل من مكان إلى آخر. مر في البداية على مقهى لمصلحي السيارات في كراج يقع على طريق المحطة، كان زبائنه يحولونه إلى حانة بعد هبوط الظلام، جالبين معهم قناني العرق التي كانوا يشترونها من دكاكين بيع الخمور التي يملكها المسيحيون. لم يكن حميد نايلون قد فكر حتى في الشرب. كان يهمه أن يكون بين الناس؛ «ثمة رغبة دائماً في أن نعرض أنفسنا أمام عيون الآخرين. لا بد أن ذلك يمنحنا الثقة بأنفسنا. هذا ما يسمونه عادة التواصل». وجلس حميد نايلون مع شابين، كانا يتحدثان عن بطاقات اليانصيب. كان أحدهما قد فاز بعشرة دنانير، ولكنه لم يستلم سوى تسعة دنانير، حيث اقتطع البائع ديناراً منها، كمكافأة له أو ربما كضريبة. ووضع أحدهما كأساً أمام حميد نايلون: «اشرب يا حميد. الدنانير التسعة لا تزال في جيبي»، فرفع حميد نايلون كأسه وجرع رشفة كبيرة منها وهو يقول: «في صحة الجائزة الأولى التي أرجو أن تربحها في المرة القادمة». زعق بشار الذي كان يضع

نظاراته الشمسية حتى في الليل، اعتقاداً منه انها تجتذب إليه الفتيات التركمانيات: «آه يا إلهي، الف وخمسمئة دينار دفعة واحدة».

حدجه حميد نايلون بنظرة متواطئة: «سوف تتزوج بالتأكيد. تستطيع أن تخطب أجمل فتاة في كركوك. من يمكن أن يرفض شاباً في جيبه كل هذه الدنانير؟».

«ليشار فتاته التي تنتظره». قال جمال الشاب الآخر الذي كان يجلس قبالة يشار.

تساءل حميد: «حقاً؟».

قال يشار ثملاً: «انها من محلتكم يا حميد».

- «من هي؟».

تنهد يشار وهو يطلق زفرة عميقة: «انها ليلى. طالبة في متوسطة البنات».

وتساءل حميد: «ليلى، بنت الحاج أحمد الصابونجي؟».

- «أجل هي بعينها».

تدخل جمال: «انه ينتظرها كل يوم عندما تخرج من المدرسة».

وسأله حميد نايلون: «هل تحدثت معها؟».

- «حاولت، ولكنها ردتني قائلة أنها لم تعتد محادثة الشبان في الطريق. أعرف أنها تحبني يا حميد. ان عينيها تبوحان بذلك. كلما سرت وراءها التفتت واختلست النظر إلي».

قال حميد نايلون: «انها فتاة جميلة حقاً ومؤدبة».

اقترح يشار على حميد نايلون أن يرافقه عند عودته إلى البيت حتى يلقي نظرة على بيت حبيبته ليلى قبل أن يخلد إلى

twitter @baghdad_library

النوم. ولكن حميد نـايلون صـده برقـة، معتذراً من أنـه سوف يقضي الليل في مكان آخر. وكان قد فكر في أن يمر على العـاهرة أحلام التي يزورهـا مرة أو مـرتين في الأسبـوع. وجرع حميـد نايلون كأساً أخرى من العرق قبل أن يتسلل إلى الشـارع. كان رواد السينمـات التي انتهت من عرضهـا الأخير يتنـاثـرون في الشـوارع المظلمـة، عـائـدين إلى بيـوتهم، حيث صمت مختلط بالظلمة يخيم فـوق المدينـة. وانتبه حميـد نايلـون إلى الصمت الذي يوحي به الظلام دائماً، وهو أمـر ظل ملغـزاً أمامـه. كان الناس يسيرون بهدوء، لا تسمع سـوى ضربات خطـواتهم فوق الأرصفة أو اسفلت الشوارع. وتحت أعمدة الكهرباء كان يقف حراس ليليون، يتنكبون البنادق، معظمهم من العـرب القادمـين من الحـويجة. «من الصعب عـلى المرء أن يفعـل شيئاً في هـذه المدينة. أبواب وبوابات مغلقة. هذه المدينة ليست بغداد على أي حـال. هناك يمكن للمـرء أن يقضي الليل في ألف حـانة وحـانة، تمتد على طول شارع أبو نواس. وهنـا لا أحد سـوى الحراس الليليـين العرب. الجميـع يشعرون بـالضجـر، ولكنهم يحبـون ضجرهم، لأنهم لا يعرفون غيره. ولهذا يصابون بالخرف، تماماً مثل الملاّ زين العابدين القادري. لقد ظلمـه خضر موسى عنـدما عينه مديراً عاماً، فالرجل لا يستحق أن يكون أكثر من إمـام في جامع. مدير عام لقبر. تصـوروا ذلك. كـلا، كلا. مـاذا في ذلك؟ قبر قره قول ثروة، هبطت على كركوك من السماء. المورد الثاني بعـد النفط. ولهذا أصيب المـلاّ بالخـرف والجنـون. كـل هـذه الأموال التي تمر من بين أصابعه. لماذا لا تفعل الحكومـة شيئاً حقاً لمصادرة هذه الأموال التي يعتبرها الملاّ أموالاً خاصة بـه، رغم ادعاءاته الفارغة من أنها أمانة في عنقه؟ ينبغي أن أفاتح خضر موسى بالأمر. ينبغي أن نفعل شيئاً قبل أن تستولي أرملة

قره قول على هذه الأموال. سوف يرفض خضر موسى أن يتدخل في الأمـر. أصبح يترفع بعـد زيـارتـه للملـك عن التـدخـل في الصغائر. لا يريد أن يوسخ يديه في قضيـة، قد تضر بسمعتـه. بمثل هذه الأمـوال التي يخفيها المـلاّ يمكنني أخيراً أن أمـول جيشاً لحرب العصابات، جيشاً يحرر العراق مثلما حـرر جيش ماوتسي تونغ الصين».

كـانت الأفكار والأحـلام تتدافـع في رأس حميد نـايلـون في طريق عودتـه إلى البيت، حتى أنه لم يشعـر بالـزمن الذي مـر عليه. وفي البيت أيضاً لم يفارقه حلمه الجميل وهو على السرير، حيث ظـل يعـاني الأرق، متقلبـاً في فـراشــه، منتظـراً مجيء الصباح ليبدأ خطوته الأولى في طريق الثورة.

وبالفعل فإن أول ما فعلـه في الصباح هـو أنه قصـد فاروق شامل الذي كان يعمل في مطبعة البلدية، عارضاً عليـه، بعد أن اختلى به جانباً، وسط رولات الورق وعلب الأصباغ، الاستقـالة هو وعمال النقـابة من العمـل والخروج معـه إلى الريف للبـدء بحرب العصابات ضد الحكومة. صدم الأمر فاروق شامل الذي بدا مباغتاً، حتى أنه غـرق في الصمت وراح يحدق مشـدوهاً في وجه حميد نايلون الذي قال له: «ماذا بك يا فاروق؟ يبدو أنك لم تكن تتوقع أمراً مثل هذا».

كان فاروق شامل حائراً: «لقد باغتني حقـاً يا حميـد. دعني أفكر في الأمر. سوف أمر عليك عصراً. إنها فكرة عظيمة. ولكن لا بد من التمعن ملياً فيهـا. أنت تعرف أن المغـامرات الثـورية يمكن أن تؤدي إلى كوارث تقصم الظهر».

رد حميد نايلون، وهو يغادره: «ان الأمر مضمون. فإذا كان الشعب ضد الحكومة فإنه سوف يتبعنا بالتـأكيد. أنت تعـرف ذلك».

twitter @baghdad_library

لم يكن فاروق شامل يعرف ذلك أو متأكداً منه، بل وأضحكته فكرة أن يقود حميد نايلون الثورة، ولكنه قال بلهجة جادة: «ما من أحد غيرك فكر في الثورة. من أين تأتيك هذه الأفكار؟».

رد حميد نايلون بطريقة أخجلت فاروق شامل: «الأفكار لا تأتي إلى الإنسان. الإنسان هو الذي يذهب إليها».

وخرج حميد نايلون، تاركاً فاروق شامل يتأمل في أبهة هذه الجملة التي كان حميد نايلون قد سمعها من درويش بهلول ذات مرة، فظلت عالقة بذهنه.

وفي المساء اقتاد فاروق شامل حميد نايلون عبر أزقة مظلمة، ما كان قد مر بها قط من قبل: شبان أكراد لا تكاد تبين وجوههم، يرتدون سراويل منتفخة، كان التركمان يسمونها ساخرين، البالون، يقفون متكئين على الجدران، محدقين في الفراغ، منتظرين اللاشيء، اليوم بعد الآخر. وهمس فاروق شامل في أذن حميد نايلون: «هؤلاء هم رجال الجدران الذين ربما تكون قد سمعت بهم. انهم جميعاً عاطلون عن العمل، لا يجدون ما يفعلونه. يقفون متكئين على الجدران النهار كله وبعضاً من الليل. يقفون صامتين، لا يقولون شيئاً. وهم لا يذهبون إلى بيوتهم إلا للنوم، حيث يتكدس في الغرفة الواحدة الأشقاء والشقيقات والأب والأم والجد والجدة. إنهم هاربون من الحياة نفسها». واجتاز حميد نايلون وفاروق شامل أزقة ضيقة أخرى، مليئة بالوحل والماء الآسن، حيث لا يسمع المرء سوى نباح الكلاب التي تعدو دون غاية، ومواء القطط التي تقفز من جدار إلى جدار.

كان فاروق شامل قد أبلغ القيادة الشيوعية في المدينة بما

قال له حميد نايلون، طالباً إليها الرأي والمشورة. وقد دفع هذا الشيوعيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم خبراء في صناعة الثورات، رغم أنهم لم يكونوا قد قاموا بأي ثورة في تاريخهم كله إلى أن يطلبوا لقاء حميد نايلون في اليوم نفسه لبحث قضية الثورة المسلحة معه. لم يكن حميد نايلون شيوعياً ولكنه كان قد أظهر كفاءة في قيادة معركة كاورباغي، ووافق على أن يمثل الشيوعيين، وهو أمر لم يعلن أبداً، في الوفد الذي قصد بغداد والتقى الملك. وكان أيضاً قد حضر مجلس العزاء الذي أقامه الشيوعيون في أحد جوامع قره تبه، عند وفاة يوسف ستالين وقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة، حيث طفرت الدموع إلى عينيه وهو يرى الدموع في عيون الحاضرين. وعلى الرغم من صداقته للشيوعيين، فإنه ظل خارجهم، لاعتقاده أن الشيوعيين يقولون ما لا يفعلون ويختفون أكثر مما يظهرون. أما الشيوعيون الذين كانوا يهابون تأثيره السحري في الناس، فقد اعتبروه مثالاً للعفوية والفوضوية، وهو مثال كان يصعب حشره داخل قالبهم الذي يعتمد قبل كل شيء على القواعد والقوانين النظرية التي وضعها الحكماء الماركسيون الكبار. كان حميد نايلون الذي واتته فجأة فكرة الثورة يحتاجهم الآن. فإذا كانوا ثوريين حقاً فلينضموا إليه إذن أو فليتركوا لعمال النقابة حرية الاختيار على الأقل. أما الشيوعيون فكانوا متلهفين لمعرفة حقيقة هذا الأمر الجديد عليهم، هم الذين أمضوا كل الأعوام السابقة داخل السراديب، حتى أن بعضهم كان قد نسي أن هناك عالماً آخر غير السرداب الذي يعيش فيه.

ولكن والحق يقال أن حميد نايلون كان يحمل في رأسه فكرة غامضة مثل الناس الآخرين كلهم عن السراديب التي يقطنها القادة عادة. كان فاروق شامل قد قال لحميد نايلون: «يبدو أن

twitter @baghdad_library

فكرة الثورة قد أحدثت ضجة في القيادة، ولذلك فإنهم يريدون لقاءك اليوم، إذا لم يكن هناك ما يمنعك من فعل ذلك». رد حميد نايلون: «ان هذا يناسبني جداً، إذ لم يعد هناك الكثير من الوقت لنضيعه في الأعمال التافهة». واقترب حميد نايلون وفاروق شامل في الظلام الذي كان يبدده قمر باهت في السماء من بيت خرب في أحد الأزقة، ما كان يمكن أن يثير حتى اهتمام الشيطان نفسه. همس فاروق شامل: «لقد وصلنا أخيراً». وحدق حميد نايلون إلى باب قديم من الخشب، مغطى بنسيج العنكبوت، ترقد تحتها حمامة فوق بيوضها. وعلى ستارة الباب كانت تتمدد أفعى رمادية هائلة الحجم. ارتبك حميد نايلون وشعر بالرعب: «هذا البيت مهجور يا فاروق. لا أحد يمكن أن يوجد هنا». ابتسم فاروق شامل: «لا تغرنك المظاهر يا حميد، انتظر لحظة». واقترب فاروق شامل من الباب وقال بصوت مرتفع بعض الشيء: «افتح يا سمسم»، فرفعت الأفعى رأسها المستطيل الضخم وظلت تحدق لحظات في عيني فاروق شامل، ثم خفضت رأسها وتسللت داخلة في ثقب كبير فوق الباب. التفت فاروق شامل إلى حميد نايلون وقال له: «لقد دخلت الأفعى لتبلغ الرفاق بحضورنا. تمويه متقن. إن أحد رفاقنا وهو من الحواة يمتلك أفكاراً مدهشة في العمل السري».

وصر الباب الذي انفتح فدخل فاروق شامل وحميد نايلون بهدوء محاذرين إقلاق الحمامة التي كانت تنام فوق عشها عند عتبة الباب. وصافحتهما في الظلمة فتاة لم يستطع حميد نايلون أن يتبين ملامحها. ثم قادتهما داخل بيت مهجور، تفوح منه رائحة الخراب، منبهة إياهما إلى أن المكان مليء بالعقارب والفئران: «ولكن لا ينبغي عليكما الخوف منها، لأنها جميعاً مدربة بطريقة جيدة». ثم التفتت إلى حميد قائلة: «أرجو ألا

تكون أفعى الباب قد عاكستك. رفيقة جيدة، ولكنها تحب المزاح أحياناً. إنها في الحقيقة الملاك الذي يحرسنا جميعاً. «ودفعت الفتاة باباً، انفتح على سلالم مضيئة تنحدر داخل سرداب عميق، فأتيحت الفرصة لحميد نايلون ليلقي نظرة على الفتاة التي كانت تتقدمهما. فتاة جميلة، ترتدي تنورة قصيرة سوداء وبلوزة حمراء وحذاء أسود، ذا كعب عال. وفكر حميد نايلون: «من أين يحصل الشيوعيون على مثل هذه الفتيات الجميلات؟» كان كل شيء داخل السرداب مختلفاً عما رآه في الخارج. لم يكن في الحقيقة سرداباً، إلا لكونه تحت الأرض. فقد كان البناء حديثاً وأنيقاً ذكره بمكاتب شركة النفط الانكليزية. كان ثمة ممر طويل، تتدلى من سقفه ثريات كريستال جميلة، وعلى الجانبين تصطف غرف، ذات أبواب أنيقة، علقت فوقها قطع برونزية صغيرة، كان من الواضح أنها مكاتب عمل. ودفعت الفتاة أحد الأبواب فانفتح على رجل يجلس وراء منضدة. قال الرجل الذي ظل يحدق في الفتاة من وراء نظاراته: «لا بد أن الرفيق قد وصل. ينبغي أن أسجل ذلك في دفتر الواردة»، ثم التفت إلى حميد نايلون الذي كان واقفاً أمام الباب، وهو يفتح دفتراً كبيرا أمامه: «الاسم الحزبي رجاء؟». بوغت حميد نايلون بالسؤال الذي لم يفهم معناه، فاعتقد أن الرجل يسأله عن لقبه، وجاهد أن يخفي ارتباكه وراء الضحكة التي أطلقها: «العالم كله يعرفني باسم حميد نايلون فإذا كنت تريد أن تطلق عليّ اسماً آخر أفضل منه فلن أمانع كثيراً في الأمر». ثم التفت إلى الفتاة التي كانت تقف إلى جنبه: «لا أعرف كيف تستقبلون شخصاً لا تعرفون اسمه». هزت الفتاة رأسها بغنج، جعل حميد نايلون ينسى اعتراضه: «لا بد من قليل من البيروقراطية يا حميد. هكذا هي الحياة». ثم التفتت إلى الرجل الذي كان يجلس

twitter @baghdad_library

حائراً أمـام دفتره: «اكتب أي اسم. أنت تعـرف عملك أفضـل منـا». ثم أمسكت بيد حميـد نايلـون الذي اعتقـد أنها تغـازله فضغط على يدها بأصابعه، وقادته حتى نهاية الممر الذي كـانت قد علقت على جـدرانه لافتـات من قماش أبيض وخطـوط حمر ملتمعـة: «وطن حر وشعب سعيـد» و«عاشت الطبقـة العـاملـة العراقية» و«عاش نضال الشعـوب بقيادة الاتحـاد السوفيـاتي العظيم» و«تـايـوان جـزء لا يتجـزأ من البـر الصيني». دفعت الفتاة باباً في نهاية الممر، انفتح على قـاعة فسيحـة، وضعت في وسطها طاولة مستديرة ضخمة، مـع كثير من الكـراسي الأنيقة. وفي الزوايا تكدست رزم كثيرة من المنشـورات والكراريس التي كان من الواضح أنها قد أعدت لتنقل إلى أماكن أخرى. وكانت الجدران مزينة بصور لوجوه غريبة، لم يرها حميـد نايلـون من قبـل ما عـدا صورة ستـالين التي لا يخطئهـا المـرء، بـوجهـه الفلاحي الصارم وشاربه الكث. وكاد يسأل الفتـاة عن الرجـل الآخر الأصلع والشيخين المهيبين اللذين كانـا يشبهان درويش بهلول بلحيتيهما المنحـدرتين فـوق الصدر، ولكنـه خجل من أن يفعل ذلك، خشية أن يكشف عن جهله أمام الفتاة التي كان قد راح يفكر في طريقة يغريها بها.

انفتح باب جانبي آخر ودخل رجلان، كـان من الواضـح أن أحدهما كردي والآخر عـربي، صافحـاه أولاً ثم عانقـاه وقبلاه ودعياه إلى الجلوس. وقدمتهما الفتاة التي جلست هي الأخرى، واضعة أمامها قلماً وكومة من الأوراق الرقيقة التي تكتب عليها المحاضر السرية والتي يسهل إخفاؤها، لحميد نايلون الـذي ظل يتنقل بنظرته بين الشاب الكردي، ذي الرأس الأقرع والعجـوز العربي الذي ما كان قادراً حتى على جـر رجليه لفـرط سمنته. شكر الشاب الكردي الفتاة التي أسماها الرفيقة انتصار، طالباً

إليها تدوين كل ما يدور في الاجتماع. ثم توجه إلى حميد نايلون قائلاً: «لقد سمعت عنك الكثير. وفكرت أكثر من مرة في دعـوتك إلى زيـارتي داخل سردابي هـذا. ولكنني خشيت أن تكـون من الذين يتضايقون من السراديب».

ابتسم حميد نايلون وهو يـركز نظـراته عليـه: «ان سردابك ليس بالسوء الذي تعتقده. انه أفضل حتى من مكتب المتصرف نفسه. هذا المعْمَر الجميل، هذه الثريات الساحـرة وهذا المكتب الأنيق». وتـدخل الـرجل العجـوز: «هذا يـدل على قـوة الأفكار الشيـوعية. كـل ما تـراه هنا هـو هديـة من الشعب. لقد قـام بتصميم السرداب المهندس الوطني الـديمقراطي الكبـير رفعت الجادرجي الذي حاز تصميمه عـلى الجائـزة الأولى في مسابقـة برلين للمعماريين الشبان. أما الثريات الكـريستال التي تـراها، فقد أهداها لنا الشعب التشيكوسلوفـاكي العظيم. وكما تعـرف أن الكريستال في براغ أرخص من سعر التراب، ولذلك وضعت اللجنة المركزية ضمن الخطة الخمسية برنامجـاً لتعبيد جميـع الشوارع هناك بالكريستال. أما الأخشـاب فقد أهـديت للمقر، كما علمت من محل مشهور لصنع الموبيليا في المدينة».

وتدخل الشاب الكردي: «انها هدية من محل شكر النجار».

قال حميد نايلون: «انني أعـرفه. هـو الذي صنـع لي غرفـة النوم عند زواجي».

وتدخل العجوز مرة أخرى: «ينبغي أن نثبت للبرجـوازية أن من حق الشيوعيين أيضاً أن يعيشوا بطريقة لائقة. هل تعـرف أي تعذيب بشع تعـرض له رفيقنـا سالم في سجن بعقـوبة؟ إن من حقه الآن بعد فراره من السجن أن يستمتع بالحياة».

twitter @baghdad_library

قال حميد نايلون: «لقد سمعت بذلك. الناس تطلق عليه اسم بطل التعذيب».

هذه الكلمات العاطفية أثرت كثيراً في الشاب فنزع قميصه الذي كان يرتديه من دون فانيلة، عارضاً صدره وظهره على حميد نايلون، حيث ما زالت آثار العصي والسياط والأسلاك الكهربائية والسجائر المطفأة بادية للعيان. أخرج حميد نايلون علبة سجائره وقدم سيجارة لكل منهما، ولكنهما اعتذرا.

قال الشاب الكردي: «ان من يسجن يضطر إلى التخلي عن التدخين. هذه هي إحدى فوائد السجن في الحقيقة».

رفعت انتصار رأسها محدقة في حميد نايلون: «ولكن يمكنك أن تقدم سيجارة لي. فأنا لم أدخل السجن حتى الآن».

اعتذر حميد نايلون وهو يقدم سيجارة لها، أشعلتها بنفسها ثم راحت تنفث الدخان حلقات في الفراغ. وخفق قلب حميد نايلون بشدة، حتى أنه كاد ينسى الموضوع الذي جاء من أجله. قطع عليه العجوز حلمه اللذيذ: «لقد أبلغنا الرفاق أنك تفكر في تنظيم ثورة مسلحة في الريف. ما الذي يجعلك تؤمن بنجاح عمل خطير مثل هذا؟».

وانتبه حميد نايلون لأول مرة إلى أن فاروق شامل لم يدخل معه الغرفة، ولكنه لم يسأل عنه. كان واضحاً أن الرجلين يريدان مناقشة الأمر معه هو بالذات. رد حميد نايلون بهدوء كان قد تعلمه من خضر موسى: «النجاح أمر متعلق بالبشر أنفسهم. السؤال يتعلق بالحق. هل من حقنا أن نثور أم لا؟».

رفع الشاب الكردي يده قائلاً: «انظر أنني أعرف الأكراد جيداً. لم يحن الوقت بعد للقيام بثورة كردية. أنت تعرف أن الجنرال الملاّ مصطفى البرزاني قد قصد الاتحاد السوفياتي

منذ أعوام طويلة للتدرب على تـاكتيك حـرب العصابـات. ويبدو أنه لم يكمل دراسته حتى الآن. الأكراد ينتظـرونه ولن يقبلـوا بثورة لا يقودها هو نفسه».

احتد حميد نايلون الذي استغرب هـذا المنطق الغريب: «لم يخطر بذهني في يوم من الأيام القيام بثورة كردية. وكمـا تعرف أن نصفي عربي والآخر تركماني. ولن أرفض بـالتأكيـد إذا ما أرادت ابنتي الـزواج من كردي. انني عـراقي قبـل كـل شيء، والثورة ستكون عراقية».

هز الشاب الكردي رأسه مستنكراً: «هذه خيـالات. لا يمكن للثورة إلا أن تكون كردية. العـواطف القوميـة تسبق العواطف الطبقيـة، وهذا يعني كسب شيـوخ العشائـر الكرديـة والحزب البارتي إلى جانبنا. ولكن من يمكن أن يقبل ذلك؟».

قال حميد نايلون: «يبدو لي أن أهدافنا مختلفة. لا أعتقد أن العـرب أو التركمـان أقل وطنيـة من الأكراد. كـل ما يحتـاجه العراق الآن هو وجود من يطلق رصاصة الثورة الأولى».

تدخل الرجل العجوز محاولاً التوفيق: «ما قصده الرفيق كان متعلقاً بالجانب العملي من الثـورة. لا يمكن لأي ثورة الـوصول إلى النجاح بمعزل عن الحركة الـوطنية. لقـد قال الـرفيق فهد: «قووا تنظيم حزبكم، قووا تنظيم الحركة الوطنية. ولذلـك أطلب إليك الانتماء إلى الحزب الوطني الديمقراطي أو الحزب البارتي إذا لم تكن تمتلـك مـا يكفي من الـوعي الطبقي لـلانتمـاء إلى الحزب الشيوعي».

احتد حميد نـايلون وهـو يشعل سيجـارة أخرى: «مـا هذه الأحزاب الغريبة التي تطلب إلي الانتماء إليهـا؟ إنني لست هنا لأنتمي إلى أي حـزب. لقد جئت لأطـرح عليكم سؤالاً محـدداً:

twitter @baghdad_library

هل يمكن أن أعتمد على دعمكم إذا ما بدأت الثورة المسلحة في الريف؟».

أجاب العجوز، محاولاً التخفيف من حدة المناقشة: «إن الأمر ليس بالسهولة التي تعتقدها. لقد بحثنا الأمر أكثر من مرة داخل اللجنة المركزية بعد أن رأينا عادة اللجوء إلى الثورة تنتقل حتى إلى البلدان العربية. بل اننا أرسلنا أحد رفاقنا إلى أشقائنا في الصين والاتحاد السوفياتي للحصول على موافقتهم على قيامنا مع القوى الوطنية الأخرى بالثورة. هل تدري ما الذي قالوه له؟ لا يمكن أن تصدق ذلك. قالوا إن الوضع العالمي لا يسمح بوقوع أي ثورة داخل مجموعة حلف بغداد. فقد يتخذ الحلف من هذه الثورة ذريعة للقيام بهجوم ذري ضد الاتحاد السوفياتي العظيم. إنهم على حق».

هز حميد نايلون رأسه باستخفاف: «هذه أمور معقدة، لا تهمني. ولكنني لا أعتقد أن ماوتسي تونغ يمكن أن يطلب إلينا عدم القيام بالثورة، وخاصة إذا ما عرف أن الثورة سوف تنطلق من الريف، تماماً مثل الثورة الصينية التي قادها هو بنفسه».

وتدخل الشاب الكردي: «الثورة تحتاج إلى بنادق وأموال فمن أين ستحصل عليها؟»

رد حميد نايلون الذي ساورته الشكوك حول نوايا الرجلين: «الله كريم. العراق مليء بالخيرات. سوف نأكل التراب إذا اقتضى الأمر».

«هذه كلمات عامة لا تعني شيئاً». قال الشاب الكردي.

تضايق حميد نايلون من طريقة الرجلين في الحديث: «إذا كنتم لا تفكرون في الثورة فلماذا تورطون الناس وتجعلونهم

يفقدون أعمالهم ويدخلون السجون؟ هذه تضحيات لا معنى لها».

قال الشاب الكردي: «نحن ضرورة تاريخية. البرجوازية الصغيرة وحدها تتردد في تقديم التضحيات».

ولم يجد حميد نايلون بداً من أن يسأل الرجلين: «أنتم تستخدمون كلمات، لا يعرفها الشعب. المهم: هل أنتم مع الثورة أم ضدها؟».

حدق العجوز ملياً في الفراغ قبل أن يقول: «يقول الرفيق ستالين: ديالكتيكيا ينبغي للمرء أن يكون مع الشيء وضده في الوقت نفسه. وهذا هو موقفنا من أي ثورة، قد تنشب في العراق».

ما كان في إمكان حميد نايلون أن يفهم ما قاله الرجل، ولكنه التقط جوهر المعنى: «هل يعني هذا أنني يجب أن أحب نوري السعيد وأكرهه في الوقت نفسه؟».

ضحك العجوز: «أنت تحاول إحراجي. الديالكتيك لا ينطبق على الخونة. كيف يمكن للمرء أن يفكر في الثورة من دون حفظ أكبر عدد ممكن من النصوص الماركسية عن ظهر قلب، وخاصة النصوص المركزة المهمة التي تنشرها وكالة نوفوستي؟ كيف يمكن للمرء أن يفكر في الثورة من دون حفظ قصائد الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت الذي طلق زوجته التركية وتزوج من امرأة روسية من فرط حبه للثورة الروسية؟ هل قرأت شيئاً لشاعرنا الدولي الجديد الرفيق عبد الرحمن القلقالي؟ هل تعرف أن قصائده قد ترجمت إلى اللغة الكورية والأميركية، ضمن حملة التضامن مع فقراء العالم؟ هذه هي الثورة الحقيقية، أيها الرفيق حميد. وكما ترى أننا لم نهدر الكثير من الوقت داخل

twitter @baghdad_library

السراديب، كما يشيع عنا أعداؤنا الطبقيون».

كان من الصعب على حميد نايلون أن يتابع هذه الطـريقة في الكلام. ولذلـك لم يجد بـداً من المعاكسـة: «لا أعتقد أن هنـاك شاعراً في العالم كله، يمكن أن يجاري دده هجري. أمـر سيىء أن يمدح المرء نفسه وأنتم الشيوعيون تفعلون ذلـك ليل نهـار. إنني في الحقيقة أحب الشعر الغـزلي أكثر من غـيره. ما رأيـك بالمناسبـة بشعر بـرهان عبـد الله؟ في رأيي أنــه أهم من جميع الشعراء الذين ذكرتهم».

تساءل العجوز: «برهان عبد الله؟ لم أسمع حتى باسمه».

رد حميد نايلـون بهدوء المنتصر: «طبعـاً لا تعرفـه. انه ابن أختي. وهـو ينشر قصائـده بأسمـاء مستعـارة، تجنبـاً لغضب والـدتـه التي تعتبـر الشعـراء متسـولـين، فقـدوا احتـرامهم لأنفسهم. انه يتخفى في الحقيقة تحت أسمـاء مستعارة كثـيرة مثل نزار قباني وبدر شاكر السياب ومحمد مهـدي الجواهـري وحسين مردان. بـل إنه نشر قصـائد كثـيرة باللغـة الانكليزيـة أيضاً، بأسماء مستعارة بالطبع. انه يطلعني على جميع أسراره، فأنا خاله بعد كل شيء».

انفجـر العجوز ضـاحكاً، حتى أن الشـاب الكردي خشي أن يصل رنين ضحكته إلى خارج السرداب: «ما هذا الذي تقوله يا رجـل؟ جميـع الـذين ذكـرتهم أشخـاص حقيقيـون وأعـرفهم شخصيـاً. فقد أوصـانا الـرفيق فهد أكثـر من مرة بـالاهتمام بالشاعر الجواهري وقد صافحته بكفي هذه قبل عامين. ولكنـه رجل متقلب المزاج، لا يمكن الاعتماد عليه. أمـا السياب، وهـو شـاب نحيف من البصرة، هزيـل الشخصيـة، كـان عضـواً في حزبنا ثم طردناه بعد أن اكتشفنا عـلاقته بـالشرطة. والجميـع

يعرفون: من هو نزار قباني وحسين مردان؟ شاعران إباحيان ووجوديان يمثلان القيم البرجوازية المنحطة. ما علاقة ذلك بابن أختك الذي لا أعرف اسمه؟».

أشعل حميد نايلون لفافة ثم حدق في الفتاة التي كانت تدون محضر اللقاء، واضعاً علبة السجائر أمامها: «لا أريد أن أكذبك. ولكنك ربما كنت ضحية نصابين، ينتحلون أمجاد الآخرين لأنفسهم».

قال الشاب الكردي: «حمداً لله أن عبد الله كوران أمضى أربعة أعوام معي في الزنزانة نفسها في سجن بعقوبة وإلا اعتقدت أنه شخص مختلق هو الآخر».

رفع حميد نايلون كفيه إلى الأعلى: «الأمر لا يتعلق بشخص معين بالذات. المشكلة عامة. عندما تتحول الأكذوبة إلى نظام شامل لن يكون هناك سوى الأشباح. معذرة إذا كنت قد اقتبست هذه الحكمة من ابن أختي برهان عبد الله الذي يكتب أحياناً أيضاً باسم كافكا، وهو اسم كردي كما يبدو لي».

قال الشاب الكردي مصححاً: «لا أعتقد ذلك. ربما كان ابن أختك يكتب باسم كاكه فالتبس عليك الأمر».

وتدخل العجوز متضايقاً: «لا ينبغي أن نضيع وقتنا الثمين في الحديث عن أمور ثانوية. ما يهمنا هو معرفة حقيقة الخطوة التالية التي تفكر فيها أيها الرفيق حميد».

أجاب حميد نايلون وهو ينهض مغادراً: «لقد ظلت الثورة مؤجلة فترة طويلة ولن يضيرها أن تنتظر بعض الوقت. سوف أفكر ملياً في الأمر وربما التقينا ثانية».

قال العجوز مداهناً: «لا بد من ذلك. سوف نتعلم بالتأكيد الكثير من بعضنا الآخر».

twitter @baghdad_library

غادر حميد الوكر السري مضطرباً، مفزعاً في طريقه الحمامة الجاثمة أمام الباب والتي كاد يسحقها برجله في الظلام، فرفرفت بجناحيها قليلاً قبل أن تجثم فوق عشها مرة أخرى. وكانت الأفعى قد رفعت رأسها، مستفزة، ولكنها إذ وجدت كل شيء على ما يرام عادت وتمددت فوق ستارة الباب، غارقة في النوم.

لم يتبادل حميد نايلون في طريق العودة الكثير من الكلام مع فاروق شامل الذي كان قد سأله حالما أصبحا في الشارع: «يكاد الفضول يقتلني. قل لي: كيف كان اللقاء؟».

– «يبدو أن الشيوعيين يعتقدون أنه لا يمكن فعل شيء من دونهم. ولكن ما تكاد تحاول أن تفعل شيئاً معهم حتى يضعون أمامك المستحيل».

رد فاروق شامل بأسى: «كنت أعرف أنهم سوف يرفضون. أنت تعرف أن النضال في نظرهم يعني الصمود داخل السجون. انهم لم يتمرنوا حتى الآن على الثورة».

قال حميد نايلون حزيناً: «أجل. لقد سمعت مرة بعض العمال الشيوعيين يغنون فرحين:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما

لا أدري كيف يمكن للمرء أن يتغزل بالسجن ويهوى الظلام. إن هذا منتهى اليأس من الحياة يا فاروق».

وساد بينهما الصمت مرة أخرى. كان فاروق شامل متأكداً من أن حميد نايلون ليس من صنف الرجال الذين يتخلون بسهولة عما كانوا قد قرروا فعله، مهما بدا هذا الأمر أخرق وصعباً. وكان يعرف أيضاً أنه ما من قوة يمكن أن تغري الشيوعيين بخوض المغامرات. والأكثر من ذلك أن حميد نايلون

ما كان يمتلك حتى عصابة، ليفرض نفسه على الآخرين. وإذا كان رجال الوكر قد استمعوا إليه فذلك بدافع الفضول، أو الرغبة في معرفة ما يدور في العالم الخارجي الذي كانوا يتوقون إلى فهم تفاصيل حركته من داخل سراديبهم السرية. لم يرد أن يقول له ذلك، فقد كان واثقاً بطريقة ما من أن حميد نايلون سوف ينتهي مثل كثيرين غيره، إلى الخيبة حتى قبل أن يبدأ الخطوة الأولى في رحلة الألف ميل. ولكن فاروق شامل كان مخطئاً هذه المرة. فقد كان حميد نايلون يرى أن ثمة مخرجاً دائماً عندما تطبق الدائرة على المرء، وأن البراعة تكمن في اكتشاف هذا المخرج الذي قد لا يكون مرئياً. ولم يكن من الصعب على حميد نايلون الوصول إلى هذا المخرج الآن أيضاً.

بعد ليلة أخرى من الأرق، حيث ظل يعيد التفكير المرة تلو الأخرى في خطته وهو مضطجع على السرير قرب زوجته، نهض مبكراً قبل الفجر وانسل خارجاً من دون أن يوقظها، حتى لا يضطر للجوء إلى الكذب في مواجهة أسئلتها الكثيرة. صعد إلى سيارته التي كان يوقفها عادة، قريباً من البيت وأدار المحرك، ثم انطلق إلى حيث اعتقد أن الثورة تنتظر وصوله، ممتلئاً بروح جديدة، أيقظتها نسائم الصباح الباردة التي كانت تأتيه من نافذة السيارة المفتوحة، فراح يغني بصوت مرتفع مثل رجل عثر على السعادة فجأة، وهو يقطع طريقاً ترابية كانت تمتد على جانبيها المروج.

على الرغم من أن زوجته فاطمة قلقت بعض الشيء لاختفائه المفاجىء، فإنها لم تأبه كثيراً للأمر، فقد كان حميد نايلون كثيراً ما يختفي أياماً وأحياناً أسابيع ثم يظهر ثانية، من دون تقديم الكثير من الإيضاحات. وقد اعتادت الأمر ابنتاه نادية وسعاد أيضاً، إذ كانتا تسألان أمهما مرة واحدة ثم تكفان عن

twitter @baghdad_library

السؤال، بعد أن تكونا قد تلقيتا الجواب نفسه دائماً: «بابا سافر وسوف يعود». ولم ينتبه أحد في محلة جقور إلى غياب حميد نايلون، ما عدا خضر موسى الذي سأل عنه فقالت له فاطمة: «أنت تعرف حميد. انه يغيب ويظهر مثل الشيطان. لقد استيقظت قبل ثلاثة أيام من النوم فوجدته قد غادر البيت. لا شك أنه قد سافر إلى بغداد أو مدينة أخرى». كانت المحلة منهمكة في متابعة الصراع الناشب بين أرملة قره قول والملاّ زين العابدين القادري حول الحق في العطايا التي تقدم إلى الضريح. وقد توتر الموقف كثيراً عندما قصدت أرملة قره قول وهي تجر وراءها عباءتها السوداء المفتوحة، يتبعها أطفالها الأربعة الذين كانوا يحملون في أيديهم العصي، بيت الملاّ زين العابدين القادري ووقفت أمام الباب، تحيط بها نساء المحلة وأطفالها ورجالها، شاتمة الملاّ الذي قالت إنه يعيش على المال الحرام الذي هو من حق أطفالها اليتامى. ولما لم يظهر الملاّ زين العابدين القادري، راح أطفالها يضربون الباب المغلق بالحجارة، صارخين «أخرج يا ملاّ دينار». أخفقت محاولات الناس في تهدئة الأرملة التي كان صراخها يسمع في المحلة كلها. وقد ازداد الأمر سوءاً عندما أطلت زوجة الملاّ زين العابدين القادري من سطح البيت، وهي امرأة في الستين من عمرها، راحت تتبادل الشتائم مع أرملة قره قول: «أنت أيتها القحبة، اذهبي إلى عشاقك السود بدل الهجوم علينا». وهددتها: «إذا لم تذهبي فسوف أنزل وأضع رأسك القذر في البالوعة». وردت عليها أرملة قره قول: «هيا انزلي يا قحبة واجلبي معك الملاّ القواد». وتدخل الناس: «عيب. لا يصح هذا الكلام. ما الذي سيقوله الناس عنكم؟». وبدأ أطفال الأرملة يقذفون زوجة الملاّ بالحجارة. ولكن الرجال أمسكوا بهم،

مانعينهم من فعل ذلـك. واختفت زوجة المـلاّ لحظات ثم عـادت وهي تـحمل صفـيحة ملأى بماء وسـخ، سكبته فـوق رأس أرملة قره قول التي كانت تقف شاتمة أمام الباب. هجمت أرملة قـره قـول التي بوغتت بـالأمر عـلى الباب وراحت تضربـه برجلهـا: «سوف أقتل هذا الملاّ». وعندما لم ينفتح الباب نادت على أحـد أبنائها: «هيا اذهب وناد أعمامك. لا بد للدم من أن يسيـل هذا اليوم». وجرتها نساء المحلة جانبـاً: «لا يصح ذلـك. أنت أرملة ولي. اتركي الأمر لله». ولكن المرأة التي كان الزبـد يتطايـر من فمها رمت بنفسها فوق الأرض، لاطمة بكفيها رأسها الـذي بان شعره الأجعد القصير: «لو كـانت لقره قـول كرامـة لقتل هـذا الفاسق. أين أنت يا قره قول لتـدافع عن زوجتـك الوفيـة؟ أين أنت، يـا قرة عـين الأولياء؟». ووصـل فجأة ثـلاثة من السـود العراة الذين مـا كانـوا يرتـدون سوى سراويـل بيض قصيرة، تلتمع بشرتهم السوداء الـداكنة تحت الأشعـة الأخيرة للشمس الغـاربة، حـاملين في أيـديهم فؤوساً ذات أنصـال حادة، وقـد تنكبـوا الأقواس والسهـام، يتقدمهم ابن قـره قـول، وهـو ذاك الذي ذبح قاتل أبيه قبل شهور في محلة المصلى بموسى للحلاقة. ما كان أحد في محلة جقور قد شاهد هؤلاء الناس من قبل. كان من الواضح أنهم غرباء، قادمون من أفريقيا، أو ربما من مكان آخر. وبدا لأطفال المحلة أنهم يعـرفون هؤلاء الـذين كانـوا قد شـاهدوهم من قبـل في السينما، فـراحوا يصرخـون، مولـولـين «الوحشيون، الوحشيون». وأشارت أرملة قـره قول التي كـانت تقتعد الأرض، بيدها إلى بيت الملاّ زين العابدين القادري، قائلة شيئاً لم يفهمه أحد من الذين كانوا يتحلقون حولها، فقد كـانت الألفـاظ غـريبـة عليهم، حتى اعتقـدوا أن المـرأة ربمـا كـانت تخرف. ولكن أحد الرجال السود الثلاثة قال لها شيئاً ما، ردت

twitter @baghdad_library

عليه بكلمات غريبة. وعند ذاك تأكد رجال المحلة ونساؤها أن هؤلاء الناس يتحدثون لغة أخرى، كان من الواضح أنها لغة السود. وفي هذه اللحظة ظهرت زوجة الملاّ مرة أخرى على السطح وراحت تكيل الشتائم لأرملة قره قول التي رفعت يدها باتجاه السطح، قائلة بلغة السود «دوشان»، وهي كلمة قال الأطفال الذين كانوا قد شاهدوا الكثير من الأفلام الأميركية عن الوحشيين إنها تعني «العدو». وفي لمح البصر أخرج أحد السود قوسه وأطلق سهماً باتجاه زوجة الملاّ. لكن المرأة التي كانت قد انتبهت إلى الخطر المحيق بها تراجعت، معولة، فمرق السهم من فوق رأسها، مئزاً في الفراغ. كان هذا أكثر مما يطيقه سكان محلة جقور الذين شعروا أن هؤلاء السود قد جرحوا كرامتهم وتدخلوا في أمر لا يعنيهم. فإذا كان من حق أرملة قرة قول أن تتشاجر، باعتبارها واحدة منهم فليس من حق الغرباء، والوحشيين بالذات، أن يرشقوا بسهامهم زوجة الملاّ. وانفجرت نساء المحلة أولاً في وجه هؤلاء الغرباء، شاتمات إياهم وصارخات، ثم تبعهن الأطفال، رامين السود بالحجارة وقناني النامليت. ولكن السود بدل أن ينسحبوا راحوا يرقصون في حركة دائرية، هازين فؤوسهم فوق رؤوسهم، مطلقين صرخات وحشية، قال الأطفال إنها رقصة الحرب. ووصل عباس بهلوان ومحمود العربي اللذان بلغهما خبر الشجار وهما عائدان من الضريح. قفز أحد السود عالياً باتجاه الحشد، ملوحاً بفأسه مما أفزع النساء والأطفال الذين بوغتوا بالحركة فتراجعوا، ساقطين فوق بعضهم الآخر. ونادت أرملة قره قول التي كانت لا تزال جالسة على الأرض، متكئة على الحائط بأعلى صوتها: «لو كنت رجلاً أيها الملاّ الكاذب فاخرج من بيتك الذي تختبىء فيه». ثم تمتمت ببضع كلمات بلغة السود، هجم الرجال الثلاثة

بعدها على باب بيت الملا زين العابدين القادري وراحوا يضربونه بفؤوسهم، محاولين كسره. هذه الحركة جعلت عباس بهلوان ومحمود العربي يندفعان من بين الحشد، وقد أمسك كل منهما في يده ساطوراً، أخذه من قصابي المحلة الذين كانوا يتفرجون على المشهد. نادى عباس بهلوان على الرجال السود الثلاثة بأعلى صوته: «أيها الوحشيون سوف تذبحون اليوم مثل النعاج». لم تؤثر كلمات عباس بهلوان في السود الذين كانت عيونهم تقطر شرراً، إذ هجم عليه أحدهم بفأسه حتى قبل أن يكمل جملته، ولكن عباس بهلوان مال جانباً في اللحظة المناسبة ففقد الرجل توازنه، وعندئذ وجه عباس بهلوان ركلة إلى قفاه، جعلته يهوي على وجهه فوق الأرض والدماء تسيل من أنفه. دوى تصفيق حاد من الحشد، مختلط بالضحك ونداءات «هيا اجهز على الوحشي يا عباس». وانضم إلى عباس بهلوان ومحمود العربي عامل النفط عبد الله علي، وهو يحمل في يده رمحاً، كان يملكه ذات يوم جده حنظل الذي خاض معارك لا تعد في غزوات العرب ضد قوافل التجار في القرن التاسع عشر وفقد يده اليسرى في معركة وقعت مع الأتراك على ضفة دجلة. وصاحت إحدى النساء: «الآن يمكن للمعركة أن تكون عادلة. ثلاثة ضد ثلاثة». رمى عباس بهلوان بنفسه فوق الرجل الأسود الذي سقط على الأرض وشد ذراعيه إلى الوراء ثم ضربه بين كتفيه حتى أوشك أن يغمى عليه، ثم جره وسلمه إلى الشبان الواقفين، ليوثقوا يديه ورجليه بحبل. وعاد مرة أخرى إلى الميدان، حيث كان محمود العربي وعبد الله علي يخوضان معركة قاسية ضد الرجلين. كان محمود العربي قد اشتبك مع أحدهما في صراع بالأيدي بعد أن باغته بضربة أوقعت الفأس من يده فرمى هو الآخر ساطوره على الأرض، مؤكداً مرة أخرى

twitter @baghdad_library

على سمو أخلاقه حتى في مثل هذا الموقف الصعب. تدحرج الرجلان على الأرض ثم نهضا ثانية. قفز الرجل الأسود في الهواء محاولاً ضرب محمود العربي في صدره برجليه، بيد أنه أخطأ هدفه فاصطدم بالجدار وهوى على الأرض، فاقداً الوعي. وكان عبد الله علي برمح جده الطويل قد حاصر الرجل الأسود الآخر وجعله يرمي فأسه على الأرض، معلناً استسلامه. وضجت محلة جقور بالتصفيق وهتافات «اللهم صل على سيدنا محمد». واقتاد شبان جقور الأسرى الثلاثة إلى الخرابة القريبة التي كان يتدرب فيها الرياضيون عادة وشدوهم إلى ثلاثة أوتاد، دقوها في الأرض، ثم أحضروا قدراً كبيراً، كانت المحلة تستخدمه عادة في غلي الحبوب التي تؤكل في الشتاء، ملأوه بالماء وأوقدوا النار تحته. وصبغ شبان آخرون وجوههم بدهان أحمر، وراحوا يرقصون حول الرجال السود الثلاثة، موحين لهم بأنهم يريدون أكلهم، وسط ضجيج الأطفال الذين كانوا يملأون المكان، وضحك النساء اللواتي كن يتفرجن على المشهد من وراء السور الواطىء للخرابة. ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، فقد قدمت سيارة جيب مسلحة، نزل منها ثلاثة شرطيين، شاركوا الحشد ضحكه قبل أن يفكوا وثاق الأسرى الثلاثة ويضعوا الأصفاد في أيديهم، ثم يأخذوهم معهم إلى مركز قريب للشرطة، كان يقع في محلة اليهود. ولم ينتبه أحد إلى اختفاء أرملة قره قول التي كانت قد انسحبت هي وأطفالها الأربعة، تجنباً للوقوع في الأسر، عندما اكتشف أنها أخطأت في تقدير قوة الخصم. ولكنها كانت مخطئة في اعتقادها هذا، إذ ما كان يمكن لأحد في محلة جقور أن يتعرض لها ولأطفالها السود الأربعة بالسوء، رغم سلاطة لسانها، فقد كانت لا تزال في نظرهم أرملة قره قول، أعظم ولي شهدته مدينة كركوك في تاريخها كله. ولم

يكن هيناً عليهم أن ينسوا هذه الحقيقة.

لم يفطن الناس إلى غياب الملاّ زين العابدين القادري إلا في نهاية ذلك اليوم الصاخب الذي عاشته محلة جقور. أكيد أنه ما كان يليق بالملاّ أن يتبادل الشتائم مع أرملة قره قول، بيد أن غيابه حتى بعد انتهاء المعركة، وانسحاب أرملة قره قول، أثاروا فضول الناس وأسئلتهم. كان عليه أن يخرج ويشكر الرجال الثلاثة الذين غامروا بحياتهم، دفاعاً عن شرف بيته. بل إن بعض الناس قال إن على الملاّ أن يزيد راتب كل من عباس بهلوان ومحمود العربي، الموظفين في دائرته أو أن يصرف لهما إكرامية مجزية على الأقل، بعد البسالة التي أبدياها في مواجهة الوحشيين السود الثلاثة، إذ لولاهما لدخلوا على الملاّ في بيته ومزقوه إرباً.

أبلغ عباس بهلوان ومحمود العربي الرجال الذين كانوا قد فرشوا بساطاً في الشارع أمام المسجد وجلسوا عليه، متمتعين باستعادة تفاصيل المعركة، أن الملاّ لم يحضر الدائرة منذ ثلاثة أيام. وكان الملاّ قد انقطع عن الذهاب إلى مسجده أيضاً لأداء صلاة العشاء، وهو أمر ما كان يحدث إلا نادراً. وفجأة أدرك الرجال أن أمراً ما حدث للملاّ، أرغمه على الانزواء. ولم يعد بد من زيارة الملاّ زين العابدين القادري في بيته. قرع الرجال باب البيت ففتحته زوجته التي كانت عيناها متورمتين من البكاء. قالت: «لا أعرف ما الذي جرى للملاّ. منذ ثلاثة أيام لم يفه بكلمة واحدة. أعتقد أنه فقد القدرة على الكلام». جلس الرجال في الغرفة الطويلة التي كان الملاّ يقرفص في زاوية منها، محدقاً في الفراغ. لم يكن يبدو عليه المرض سوى أن عينيه كانتا زائغتين كما لو أنه ساه عن العالم كله. بل إنه لم يرد حتى على

twitter @baghdad_library

تحية الذين جاؤوا يعودونه، كما لـو أنه لا يعـرفهم. وقال خضر موسى: «لا بد من طبيب يفحصه. لا يمكن الاعتماد على القدر».

بعد نصف ساعة حضر طبيب فحص الملاّ، فلم يجد ما يدعو إلى القلق سـوى الخـرس الـذي عجـز عن فهمـه. فتـح فمـه وتحسس لسانه وحنجرته بقطعـة من الخشب، فوجـد كل شيء على ما يرام، حينئذ توجه إلى بكر وهو الابن الأكبـر للملاّ وقـال له: «أعتقد أن والدك يعاني من صدمة، وهذا أمر لا عـلاقة لـه بالطب والأدوية». وفتح الملاّ فمه المغلق كما لـو أنه كـان ينتظر الجملة التي فاه بها الطبيب وقال: «لقد رأيته. كان هناك». قـال الطبيب مزهواً: «لقد انتهت هذه المشكلة أيضاً. المـلاّ يتكلم كما ترون». ثم بادره بابتسامة رقيقة: «من الذي رأيت؟». حدق الملاّ في وجهه ملياً قبل أن يقول: «رأيت كل شيء».

ثم نهض وارتـدى جاكيتتـه التي كانت معلقـة فـوق رأسـه وانتعل حذاءه وانسل إلى الخارج، وهو يردد مثل شريط مسجل المرة تلو الأخرى: «رأيت كل شيء»، فتبعه الرجـال الذين كـانوا معه في البيت حتى ضريح قره قول، حيث استقبله شرطة المخفر مرحبين. وفتح الحارس البـاب المغلق للمديـرية فـدخل، يتبعـه الحشد الذي كان يسير وراءه حيث اتجه إلى مكتبه، ملقياً نظرة متأملة على التابوت الذي كان يتصدر المكـان. اغرورقت عينـاه بالدموع وهو يعانق الجميع، مودعاً: «أريد أن أقضي ليلتي هنا، قريباً من قره قول». ثم تمدد في التابوت، طالبـاً من الرجـال أن يطفئوا النور في طريقهم، لأنه يـريد أن ينـام. انسحب الرجـال صامتين، فـأنصت إلى صوت خطـواتهم المبتعدة في الظـلام ثم أغلق عينيه وغفا.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

twitter @baghdad_library

نقل الملاّ زين العابدين القادري في التابوت نفسه الذي مات فيه إلى بيته حتى تبكيه أرملته وتودعه محلة جقور، التي لم تكن عواطف أبنائها لتظهر وتضطرم إلا عندما يرون الموت وقد اختطف واحداً منهم. وكان من عادة نساء محلة جقور أن يندبن الميت ثلاثة أيام، يلتهمن خلالها الكثير من فطائر الحلوى المصنوعة من التمر، والتي كان أهل الميت يوزعونها حتى على الغرباء الذين يمرون صدفة من أمام البيت، معتقدين أن الحلوى تترك آخر ذكرى طيبة عن الميت في أفئدة الناس. وقد جاءت منذ اليوم الأول لإعلان موت الملاّ نادبة عدادة من محلة شاطرلو، ذاع صيتها في المدينة كلها لبراعتها في ابتكار المراثي، التي كانت تجعل أقسى القلوب تنفطر حزناً وعيون النساء تمتلئ دموعاً على الموتى الذين كانت تنسب إليهم، حقاً أو باطلاً، الفضائل كلها. ولكن براعتها كانت تكمن في تصوير المشاهد التي تبتكرها مخيلتها. ورغم أن هذه النادبة ما رأت الملاّ قط في حياتها، فإنها عرفت كل شيء عنه من نساء المحلة وأرملته التي أعطتها عشرة دنانير، قائلة لها: «أريدك أن تجعلي المدينة كلها تبكي عليه». فأخرجت النادبة من كيس كانت تحمل فيه عدة عملها، مكبر صوت، قامت بنصبه بنفسها أمام الباب

وبـدأت تنحب وتلطم وهي تعدد فضـائل المـلاّ، بإيقـاع رتيب، جعـل النسـاء اللـواتي كن يمـلأن فنـاء البيت يعـولن ويلطمن ويمزقن ثيابهن كاشفات صدورهن، وممرغات رؤوسهن بالتراب.

واصطف رجـال محلة جقـور في الشـارع أمـام بيت المـلاّ، وراحوا يصغون إلى المدائح التي كانت النادبـة العدادة تكيلهـا للملاّ الراحل، حتى شعر الكثيرون منهم بوخـز الضمير لأنهم لم يقدروا الملاّ في حياته كما يليق به. كانت العادة تقضي أن يغسل الميت في الجامع ثم يصلى عليه ويشيـع ويدفن في اليـوم نفسه. ولكن الملاّ زين العابدين القادري لم يكن واحـداً مثل الآخـرين الذين يموتون كل يوم، فقد قال ابنه بكـر للرجـال الذين كـانوا يريدون تشييعه في اليوم نفسه: «لا تنسوا أنه مدير عام. لا بـد أن تأتي الحكومة إذا ما تنـاهى إلى سمعها الخبـر. ومن يدري فقد يأتي الملك نفسه. لا تنسوا أنه كـان يعرفـه شخصياً، ومن حق أبناء كركوك الذين أحبوه أن يلقوا نظرة أخيرة على جثمانه الطاهر». واقترح عباس بهلـوان ومحمود العـربي اللذان كـانا يشعران بجميل الملاّ زين العابدين القادري عليهما، أن يوضـع المـلاّ وهو في تـابوتـه داخل صنـدوق زجاجي مـدة ثلاثـة أيام ويعرض على سكان كركوك وزوار ضريح قـره قول القـادمين من العالم كله، ليتباركوا بـرؤية جثمـانه المسجى. وقـال الرجـلان اللذان كانا يحظيان بتقـدير كبـير في محلة جقـور، باعتبـارهما حـاميين لأبنـائها ضـد المعتدين: «صحيـح أن الملاّ كـان بشراً مثلنا، إلا أنه اختير ليكون سادننا لضريح قره قول وخليفته فـوق الأرض. ومن ينسى أنـه كانت للمـلاّ نفسه معجـزاته. تـذكـروا معجزة الطوفان التي شهدتها كركوك بعد قحط طـويل، عنـدما قاد الملاّ مسيرة محلة جقور إلى سهل المصلى، متضرعاً إلى اللـه

twitter @baghdad_library

أن يسقط أمطاره فوق المدينة، فامتلأت السمـاء بالغيـوم، حتى قبل أن يكمل دعاءه، وكان ذلك المطر الذي لم تشهد لـه مدينـة كركوك مثيلاً منذ طوفان نوح. هذه الإشـارات التي صدرت عن الرجلين جعلت الناس يتأملون مرة أخرى في حياة الرجل الـذي فقدوه وراحوا يعصرون ذاكرتهم لاستقطار كل ما قـاله المـلاّ أو أوحى به في حياته. تذكروا خطبة المطر وخطبة مقاومة الانكليـز وخطبة التابوت. تذكروا حكمته في أن يتخـذ من التابـوت مكتباً لـه، على عكس رجـال الدولـة الآخرين الـذين يـديـرون أمـور رعـاياهم وهم يجلسـون على كـراس دوارة. تذكـروا حكمتـه في اتخاذه من عربة الذهب مطيـة، يقصد بهـا المقهى. وقال ابنـه بكر: «أعتقد أنه مات، لأنه رأى الغيب ينكشف أمامه». وتذكـر رجال جقور أن الملاّ ظل يردد قبل مـوته: «لقـد رأيت كل شيء». وتأكدوا أن حجاب الغيب الذي رفـع من أمام عينيـه هو الـذي جعل لسانه ينعقد وعينيه تزوغان من الرهبة. مات الـرجل حتى من دون مرض، مصغياً إلى النداء القادم من الأبدية.

وضع التابوت الذي يضم جثمان الملاّ داخـل صندوق مغلق من الزجاج الشفاف مليء بقوالب ثلج جيء بها من معمل الثلج الـذي كانت عـائلته تملكـه، حتى لا تتعفن الجثـة أو تتعـرض للفساد فوق دكة عاليـة بنيت في الشارع أمـام مسجده، وأحيط الصنـدوق الزجـاجي بعشرات المصابيـح الملونـة التي تشتعـل وتنطفىء، بعد أن قام بعض العمال بسحب الكهربـاء من عمود كان يقع في زاوية الشارع. هذا الأمر الذي كان بدعة لم تألفها مدينة كركوك، اجتذب الألوف من الناس الذين جاؤوا ليتفرجوا على الملاّ الذي كان يبدو أشبه بالنائم، وقد غطي بالعلم العراقي ووضعت فوق صدره عمامته. لم يكن يبين من الملاّ في الحقيقـة

سوى وجهه الشاحب الطويل وعينيه الغائرتين اللتين كان يغطيهما حاجبان كثيفان متصلان. أما لحيته المتهدلة البيضاء فكانت قد مشطت وهذبت أطرافها بالمقص لتبدو أنيقة، وهو أمر ما اهتم به الملاّ كثيراً في حياته. كان الناس يأتون ويمرون من أمام الصندوق، ملقين عليه ما كانوا يسمونه النظرة الأخيرة. ولكن الكثيرين كانوا يستديرون عائدين ليلقوا عليه نظرة أخرى. وقد أسر ذلك الأطفال خاصة، حيث كانوا يمرون مقلدين الكبار الذين كانت الدموع تنهمر من عيونهم وهم يقفون أمام الصندوق. ومثلما يحدث دائماً اختلف علماء الدين المسلمون هذه المرة أيضاً على وضع الملاّ داخل صندوق زجاجي وعرضه على الناس. فقد رأى بعضهم أن الإسلام ينهى عن تحويل جثة المؤمن إلى فرجة للناس، كما لو أنه قرد في حديقة للحيوان، وأن أمراً مثل هذا لا بد وأن يقود إلى الضلال. وقال هؤلاء إن حدسهم قد صدق، عندما راح بعض الناس يدعي أن الملاّ غمز له بعينه وهو داخل تابوته أو ابتسم، بل إن النساء اللواتي ظللن يطفن حول الصندوق طيلة ليال ثلاث، لاطمات باكيات، ذكرن أنهن رأين الملاّ في فجر الليلة الثانية يرفع رأسه ويعتدل قليلاً في جلسته ثم يخلد إلى النوم. ولكن أحداً لم يصدق بالطبع ما روته هاته النساء اللواتي كن ناقصات عقل ودين. وقد اشتد غضب العلماء عندما سمعوا أن محلة جقور تفكر بتحنيط جثمان الملاّ ووضعه داخل صندوق زجاجي حتى تتفرج عليه الأجيال القادمة أيضاً، مركزين على أن ذلك سوف يجعل من الملاّ صنماً، يعبده الناس، وهو ما لا يرضى به الله أو رسوله. ومما زاد الطين بلة هو أن الشيوعيين راحوا يشيعون بين الناس أن الملاّ يمثل رمزاً وطنياً في مكافحة الاستعمار الانكليزي وأن تحنيطه يكرس هذا الرمز ويؤصله في

twitter @baghdad_library

قلوب الناس، مؤكدين على أن تحنيط القادة عمل حضاري، لا بد وأن يشيع في العالم كله، وأن الروس كانوا أول من طبق هذه الفكرة التي اقتبسوها من الفراعنة عندما قام العمال والفلاحون بتحنيط كل من القائدين العظيمين لينين وستالين، وهو تقليد سوف يشمل جميع القادة الآخرين بالتأكيد. أصدر محامي أرملة قره قول بياناً ضد فكرة التحنيط، غمز فيه من قناة الملاّ زين العابدين القادري، مشيراً إلى أن ثمة دعوى مرفوعة ضده في المحاكم بتهمة السطو على أموال لا تخصه. والتجأ عدد من أعضاء جميعة «الحياة الآخرة»، حتى من دون أن يتيقنوا تماماً من الأمر، إلى أحد الجوامع، معلنين الإضراب عن الطعام حتى الموت إذا لم تتدخل الحكومة وتوقف عملية التحنيط.

هذه الضجة المفتعلة التي لم تكن قائمة على أساس والتي أججتها إشاعات ربما كانت وراءها أرملة قره قول، جعلت عائلة الملاّ تصدر بياناً، رثت فيه الملاّ زين العابدين القادري، معلنة عن إقامة حفل خطابي وشعري، يسبق تشييع جنازة الملاّ الذي سيدفن في صحن مديرية قره قول. وخصص المتصرف جائزة من مئة دينار، تمنح لأفضل قصيدة تلقى في الحفل، فجاء الشعراء من كل مكان في العراق وسوريا ومصر والسودان، وهي بلدان اشتهر شعراؤها بنظم قصائد المديح، حاملين في جيوبهم قصائدهم المطولة. ورغم أن الملاّ زين العابدين القادري دفن في اليوم الثالث من عرضه في الصندوق الزجاجي بعد أن ذاب الثلج وأخذت جثته تتعفن وتفوح رائحتها، فإن الحفل استمر سبعة أيام أخرى حتى يلقي الشعراء مراثيهم التي نشرت الصحف مقتطفات منها مع صور لضيوف الشرف

الجالسين في الصف الأول والذين كان المتصرف يتوسطهم دائماً. وحدث ما يشبه الضجة عندما قررت لجنة التحكيم التي كانت مؤلفة من المتصرف ومدير البلدية ومدير الأمن ومدير الأوقاف، معتمدة في حكمها على كثرة التصفيق الذي لقيته كل قصيدة، من دون إغفال التوزيع الجغرافي للبلدان التي كان الشعراء قد جاؤوا منها، منح الجائزة بالتساوي لأربعة شعراء هم عبد التائب عبد الغائب وسلمان الصافن الذي كان يلقب بشاعر الأمة، نظراً لعمله في معمل سجائر الأمة في العطيفية في بغداد وأيمن سلطان الأيمن من سوريا وطبيب الأمراض العصبية المصري جرجيس رامي. فقد رفض الشعراء الفائزون أنفسهم هذه القسمة الضيزى وأرسل كل منهم برقية إلى المتصرف يطلب فيها تدخله العادل حتى تكون الجائزة كلها من نصيبه هو وحده. ونشبت معارك كلامية بين الشعراء الفائزين وغير الفائزين، حيث ادعى بعضهم أن عبد التائب عبد الغائب من عبدة الشيطان ولا يحق له أساساً رثاء مؤمن في مثل مركز الملّا زين العابدين القادري، واتهم آخرون الصافن بكونه شيوعياً حاقداً، أصيب بالخرف من كثرة مكوثه في السجن. وقال بعض الشعراء الذين لم يحصلوا على الجائزة إن الشاعر السوري الفائز باطني، اعتاد نظم القصائد في مدح كل من هب ودب والانتقال من الأحمر إلى الأخضر إلى الأسود، سعياً وراء الرزق. ونفى الشاعر المصري أحمد رامي الذي لم يشارك في الحفل أن تكون له أي صلة قربى بالشاعر الفائز جرجيس رامي، مؤكداً بلهجته المصرية: «ده طبيب بهلوان وحق ثومة». وعند ذاك فقط انتبهت لجنة التحكيم إلى خطئها الذي لم تعد قادرة على التراجع عنه، فقد وضعت اسم جرجيس رامي بين الفائزين، متوهمة أنه الشاعر أحمد رامي الذي كان المتصرف

twitter @baghdad_library

نفسه يسهر في ليلة أول جمعة من كل شهر، واضعاً أمامه قنينة العرق ويذوب في صوت أم كلثوم، وهي تغني واحدة من روائعه. ولم تنته ضجة الشعراء إلا بعد تدخل خضر موسى الذي تبرع بثلاثمئة دينار أخرى، فحصل كل واحد من الشعراء الأربعة على المئة دينار التي جاء من أجلها إلى كركوك.

هذا الأمر أقلق الصبي برهان عبد الله الذي كان يعتقد أن الشعراء قوم مهذبون، فإذا به يراهم على حقيقتهم: متسولون يمدحون حتى الشيطان نفسه من أجل حفنة من الدنانير ومهرجون يحركون أيديهم وأرجلهم فوق كل منصة صارخين بأنفه الكلام. وقال خضر موسى لابن أخته برهان عبد الله، مداعباً: «هل تريد أن تكون شاعراً بعد كل الذي رأيته من الشعراء يا برهان؟». رد برهان عبد الله بشيء من الاعتداد بالنفس: «هناك فارق دائماً بين الشاعر والشحاذ يا خالي. وهؤلاء جميعاً شحاذون، لا شعراء». ولكن ما قاله الصبي كان تعالياً فارغاً، فقد جعلته الصدمة يهجر كتابة الشعر أعواماً طويلة، حيث أسرته فكرة كان قد استوحاها من قراءة الكتاب المقدس الذي كان قد حصل على نسخة منه. كان برهان عبد الله قد وجد أن حياة الملاّ تتضمن كثيراً من المواعظ التي تصلح أن تروى، لتكون جزءاً من التاريخ المقبل للبشرية. ولذلك أغمض عينيه وراح يتصور الملاّ مسيحاً آخر يزرع سنبلة مستقيمة، وقد امتزجت في رأسه الكلمات حتى ما عاد يميز بين الماضي والحاضر «كما هو منقوش في الأولياء ها أنا أنزل أمام عينك إمامي الذي يعبّد طريقك وراءك. صوت صارخ في البرية ازرعوا سنبلة مستقيمة. كان الملاّ يسير بين الأمصار. وخرج إليه جميع أهل كورة الإسلامية وأهل جقور واغتسلوا معه في

نهر خاصه صو، من خطاياهم. وكان الملاّ يلبس وبر الابل ومنطقة من جلد على حقويه ويأكل جراداً وعسلاً بريـاً. وللوقت رأى الجبال قد انشقت والروح مثل حمامة، نازلاً عليه، فجفل وصدع قلبه وللوقت أخذه الروح إلى البرية. وكان هناك في البرية أربعين يوماً يجرب من الشيطان. وكان مع الوحوش. وصارت الملائكة تطعمه المن والسلوى. وفيما هو يلقي شبكة في الماء قال للصيادين الذين اجتمعوا حوله: «هلموا ورائي فأجعلكم تصيرون صيادي الناس». هذا الاستهلال الانجيلي لقصة حياة الملاّ أقلقت برهان عبد الله أكثر مما منحته الثقة بقدرته على اكتشاف الرسالة التي حملها الملاّ زين العابدين القادري إلى محلة جقور، حيث تساءل مع نفسه: «ولكن ما الذي رآه حقاً؟». كان من الصعب عليه أن يعرف الحقيقة، فقد ذهب السر مع الملاّ إلى قبره. ولكنه كان متأكداً من أن الملاّ ما كان ليموت لو لم ير ما لا ينبغي له أن يراه «أهذا هو قدر الإنسان إذن؟ وبلغ به الحزن مداه. فقد كان يريد هو الآخر أن يرى ما لا يرى، أن يكشف سر الأسرار، ولكن دونما استعداد للموت، ذاك الذي يشبه النوم، سوى أن المرء لا يستيقظ منه أبداً.

وخالط الشك قلب برهان عبد الله «هل يستحق الملاّ أن أدون سيرته؟ أن أجعل منه أمثولة تروى؟ لا يمكن أن أجعل منه ملاكاً، هو الذي كان يقدس النقود». وابتسم مع نفسه «لقد بدأت أخرف أنا الآخر مثل الملاّ. لقد رأى الملاّ كل شيء. ولكن ما الذي رآه حقاً؟ ربما رأى ملائكة تهبط من السماء أو شياطين ملونة، بذيول ولحى ترقص أمام الجحيم. ربما لم ير شيئاً فابتلعه الفراغ». وأغمض عينيه فرأى ملائكته هو،

twitter @baghdad_library

الملائكة الثلاثة، الشيوخ الذين يحملـون على ظهـورهم أكياسـاً ممتلئة بالربيع «ربما كان علي أن أكتب عن ملائكتي انا، هؤلاء الرجال القادمين من الأبدية والمتجهين إلى محلة جقـور البعيدة، جقـور التي ربما لن يصلـوها أبـداً». وداخل الشـك قلبه مـرة أخرى، «ربما ليسوا ملائكة. ربما كانوا شيوخاً متعبين، قادمين من مدينة أخرى». وتساءل: «إذا كانت لله رسـالته فهـل يمتلك الشيطان رسالة أيضـاً؟»، ثم أجـاب: «كلا، كـلا. ما من رسـالة للشيطان. الرسالة الوحيدة الممكنة إلى البشر هي رسالـة الله». ولكنه ما كان واثقاً من الأمـر في الحقيقة، حيث تنهـدم الحدود بين الواقع والوهـم دائماً.

كان برهان عبد اللـه يقف في الصحراء، محـدقاً في مـلائكته الثلاثة التي اختفت وراء الأفق عندما رأى بناية بيضـاء، مغطاة بالمرايا، تنتصب منفردة في الرمل مثل قلعة أسطورية، طالما حلم بها في ليالي وحدته. ظـل واقفاً بعض الـوقت، لا يعرف إن كـان ينبغي عليه أن يتقدم إلى الأمام أم يتراجع إلى الخلف. وتراءى له أنه يسمع صوتاً، قادماً من أعماق الكـون يناديـه «تقدم يـا بـرهان ولا تـخف». كـان شيء ما يجتـذبه إلى الأمـام، حتى بلغ باباً، علقت على جانب منه لوحة من البرونز، كتبت عليها عبـارة لم يفهم معناها تمـاماً «المكتب المـركزي لإدارة الكـون». توقف أمام الباب الذي كان مصنـوعاً من الـذهب المزين بـالجواهـر، خائفاً ومرتبكاً، ولكن الصوت ناداه مزة أخرى «اقرع الباب ولا تـخف». فقرع الباب ثلاث مرات قبـل أن ينفتح، حيث استقبلـه ثلاثة ملائكة، أثارت دهشته بـأجنحتها البيضـاء القصيرة التي كانت ترفرف بها، متنقلة من مكان إلى آخر.

وسـأله أحد الملائكة: «ما الذي جاء بك إلى هنا يا برهـان؟».

تلعثم برهان عبد الله قليلاً قبل أن يقول: «جئت أبحث عن الله، ليقول لي معنى كل شيء: لماذا يوجد الإنسان إذا كان محكوماً بالموت؟ لماذا يفسد الزمن كل شيء؟ لماذا يخلق الله كائناً يتحداه؟ إن كل ذلك يبدو لي أشبه ما يكون بلعبة لا هدف لها». ابتسم الملاك: «لا ينبغي لك أن تقلق كثيراً، إذ ما أنت سوى بطل في رواية مختلفة، يكتبها مؤلف يعاني من الضجر». ثم وضع يده على كتف برهان عبد الله وقال له بمودة: «ربما تحدثنا مع المؤلف ليقول لك معنى قصتك التي قد لا تمتلك أي معنى». وكتم برهان عبد الله غيظه: «جئت أسأل الله عن المعنى فإذا بك تحيلني إلى مؤلف قد لا يكون أكثر يقيناً مني أو منك». ورد الملاك: «إذا كنت لا تثق بمؤلف قصتك فربما تثق فينا. سوف نهبط معك إلى محلة جقور، لنعلمك ما لا تعلم. ولكن حذار من صدمة الحقيقة التي قد تتجلى لك ذات يوم». وقاده الملاك العجوز إلى باب فتحه، فإذا بهم جميعاً في محلة جقور.

كان برهان عبد الله قد نسي القصة كلها، مثل حلم، ينساه المرء في اليوم التالي. استيقظ ذات صباح فوجد ثلاثة غرباء يخرجون من بيت ما سكنه أحد قط من قبل، حاملين على أكتافهم المعاول، متجهين إلى نهر خاصه صو، قاصدين مجاريه البعيدة عن المدينة. هؤلاء الغرباء الثلاثة أثاروا استغراب سكان محلة جقور بملابسهم الغريبة التي كانوا يرتدونها حتى لكأنهم كائنات قادمة من عالم آخر، لا علاقة له بعالمهم. وقد تبعهم الأطفال، خائفين الاقتراب منهم، إذ ظلوا يرصدونهم عن بعد، وهم يشقون قنوات صغيرة بين الحصى الملونة لنهر خاصه صو. وعندما سئم الأطفال من الانتظار تقدم أحدهم وسأل بشيء من الخوف: «لماذا تحفرون النهر؟». رفع أحدهم، وهو

twitter @baghdad_library

رجل عجوز، ربما كان في السبعين من عمره، رأسه وقال مبتسماً: «إننا نبحث عن الذهب». ظل الأطفال واقفين قليلاً، ثم قفلوا عائدين، ليبلغوا آباءهم وأمهاتهم بما قاله لهم الرجل العجوز. غرقت محلة جقور كلها في الضحك، ساخرة من خفة عقل هؤلاء الغرباء. فقد يجد المرء أي شيء في خاصه صو سوى الذهب. ومع ذلك فإن الأمر أثار ريبة الكثيرين، حتى إذا لم يجرؤوا على الجهر به. فإذا كان هؤلاء الغرباء قد ذهبوا ينقبون عن الذهب في خاصه صو، فلا بد أنهم متأكدون من وجوده هناك. وإلا ما بددوا وقتهم في الركض وراء الوهم. وقد تحول الأمر إلى يقين عندما أشيع في محلة جقور أن هؤلاء الغرباء يتبعون الشيطان، ولا بد أنه هو الذي دلهم على وجود الذهب في نهر خاصة صو. وفي اليوم التالي أرسل بعض الآباء أبناءهم إلى نهر خاصه صو ليبحثوا هم أيضاً عن الذهب. تكرر الأمر مرتين أو ثلاث مرات دون أن يعثروا على أي شيء، فأصابهم الملل وعادوا إلى بيوتهم.

في الحقيقة إن وجود غرباء يعبدون الشيطان في محلة جقور أثار الحيرة والخوف في قلوب الناس، حتى أنهم ظلوا يتساءلون إن كان ذلك ممكناً. كيف يمكن لمخلوق أن يعبد الشيطان ما دام الله موجوداً؟ خطرت في ذهن بعض الشبان المندفعين فكرة ضرب هؤلاء الغرباء أو حتى إضرام النار في البيت الذي يقيمون فيه، إلا أن شيوخ المحلة نهوهم عن ذلك، فقد كان الأمر يتعلق بحق الجيرة الذي كانت محلة جقور تعتبره مقدساً. في واقع الحال أن الأمر لم يكن واضحاً تماماً في نظر الناس الذين ما كانوا قد رأوا عبدة شيطان في مدينة كركوك. وقد اختلف الناس في أمر هؤلاء الرجال الغرباء الذين قيل إنهم قد

نزحوا من جبل سنجار. فمنهم من اعتبرهم مسلمين يتبعون مذهباً خاصاً بهم، ومنهم من قال إنهم وثنيون، لم تصلهم رسالة الإسلام بعد. ولكن أهل العلم قالوا إنهم مجوس جاؤوا من إيران قبل ألف عام، فاعتنقوا الإسلام الذي حرفوه ليناسب عقيدتهم القديمة. ويبدو أن ذاك الذي يسميه الناس الشيطان كان قد طمع في هؤلاء القوم السذج منذ اللحظة التي غادروا فيها مدينة يزدم في بلاد فارس، حيث قادهم عبر الوديان والأنهار والجبال الوعرة مجتازاً بهم القبائل الكردية المتوحشة التي كانت تقطن الكهوف حتى جبل سنجار الذي احتل مداخله محاربوهم الشبان، الذين نصبوا راياتهم الحمر فوق القمم. ولم يكن هذا الشيطان الذي أحبهم وجعل من نفسه دليلاً لهم سوى طاؤوس ملك، الذي اتضح بعد أعوام طويلة من ذلك أنه كان رئيس الملائكة نفسه، والذي اعترض على أمر الله عندما طلب منه أن يسجد لآدم. وهنا تبدأ المشكلة. ففي حين أن المسلمين يقولون إن تمرد رئيس الملائكة أغضب الله فمسخه شيطاناً رجيماً، يقول هؤلاء إن الله اكتشف في تمرده حكمة عالية، مما جعله يرفع من قيمته. فقد رفض طاؤوس ملك السجود لآدم لاعتبارات مبدئية، أولاً لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من تراب، وثانياً لأنه لا يَجوز السجود لمخلوق غير الله الذي كان هو نفسه قد أمر بذلك.

هذا الرأي أثار بالفعل مخيلة أبناء محلة جقور الذين دخلوا في مناقشات حامية مع هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا ليقيموا في مدينة كركوك، فقد كان في رأيهم الكثير من الحق الذي يصعب رده. وقد انقسمت مدينة كركوك كالعادة إلى طائفتين: طائفة تؤيد موقف الله وأخرى تؤيد موقف رئيس الملائكة. فقد قال

twitter @baghdad_library

الذين أيدوا موقف الله إن ثمة حكمة دائماً في ما يقوله الله أو يفعله، حتى إذا بدت هذه الحكمة غامضة، وغير مدركة بالنسبة للكثير من البشر. وربما أراد الله بطلبه الغريب ذاك أن يضفي على آدم قداسة خاصة وأن يفضله على جميع الكائنات الأخرى. أما الذين عارضوا هذا الموقف، مؤيدين موقف رئيس الملائكة، فقد اعترفوا بشجاعة أوصلتهم إلى الكفر أن الله قد ناقض نفسه عندما طلب إلى ملائكته أن تسجد لآدم. فإذا كان بعض الملائكة قد فعل ذلك، فذلك إما لخفة في عقله أو تملقاً لله وخوفاً من غضبه وطمعاً في المزيد من الوجاهة. وقال المعارضون إن رئيس الملائكة رفض فكرة أن يناقض الله نفسه، دفاعاً عن الحقيقة. وهذا أمر يستحق الاحترام أكثر من موقف الملائكة الأمعات.

هؤلاء الغرباء رفضوا منذ البداية أن يعتبروا أنفسهم أتباعاً للشيطان الذي كانوا يسمونه الشيطان، لأنهم ما كانوا يجرؤون على لفظ حرف الشين الذي قالوا إنه يذكر الشيطان بهم. بل إنهم ذهبوا إلى القول أن الشيطان كائن لم يخلقه الله وإنما خرج من العدم ليقاتل ويضلل أبناء الله، إذ لا يعقل أن يكون الله الممتلىء حباً لأبنائه قد خلق كائناً شريراً مثل الشيطان، لا رسالة له في الحياة سوى اقتياد البشر إلى الهاوية. وفي ذات مرة قال الرجل العجوز لبرهان عبد الله: «أعرف أنك سترى الشيطان ذات يوم. إذ ذاك فقط ستعرف الحقيقة المرة يا بني. أما نحن فلسنا سوى ملائكة فقراء مثل جميع الملائكة الأخرى فوق هذه الأرض الآيلة للفناء».

كان برهان عبد الله الذي انحاز منذ البداية إلى موقف رئيس الملائكة، قد عقد العزم على مصادقة هؤلاء الغرباء الذين

كانوا يقولون ما لا يقوله الآخرون. وقد وثقوا به حتى أنهم راحوا يأخذونه معهم كل يوم للتنقيب عن الذهب في نهر خاصه صو، ثم أطلعوه على المصحف الأسود الذي كان الشيخ يزيد قد ألفه بوحي من طاؤوس ملك، حيث أثارت مخيلته النصوص التي تروي ظهور الخليقة ونشوء العناصر الأربعة المقدسة: النار، التراب، الهواء والماء. وأخيراً أدخلوه إلى بيتهم، بعد أن استبدل قميصه الأزرق بقميص أبيض وكف عن التهام رؤوس الخس التي يقيم الشيطان بين أوراقها. بعد العودة من نهر خاصه صو ذات مساء قال العجوز الذي كان يلقب نفسه بالشيخ يزيد شيئاً ما لولديه زيفر وبيجوه بلغة كان يجهلها الصبي برهان عبد الله ثم التفت إليه بمودة: «ما من أحد في محلة جقور دخل بيتنا حتى الآن. ستكون الأول الذي يفعل ذلك». اقترب زيفر من الباب فقرعه. مرت لحظات قبل أن تفتح الباب امرأة عجوز كانت ترتدي ملابس حمراء، مزركشة بخيوط فضية. ورأى برهان عبد الله في فناء الدار حفرة كبيرة، تتقد فيها النيران، وقد فرش ما حولها بالسجاد الفارسي، فجلس قريباً من النار التي كانت تبدد الظلام، ملقية بظلالها فوق الجدران، وأخرج الشيخ يزيد من صندوق خشبي مركون في زاوية من فناء البيت تمثالاً من الذهب، يشبه الديك وضعه أمام النار المتقدة، حيث راح الجميع يرتلون بصوت رتيب، هازين رؤوسهم يمنة ويسرة، دعاء ما كان برهان عبد الله قد سمع مثله من قبل:

يزيد هو السلطان بعينه
سمي بألف اسم واسم
ولكن اسمه الأعظم هو الله.

*

twitter @baghdad_library

السلطان يزيد يدرك
ما يحويه البحر من مياه
والدنيا أمامه
خطوة واحدة
يقطعها في لحظة(*).

وجر زيفر دفا صغيراً، راح ينقر فيه بصوت خافت على إيقاع الدعاء الذي كانوا يرددونه. وشيئاً فشيئاً غرق برهان عبد الله هو الآخر في حلم بعيد، ما كان قادراً حتى على الإمساك به، حلم يفلت في الزمن ويغيب في ألسنة النار المتقدة. وفجأة انتبه إلى ملائكة صغيرة بحجم الكف، ملائكة بأجنحة يغطي جسمها زغب ناعم في لون الفضة تخرج من أحد الأقفاص وترقص وتطوف حول تمثال الديك الذهبي. شعر برهان عبد الله فجأة بالرعب حتى أنه فكر بالهرب ومغادرة البيت، إلا أن العجوز انتبه إلى خوف الصبي فأمسك بيده، كما لو أنه يريد أن يطمئنه إلى أن كل شيء على ما يرام. وقد بدا كل شيء بالفعل على ما يرام، إذ ما كاد الدعاء المرتل على نقر الدف يتوقف، حتى وقفت الملائكة الصغيرة بخشوع أمام تمثال طاؤوس ملك الذي كان يشبه الديك، ثم هتفت باسمه بصوت واحد: «ليدم مجد السلطان الأعظم في السماء وفوق الأرض». ثم استدارت وحيت الجالسين واحداً بعد الآخر، كلاً باسمه، حتى أن برهان عبد الله شعر بشيء من الغبطة وهو يرى الملائكة الصغيرة تحييه وتلفظ اسمه: «مرحباً بك يا برهان عبد

(*) أبيات من قصيدة دينية لليزيديين في جبل سنجار في شمال العراق: شيخ علي - حول اليزيدية، مجلة الثقافة الجديدة، العدد ٢٠٥، كانون الثاني ١٩٨٩.

الله في بيت الحقيقة». وفتح برهان عبد الله فمه بصعوبة: «إنها تعرف حتى اسمي». والتفت إلى الشيخ يزيد الذي كان يبتسم وهو يرتشف الشاي الذي كان موضوعاً أمامه وقال مستفسراً: «هل أنت الذي أخبرتها باسمي؟». هز الشيخ يزيد رأسه وقال: «لم أخبرها شيئاً. إنها تعرف كل شيء. اسأل ما تشاء وسوف تتأكد من ذلك. إنها ترى حتى الغيب». لم يعرف برهان عبد الله ما يمكن أن يسألها إياه فصمت لحظة ثم خطر شيء ما في باله: «من هو أفضل لاعب كرة قدم في كركوك؟». قالت الملائكة الصغيرة بصوت موحد يشبه الكورس: «ليس هناك لاعب أفضل واحد وإنما لاعبان. إنهما الأخوان وداد وسداد». فهتف الصبي برهان عبد الله وقد أثاره الجواب: «يا إلهي، إنها على حق. وداد وسداد أفضل لاعبين حقاً في المدينة». ثم تجرأ فألقى سؤالاً آخر: «غداً يلتقي فريق كركوك فريق مدينة أربيل على ملعب الشركة. هل يمكن أن أعرف نتيجة هذه المباراة المهمة؟». رددت المخلوقات الصغيرة مرة أخرى بصوت هادىء ورتيب، كما لو أنها تقرأ من كتاب موضوع أمامها، كتاب مفتوح يتضمن كل ما حدث في الماضي وما يمكن أن يحدث في المستقبل: «بالطبع يمكنك أن تعرف النتيجة يا برهان. سوف يسجل فريق كركوك اثني عشر هدفاً مقابل هدف واحد لأربيل». وانتفض برهان عبد الله، كما لو أن سلكاً من الكهرباء قد مسه: «يا إلهي، سوف يكون ذلك حدثاً لا ينسى». وبالفعل فإن هذه المباراة، التي شاهدها برهان عبد الله في اليوم التالي والتي كان يعرف نتيجتها مسبقاً تحولت إلى لعبة لم تشهد لها المدينة مثيلاً، حيث سجل سداد ستة أهداف وشقيقه وداد خمسة أهداف. أما الهدف الثاني عشر فقد سجله فريق أربيل ضد نفسه. وقد أضحك ذلك الجمهور كثيراً، لأن فريق أربيل كان

twitter @baghdad_library

قد ادعى قبل ذلك أنه سوف يمسح الأرض بفريق كركوك الذي تقوم كل قوته على الأخوين وداد وسداد اللذين كان الانكليز قد دربوهما على اللعب. ولا شك أن هذا الادعاء تضمن بعض الغمز واللمز، مشككاً بوطنية أفضل لاعبي كرة قدم، أنجبتهما مدينة كركوك على الإطلاق. كان يمكن للجمهور أن يتقبل هذه الإهانة على مضض، لو أن فريق أربيل أظهر مهارة تشفع له في تحديه وتباهيه وادعائه الكاذب. أما وأنه هزم بهذه الطريقة المنكرة فقد نزل المتفرجون إلى الساحة وأشبعوهم ضرباً، شاتمين حتى متصرفهم الذي كان قد شاهد اللعبة من مقصورة خاصة، شاطره الجلوس فيها متصرف كركوك الذي نسي نفسه أكثر من مرة فراح يهتف لفريق مدينته. كاد الجمهور يفتك بلاعبي فريق أربيل لولا تدخل سداد ووداد اللذين قالا للمهاجمين: «هذا يكفي. إن هزيمتهم هي أفضل عقاب لهم». وجاءت الشرطة فوضعتهم في حافلة، نقلتهم إلى دار الضيافة، حيث كان متصرف أربيل ينتظرهم أمام الباب. ما كادوا يدخلون الحديقة حتى أمر المتصرف بإغلاق الباب وراح يحدق فيهم الواحد بعد الآخر، من دون أن يقول شيئاً. وأخيراً فتح فمه وقال لهم، كما لو أنه يقرر حقيقة اكتشفها لتوه: «ما كنت أنتظر هذا منكم. لقد أهنتم شرفي وشرف مدينتكم»، فرد المدرب الذي كان معلماً للرياضة: «لقد بذلنا جهدنا. الأمر يتعلق بالحظ». هذه الكلمات التي أراد بها المدرب تبرير هزيمة فريقه أمام متصرف أربيل الذي كان العار يملأ قلبه، أغاظت المتصرف أكثر مما مضى فرفع يده وصفع المدرب الذي تراجع إلى الوراء وهو يردد بتلقائيه: «ما الذي فعلته يا حضرة المتصرف؟». فناداه، مؤشراً إليه بيده: «هيا تقدم». أطاع المدرب، وهو يرتجف من الرعب، الأمر الصادر إليه فتقدم خطوتين أو ثلاثاً

إلى الأمـام، فصفعه المتصرف مـرة أخرى، ممـا جعـل المـدرب يتراجع إلى الوراء، فلحق به المتصرف وأراد أن يـركله في قفـاه إلا أن رجله غطست في إحدى سواقي الحديقـة فانـزلق وسقط على ظهره في الطين. وعند ذاك أمر المتصرف حراسه الذين هبوا لمساعدته على النهوض بتأديب هؤلاء الذين ثلموا شرف مدينته. كان الشرطيون الذين شاهدوا هم أيضاً هـذه المباراة ينتظـرون بفارغ الصبر مثل هذا الطلب، إذ هجموا على اللاعبين بـالعصي التي كانوا يحملونها في أيديهم حتى أدموهم، مطارديـنهم داخل الحديقة التي سحقت ورودها تحت الأقدام. وانبجس الـدم من رأس المدّرب الذي تـولى ضربه عـريف كردي كـان يتدرب عـلى الملاكمة. ثم وضعوا الأغلال في أيـديهم واقتادوهم إلى شـاحنة نقلتهم إلى أربيـل، حيث اودعـوا السجن، بتهمـة الإسـاءة إلى سمعـة المدينـة. هذه الحـادثـة التي كـانت الأولى من نـوعهـا حينـذاك تكررت كثيـراً في الأعوام التـالية، وبخـاصـة في ظـل الجمهـوريـة التي أعقبت الحكم الملكي والتي كـان غـالبـاً مـا يقودها رؤساء يتفجرون وطنية ويعتبرون خسـارة فريقهم لكـرة القدم مساً متعمداً وتشكيكاً بنجاح سياساتهم القومية. فإذا ما عاد فريقهم بالكأس فإن سيارة جديدة كـانت تنتظر كـل لاعب أمام باب المطـار، هديـة من الحكومـة التي ما كـانت لتبخل في تكريم أبطالها. وعندما جمع اللاعبون مـا يكفي من السيارات، حتى أن بعضهم افتتـح مكاتب للنقـل وسيارات الأجـرة قررت الحكومة إهداءهم قصراً عن كل مباراة يفـوزون بها، وبـالذات إذا مـا فازوا عـلى فريق إحـدى الدول العـربيـة المنـافسـة أو المعـادية. ولكن كـان للخسارة ثمنهـا أيضاً. فقـد كـان رجـال الشرطة السرية، ومعظمهم من الملاكمين والمصارعين والمجـرمين التـائبين يصعـدون إلى الطائـرة حال هبـوطها في مطـار بغداد

twitter @baghdad_library

الـدولي ويلقون بـاللاعبـين من باب الطـوارىء فوق الـرصيف ويشبعـونهم ضربـاً وركـلاً، وسط صرخـات هـواة كـرة القــدم المطالبين بكسر عظامهم. وكان الكثيرون منهم لا يدخلون المعتقل إلا وقد غطت الدماء وجوههم، حيث كانوا يضربون مرة أخـرى من قبل المحجوزين الذين ما كـانوا أقـل وطنية من سجـانيهم. كانوا يبقـون في المعتقل أسبـوعاً أو أسبـوعين أو حتى شهـراً، حيث لا يطلق سراحهم إلا إذا أمر بذلـك الرئيس نفســه والذي كان غالباً ما ينشغل بأمور أكثر أهميـة، ناسيـاً إياهم، من دون أن يجرؤ أحد على تذكيره بالعفـو عن هؤلاء الذين طـالتهم اليد القـوية للعـدالة. وفي آخـر الأمر كـان وزير الشبـاب ومسؤول اللجنة الأولمبية يلجأن إلى الخياطة التي تصنع الثيـاب لزوجـة الرئيس وبناتــه، أو الطباخـة الخاصــة التي كانت تجيـد طهي المحشي والملفـوف أو حتى إلى المرافق الأقـرب إلى قلب الرئيس والذي كان يحمل لقب رئيس الذواقة، وهو رجل ما كان الرئيس يأكل من صحن لم يتذوقه هو من قبله. كان أحد هؤلاء يتـدخل في الوقت المناسب فيذكر السيـدة الأولى التي كانت تعـاني من السمنة عادة أو حتى الـرئيس نفسه من خـلال كلمة عـابرة أو جملة تبدو غير مقصودة بـلاعبي الفريق الـوطني للعراق. هـذه الإشارة وحدهـا كانت كـافية ليـأمر الـرئيس بإطـلاق سراحهم ودعـوتهم إلى تناول الغـداء أو العشـاء معـه في بيتـه بحضـور زوجته وبناته، فقد كان حريصـاً على أن يظهـر حبه لهم مثلمـا كان حريصاً على إظهار الشدة في تـأديبهم بين الحـين والآخر، تماماً مثلما كان يفعل مع أولاده ومـع الشعب كله. وكـان ينسى أحيـاناً أنــه قد أطلق سراحهم فيـأمر بـإطلاق سراحهم ثـانية، مسبباً الحرج لمدير الشرطة الذي كان يضطر إلى اعتقـالهم لمدة ساعة أو ساعتين قبل إطلاق سراحهم وأخذهم إلى القصر لتناول

العشاء مع الرئيس.

هذه اللعبة الجميلة التي خاضها فريق كركوك لكرة القدم سحرت الصبي برهان عبد الله كثيراً، حتى أنها ظلت عالقة بذهنه فترة طويلة من الزمن. ولكن ما كان يشغله أكثر من أي شيء آخر هو سلطة المعرفة عند الملائكة الصغيرة التي تملكها عائلة الشيخ يزيد. هذه الملائكة كانت مؤدبة، وأكثر يقيناً من ملائكته الثلاثة التي كان يراها بين الحين والآخر، أولئك الشيوخ المتعبين الذين يحملون على أكتافهم أكياساً يقولون إنها ممتلئة بالربيع. وقد لعبت هذه المخلوقات الصغيرة، ربما حتى من دون أن تدري، دوراً حاسماً في صنع التاريخ المقبل ليس لمحلة جقور ومدينة كركوك وحدهما وإنما للعراق كله.

فبعد دفن الملاّ زين العابدين القادري شكلت الحكومة لجنة للبحث عن ثروة ضريح قره قول، ولكنها لم تعثر على شيء، رغم أنها لم تترك مكاناً لم تبحث فيه عن الكنز الذي كان الملاّ زين العابدين القادري قد أخفاه عن عيون وأيدي اللصوص. وقد أصبح هاجس الجميع العثور على هذا الكنز الذي لم يكشف الملاّ مكانه حتى لزوجته وأولاده. فإذا كانت الحكومة قد أرادت استرداد ما اعتبرته من حقها، فإن أرملة قره قول التي لجأت إلى السحر الأسود رأت أن عثورها هي على الكنز سوف يعفيها من مهمة الوقوف أمام المحاكم للمطالبة بما كانت تعتبره حقاً خاصاً بها هي وحدها. وبالتأكيد فإن زوجة الملاّ التي نفت معرفتها بمخبأ الكنز، واجهت الكثير من التأنيب من أولادها الذين ظلوا يبحثون عن الأموال المخفية عبثاً، وقد أشغلت القصة محلة جقور كلها، حتى أن الكثيرين راحوا يغرون المجنون دلي إحسان على البحث عن الكنز معهم، معتمدين على

twitter @baghdad_library

صلاته المعروفة بالجن، وهو أمر ما استجاب له أبداً.

هـذه الحمى التي أصابت سكـان محلة جقـور، فترت بعـد أسبوعين أو ثـلاثة أسـابيع من البحث، عنـدما اتضـح لهم أن الملا زين العابدين القادري حمـل سر الكنز معـه إلى القبر مـع السر الآخر الذي كلفه حياته. وهكذا كفوا عن متابعة هذا الأمر بعد أن داخل اليأس قلوبهم. واكتفى موظفو الحكـومة بـوضع أيديهم على ما كان بادياً للعيان من ثروة الضريح. أما أرملة قره قول فراحت تؤمل في أن تمنحها المحكمة الحق في الحصول على الهدايا الجديدة التي تقدم إلى ضريح بعلها.

ما كادت هـذه الحمى التي انتابت محلـة جقور تهـدأ حتى ظهر حميد نايلون ثانية، كمـا لو أنـه خرج من العـدم، إذ راح يؤكد للذين استغـربوا غيـابه أنـه كان في الكـويت، حيث عمل سائقاً عند أميرها الذي قال عنه إنه يملك مرحاضاً من الذهب. وكالعادة لم يصدقه أحد، إذ لم يكن بادياً عليه أي أثر من آثار نعمـة النفط التي كانت قـد هبطت على الكـويت. في الواقـع أن قليلين فقط عرفوا أن حميد نايلون عائد من الثورة التي كان قد أشعل فتيلها في أرياف كركوك، حيث منح نفسه رتبة عسكـرية واتخذ اسماً مستعاراً هو العقيد أنور مصطفى، على عادة قـادة الثورات في العالم، مما منحه المـزيد من الثقـة بنفسه، بـل إنه فكر حتى في إطالة لحيته ولكنه أجل ذلك إلى فترة لاحقة عندمـا تكون الثورة قد امتدت إلى بعض القـرى على الأقـل، وهو أمـر كان قد خطط له بعناية منذ أن اختاره القرويون الذين كانوا قد اختطفوا جثمان قره قول وهربوا إلى الغـابات والتـلال القريبـة من قرية طاووق ليكون قائداً لهم.

في واقع الأمر أن قرويي طاووق ما كانوا قد فكروا في يوم ما

في معاداة الحكومة التي كانـوا يجهلون كـل شيء عنها. كـل ما كانوا يريدونه هو دفن قـره قول في قـريتهم لتحل البـركة عـلى حقـولهم والخصب على أغنـامهم. ولكن الهجـوم الـذي شنتـه الشرطة عليهم، قاتلة اثنين منهم، أرغمهم على العصيان للنجـاة بجلـدهم. كان هؤلاء الـرجال المسلحـون بالبنـادق في حيرة من أمرهم، لا يعرفون ما ينبغي عليهم عمله سوى الانتظار، بعد أن رفض الآغـا مامنـد الذي كـان نفـوذه يشمـل عشرات القـرى الواقعة بين كركوك وأربيل، ومن ضمنها طاووق، التدخل لإيجاد تسوية مع الحكومـة، باعتبـار أن طاووق تـابعة لكـركوك وتقـع ضمن منطقة السيادة الخاصة بالحكومة العراقية التي قال إنه لا يحق لـه التدخـل في شؤونها، بـالرغم من أنـه كان نـائباً في البرلمان في بغداد عن المنطقة كلها، ومن ضمنها قـرية طـاووق. ولذلك فإن وصول حميد نايلون إلى قرية طاووق بسيـارته جعـل الأطفال يركضون وراءها مهللـين وصارخـين وسط الغبرة التي أثارتها، والنساء يخرجن من بيـوتهن المبنية بـالطين والحجـارة والمســورة بجدران غـرست في أعلاهـا قطع من زجـاج القناني الملونة المكسورة لتمنع اللصوص الذين كانوا يأتون من القـرى البعيدة الأخرى من التسلق، والرجال يعودون من الحقول عـلى أصوات الكلاب التي ظلت تنبح، وهي تعدو على جانبي السيارة منذ لحظة دخولها القرية. أوقف حميد نايلون سيارته أمام كوخ مفتوح، بنيت على أطرافه من الداخل دكة من الطين عـلى شكل حدوة حصان وألقيت فوقه أبسطـة ملونـة متسخة، من النـوع الذي تحوكه القرويات الكرديات. كان من الواضح أن هـذا هو مقهى القرية. وخرج الرجل الذي كان يعد الشاي في زاوية من الكوخ ونهر الكلاب التي تراجعت قليـلاً إلى الوراء، ولكنهـا إذ رأت بـاب السيارة ينفتـح ويهبط منها حميد نـايلـون، داخـلاً

twitter @baghdad_library

المقهى أحنت رؤوسهــا وأقفلت عــائــدة من حيث جـاءت. سلم حميد نايلون على الرجال الثلاثة الذين كانوا يجلسون في المقهى وطلب استكاناً من الشاي. كان يعرف أن الفضول ينهش قلوب هؤلاء القرويين الذين كانوا يريدون معرفة السر الذي جعل هذا الرجل الغريب يصل إلى قريتهم بسيارتـه، من دون أن يجرؤوا على سؤاله. ولكنهم إذ رأوه يتكلم الكردية مثلهم شعروا ببعض الاطمئنان، جارين إياه إلى الحديث عن المكـان الذي جـاء منه. قال أحد الرجال: «لا بـد أنك من كـركوك، إذ من يملـك سيارة جميلة مثل هذه في غير كركوك». وابتسم حميد نايلون: «آه، انها سيارة مثل جميع السيارات الأخرى»، ثم أضاف: «إنني قـادم لمساعدة قرية طاووق. لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلـك. أرجو أن تثقوا بي». بدت الحيرة على وجوه القرويـين الذين يشكـون عادة في كل شيء فالتزموا الصمت. ولكن الرجل الذي كـان يعد الشاي قال: «حسناً، ما الـذي يمكن أن نفعله من أجلـك؟». رد حميد نايلون من دون مواربة: «كيف يمكنني الاتصال بالعصاة الذين اختطفوا جثة الولي قره قول؟». سأل أحد الـرجال: «هـل أنت من الحكومة؟ ما الذي تريده منهم؟». ابتسم حميد نايلـون مرة أخرى: «لا أستطيع أن أقول ذلك إلا لهم. أرجو أن تثقـوا بي».

اضطر حميد نايلون إلى الانتظار حتى المساء قبـل أن يشق طريقه عبر الحقول والغابات والأودية إلى الرجـال الذين كـانوا قد لجأوا إلى غابة مليئة بأشجار الجوز والتين والرمان والخوخ والعنب، تقع بين واديين، يخترقهما نهر صغـير، بعد أن وضـع سيارته داخل سقيفة في الطرف الآخر من القـرية. سـار حميد نايلون مع الشابين المسلحين اللذين قاداه في الظلام عبر ممرات وعرة وغابات كثيفة ومجـاري مياه، صـامتين، لا تسمـع سوى

أصوات خطاهم فوق الأعشاب والأوراق المبللة بالندى. وأخيراً بلغوا المخبأ الذي كان قد لجأ إليه القرويون الهاربون من الشرطة، حيث رأوا عبر الأشجار فانوسين مضيئين أمام صخرة كبيرة تقع أمام ما بدا شبيهاً بمدخل كهف وأشباحاً متكومة فوق الأرض. ونادى أحد الشابين بصوت عال: «السلام عليكم»، فانتفضت الأشباح التي بدت كما لو أنها بوغتت بالصوت ونهضت محدقة. وجاء الرد: «من هذا؟». قال الشاب: «إنني محمود. كل شيء على ما يرام». واقترب أربعة أو خمسة من العصاة وسلموا عليهم، مقبلين أكتاف بعضهم وأخذوا الكيسين اللذين كان الشابان اللذان رافقا حميد نايلون يحملانهما». لقد جلبنا لكم بعض الخبز والسكر والشاي»، قال أحد الشابين. وصافح حميد نايلون الرجال الذين منعهم أدبهم حتى من السؤال عن اسمه. ولكن الشاب الآخر قال: «الأستاذ جاء من كركوك وهو يريد التحدث إليكم». وانتظر الرجال أن يقول حميد نايلون أي شيء، مؤملين أن يكون مبعوثاً من الحكومة، جاء يبلغهم بالعفو عنهم للعودة مرة أخرى إلى حقولهم وبساتينهم، فقد تركت كلمة «الأستاذ» التي استخدمها الشاب جلال عند تقديم حميد نايلون أثراً طيباً في هؤلاء القرويين الذين كانوا يعتقدون أن كل من يرتدي البنطلون هو من الحكومة. كانت تلك أصعب لحظات حميد نايلون، بل أصعب لحظة في تاريخ تلك الثورة المسلحة التي انطلقت من ريف طاووق. فقد كان حميد نايلون يعرف بخبرته التي قلما خانته أن كل شيء يعتمد على هذه اللحظة. فإذا لم يقتنع هؤلاء القرويون الآن بما سيقوله لهم فإنهم لن يقتنعوا أبداً. أخرج حميد نايلون علبة سجائر من جيبه ورماها أمام الرجال بعد أن أخذ منها سيجارة لنفسه، قائلاً كما لو أنه يقرر حقيقة ثابتة:

twitter @baghdad_library

«حسناً، لقد جئت إليكم لأكون معكم. لا يهم إذا كنت قد حملت أسماء أخرى قبل الآن، إذ أن إسمي الذي سوف يعرفني به العالم والذي منحتني إياه قيادة الثورة هو العقيد أنور مصطفى. من هنا سوف تنطلق الثورة لتعم كركوك والعراق كله. من هنا سوف نحرر الوطن قرية بعد أخرى ونلقن الشرطة الذين يتعقبونكم دروساً في الشجاعة والإقدام». كان ذلك آخر ما ينتظره الرجال الذين لجأوا إلى الجبل، هرباً من القوات الحكومية التي ما كان بمقدروهم مواجهتها. وتجرأ أحد الرجال على القول: «كنا نتوقع صدور عفو عنا فإذا بك تأتي وتدعونا إلى العصيان». قال حميد نايلون: «ليس أسهل من استصدار عفو عنكم. لقد قابلت الملك فيصل الثاني نفسه قبل شهور وأستطيع أن أفعل ذلك الآن أيضاً. ولكن ما الذي فعلتموه حتى يعفى عنكم؟ حسناً لقد أردتم أن يكون هناك ولي، يدفن في قريتكم. وهذا من حقكم. ولكن قره قول دفن في كركوك التي تمتلىء قبورها بالأئمة، بل إن الشرطة ظلت تطاردكم حتى الآن، من دون أي سبب. لقد جئت إلى هنا لأقول لكم إن قره قول من نصيبكم وسوف تحصل عليه طاووق ذات يوم». كان القرويون العصاة قد واجهوا حميد نايلون في البداية ببعض الريبة حتى إذا لم يظهروا له مشاعرهم، ولكنه عرف كيف يكسب ودهم وثقتهم. فقد بهرهم قبل كل شيء أن يكون حميد نايلون ضابطاً برتبة عقيد، بل إنه وعدهم بأن يكون لكل منهم راتب شهري، يستلمه من قيادة الثورة التي ما كانوا قد سمعوا بها من قبل، مؤكداً لهم أن الملك فيصل الثاني نفسه يؤيد هذه الحركة الموجهة ضد نوري السعيد وعبد الإله والانكليز، وجميعهم من أعداء الإسلام. وفي اليوم التالي تسلل حميد نايلون إلى القرية وأخرج من صندوق سيارته ثلاث بنادق، وهي البنادق التي

كانت محلة جقور قد استولت عليها أثناء معركة المقبرة، عاد بها إلى القاعدة ووزعها على من لم يكن يملك بندقية خاصة به، بينما دس هو تحت حزامه مسدساً كان قد اشتراه من اللص محمود العربي.

في الليلة الأولى وفي الليالي التالية التي أمضاها حميد نايلون في هذا المخبأ الواقع في الوادي ما استطاع النوم إلا لماماً. كان ثمة شيء في داخله هو بين الفرح والقلق. فها هو لأول مرة في حياته يفلح في بدء الخطوة الأولى في الطريق الطويلة للثورة، إلا أنه لم يكن متأكداً تماماً من صلابة هؤلاء القرويين الذين ما كانوا يفكرون إلا في نسائهم وأغنامهم وحقولهم التي تركوها وراءهم. ولأنه أمضى حياته كلها بين أناس يشبهون هؤلاء في كل شيء، كان يعرف أنه ما من شيء يمكن أن يفجر الإيمان في قلوبهم الجافة أكثر من المال والقوة. فإذا ما شعروا أن الثورة تمتلك ذلك فإنهم لن يترددوا في الموت من أجلها.

في اليوم السابع من وصوله وقف حميد نايلون على صخرة ناتئة في مواجهة رجاله وألقى كلمة قصيرة أعلن فيها البداية الفعلية للثورة، ثم سحب مسدسه وأطلق رصاصة واحدة في الهواء. كانت تلك هي الرصاصة الأولى للثورة. وقد حزن بعض الشيء لأنه لم يحصل على قماشة حمراء ليصنع منها العلم الذي سوف يرفرف فوق العراق. وهلل القرويون الذين أعجبهم هذا المشهد فرفعوا هم أيضاً بنادقهم وأطلقوا الرصاص في الهواء، معلنين انتماءهم إلى الثورة التي قال حميد نايلون عنها إنها ستكون ثورة فلاحين.

ومنذ ذلك اليوم انتقلت كتائب الثورة، وهذا هو الاسم الذي أطلقه حميد نايلون عليها إلى الهجوم، حيث بدأ رجاله يزورون

twitter @baghdad_library

قرية طاووق والقرى المجاورة حتى في النهار، مقـررين دحر أي هجوم قد تشنه الشرطة ضدهم. بل إنهم راحوا يدعـون الناس صراحة للانضمام إلى الثورة. وقد نجح حميد نايلون في اجتذاب عـدد آخر من الفـلاحين وطلبـة المـدارس الـذين أسنـد إليهم مراقبة العدو.

حين عاد حميد نايلون إلى كركوك كان متأكداً من أن الثـورة قد بدأت بالفعل، إلا أنه كان يعرف أن ثمة الكثـير الذي ينبغي فعله قبل أن تتحول الثورة إلى قوة لا تقهر. وغمرت قلبه أمـواج من مشاعر متنـاقضة، الحـزن والفرح في آن. يـا لهذه الحيـاة الغـريبة التي كتب عـلى المرء أن يعيشهـا. الثورة، هـذا الفعل الـذي لا حـدود لـه، هـذا الـذي يمتـد إلى المستقبـل فيجعلـه حـاضراً. ورأى يـده تمتد إلى المسـدس فتشهـره، وقـد اختنق بسعاله. إنه الربيع. يا لحبوب الطلع اللعينـة التي تجعل أنفـه ينغلق حتى لا يعود قادراً على التنفس. «لماذا كان عليّ أن أحمل في جسـدي هذا المـرض؟» لم يكن قد قتـل أحـداً حتى الآن». ولكنني سوف أقتل بالتأكيد. لا يمكن للثورة أن تكـون ثورة من دون دم». وفكر أن ثمة ثمناً، ينبغي أن يدفع دائماً. وفي الطريق رأى أرض العراق تمتد أمام عينيه، فأوقف سيارته وحمل حفنة من تـراب في كفه، تـراب ندي «هـذا التراب المقـدس». ثم نثر الكومة في الهواء. دم فوق التراب. سيكون هناك دم دائماً فـوق هذه السجادة الأرجـوانية، هـذا التابـوت الكبير الـذي يسمى الوطن.

كـانت ثمة أمـور كثيرة تشغـل بال حميـد نايلـون المهلـوس بالثورة. كـان يعرف القليـل عن تعاليم الثـورة. اتصل بفـاروق شـامل ونجـاة سليم وطلب منهما كتبـاً، تتضمن تعـاليم حـول

الثـورة الفلاحيـة، وهي كتب لم تكن موجـودة لأنها كـانت قـد رميت في التنانير وأحرقت، خوفاً من أن يعثر عليهـا رجال الأمن الذين كانوا يداهمـون البيوت بـين الحين والآخـر. ولكن فاروق شامل الذي كان يملك ذاكرة قوية سجل هذه التعاليم التي كان يحفظها عن ظهر قلب عـلى ورقة، قـدمها لحميـد نايلـون الذي دسها في جيبه، مفكراً في دراستها عندما يعود إلى القاعدة.

كـانت أخبار الثـورة قد بلغت الكثـيرين في المدينـة، ولكنهم راحوا يسخرون من الإشاعات التي راجت حـولها، قـائلين: «لم يبق سوى أن يحررنا هؤلاء القرويـون السذج الـذين اختطفوا قره قول». بل ان الشيوعيين الذين كـان الحسد ينهش قلـوبهم ادعوا أن قره قول نفسه يتولى قيادة التمـرد، هازئـين كعادتهم من كل من لا يتفقون معه. وقد ندموا عندما أدركوا بعد فـوات الأوان أن الكثـيرين صدقـوا ذلك، حتى راحت كـركـوك كلهـا تتحدث عن عودة قره قول للقتال من أجل الفقراء. وانتهز حميد نايلون الفرصة فاتصل بابن أخته بـرهان عبـد الله الـذي كان يجيد كتابة الإنشاء وقال له: «حسناً يا برهان، أعتقد أن الوقت قد حان لتكون واحداً من أبطـال الثورة». وهكـذا كتب برهـان عبد الله البيان الأول الذي أصـدره حميد نـايلون والـذي أثار استغراب الأحزاب السياسية بلغته الأدبية العالية وقوة منطقه، والذي تولى كتابته على الآلة الطابعة واستنساخه عـلى الرونيـو أحد العاملين في القنصلية التركية في كركوك، ممـا صعب مهمة الشرطة في معرفـة المصدر، نظـراً لأن أجهزة الطبـع الخاصـة بالهيئات الخارجية لم تكن مسجلـة عند الحكـومة. وقـام حميد نايلون بنفسه ذات ليلة بتـوزيع هـذا المنشور في كـل مكان من المدينة. ألصقه على الجدران أمام المساجد والسينمات والمقاهي

twitter @baghdad_library

والدوائر الحكومية ورماه من فجوات الأبواب داخل البيوت وفي الأسواق. ورغم أن الشرطة اعتقلت في اليوم التالي عدداً من المشبوهين الذين كانوا يجلسون في المقاهي ويثرثرون ضد الحكومة، فإنها عجزت عن معرفة مصدر هذه المنشورات التي كانت تدعو الشعب للانضمام إلى الثورة. وهكذا حقق حميد نايلون بضربة واحدة وفي غضون أيام قليلة ما عجز الكثيرون عن تحقيقه خلال عشرين عاماً. واتصل الشيوعيون بحميد نايلون يطلبون اليه التفاوض بعد أن تناهى إلى أسماعهم أنه جند الكثيرين من الشبان العاطلين عن العمل في محلة إمام قاسم والذين كانوا يقضون أيامهم متكئين على الجدران. بيد أنه أبلغهم أنه لا يملك ما يكفي من الوقت للدخول في مفاوضات غير مجدية، عارضاً عليهم الانتماء إلى حركته من دون قيد أو شرط، إذا كانوا جادين في دعواهم الثورية.

في الواقع إن ما كان يشغل بال حميد نايلون لم يكن مرتبطاً بالشيوعيين أو بالأنصار الجدد الكثيرين الذين انضموا إلى حركته والذين بعث بهم إلى الجبل، مشياً على الأقدام ولا حتى بالأسلحة التي كانت تعوزه، وإنما بالكنز الذي خلفه الملاّ زين العابدين القادري وراءه من دون أن يعثر عليه أحد. كان كل شيء يعتمد في الحقيقة على العثور على هذا الكنز، فمن دون الحصول على أموال كافية سوف يتركه الجميع. كان متأكداً من ذلك. فالعواطف وحدها لا تكفي مهما كانت جياشة، إذ ان عليه أن يطعم رجاله ويسلحهم ويوفر القوت لعوائلهم التي تركوها وراءهم.

كان الجميع قد يئسوا تماماً من البحث عن الكنز عندما بدأ حميد نايلون بحثه المضني عنه والذي لم يفض به إلى أي

نتيجة حتى أنه كاد يستسلم لليأس هـو الآخر. بحث في جميـع الأمـاكن المحتملة وغـير المحتملة، وحـاول أن يتقمص شخصية الملاّ ويفكر مثله حتى يهتدي إلى المخبأ الذي اختـاره للكنز، إلا أنه أخفق في الوصول إلى السر، وهو أمر جعله يفرط مرة أخرى في تناول الكحول بعد انقطاع طويل. ولم يستعـد قوتـه إلا بعد أن قـال له بـرهان عبـد الله ذات يـوم وقد أفـزعه المـآل الذي انتهى إليه حميد نايلون: «أهكذا تريد أن تقود الثورة يا حميد؟ إنك لم تعد تفرق بين رأسك ورجليك. لمـاذا تفعل ذلـك؟». احمر وجه حميد نايلون الذي شعر بـالخجل من الصبي، ينتقـده عن حق فقال بلطف: «لن تكون هناك ثورة يا برهان ما لم أعثـر على الأموال التي أخفاها الملاّ اللعين. الثورة من دون أموال لا تعدل قلامة اظفر. سوف ينهـار كل شيء بعـد شهر أو شهـرين ما لم نحصـل على مـا يكفي من البنادق ونـدفع رواتب للمقـاتلـين». اقترب حميد نـايلون من البكـاء، وهو ينعي ثـورته التي سـوف تنتهي وهي في بدايتها. لقـد وعد رجـاله بـرواتب لم يستلموهـا حتى الآن. وكان يعرف أنـه لن يجرؤ عـلى العودة إليهم مـا لم يعثر على الكنز الذي كان قد وضع كل أمله فيه. ولسوف يسخر منه الجميع: «هـذا الدعي الـذي أطلق على نفسـه اسم العقيد أنور مصطفى». وكان يفكر مع نفسه: «حسناً أيها العقيد، لقـد انتهت أيـامك». فـوجىء حميد نـايلون بـالابتسامـة تملأ وجـه الصبي: «لماذا لم تقل لي ذلك منذ البـداية؟ قـد لا يكون الأمـر بالصعوبة التي تعتقدها».

- «ليس صعباً؟ ما هذا الذي تقوله؟».

ابتسم برهان مرة أخرى: «سـوف أساعـدك في العثور عـلى الكنز. هذا ما أقوله».

twitter @baghdad_library

واستيقظ حميد نايلون تماماً، فسأل متردداً: «هل تعرف أين يوجد الكنز؟».

هز برهان عبد الله رأسه: «كلا، لكنني سوف أعرفه هذا المساء».

انطفأ حميد نايلون مرة أخرى. لم يشأ حتى أن يسأله عما يجعله متأكداً من كشف هذا السر الذي ظل لغزاً على الجميع حتى المساء. وأدرك برهان عبد الله أنه لا يصدقه فتركه، متجنباً المزيد من الأسئلة التي ما كان يعرف إن كان ينبغي عليه أن يجيب عنها أم لا. وانتظر حتى المساء حيث قصد البيت الذي تقيم فيه الملائكة الصغيرة وقرع الباب. كان ثمة صمت يلف البيت في ظلام الزقاق الذي ينيره مصباح معلق بعيد. مرت لحظات طويلة حتى اعتقد أن لا أحد في البيت. ولكنه قرع الباب ثانية، من دون أمل في أن يرد عليه أحد. انتظر قليلاً، ثم ابتعد، مفكراً في العودة مرة أخرى. ولكنه انتبه إلى الباب ينفتح وصوت ممتلىء بالحنان ينادي عليه: «هذا أنت يا برهان. هيا ادخل، لقد كنا في انتظارك».

وتناهت إلى سمعه موسيقى آتية من مكان ما في الظلمة، موسيقى تشبه خطوات رجال ينحدرون من جبل، فانتابه قلق مفاجىء ما كان يعرف مصدره حتى أنه فكر في الهرب، ناسياً كل شيء، إلا أن العجوز الذي كان يقف أمام الباب، نصف الموارب، بوجهه الذي تشطره الظلمة والضوء، شعر بتردد الصبي الذي كان يقف هناك محدقاً فيه فمد إليه يده المعروقة النحيلة وأمسك برسغه برفق وجره إلى داخل البيت الذي كانت تضيئه ألسنة النار المتقدة في حفرة وسط الفناء، مغلقاً الباب وراءه بهدوء وصمت.

twitter @baghdad_library

الفصل العاشر

twitter @baghdad_library

بلغ حميد نايلون الجبل على بغل كان قد ألقى فوق ظهره خرجاً مزركشاً، ملأه بأكداس من الدنانير التي حملها معه، وقد ارتدى بذلة عسكرية، زينها بشارتين حمراوين شدهما على كتفيه، ممتلئاً بالحياة التي كانت تمتد أمامه. هذا الوصول الجديد لحميد نايلون، مثل ملك يعود إلى رعيته بعد غياب، جعل الثورة تنتشر في القرى المجاورة، حتى بأسرع مما كان يتصوره حميد نايلون الذي كان يعرف أنه ما من شيء أكثر إقناعاً من النقود. فقد دفع منذ اللحظة التي عاد فيها إلى قاعدته الرواتب المتأخرة لمقاتليه الذين ما صدقوا أن تمتلىء جيوبهم بكل تلك الدنانير التي ما رأوا مثلها في حياتهم، قائلاً: «الثورة التي تعجز عن إطعام أبنائها لا تستحق الحياة». وانبعثت الحياة فجأة في قرية طاووق والقرى المجاورة التي سمعت أن الثورة تدفع رواتب للمقاتلين، فانعقدت مجالس قادها الشيوخ الطاعنون في السن في القرى التي بلغها نبأ الثورة التي ظهرت من العدم. واقترح بعضهم أن يسألوا اغواتهم ويطلبوا منهم الموافقة على تعيينهم في الثورة، إلا أن القرويين رفضوا ذلك بحزم: «ما علاقة اغواتنا بهذا الأمر الذي يتعلق بأرزاقنا؟». وانفضت الاجتماعات، تاركة الأمر للناس أنفسهم ليقرروا ما يرونه

مناسباً. كان ذلك هو بالذات ما ينتظره الكثيرون. فقد جاء المقاتلون في البداية فرادى، متسللين إلى القاعدة في جنح الظلام، ثم جماعات بعد أن اقتنعوا أن الرواتب التي تدفعها الثورة أفضل من زراعة البصل والطماطم وحتى من العمل عند الحكومة. هذه الحقيقة أغرت الكثيرين من الشرطيين وعمال البلدية والجنود وتلاميذ المدارس وجعلتهم يأتون ويطلبون تعيينهم، بل إن مدراء نواح وقائممقامين هربوا من الخدمة والتحقوا بحميد نايلون الذي استقبلهم بلطف ثم أعادهم من حيث جاؤوا، معتبراً إياهم من ضمن جيش الداخل، وواعداً بأنهم سوف يستلمون رواتب إضافية من الثورة، وهم جالسون في دوائرهم. وفي النهاية اضطر حميد نايلون في مواجهة هذا الزخم البشري إلى عدم قبول المتطوعين الجدد لفترة من الزمن، رافضاً حتى وساطات مقاتليه أو التوصيات التي كان هؤلاء يجيئون بها من مختاري القرى الذين كان حميد نايلون قد أضاف أسماءهم إلى قائمة الرواتب التي يدفعها في آخر كل شهر. كان ذلك في الحقيقة إجراء لا بد منه قبل أن تفلت الأمور من اليد. فقد كثر عدد المقاتلين حتى أنهم راحوا يقصدون نساءهم ليلاً أو يغيبون أياماً من دون أن يفطن أحد إليهم. وواصل القرويون عاداتهم القديمة في سرقة القرى المجاورة التي كانوا يسطون عليها في الليالي، مما جعل حميد نايلون يسجنهم في كوخ طيني شيده على طرف الوادي، بل إنه اضطر إلى جلد الذين عادوا إلى السرقة بعد إطلاق سراحهم، رغم معرفته أن ذلك قد يخيفهم ولكنه لن يغير كثيراً من قيمهم التي توارثوها جيلاً بعد جيل.

ثم انسحب حميد نايلون ليدرس تعاليم الثورة المدونة التي ما كان يعرف كيف يطبقها في الواقع، إذ كانت تتضمن أفكاراً

twitter @baghdad_library

مجردة، لا علاقة لها كثيراً بما كـان يحتاجـه هو قبـل أي شيء آخـر، تنظيم الثورة والانتقـال إلى الهجوم. كـانت ثمـة تعـاليم مفيدة من نمط «اعتمد على الشعب ووثق علاقـاتك بـالفلاحـين» و«احتـرم من هو أكبـر منك سنـاً» و«اضرب العدو ثم اهـرب». ولكنهـا كانت أمـوراً، يعرفهـا الجميع. فقـد وثق حميد نـايلون علاقاتـه بالفـلاحين حتى أكثـر من ماوتسي تـونغ نفســه «إنني أدفع لهم رواتب لم يحلموا بها في حياتهم كلهـا». وغرق حميـد نـايلون في تـأمل عميق وهـو يفكـر في معنى «اضرب العـدو ثم اهرب». ثم قال مع نفسه «ربما كان من الضروري أن نفعل ذلك الآن، ولكننـا لن نفعله إلى الأبـد، إذ سوف يـأتي اليوم الـذي نزحف فيه إلى الأمام ونحرر العراق قرية بعد قرية ومدينة بعـد مدينة». وهكذا قرر حميد نايلون أن يضع بنفسه تعاليم ثـورته، مثل جميع القادة الآخرين الذين يردد الناس أسماءهم، فحبس نفسه داخل غرفته التي كان القرويون قد بنوها له من الحجارة والجص، حيث يرفرف العلم الأحمر فوقها، فملأ بضعـة دفاتـر بأفكاره حول الثورة خلال أيام قلائل فقط ثم بعث بها مع أحـد مراسليه السريين إلى برهان عبد اللـه في كركـوك، ليصوغهـا له بأسلوب أدبي رفيع. كان ذلك أمراً جديداً على برهان عبد اللـه الذي أشغل نفسه دائماً بمعرفة سر الحياة والتأمـل في قصص الأنبياء والقادة، من دون أن يتوصل إلى ما كان يعتبره الجوهر الذي ينبغي أن يكون خـزانة الأجـوبة كلهـا، مردداً مـع نفسه «الأجوبة تزوغ دائماً، تفسـد دائماً، تتـداخل حتى يصبـح من الصعب على المرء أن يعثر على جواب أبعد من اللحظة نفسها». وكان يفكر «مـا من جوهـر يتضمن أجوبـة وإنما أبـدية تقـدم أسئلة. السؤال هو سؤال عن نفســه. السؤال هو حظ البشر في العالم».

انتحى برهان عبد الله ركناً في حديقة أم الربيعين، متمدداً على العشب الندي وراح يتأمل تعاليم حميد نايلون عن الثورة. كانت تتضمن أفكاراً جديدة، ما عرفتها الكتب القديمة. فقد كانت تحاول الوصول إلى الحقيقة في قلوب الناس، لا خارجهم وتدعوهم إلى أن يكونوا هم سادة العالم. وفكر «حسناً، لقد أردت دائماً أن أضع كتاباً عن الحياة. سيكون هذا محاولة أولى في صياغة الكتاب الذي أريده. كتاب ليس لي ولكنه سيكون جزءاً مني».

كان محكوماً بالأفكار الصارخة التي دونها حميد نايلون والأمثلة التي يستخدمها عمال النفط في باباكركر، والخبازون في محلة جقور، وصاغة الذهب في السوق الجديد، والجنود في الثكنات ومؤجرو الدراجات الهوائية في الشارع المحاذي للقلعة. ظل برهان عبد الله يفكر أياماً في صياغة هذا الكتاب الذي أراده أن يكون دليلاً إلى الثورة التي ما كان يعرف في الحقيقة أي شيء عنها، إلا أنه كان في إمكانه تخيلها، معتمداً في ذلك على لغة الأناجيل التي كانت تتضمن وصايا أبدية إلى البشر. وهكذا صعد إلى علية البيت وحبس نفسه أسبوعاً هناك ثم هبط وقد انتهى من صياغة الكتاب الذي عنونه بـ «الدليل»، وهو عنوان وجده حميد نايلون لا يفي بالمرام فغيره إلى «دليل الجيب إلى الثورة» ثم بعث به إلى تركيا مع طالب تركماني من صارى كهيه كان يدرس الطب البيطري في استانبول فطبع عشرة آلاف نسخة منه في مطبعة يلدزلر التي كانت تمتلك حروفاً صغيرة جداً، تستحيل قراءتها بالعين المجردة. وصل الكتاب الصغير الذي لم يكن حجمه ليزيد كثيراً عن حجم علبة الثقاب إلى حميد نايلون بعد أقل من شهرين مع عشرة آلاف مكبر من

twitter @baghdad_library

ماركة كارل سايز الألمانية، أرسلت في شحنة منفصلة خشية أن تفطن الرقابة إلى العلاقة بين الكتاب والمكبر. وقد أظهر حميد نايلون بالفعل حصافة في تضليل رجال الأمن، حيث اعتقد موظفو الرقابة الذين رأوا الكتاب الذي زين غلافه بالنقوش الإسلامية أنه واحد من كتب الأدعية التي كانت توضع عادة داخل خرقة من القماش وتشد على أعلى الذراع لتقي حاملها من الشر الذي كان منتشراً في العراق. وهكذا أفلت هذا الكتاب الذي أحدث ضجة كبيرة بين محترفي السياسة اليساريين الذين كادوا يطقون حسداً وغيرة، ليس لأن حميد نايلون ابتكر طريقة لم يفطنوا إليها في تضليل رجال الأمن، وإنما لأنه وضع كتاباً ذا لغة أدبية عالية، على عكس الأسلوب الركيك للبيانات السياسية التي كانت الأحزاب السياسية تصدرها بين الحين والآخر. فعلى الرغم من تظاهرهم بالسخرية والهزء أمضوا لياليهم، عاكفين على قراءة الكتاب الذي كان أنصار حميد نايلون يبيعونه مع المكبر الألماني بمئة فلس. وقام آخرون من الذين سحرهم بيان الكتاب بترجمته إلى اللغتين الكردية والتركية، مما جعل أئمة المساجد يقتطفون مقتبسات منه ويضمنونها خطبهم التي كانوا يختتمون بها صلاة الجمعة، من دون الإشارة إلى المصدر بالطبع.

هذا الكتاب الذي حمل اسم العقيد أنور مصطفى جعل حميد نايلون يتيه زهواً وخيلاء، فقد حقق خلال شهور قلائل فقط ما عجزت عن تحقيقه أحزاب العراق مجتمعة منذ اندحار العثمانيين في الحرب العالمية الأولى ودخول الجيش الانكليزي العراق، بقيادة السير مود الذي قال انه جاء محرراً، لا فاتحاً. فقد نجح في كسب العشائر الكردية أولًا ثم استغل نفوذه بين

عـرب الحويجـة فكسب عشائـر العبيـد والجبـور التي أوقفت حروبها الداخلية، معلنـة ولاءها للثـورة التي اعتقدت أن الملـك فيصل الثاني نفسه يقف وراءها.

لم تكن كتائب الثورة قد خاضت حتى بعد شهور من إطلاق رصاصة الثورة الأولى أية معركة فعليـة مع القـوات الحكوميـة التي ظلت غـير آبهة بهـذه الثورة، مـا عـدا بعض المنـاوشـات الصغيرة التي كانت تقع بين الحين والآخر مع الحراس الليليين أو مخافر الشرطة التي كان أفرادها يـرفضون تسليم أسلحتهم إلى المتمردين. وقد أغاظ الأمر بعض الشيء حميد نايلـون الذي كان يتوقع من الحكومة أن ترد عليه بطريقـة تليق بقدر الثـورة التي أعلنهـا. فقد ظلت الحكـومة صـامتة حتى عنـدما أرسـل مجموعة من رجاله، أطلقت النار من بعيد عـلى مدرسـة الشرطة الخيالة التي كانت تقع عند طرف المدينة، فقتلت بغـلاً وجرحت شرطياً في فخذه. ولمـا رأى حميد نـايلون إصرار الحكـومة عـلى إهماله أو حتى إصدار بلاغ، تهاجم فيه التمـرد، قرر الإنتقـال إلى المواجهة، حيث أخذ رجاله يقيمون كمـائن متنقلة لسيـارات الأجرة العاملة بين المدن. كانت الفكـرة التي لجأ إليهـا رجالـه مقتبسة في الحقيقة من مشهد، كان حميد نايلون قد شـاهده في فيلم أميركي فظل عالقاً بذهنه، وهي فكرة أثبتت نجاحها دائماً. كان أحد رجاله يتمدد على جـانب الطريق وقـد حبس أنفاسـه، متظاهراً بالموت، فكانت السيارات المـارة تقف ويهبط سائقـوها وركابها مسرعـين لمد يـد المساعـدة إليه. عنـد ذاك كان يبـزغ خمسـة أو ستـة رجـال يشهـرون البنـادق من وراء الصخـور والأشجار والأكمات ويأسرون الركـاب الذين كـانوا يجعلـونهم يـرفعون أيـديهم إلى الأعلى ثم يفتشـون جيـوبهم ويصـادرون

twitter @baghdad_library

خمس أي مبلغ يزيد على خمسة دنانير كزكاة للثورة. أما من كان جيبه خالياً إلا من بضعة دراهم فكانوا يعطونه ديناراً، مساعدة من الثورة للفقراء، بعد أن يكونوا قد قرأوا عليه صفحة أو صفحتين من كتاب «دليل الجيب إلى الثورة» ثم يصافحونهم مودعينهم ومتمنين لهم السلامة. ولكن حميد نايلون اضطر بعد شهرين أو ثلاثة إلى إيقاف هذه العمليات التي كلفت الثورة ألوف الدنانير. فقد اجتذبت رائحة الدنانير القرويين الذين راحوا يتنقلون كل يوم بين المدن الجبلية في باصات خشبية، ممنين أنفسهم بالوقوع في كمائن الثورة. بل إن بعض أصحاب السيارات اتفق معهم على اصطحابهم مجاناً لقاء الاستحواذ على نصف المبلغ الذي يحصلون عليه في كل كمين ينصبه رجال الثورة لهم.

وإذ وجد حميد نايلون أن الحكومة تتعمد إغفال ثورته، قرر الضرب حيث يكون الألم قاسياً حتى الصراخ. فقاد ذات ليلة بنفسه تسعة من رجاله المسلحين بالبنادق، تسللوا إلى مدينة كركوك التي كانوا يعرفون كل زقاق فيها، فعبروا نهر خاصه صو الجاف تقريباً والذي كانت حصاه الملونة تتلألأ في ضوء نجوم تملأ السماء إلى الطرف الآخر من المدينة، متجهين إلى منطقة عرفة التي يوجد فيها الحي الانكليزي المحاط بالأسلاك الشائكة. كان حميد نايلون يعرف كل بيت في هذا الحي الذي يقطنه المهندسون والإداريون ورجال المخابرات الانكليز مع عائلاتهم، ولذلك لم يكن صعباً عليه الوصول إلى المنطقة التي كانت مليئة بالأشجار وواحات العشب الخضراء. كان في إمكانه أن يفاجيء الحي حتى من دون أن يفطن أحد إلى ذلك. ولكنه ما كان يريد أن تسفك حتى قطرة دم واحدة. فإذا ما انتبه

رجال مخفر الشرطة الذي كـان يقع في أول الشـارع المؤدي إلى الحي، وراء السكك الحديد التي تمر فوقها عربات القطارات ما بـين كركـوك وأربيل، وهم في معظمهم أعـرابيون من البـاديـة، كرسوا أنفسهم لخدمة الانكليز الذين مـا كانـوا يبخلون عليهم بالهدايا، فإنهم قـد يلجأون إلى إطـلاق النيران، ممـا يمكن أن يؤدي إلى مـذبحة لا ضرورة لهـا. ولكن حميد نـايلـون لم يجـد صعوبة تذكر في احتـلال المخفر. فقـد كان ثمـة ثلاثـة شرطيين يغطون في نومهم، من دون أن يتركوا أحداً يحرس بـاب المخفر، فـوضع القيـود التي كـانت معلقـة عـلى جـدار في الغـرفـة في معـاصمهم وأرجلهم وشدهم بـأسرتهم السفريـة حتى قبـل أن يستيقظوا من نومهم. ثم ترك ثلاثة من رجاله هناك بينما توجـه مع الآخرين، متسللاً بين الأشجـار إلى الحي الانكليزي الـذي كان يظل مضاء دائماً.

بعد نصف ساعة، عاد حميـد نايلـون ورجالـه وهم يحيطون بأربعة رجال وامرأة، كان من الواضح أنهم من الانكليز، شدوا أيديهم بالحبال وعصبوا أفـواههم بخرق من القمـاش من أجل إخماد أصواتهم. كانوا يسيرون بخطوات متـرنحة من دون أي أثر للمقاومة وبدوا غائبين عما يدور حـولهم لكثرة مـا احتسوه من الويسكي الذي كانت رائحته تزكم أنوف القرويين الذين ما كانوا قـد اعتادوا مثـل هذه الـرائحة المـدوخة. وأصـدر حميد نايلون الذي كان يلف رأسه ووجهه مثل رجاله الآخرين بقماشة خضراء، حيث لا تبين منه سوى عينيه الثـاقبتين وهـو يرتـدي الزي العسكري على عكس رجاله الذين كانوا يدفنون أجسادهم داخل شراويل كردية، غامقة اللون، أوامره إلى القرويين الثـلاثة الذين كانوا يصوبون فوهات بنادقهم إلى الشرطيين المغلولين إلى

twitter @baghdad_library

أسرتهم: «حسناً، ارفعوا علمنا فوق المخفر واجمعوا البنادق والمسدسات فقد حان وقت انسحابنا». كان الشارع خالياً تماماً وهدوء شامل يخيم فوق المدينة، يقطعه بين حين وآخر نباح كلاب بعيدة. ألقى حميد نايلون نظرة متأملة إلى الشارع، ثم تسلل الجميع في موكب واحد، باتجاه نهر خاصه صو، عابرين السدة الترابية التي يمر من فوقها القطار، تاركين داخل المخفر بضع نسخ من كتاب «دليل الجيب إلى الثورة»، ذيلها حميد نايلون بإهداءات رقيقة إلى متصرف كركوك ومدير الشرطة ومدير الأمن ووقعها باسمه العسكري المستعار: العقيد أنور مصطفى.

سار الرجال مع أسراهم الخمسة مخترقين خاصه صو، فوق الحصى الصغيرة المدفونة في الرمل، مخوضين في المياه الضحلة بين الحين والآخر، من دون أن يتبادلوا كلمة واحدة. وتعثرت المرأة الانكليزية أكثر من مرة بسبب حذائها ذي الكعب العالي والذي كان ينزلق فوق الحصى أو يندفن في الرمل. فنزعته بحركات عصبية من رجليها، ثم انحنت فالتقطت فردتيه. فابتسم حميد نايلون في ضوء النجوم وقال لها بالانكليزية متودداً: «هذا أفضل، تستطيعين الآن أن تستمتعي بهذه النزهة». كانت النسائم الليلية التي تلذع وجوههم، محملة بعبق البراري قد بددت كل أثر للويسكي في رؤوس الأسرى الذين انتبهوا كما يبدو الآن فقط إلى اختطافهم فتوقفوا عن السير وراحوا يهزون رؤوسهم، مطلقين أصواتاً مكبوتة بسبب خرق القماش المشدودة فوق أفواههم. دفعهم القرويون بأعقاب بنادقهم ولكن حميد نايلون قال لهم مطمئناً: «لا تقلقوا، لن يؤذيكم أحد. سوف نعاملكم كضيوف. وسوف ترون أننا أكثر إنسانية مما تعتقدون».

ثم تقدم وحل عقدة القماشة الموضوعة فوق فم المرأة الانكليزية، قائلاً لها: «كيف أنت يا مسز ماكنلي؟».

هزت المرأة رأسها متأففة، ولكن بغنج: «آه، شكراً يا مستر حميد»، ثم سألته برقة: «ما الذي تريد أن تفعله بنا؟»، فرد حميد مطمئناً بطريقته الخاصة: «آه، لا شيء، لا شيء على الإطلاق». وأضاف بزهو ولكن بشيء من السخرية التي كان من الصعب الانتباه إليها: «يشرفني أن أخبركم أنكم الآن ضيوفي، باعتباري قائداً للجيش الثوري».

فقالت هيلين ماكنلي، موجهة الكلام إلى زوجها الذي يسير وراءها مكموم الفم بخفة: «جورج، هل سمعت؟ لقد أصبح صديقنا المستر حميد قائداً للثورة».

وساد الصمت مرة أخرى في الظلام الذي كان يشف قليلاً قليلاً عن المدينة الغارقة في لجة الليل، مثل شبح أسطوري، تنقل الريح نبضه المختلط بالطبيعة المفتوحة على الفراغ. واجتازوا خاصه صو من الطرف القصي للمدينة، عابرينه إلى الحقول العابقة برائحة الأعشاب والتراب. هذه العملية الجريئة التي قادها حميد نايلون جعلت مسؤولي المدينة يفقدون أعصابهم ويقسمون على الانتقام، بعد أن اتصل بهم رئيس الوزراء وشتمهم بلغة تخلو من أي أدب، مهدداً إياهم بقطع رؤوسهم، إذا لم يعد المخطوفون الانكليز سالمين. عند الظهر خرجت عشر سيارات جيب مسلحة، تكدس داخلها شرطيون، أسندوا بنادقهم على أكتافهم، متجهين نحو قرية طاووق التي اعتبرتها الحكومة مسؤولة عن هذا الهجوم.

كان مدير الشرطة الذي قاد العملية يعرف أنه لا أمل له في العثور على المخطوفين الانكليز، فهؤلاء القرويون لن يفتحوا

twitter @baghdad_library

أفواههم مهما كلف ذلك من ثمن، ولكنه كان مرغماً على إظهار بطش الحكومة وبأسها أولاً قبل التعامل مع هؤلاء السذج الذين كان متأكداً من أنهم يعرفون كل شيء. أحاطت القوة المسلحة بالقرية ومن ثم دخلتها من دون أية مقاومة، حتى أن الكثيرين ظلوا قابعين داخل بيوتهم وكأن الأمر لا يعنيهم. هذا الإهمال الذي لا تبرير له جعل رجال الشرطة يستشيطون غضباً، فاندفعوا مقتحمين البيوت التي لم تغلق حتى أبوابها، مخرجين جميع الرجال والنساء إلى الطريق الترابي الذي كان يخترق القرية، وسط نباح الكلاب التي تجمعت محيطة بالجمع. كان رجال الشرطة يشهرون بنادقهم في وجوه هؤلاء الناس الذين ظلوا يدخنون هادئين. وعندما تعبوا من الوقوف جلس بعضهم القرفصاء على الأرض. وأخيراً سحب مدير الشرطة مسدسه وأطلق رصاصة في الهواء، جعلت الكلاب تبتعد مجفلة: «لقد جئنا لنبلغكم أن الحكومة قررت قتلكم جميعاً بعد خطفكم الانكليز الخمسة. ولكنني سوف أغض النظر عن كل شيء إذا ما أعدتموهم إلينا. لقد سببتم ما يكفي من المشاكل لنا حتى الآن».

ساد الهدوء فترة من الزمن قبل أن يتقدم رجل عجوز، كان من الواضح أنه مختار القرية: «ليحفظ الله لنا الملك. لا أعتقد أن الملك يمكن أن يأمر بقتلنا. نحن قرويون فقراء، لا علاقة لنا بالانكليز، لعنة الله عليهم. إننا مسلمون، نتبع سنة الله ورسوله».

ورد مدير الشرطة الذي بذل جهداً ليكتم غيظه: «إنني أتحدث عن الانكليز الذين اختطفتموهم أثناء الليل. لا أريد سوى الحقيقة. دلني على مكانهم وسوف أعفو عنكم».

هز المختار راسه بعفوية: «هذا أمر أسمع بـه لأول مرة. مـا حاجتنا إلى الإنكليز حتى نخطفهم. إن قريتنـا بحاجـة إلى إمام يحميهـا، لا إلى إنكليز مـلاعين كفـرة». توقف الـرجـل لحظـة، محدقاً في عيني مدير الشرطة: «ربما كان الثوار هم الذين قاموا بذلك. ولكن لا علاقة للقرية بـالأمر. لا بـد أنك تعـرف الأماكن التي يختفون فيها». ثم أشار بيده إلى وراء القرية: «إنهم هناك في الجبال. هذا كل ما نعرفه».

ما كاد المختـار يتوقف عن الكـلام حتى بدأ أطفـال القريـة يغنون نشيدهم المحبب الذي كانوا قد تعلموه في مدرسة القرية:

مليكنـا، مليكنـا نفـديـك بـالأرواح
عش غانما،عش سالماً بوجهكت الوضاح

ولم يجـد مديـر الشرطة بـداً من أن يأمـر رجـالـه بخفض بنادقهم ثم قال، مخاطباً القـرويين الـذين ظلوا يحملقـون فيه: «يمكنكم الانصراف الآن. من الأفضـل أن نتفـاهم مـع مختـار القرية وشيـوخها بـدل الاستماع إلى الأنـاشيد». ثم اتجـه مع المختار وثلاثـة رجال آخـرين من القريـة إلى الكوخ الـذي كان مقهى القرية، يحيط بهم رجال الشرطة. وجـاء قرويـون آخرون جلسوا القرفصـاء فوق الأرض، متنصتـين إلى الحديث، إلا أن مدير الشرطة أمر رجاله بإبعادهم لأنـه ما كـان يريـد لأحد أن يطلع على ما يمكن أن يدور داخل هذا المجلس الذي انضم إليه معاون للشرطة ومفوضان كـانا يقـودان هذه القـوة التي ضمت أكثر من خمسين شرطياً. كان مـدير الشرطـة يعرف أنـه ما من وسيلة لتحرير الأسرى الإنكليز إلا عبر صفقة يعقدها مع رجال القرية الذين كان متأكداً من أنهم قـادرون على مسـاعدتـه، إلا أنه لم يكن ليريد أن يكشف أوراقه كلها دفعة واحـدة: «لا أريد

twitter @baghdad_library

أن يحل الأذى بقريتكم. ما فعله المتمردون الليلة الماضية تجاوز كل حد». وقال المختار متسائلاً: «لا أدري لماذا يقدم الشبان على مثل هذه الحماقات. ما جدوى مثل هذه الأعمال؟». واضطر مدير الشرطة إلى القول: «حسناً، إنني أوكل إليك أمر إعادة الأسرى قبل مغيب الشمس. أنت مختار القرية ومسؤول أمام الدولة عن كل ما يحدث في قريتك». أطلق المختار ضحكة مفاجئة: «ما هذا الذي تقوله يا رجل؟ هل يمكن لمن يقف ضد الحكومة أن يستمع إلى كلام مختار فقير مثلي؟ تصور ذلك أيها السيد المدير، تصور ذلك فقط». تدخل المعاون: «إننا نعرف كل شيء يا مختار. لسنا عمياناً كما تعتقد». عند ذاك قال مدير الشرطة: «قد يكون ما تقوله صحيحاً ولكنك يمكن أن تساعدنا في الإتصال بالمتمردين للتفاهم معهم على إطلاق سراح الأسرى». حدق فيه المختار ملياً قبل أن يقول: «ربما كان ذلك ممكناً. سوف أفعل كل ما أقدر عليه. ما الذي تريد أن تقوله للمتمردين؟». قال مدير الشرطة من دون مواربة: «ليرسلوا أحداً يمكن التفاوض معه حتى نطلع على شروطهم». ولم يطق مدير الشرطة الذباب الذي كان يلسع ويطن في الهواء الحار فنهض وهو يقول: «سوف أنتظر داخل سيارتي. الحرارة هنا تقتلني». وخرج، متجهاً نحو سيارات الجيب التي كانت تقف وسط القرية، يحيط به رجاله الذين شهروا بنادقهم مرة أخرى، دون أي سبب واضح.

كان مدير الشرطة قد توقع أن يلتقي أحداً من الثوار قبل المساء إلا أنه انتظر ثلاثة أيام قبل أن يتمكن من ذلك. كان نبأ هجوم الشرطة على قرية طاووق قد بلغ حميد نايلون في اليوم نفسه بيد أنه لم يجد سبباً يدعوه للإسراع في تلبية مطلب مدير

الشرطة الذي كان يعرف أنه أعجز من أن يفعل شيئاً ضد القرية. لم يكن ثمة خيار آخر أمامه سوى الانتظار.

في واقع الحال، أن حميد نايلون الذي لم يكن قد ذاق طعم الحب الحقيقي في حياته وجد نفسه فجأة أسير العواطف التي فجرتها في جسده المسز هيلين ماكنلي التي منحته نفسها حتى قبل أن يسألها وهي تقول: «لكم كنت بلهاء يا حميد عندما طردتك!»، ثم أضافت: «أعرف أنك غامرت بحياتك من أجل الحصول علي. قل لي إنك قمت بثورتك هذه من أجلي». وغرق حميد نايلون في الضحك. فقد كان هذا آخر ما يمكن للمرء أن يقوله عن ثورته. ثم ضرب بيده على قفاها ممازحاً: «معك أشعر بالثورة تنتصر في جسدي. من أين لك هذه النار كلها؟».

كانت هيلين ماكنلي قد احتلت غرفة القيادة التي هي غرفة حميد نايلون، رافضة الانضمام إلى زوجها والأسرى الثلاثة الآخرين الذين حجزوا في مغارة واقعة على سفح الجبل. وقد قالت لحميد نايلون منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى القاعدة الواقعة داخل غابة بين جبلين أمام الآخرين «أريد أن أكون معك. لا أعتقد أنك سترفض رجاء سيدة مثلي». وبدا لها أنها في حلم يختلط بالموت، لم تكن لتريد أن تستفيق منه. ولكن حميد نايلون كان يعرف أن متعته هذه عابرة وأن عليه أن يطلق سراح أسراه في آخر الأمر.

كانت شروط حميد نايلون واضحة، لا لبس فيها قدمها في قائمة إلى مدير الشرطة الذي نقلها بدوره إلى المتصرف الذي أملاها هو الآخر بدوره في الهاتف على المرافق الخاص لوزير الداخلية. وهي شروط جعلت مجلس الوزراء الذي اطلع عليها يغص بالضحك. فقد علق رئيس الوزراء على وصف حميد

twitter @baghdad_library

نايلون الحكومة بأنها حكومة محتالين ولصوص بالقول: «يبدو أن الرجل يعرف كل شيء عنا». كان حميد نايلون قد طلب استقالة الحكومة وتشكيل حكومة أخرى من الوطنيين والاعتراف بالصين الشعبية. لكنه اكتفى خلال المفاوضات التي استمرت ثلاثة أيام بشروط أخرى عرضتها الحكومة عليه وهي منحه رتبة عقيد فعلية في الجيش وتعيين فلاحيه المتمردين حراساً للقرى المحيطة بمدينة كركوك، بل وذهبت إلى حد الاعتراف لقرية طاووق بحق الأولوية في زيارة ضريح الولي قره قول.

هذه التنازلات التي قدمتها الحكومة جعلت القرويين يتيهون زهواً وخيلاء ويطلقون النار في الهواء، أما حميد نايلون فقد اعتبر الأمر خطوة أولى في مسيرة الألف ميل نحو الدولة التي يحلم بها. واحتفلت قرية طاووق، التي زحف إليها القرويون من كل زاوية وركن بهذا النصر في انتظار قدوم الأسرى والجيش الذي يقوده العقيد أنور مصطفى. ودخل حميد نايلون القرية مثل امبراطور من زمن آخر، جالساً فوق محفة يحملها الأسرى الذين أصروا هم أنفسهم على فعل ذلك، تكفيراً عن ذنوبهم التي ارتكبوها بحق العراقيين وتباهيهم الكاذب وعجرفتهم العنصرية. أما هيلين ماكنلي فراحت ترقص أمام المحفة، باعثة النشوة في قلوب الرجال ومثيرة فضول النساء والأطفال. وقد غمرت الفرحة الجميع حتى أن مدير الشرطة نفسه ترك سيارته واحتضن حميد نايلون بإخاء جعل الدموع تطفر من عينيه، ثم اشتركا في دبكة قدمها رجال قرية طاووق على شرف الأسرى الانكليز. وقد تأثر هؤلاء كثيراً وهم يستقلون السيارات الخاصة التي كانت القنصلية الانكليزية في كركوك قد أرسلتها إلى القرية لنقلهم مرة أخرى إلى بيوتهم. وتعلقت

هيلين ماكنلي بعنق حميد نايلون طابعة قبلة حارة على فمه وهامسة: «سوف أعود إليك مرة أخرى». وشعر حميد نايلون بالأسى وهو يرى الموكب يبتعد قليلاً قليلاً ويغيب وراء الأفق الساقط فوق السهل المنبسط مثل سجادة ملونة، ولكنه كان فرحاً، فقد كان هذا هو أول نصر يحققه، منذ أن بدأ الثورة.

بعد ثلاثة أسابيع من ذلك، وذات يوم قائظ، دخل حميد نايلون مدينة كركوك على رأس قوة ضمت أكثر من عشرين من مقاتليه القرويين المسلحين ببنادق محمولة على الأكتاف وخناجر مدفونة في أحزمتهم فاستقبلوا مثل أبطال خارجين من التاريخ، حيث تدفقت الحشود البشرية من الأزقة الضيقة والمحلات القديمة وحتى من بيوت الشعر التي كان البدو الرحل يقيمون فيها عند أطراف المدينة لرؤية الرجل الذي كان الأكراد يعتبرونه كردياً والعرب عربياً والتركمان تركمانياً، مستندين في ذلك على حقائق تاريخية، يصعب دحضها. وخرج المتصرف ومدير الشرطة ومدير الأمن لاستقبال حميد نايلون الذي كان قد أطال لحيته، مرتدياً ملابس الميدان المصنوعة من الخاكي ومعتمراً بيرية حمراء، جعلها تميل نحو اليسار وطافوا معه في شوارع المدينة التي امتلأت بالناس، وسط الرايات واللافتات التي كان يحملها شبان ملثمون ثم اقتادوه إلى نادي الموظفين، حيث أقيمت مائدة طويلة على شرفه في الهواء الطلق. وخرج حميد نايلون أكثر من مرة إلى الشارع ليحيي الحشد البشري الذي كان قد تجمع أمام النادي وراح يهتف باسمه. ولما ظل الحشد مصراً على الوقوف أمام النادي من دون سبب واضح ارتقى جدار النادي وألقى كلمة، أثبت فيها قدرته على التواضع ومرونته في قيادة الثورة التي كانت لا تزال في بدايتها، حيث أعلن أنه ليس سوى خادم مطيع لصاحب الجلالة المعظم الملك

twitter @baghdad_library

فيصل الثاني، حفظه الله، وأنه لا يريد أكثر من رفع اسم العراق عالياً بين الشعوب المتحضرة. وصفق المتصرف وكبار رجال المدينة الذين كانوا يقفون على مقربة منه عند باب النادي لهذه الكلمات الحكيمة التي نطق بها حميد نايلون والتي امتصت حماسة الناس الذين ظلوا واقفين فترة أخرى من الزمن، ثم أحنوا رؤوسهم وانصرفوا.

وعاد حميد نايلون إلى المائدة، حيث جلس جوار المتصرف، أما القرويون المسلحون الذين رافقوه فقد تحلقوا فوق العشب بين الأشجار أمام الأطباق التي امتلأت بكل ما لذ وطاب من صنوف الطعام. وقد شعر القرويون الذين التهموا كل ما وضع أمامهم من طعام، وتمددوا على العشب، طلباً للراحة، بالمغص يلوي أمعاءهم فجأة، فهرعوا، الواحد بعد الآخر إلى المغاسل التي كانت تقع عند الطرف الآخر من الحديقة وهم يضغطون بأيديهم على بطونهم المقرقرة من دون أن يفطنوا إلى رجال الشرطة الذين كمنوا لهم وراء الأشجار وراحوا يلتقطونهم بصمت ويقذفون بهم، بعد وضع الأغلال في أيديهم داخل شاحنات غطيت من الخلف بستائر من المشمع.

كان حميد نايلون قد استلم رسالة من رئيس الوزراء نفسه، داعياً إياه إلى الدخول في مفاوضات مع الحكومة، بدل اللجوء إلى القتال. ورغم أن حميد نايلون ما وثق قط بالحكومة ووعودها، إلا أنه ما اعتقد أن الأمر يمكن أن ينطوي على مكيدة مدبرة. كان ثمة عفو عام قد صدر عن المتمردين، ولكن كتبا سرية أخرى وصلت إلى مسؤولي المدينة تطلب إليهم اعتقال حميد نايلون ورجاله، من دون إثارة ضجة كبيرة. ووضع مدير الأمن الخطة بنفسه ووافق عليها المتصرف ومدير الشرطة

اللذان غصا بالضحك عند الاطلاع عليها. كان لا بد من تجريد المتمردين من أسلحتهم قبل القبض عليهم، خشية لجوئهم إلى المقاومة. ولم تخطر ببال مدير الأمن وسيلة أسهل للوصول إلى هذه الغاية من مزج الطعام الذي قدم إلى القرويين المسلحين بكمية كبيرة من مسهّل قوي للمعدة، جعلهم يتلوون ألماً. ولم يفطن حميد نايلون إلى اختفاء رجاله إلا عندما تقدم منه ثلاثة رجال مدنيين من الخلف ووجهوا فوهات مسدساتهم إلى رأسه وظهره، حيث قال أحدهم بلهجة لا تخلو من الأدب: «لقد انتهت الحفلة، هيا انهض معنا». وتظاهر المتصرف بالاستغراب: «ما هذا الذي تفعلونه يا شباب؟ لا يجوز هذا، إنه ضيفنا». فرد عليه أحد الثلاثة بهدوء: «أوامر من فوق يا سيدي». وفرك مدير الشرطة يديه: «ما دامت عندكم أوامر من فوق، فلن يستطيع أحد منا أن يفعل شيئاً». وانتزعوا مسدس حميد نايلون من وسطه وجروه من ياقة قميصه إلى سيارة فورد رمادية واقفة أمام ممر للزهور، انطلقت حالما أصبح حميد نايلون داخلها. كانت المفاجأة قد عقدت لسانه، ولكن رأسه ظل صاحياً. وفكر وهو محشور داخل السيارة بين رجلين يوجهان فوهتي مسدسيهما إليه «ما كان ينبغي للحمامة أن تثق بوعود الثعلب». كان حزيناً، ولكنه لم يكن خائفاً، فقد كان يعرف أن كل شيء سوف ينتهي بطريقة ما وأن عليه أن يكون ما كان قد أراده دائماً. في مساء اليوم نفسه أصدرت الحكومة بياناً قالت فيه إن حميد نايلون الذي ينتحل اسم العقيد أنور مصطفى انتهك أصول الضيافة العربية عندما أمر المتمردين الذين كانوا معه بفتح النار على كبار رجال الدولة الذين استضافوه، حيث أصيب ثلاثة من الحراس بجروح بليغة، نقلوا على أثرها إلى المستشفى. وادعت الحكومة أن العناية الإلهية ظللت المسؤولين

twitter @baghdad_library

فلم يصب أحد منهم بأذى، مشيرة إلى أن رجال الأمن الساهرين على حماية أرواح المواطنين تمكنوا من تجريد هؤلاء العصاة من أسلحتهم وإلقاء القبض عليهم وأنهم سوف يلقون العقاب الذي ينتظر كل ناكر للجميل.

لم تنطل الأكاذيب التي نشرتها الحكومة عن حميد نايلون على أحد في المدينة، فقد اكتشف الناس الحقيقة حتى قبل أن تصدر الحكومة بيانها الذي ظلت الإذاعة تردده المرة تلو الأخرى. وعلى طول نهر خاصه صو الذي يشطر المدينة وقعت معارك بين شبان الصوب القديم وشرطة البادية التي كانت قد احتلت الشوارع، وشن شبان جقور الرياضيون هجوماً مخفقاً على موقف القشلة الذي كان حميد نايلون ورجاله قد وضعوا فيه، تاركين وراءهم ثلاثة من الجرحى الذين اختفوا هم أيضاً داخل المبنى المغلق. وزحفت قرية طاووق والقرى الأخرى القريبة أثناء الليل على المدينة من جهة الشرق، فاضطر الجيش إلى التصدي للزاحفين الذين وجدوا الدبابات تغلق أمامهم الطرق المؤدية إلى المدينة. ومع الفجر شنت الطائرات غارات على الزاحفين الذين أرغموا على التراجع وقصفت قرية طاووق والغابات التي كان يختبىء فيها العصاة، مثيرة الرعب بين القرويين الذين فروا إلى شعاب الجبال القريبة.

بعد ثلاثة أيام من المعارك التي دارت في المدينة كسرت القوات الحكومية شوكة المقاومة التي ظلت تقاتل دون هدف، ولم يعد ثمة سوى بعض القناصة المنفردين الذين راحوا يتصيدون رجال الشرطة والأمن من ستائر المنارات العالية المنتشرة بين البيوت، مما أرغم القوات الحكومية على قصفهم بالمدافع التي كانت غالباً ما تخطىء أهدافها، فتصيب البيوت

القريبة محولة إياها إلى ركـام ورماد. وهـرع الناس إلى ضريـح قره قول يحتمون به بينما هام آخرون على وجوههم في البراري، هاربين من الجنود ورجال الشرطـة الذين كـانوا يقتحمـون أي بيت ويعتقلون كل من يصادفونه بعد ضربـه بأعقـاب بنادقهم. أما من يقاومهم فكـان يسند إلى أي جـدار وتطلق النار عليـه. ودفـع الخوف النسـاء إلى الـوقـوف أمـام بيـوتهن والتصفيق للقوات الحكومية، حاملات صور الملك بأيديهن.

كان كل شيء قد ضاع. ولكن برهان عبد الله لم يفقد الأمل. فـالأكذوبـة لا يمكن أن تنتصر على الحقيقـة، مهما امتلكت من أسلحة. كان قد مضى ثلاثـة أيام بليـاليها مـع المقاتلـين الذين تفرق شملهم. ولم يكن ليريد أن يعود مقهوراً ومنهزماً إلى البيت مثل جميع الآخرين الذين سوف يواصلون حياتهم وكـأن شيئاً لم يكن. كان قد كبر فجأة، شـاعراً أنـه لا بد للمقـاومة من أن تظـل مستمرة. وأغمض عينيـه، باحثـاً عن ملائكتـه الثـلاثـة، الشيـوخ القادمـين من الأبديـة إلى الأبديـة، لكنهم كانـوا قـد اختفوا. كانت ثمة صحراء تمتـد وآثار أقـدام عميقة في الـرمل وعواء بنات آوى، ولا شيء آخر. وقال في نفسه «لقد اختفـوا هم أيضاً. أي نصح يمكن أن يقدمه هؤلاء الشيـوخ لي، في مدينـة تنزف دماً».

كان المساء قد هبط فوق المـدينة، فـراح يتنقل من زقـاق إلى آخـر، متجنباً الحـراس السود المـدججـين بـالبنـادق، القتلـة الباحثين عن ضحايا «ان الأمـل يكمن في تحريـر حميد نـايلون من السجن، ذلـك وحده يمكن أن يحـرر المدينـة من الخوف». كان الجميع قد هزمـوا ولكن طاؤوس ملـك وملائكتـه الصغيرة، تلك التي تعرف كل شيء لا يمكن أن تنهزم أبداً. لم يكن يعرف

twitter @baghdad_library

إن كان أصدقاؤه الملائكة قادرين على التدخل في أمر مثل هذا. كان كل ما يريده منهم هو أن ينقذوا حميد نايلون ولا شيء بعد ذلك. فقد كانوا بصورة ما جزءاً من الثورة، إذ لـولاهم لما عثـر على كنز الملاّ زين العابدين القادري والذي مول به حميد نايلون ثـورته المـدماة. وردد مــع نفسه «إنهم مسؤولـون مثـلي، كلنـا مسؤولون». وكان يقتـرب شيئاً فشيئـاً من البيت الذي يمتـلىء بـالأسرار. وعبر محلـة بيريـادي إلى الـزقـاق المؤدي إلى محلـة جقور، ثم استدار يساراً إلى الزقاق الذي تـوجد فيـه الخرابـة التي يقع إزاءها بيت الملائكة. ومســح عينيه بيـده، محدقـاً من جديد في العتمة «لا يمكن أن يكون كـل هذا حقيقـة». تقدم إلى الأمام، ثم توقف مطيلاً النظر. لم يكن أي أثر يدل عـلى أن بيتاً مـا كان هنـاك. لم تكن حتى ثمة أنقـاض وإنما فـراغ غارق في عتمة ليل، تضيئه نجوم شـاحبة. فـاتكأ بـرهان عبـد الله عـلى الجدار وراح يبكي: «كل هذا الوهم، كل هذه الحقيقة!».

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

twitter @baghdad_library

انقضى أكثر من عامين على غياب حميد نايلون الذي كان قد أبعد إلى سجن نقرة السلمان، وهو حصن كبير بني وسط الصحراء الغربية، يقف مثل علامة هائلة مغمورة في الرمل، يحيط به العاقول والصبار، حيث لا يسمع المرء في الليالي سوى عواء ذئاب تطوف حول الأسوار، وقد اجتذبتها رائحة البشر. كان كل شيء قد انتهى، فقد فر العصاة الذين اجتذبتهم الثورة إلى جبال أكثر بعداً أو التجأوا إلى قبائلهم التي ما كانت الحكومة قادرة على الوصول إليها. وأطلق سراح شبان المدينة الذين أسروا أثناء المعارك، بعد شهر أو شهرين من تأديبهم بالفلقة، وجعلهم يهتفون ثلاث مرات في اليوم بحياة الملك. وعاد الفرح مرة أخرى إلى المدينة التي لبت نداء المتصرف، فخرج الرجال والنساء والأطفال إلى الشوارع، مصفقين للمواكب المنتصرة التي كانت ترفع الأعلام العراقية وصور الملك، محتفلة بنجاة مسؤولي المدينة من المؤامرة التي دبرها العصاة وهزيمتهم. في البداية سار موكب حملة الأعلام، يتبعهم موكب شرطة البادية فوق جمالهم، والشرطة الخيالة على صهوات خيولهم والشرطة الجبلية التي كانت تجر بغالها وراءها، يتبعها موكب المخبرين السريين الذين غطوا وجوههم بالأقنعة. وصفق

الناس طويلاً لموكب رجـال الدولـة، يتقدمهم المتصرف، جـالساً داخـل عربـة الذهب السيـارة التي كان المـلّا زين العـابـدين القادري يذهب بها إلى المقهى. ووراء موكب رجـال الدولـة سار الدراويش، الذين كان كل واحد منهم يحمل بيـده اليمنى قنينة مكسورة، يتسلى بالتهامها ومضغها. ثم مـر موكب الـرياضيـين الذين قدموا ألعاباً سويدية مسليـة، والصفارين الـذين كانـوا يقرعون أوانيهم النحاسية، وحفـاري القبور الـذين رفعوا عـلى أكتـافهم جنازة حمـراء، كتب عليهـا بلـون أبيض بخط الثلث: «الثورة».

كـانت الفوضى التي عمت المـدينـة قـد انتهت وخفتت حتى حمى اللجوء إلى ضريح الـولي قره قـول منصور الـذي أعادتـه الحكـومة إلى زوجتـه فأسـاءت تدبـير أموره، حيث تحـول بعد شهور إلى إمام آخر مثل جميع الأئمة الآخرين المنسيين في برية المصـلى. وافتتحت في مركـز المدينـة، حيث يقع حصن الفـرقـة العسكـرية الثـانية، مقـاه صيفية، كـانت تظـل سـاهـرة حتى منتصف الليـل، ومقاه شتـوية، تمتـلىء بلاعبي البليـارد الذين كانوا ينتظرون دورهم أمام المناضد الخضراء. وانتشرت محلات بيـع اليانصيب الـذي كان ينظمـه الهلال الأحمـر بسحبتـين، أسبوعية وشهرية، والتي كانت تلصق صفحة الأرقـام الفائـزة فيه على ألواح توضع فوق الـرصيف ليقرأهـا المارة. واستجلب الخيـاطون والخيـاطات مـوضاتهم من بـاريس ولندن وبـيروت واستـانبـول، فـانتشرت السراويـل الضيقـة من الأسفـل. أمـا الفتيات الآشوريـات اللواتي كن يخـرجن عصراً، متنـزهات في شارع تكساس، فقد ارتدين الثياب القصيرة التي كانت ترتفـع فوق الركبة. وافتتح بغدادي جاء من الأعظمية مطعماً من غرفة صغـيرة واحدة في شـارع العلمـين، يشبـه المتجـر بصنـدوقـه

twitter @baghdad_library

الزجاجي الطويل الذي جعل منه مقصفاً، راح يبيع الساندويش الذي كان يؤكل وقوفاً مع البيبسي كولا والكوكا كولا، وهو أمر ما كانت كركوك قد عرفته من قبل، مما أرغم الكثير من مطاعم الكباب على إغلاق أبوابها، بعد أن هجرها الشبان التواقون إلى الحياة العصرية.

واختفى خضر موسى عن الأنظار حتى قبل ذهاب حميد نايلون إلى الجبل الذي قاد منه ثورته الفاشلة، ولم يعد الناس يرونه إلا صدفة، وهو يسير في الشارع وحيداً ساهماً، غارقاً في أفكاره أو خارجاً إلى البرية في الأماسي للنزهة، برفقة صديقيه دده هجري ودرويش بهلول، مثل أشباح خارج كل تاريخ وكل زمن. كانوا يسيرون في صف واحد دائماً، يحدقون في أسراب القطا القادمة من الغرب أو يجمعون باقات من الأوراد البرية الملونة ثم يجلسون على الصخور ويتحدثون عن الغروب. وفي الليل يعودون إلى البرج الذي أقامه خضر موسى فوق التكية التي لجأ إليها ذات مرة قبل أعوام والتي سمع فيها صوت شقيقيه الأسيرين، ينادبانه من روسيا. وقد قاوم خضر موسى هذه المرة أيضاً نزوات زوجته نظيرة وأمها الساحرة، اللتين كانتا تهاجمان بين الحين والحين التكية التي يرتفع فوقها البرج وتبدآن بشتم دده هجري ودرويش بهلول اللذين كانتا تقولان إنهما أغريا خضر موسى بالانسحاب إلى هذا البرج العالي الذي ما كانتا قادرتين على ارتقاء سلالمه، بسبب سمنتهما المفرطة. كانتا تظلان هناك، تحت، تشتمان الرجال الثلاثة بصوت عال، متعمدتين إسماع الناس الذين كانوا غالباً ما ينصحونهما بالكف عن هذا الهذر، من دون أن يرد عليهما أحد من الرجال الثلاثة الذين كانوا يظلون صامتين، كما لو أن الأمر لا يتعلق بهم.

اعتقد الناس أن الغنام القديم أصيب بنوبة صوفية جـديدة فاعتزل الحياة، وهو أمر غالبـاً ما كـان يحدث عنـد الشيوخ في كركوك، ولكنهم كانوا مخطئين هذه المـرة، فالبـرج الذي أقـامه خضر مـوسى فوق التكيـة كان في واقـع الحـال المـركـز السري للمؤامرة التي كان الجيش يدبرها، وهو أمـر ما كـان يمكن أن يفطن إليـه أحد، اقتـرح بناءه درويش بهلـول، بعد أن حـدثـه خضر موسى بما كان العقيد عدنان الدباغ، قائد الفـرقة الثـانية قد عرضه عليه، والذي كان قد شعر بمودة خاصة تجاهـه منذ المـرة الأولى التي التقاه فيهـا في نادي الضبـاط. فعندمـا زاره خضر موسى بعد ذلك في مكتبه ومن ثم في بيتـه كانت الحـواجز التي تفصلهما عن بعضهما الآخر قد سقطت، حتى أن العقيـد راح يستشيره في أموره العسكرية. وفي اليـوم الذي اعتقـل فيه حميد نايلون قصد خضر موسى الذي كان ممتلئاً غضباً العقيد، طالباً إليـه التدخـل لإنهاء قتـل السكان الآمنـين. ولكن العقيد أمسكـه من يده وأجلسـه على مقعـد جواره، وهـو يقول: «ليس الآن. لم يحن الوقت بعد. لا بـد من الإنتظار بعض الشيء»، ثم أضاف بعد تردد: «إننا نحتاجك. أرجـو ألا تخيب أملي فيـك». وعادت الحياة فجـأة إلى وجه خضر مـوسى الذي نهض وعـانق العقيد: «إن حياتي التافهة فداء لحرية الوطن. قل لي ما ينبغي عمله. أستطيع أن أفعل الكثير». ابتسم العقيد عدنان الدبـاغ: «كنت واثقاً من ذلك يا خضر».

لم يكن ثمة الكثير الذي ينبغي على الرجال الثلاثة القيـام به في بـرجهم الذي ركـزوا فـوقـه علمـاً إسـلاميـاً أخضر سـوى الاحتفـاظ بالـوثائق السريـة التي كانت تضم أسمـاء الضبـاط المشتـركين في المؤامـرة وخطتين، إحـداهما تنفيـذيـة وأخـرى

twitter @baghdad_library

للطوارىء، مع سجل صغير ضم أسماء الذين ينبغي اعتقالهم منذ اليوم الأول، سلمها خضر موسى لدرويش بهلول الذي وضعها على الرف مع الكتاب المحفوظ الذي كان ينظر فيه كل يوم قبل أن يخرج إلى عمله الذي ما كان ينقطع. وفي ركن من البرج وضعت المطبعة الصغيرة التي كان حميد نايلون قد جلبها من بغداد عند زيارة الملك، فظلت مرمية في مدخل البيت حتى شاهدها دده هجري فطلبها لنفسه، ليطبع بها دواوينه الكثيرة التي ما كان يجد لها ناشراً في كركوك. وهكذا صدرت من البرج البيانات الأولى التي هزت الحكومة وجعلتها ترتعب، حاملة اسم منظمة الضباط الأحرار والتي كان دده هجري يحملها بنفسه إلى بيت في القلعة ثم يتركها هناك. وترك العقيد عدنان الدباغ أمر قيادة المدنيين في يوم الثورة لخضر موسى الذي كان واثقاً من أن المدينة كلها سوف تتبعه عندما تحين ساعة الصفر.

في الليلة التي سبقت صباح الثورة التي فاجأت الجميع هبط درويش بهلول من البرج، حاملاً في يده اليمنى صرته التي كانت تضم كل ما يملكه فالتقى خضر موسى الذي كان عائداً من نزهته المسائية على السلالم فقال له فرحاً: «حمداً لله أنك قد عدت في اللحظة المناسبة». رد خضر موسى في الظلام الشفيف الذي كان يخيم على السلالم: «ما هذه الصرة التي تحملها؟ لا أعتقد أنك سوف تتركني في مثل هذا اليوم». ووضع درويش بهلول يده على كتف خضر موسى بمودة قائلاً: «بل ينبغي أن أغادرك في مثل هذا اليوم. ثمة أعمال كثيرة تنتظرني غداً في بغداد»، ثم أضاف مبتسماً: «أنت تعرف أنني سأعود في النهاية». وعرف خضر موسى أن دماً كثيراً سوف يسفك في

اليوم التالي، فغادر النوم عينيه، حيث ظل يفكر طوال الليل في المجهول الذي يضمره الغد.

في تلك الليلة زحف الجنود على مدينة بغداد التي يقيم فيها الملك فيصل الثاني ورجال الحكومة مثل لصوص متسللين، قادمين من قاعدتهم البعيدة فاحتلوا كل زاوية فيها حتى قبل أن يفطن أحد إلى أن ثمة أمراً ما قد حدث. وعند الفجر اقتحمت وحدة من الجنود قصر الملك الذي كان يغط في نومه، فظلت واقفة في قاعة الشرف، تنتظر خروج الملك، وقد انتابها القلق. بعد دقائق انفتح باب ما، أطل منه درويش بهلول الذي ألقى نظرة صامتة على الجنود وهم يشهرون في وجهه بنادقهم التي كانوا يضعون أيديهم على زنادها. ثم قال للضابط الذي يقودهم، غائباً في ممر طويل، مفروش بالسجاد الأحمر: «سوف أذهب وأوقظ الملك». وفتح درويش بهلول باب مخدع الملك الذي كان نائماً بالبيجاما. تقدم ووضع يده على رأسه، هامساً: «لقد حلت الساعة، ها أنذا آتيك ثانية يا صاحب الجلالة». وفتح الملك عينيه فجفل من الصدمة: «ماذا تفعل في غرفتي؟»، فرد درويش بهلول بأسى: «هيا انهض يا صاحب الجلالة، جئت لآخذك معي». وقال الملك متذكراً: «مرحباً يا درويش بهلول. كيف وصلت إلي؟». رد درويش بهلول بأدب: «إنني الموت يا صاحب الجلالة، جئت أقودك إلى قتلتك الذين ينتظرونك في صالة الشرف». قال الملك حزيناً: «لقد حانت الساعة إذن يا درويش بهلول. أليس كذلك؟». قال درويش بهلول متأثراً بعض الشيء: «أجل يا صاحب الجلالة. إنها الساعة التي لا بد منها». وارتدى الملك روباً فوق بيجامته، ثم خرج مستنداً إلى كتف درويش بهلول، آملاً أن يكون ذلك كله حلماً، يستيقظ منه بعد حين.

twitter @baghdad_library

في ذلك الصباح الذي ظل الناس يتذكرونه أعواماً طويلة أطلق الجنود النار على الملك الذي كان في الحادية والعشرين من عمره، فسقط على ركبتيه متمتماً وهو يحدق في درويش بهلول الذي حمله على كتفه، قاصداً الاصطبل الذي كان ملحقاً بالقصر والذي تقف أمامه دائماً العربة الملكية المنقوشة بالذهب. وضع الملك الذي كان الدم يسيل من جروحه الكثيرة داخل العربة التي لطخ الدم قماشة مقعدها، ففتح الملك عينيه للمرة الأخيرة وقال بصوت واهن: «وداعاً أيتها الحياة القصيرة الجميلة». ابتسم درويش بهلول وهو ينظر في ساعة، أخرجها من جيبه، قائلاً: «ما زالت عندك دقيقة أخرى، يا صاحب الجلالة». مد الملك يده الملطخة بالدم وأمسك يد درويش بهلول «كن رحيماً بي أيها السيد الموت»، وضغط عليها. وانتظر درويش بهلول قليلاً حتى رن منبه ساعته، فأخرج دفتراً من جيبه وشطب اسم الملك. ثم أخرج حصانين شدهما إلى العربة التي انطلق بها من باب مفتوح على المدينة التي كانت لا تزال غافية، غارقة في السكون الذي كانت تقطعه صليات الرصاص بين الفينة والأخرى.

أمضى درويش بهلول ثلاثة أيام، لم يذق فيها طعم النوم لحظة واحدة. فقد أصيبت المدينة بالجنون حالما سمعت البيانات التي كان يطلقها من الإذاعة مثل صرخات صادرة من السماء عقيد لم يكن أحد قد سمع باسمه من قبل، مقطوعة بمارشات عسكرية، تنقر داخل رؤوس انفتحت على الموت فجأة. فقد انتهى سأم الناس الذين اندفعوا إلى الشوارع حتى لكأنهم في حفلة كبرى، تشمل العالم كله. خرجوا من أزقة الرماد في الفضل والشواكة والأعظمية وجاؤوا من عقد

النصارى وبغداد الجديدة والتاجي، ومدينة الصرائف، حاملين في أيديهم الطبول والدنابك التي كانوا يقرعونها فيرقص على إيقاعها الموظفون الذين تركوا دوائرهم ونزلوا إلى الشوارع. ودبك القرويون الذين جلبوا رايات سوداً من حسينياتهم الكثيرة في الميادين العامة ووسط الشوارع، مهوسين للثورة التي ما كانوا يعرفون في واقع الحال أي شيء عنها. وامتلأت المدينة بالقردة والدببة والأسود والفهود والنمور التي أخرجها المروضون من سيرك هندي، كان يقدم عروضاً كل مساء في مكان ما خارج المدينة. وقدمت راقصات الملاهي الليلية حفلات رقص شرقي مجانية للجنود المتعبين، حتى أن البهجة جعلت الراقصات يتعرين من ثيابهن، فاغتصبن فوق العشب المحروق، وسط صراخ الناس وتدافعهم لرؤية هذه المشاهد المثيرة، إلا أن بعض النساء المتفرجات أشحن بوجوههن خجلاً، في حين قالت أخريات: «لقد جاءتنا الحرية أخيراً». واستبدت الحماسة بالناس فاهتاجوا، مهاجمين كل ما اعتبروه عدواً لهم. اجتاحوا القصور الفخمة وقتلوا سكانها بالعصي والأرجل، ناهبين كل ما يمكن حمله. وتدفقت موجة بشرية فاجتاحت قصري الرحاب والزهور الممتلئين بالجثث فربطتها بالحبال وأخذت تجرها عارية في الشوارع قبل أن تعلقها على أعمدة الكهرباء في الباب الشرقي، هاتفة «ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة». بعد ثلاثة أيام لم يبق من الجثث سوى عظامها، فقد صعد أحد القصابين وقطع قضيب الوصي عبد الإله الذي كان يتدلى بين فخذيه ثم دسه في مؤخرته، وسط تصفيق الجمهور الذي غص بالضحك، ثم صعد آخرون يحملون البلطات بأيديهم وراحوا يقطعون أيدي وأرجل الجثث ويرمون بها للقرويين الذين كانوا يتقاتلون للحصول على قطعة منها.

twitter @baghdad_library

في اليوم الثالث عاد درويش بهلول إلى مدينة كركوك التي تغير كل شيء فيها، حتى لكأن العالم في عيد أبدي أو مهرجان، يظل مستمراً في الليل والنهار. كان خضر موسى قد ارتدى بذلة عسكرية ووضع شارة حمراء فوق يده، بعد أن جرى تعيينه قائداً لقوات الدفاع الشعبي عن الجمهورية، وراح يتنقل ما بين المقاهي الكثيرة التي اتخذها المتطوعون المسلحون بالعصي والسكاكين والحبال مقرات لهم، طالباً إليهم فتح عيونهم جيداً، فقد يهجم الانكليز مرة أخرى من معسكر الحبانية أو الشعبية اللذين كانت قواتهم توجد فيهما، كما حدث قبل سبعة عشر عاماً. لم تشهد مدينة كركوك في الحقيقة مجازر مثل تلك التي حدثت في بغداد، على الرغم من أن الناس خرجوا إلى الشوارع حالما سمعوا نبأ إعلان الجمهورية، إذ لم يهاجموا سوى المركز الثقافي الأميركي الذي نهب المثقفون والبقالون معظم كتبه. كان المثقفون قد عرفوا منذ زمن قيمة تلك الكتب، أما البقالون فقد وجدوا فيها مصدراً لا ينضب للورق الذي كانوا يحتاجونه في صنع لفائف الشاي والبهارات الصغيرة التي يبيعونها. وخرج الشيوعيون من سراديبهم الكثيرة، رافعين لافتاتهم التي بهرت الناس بشعاراتهم التي ما كان الكثيرون يعرفون معناها. وترك منظر الرايات الحمر، بالمنجل والمطرقة انطباعاً، أصبح حقيقة بعد حين، وهو أن الشيوعيين هم الذين قاموا بالثورة، حتى أن الكثيرين راحوا يتباهون بأنهم كانوا شيوعيين دائماً. وقد أزعج هذا الأمر كثيرين آخرين، اعتقدوا أنهم هم الذين قاموا بالثورة، فانقسمت المدينة إلى شيوعيين، يجلسون غالباً في المقاهي ويلعبون الشطرنج أو يقرأون جريدة «النور» التي كان خالد بكداش يصدرها في دمشق، فتباع مثل سلعة نادرة في مقهى الجبهة في كركوك، وإلى تركمان طورانيين، رفعوا شعار

الوحدة العراقية - التركية ضد البعثيين والقوميين العرب الذين خرجوا إلى الشوارع مطالبين بالوحدة العربية الفورية التي أزعجت البارتيين الأكراد فجعلتهم يدعون إلى تشكيل دولة كردستان الكبرى، في حين رفع الأرمن الطاشناق لافتة، تطالب بالاقتصاص من الأتراك القتلة وضم أرمينيا إلى تركيا. أما الآشوريون الذين كان الانكليز قد وعدوهم بإقامة دولتهم في شمال العراق فراحوا يغنون فرحين في الشوارع «تلكيف نال استقلالوخ، دين محمد بطالوخ» وهو أمر أفزع أعضاء «الحياة الآخرة» الذين رموا باللوم كله على الشيوعيين، فهاجموا مقاهيهم وأشعلوا النار في لافتاتهم التي كانوا قد كتبوا عليها «ماكو مهر، بس هاالشهر، دبوا القاضي بالنهر»، ووزعوا على الشبان التركمان ميداليات ذهبية، تحمل صور قطط سود، فاغرة أفواهها، وضعوها على صدورهم، لتأكل حمامات السلام البيض فوق الميداليات التي كان الشيوعيون يثبتونها في العادة فوق صدورهم أو يعلقونها في أعناقهم.

في الأشهر الأولى التي أعقبت الثورة والتي انفلتت فيها العواطف من عقالها، سيطر الشيوعيون على معظم أحياء كركوك الشعبية التي أعلنوها جمهوريات ديمقراطية شعبية، ذات حكم ذاتي، حيث انضم إليهم رجال الأمن والشرطة الذين كثيراً ما كانوا يسيرون في مواكب منتظمة، قاطعين شوارع المدينة وهم ينشدون بصوت عال «اسأل الشرطة: ماذا تريد؟ وطن حر وشعب سعيد». وكانت الحماسة تدفع رجال الأمن بين الحين والآخر إلى اعتقال الذين لا يصفقون في الشوارع، بتهمة التآمر ضد الجمهورية، فيضربونهم حتى الاعتراف في النهاية بالمؤامرات التي كانوا يدبرونها في الخفاء ضد العقيد الأوحد

twitter @baghdad_library

الذي كان ينافسه عقيد آخر أراد أن يكون أوحد هو الآخر، فاعتقل ثم ضرب حتى قبل بتعيينه سفيراً في بون وعيناه ممتلئتان بالدموع، مما جعل المطربين يسخرون منه شامتين في أغنية شعبية، كانت الإذاعة تبثها ثلاث مرات في اليوم «رايح سفير إلى بون، يبكي خطية». ولكن الرجل لم يغادر مطار بون ـ كولون الذي هبطت فيه طائرته، حيث عاد على متن الطائرة نفسها التي أقلته، فاعتقل مرة أخرى، لأن زوجته، وهي امرأة سليطة اللسان، تخافها نساء محلتها، اقتحمت وزارة الدفاع وراحت تشتم العقيد الأوحد وأمه التي كانت تقترض منها النقود، فلا تعيدها إليها. وسلم العقيد الأوحد العقيد الآخر إلى قاض عسكري، جهوري الصوت، ما كان ينطق إلا شعراً، فواجهه حال وقوفه في قفص الاتهام، متسائلاً:

ماذا تقول وأنت كلب أغبرُ؟

هل جئت تبكي أم تراك تطرطرُ؟

ولكن المدعي العام تدخل لينقذ الجلسة من القصيدة التي كان يمكن أن تستمر ساعات أو ربما أياماً، لأن كل بيت كان يقاطع في العادة بقصيدة من شعراء الشعب الذين توافدوا على المحكمة، وسط تصفيق الجمهور وهلاهل النساء وهوسات الفلاحين المدوية، معلناً أن الخائن الأوحد الذي يقف أمام العدالة أتفه من أن يدافع عن جرائمه الكثيرة بحق الشعب، أما دموعه فليست سوى دموع تماسيح، تعيش في المياه الآسنة. واقترح إعدامه في ساحة التحرير ليكون عبرة لمن يعتبر من الخونة في المستقبل.

واستهوت الناس هذه الحفلات التي صارت تسليتهم الوحيدة، حتى أن كل محلة أوجدت محكمتها الشعبية الخاصة

بها والتي كانت تعقد في أي وقت من الليل والنهـار. وقد امتـد هذا الهوس إلى محلـة جقور أيضـاً، حيث نصب هادي أحمـد، وهـو الصبي الذي كـان قد أصيب بـالعمى في عينه اليسرى في معركة كاورباغي قبل أعوام رئيسـاً للمحكمة الشعبيـة التي لم تجـد من تحاكمـه، رغم اكتشـاف مؤامـرات كثـيرة في أمـاكن أخرى، حتى بوغت الناس ذات يوم بهادي أحمد الـذي لم تكن الرشاشـة لتفارق كتفـه يقود والـده العجوز واثنـين آخرين من الجيران إلى برية المصلى مرغماً إياهم على حفر قبورهم بمعـاول في أيديهم في انتظار إطلاق النار عليهم، بـدعوى السخـرية من الثورة. ولم ينقذ الرجال الثلاثة سوى نساء محلة جقور اللواتي غافلن هادي أحمد فهاجمنه وعضضنه في يـديه وكتفيـه، فرمى الرشاشة وولى هارباً، وهو يشتم ويهدد بالإنتقام.

كانت الثورة في الحقيقة قد سحرت الناس فجعلتهم يتغيرون ويقـومون بمـا لم يكن أحد يتـوقعه منهم. فقـد أخذ الكثـيرون ينامون في النهار ويسهرون في الليـل، وأطال الشبـان لحاهم في حين لجأ الشيوخ إلى صبغ شعر رؤوسهم بالحناء، وولد أطفـال كثيرون من أمهات عذراوات، نطقوا، مدهشين النـاس بكلماتهم الحكيمة، حال خروجهم إلى الدنيا، ونبتت أسنان إضافية عنـد أبنـاء بعض الطوائف، أثـارت اهتمام الأطبـاء الـذين وضعـوا دراسـات وافية حـول هذه الظـاهرة التي لم تكن غـريبـة عـلى الجنس البشري.

ومـع الحريـة الجديـدة التي فاجـأت الناس اضطـر مدراء السجـون إلى فتح أبـوابهم المغلقة فخـرج السجناء القـدامى، عائدين إلى مدنهم التي استقبلتهم مثل أبطال أسطوريين انتهى منفاهم. فقد وقف حميـد نايلـون ورجالـه الذين دخلـوا مدينـة

twitter @baghdad_library

كركوك، حاملين الرايات الحمر، في ميدان وسط المدينة، احتشد فيه الناس وقدموا عـروضاً حيـة عن التعذيب الـذي كانـوا قد تعرضوا له في السجون والمعتقلات التي أقاموا فيها. فقـد نزع حميـد نايلـون قميصه الأزرق المخطط بـالأبيض فبـان صـدره المشعر وظهره الملحوم، حيث تركت السيـاط وجمرات السجـائر آثـارها في اللحم البشري. وقـدم الآخرون الـذين كانـوا معه في السجن عروضاً تمثيلية واقعية عن طـرق التعذيب المـألوفـة في العراق، إذ نزل الجلادون من شاحنـة، كانـوا قد حجـزوا فيها ووقفـوا أمام ضحـاياهم المـرتجفين الـذين كـان عليهم المـرور بالتجربة للمرة الأخـيرة. وتبرعت فتيـات من الحشود المتفـرجة فـانضممن إلى الضحايـا الـذين شـدت أيـدي الكثـيرين منهم بالحبال، بينما أخذ الجلادون يضربونهم بقضبـان من الأسلاك المعقودة، غير آبهين بالدم الذي كان يتدفق فيلطـخ أيديهم. رغم الخجـل وجـد الضحـايـا أنفسهم يصرخـون، متـوسلـين إلى الجلادين الكف عن ضربهم، ولكن عبثاً، فقد استعاد الجلادون روحهم القديمة التي ما كانت قـد فارقتهم. كـانت هذه الحفلـة التي قدمت في الهواء الطلق مثـيرة ومسلية، استهـوت الجمهور الذي راح يطالب بـرؤية كـل شيء. فلم يجد الجـلادون بداً من إخـراج فلقاتهم التي تشـد على الأرجـل فتضرب على بـاطنهـا، والزجاجـات التي وضعوهـا في مؤخرات ضحـاياهم والكـلابات التي اقتلعـوا بها أظـافرهم، بـل إنهم جلبـوا مـراوح سقفيـة، علقوها بأعمدة الكهرباء، ثم شدوا أيدي ضحـاياهم إلى الخلف وربطوهم إليها بعـد رفعهم عن الأرض ثم جعلوهـا تدور بقـوة، حتى انخلعت أكتاف الضحايا الذين ظل الجلادون يضربـونهم بـالعصي أثناء دورانهم، فيصيبـونهم كيفمـا اتفق، غـارقـين في الضحـك. ومزقت ثيـاب الفتيـات المتطـوعـات واغتصبن أمـام

الحاضرين، من دون أن يبحن بكلمة اعتراف واحدة عن خلاياهن السرية. ثم أوقف الذين انهاروا، عاجزين عن مقاومة التعذيب في صف واحد وطلب إليهم العواء، فراحوا يعوون مرة مثل كلاب تائهة في ليلة مقمرة، وأخرى مثل ذئاب جائعة، أو بنات آوى، مضطربة وهي تقترب من حافات القرى.

هذا الضعف البشري جعل الجمهور الذي كان مأخوذاً بفكرة البطولة التي صنعت الثورة، يفقد أعصابه ويهاجم الخونة المنهارين الذين ضربوا مرة أخرى فاختلط عواؤهم بالشتائم التي كانت تأتيهم من كل مكان «الخاين شعبه، نقطع ايده». ولم ينقذ الموقف سوى حميد نايلون الذي ألقى كلمة بليغة بالمايكروفون، شكر فيها الشعب على حماسته وأشار إلى أن الغضب يجب أن يوجه ضد الجلادين، لا الضحايا الذين قدموا كل غال ونفيس من أجل حرية الوطن. ما كاد الجلادون يسمعون هذه الكلمات المحرضة حتى لاذوا بالفرار، فلحقهم الناس الذين كان الشرر يتطاير من أعينهم وقتلوهم بالعصي والأرجل، ثم عروهم من ثيابهم وشدوهم من أرجلهم بالحبال وراحوا يجرونهم من شارع إلى آخر، يلاحقهم الأطفال مغنين وهاتفين، مقلدين الكبار. ولكن بعض الذين جرى شدهم إلى سيارات تسحلهم، كان يستعيد وعيه فيظل يرفس، محاولاً الإفلات من الأنشوطة، حتى أن ثلاثة أو أربعة منهم نجحوا في تحرير أرجلهم، فنهضوا وراحوا يعدون عراة في الشوارع، مثيرين ضحك الجمهور الذي كف عن مطاردتهم. أما الآخرون فقد شنقوا على الأشجار أو علقوا على أعمدة الكهرباء والتليفون.

كانت مدينة كركوك قد أدمنت هذه الأخرى على الموت مثل

twitter @baghdad_library

المدن الأخرى، متبعة رغبات العقيد الذي كان يغير بين الحين والآخر أفكاره، مأخوذاً بينبوع النور الذي كان يتدفق من روحه مثل وحي يهبط عليه من السماء، فيتحول إلى تعليمات صارمة، توجه إلى دوائر الأمن التي كانت تدير عصابات قتلة من كل صنف ولون. فعندما بدا أن العقيد صار شيوعياً راحت العصابات تطوف المدن وتسلم من لا يزين صدره بالمنجل والمطرقة إلى القصابين الذين كانوا يعلقونه من رجليه بالخطاطيف، مع خرافهم. وعندما انقلب ضدهم، مثلما كان يحدث غالباً، هجمت الطوائف الأخرى عليهم وأسرتهم، مرغمة آباءهم أو أمهاتهم على قتلهم بالسكاكين والحراب. ولكن الكثيرين منهم أحرقوا أحياء في حفلات شعبية، كانت توزع فيها النساء الشوكولاته والحلوى والملبّس على الجمهور الذي كان يهتف دائماً مع اتجاهات الريح. بعد شهور انقلب العقيد الذي ملأ المدينة بصوره وتماثيله مرة أخرى فأصدر صحفاً، راحت كل واحدة منها تهاجم طائفة من الطوائف قائلة إن العقيد نفسه يقف فوقها جميعاً، وصدرت قوانين تحرم فعل أي شيء لا يقترن باسم العقيد الذي كان قد كرس حياته كلها من أجل الشعب. توجب على المطربين الشعبيين أن يدسوا اسمه في أغاني الحب والغرام التي تتغزل بالحبيبة التي ما كان يمكن لها أن تنام مع رجل، لا يحب العقيد الأوحد. وكانت النساء يلدن أطفالهن من دون ألم، إذا استمعن إلى القابلة، تتلو عليهن تعاليم العقيد وحكمياته التي صدرت في مجلدات لا عد لها، ووزعت على تلاميذ المدارس والموظفين الحكوميين ونقابات العمال ودواوين الشاعر عبد التائب عبد الغائب الذي أشاع في معلقاته أن العقيد يجلس على حافة الأبدية ويمد رجليه فوق التاريخ. والحق يقال أن الطوائف كلها أصيبت بما يشبه اللوثة

في روحها المحروقة. فإذا ما هاجم أعضاء «الحياة الآخرة» الشيوعيين هتفوا قبل كل شيء «عاش العقيد، المسلم الأوحد، قاهر الشيوعية والشعوبية». وكان الشيوعيون يردون عليهم بشعار «عاش العقيد الأوحد، قاهر الرجعية». وإذا ما اختلف البعثيون مع القوميين هتفوا بأعلى أصواتهم «عاش العقيد الأوحد، مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي» ليغطوا على هتاف «عاش العقيد الأوحد، قائد الوحدة العربية ومحرر فلسطين». وكان الأكراد يخيفون التركمان عادة بشعار «عاش الكاكه العقيد الأوحد، موحد كردستان» فيردون عليه بشعار «عاش العقيد الأوحد القرداش، محرر الأتراك من الأوباش». ولم يقتصر الأمر على الحرب بالشعارات المختبئة وراء اسم العقيد، فقد أخذ الناس يقتلون بعضهم الآخر بالرصاص والخناجر والبلطات في وضح النهار، وفي الليالي كانوا يشعلون الحرائق في بيوت خصومهم، فتلتهمها النيران التي غالباً ما كانت تمتد إلى البيوت المجاورة أيضاً، فتحيلها رماداً.

وبدا خضر موسى الذي أفجع قلبه الخراب الذي حل بمدينته أشبه بمن أضاع نفسه. كان كل شيء قد أفلت من يديه ولم يعد يجد من يستمع إليه. وقد تهاوى العالم دفعة واحدة أمام ناظريه عندما اقتاد رجال الأمن ذات مرة شقيقيه العجوزين إلى المخفر وضربوهما، متهمينهما بالترويج للألحاد في محلة جقور. فاضطر إلى أن يقصد العقيد عدنان الدباغ الذي تدخل فأطلق سراحهما، ناصحاً إياه بإعادتهما مرة إخرى إلى طاشقند التي كانا قد جاءا منها، ولكنهما فضلا أن يقصدا مدينة مكة المكرمة حيث اتخذا لنفسيهما زاوية في فناء الكعبة التي كانت تحمي كل من يلتجى إليها. ولما فقد خضر موسى آخر

twitter @baghdad_library

أمل في قلبه انسحب مرة أخرى إلى برجه القائم فوق التكية، بعد أن نزع عنه بذلته العسكرية وأعادها إلى العقيد عدنان الدباغ، منقطعاً عن الدنيا ومكرساً ما تبقى من عمره لذكر الله مع صديقيه دده هجري ودرويش بهلول اللذين انضما إليه، مبتعدين عن الشر الذي استفحل في كل مكان من المدينة.

لم يعد الرجال الثلاثة يغادرون برجهم أبداً. كان كل شيء يبدو مكرراً ورتيباً. موت يتبع موتاً وجنون يعقب جنوناً. فقدت المدينة براءتها الأولى فامتلأت بالمحتالين والقتلة. ورفض الرجال الثلاثة أن يستقبلوا أحداً سوى حميد نايلون وبرهان عبد الله اللذين كانا يحملان إليهم الطعام والسجائر كل يوم، حتى بدا أن الناس قد نسوا تماماً هؤلاء الرجال الذين ما عاد أحد يذكرهم. واكتفى درويش بهلول الذي ما كانت أعماله لتنقطع بوضع ساعة منبه إلى جانبه، تذكره بشطب هذا الاسم أو ذاك من اللوح المحفوظ الذي كان يضعه تحت وسادته. لم يكن هذا بالتأكيد إهمالاً، تعمده درويش بهلول وإنما لأن الناس لم يعودوا يأبهون بالموت. فقد أخذوا يموتون هكذا ببساطة، وكأنهم فقدوا كل حس بالحياة، مانحين أنفسهم للموت الذي ما تعبوا منه، حتى أنهم أنشأوا أغاني راحوا يرددونها في الشوارع مثل «يموت الشعب ويحيا العقيد» و«اعدم، اعدم، كل الشعب يريد، اعدم، اعدم». وكان العقيد، وهو رجل ذو طباع غريبة، قد استبدل البلبل الذي يغرد في الإذاعة قبل افتتاح برامجها بأسد شركة ميترو غولدوين ماير الذي يزمجر في مستهل كل فيلم من أفلامها، مخيفاً به أعداءه. ومع الموت انتشرت الخرافات التي كان فلكيو العقيد يشيعونها بين الناس فتنتشر مثل النار في الهشيم. فقد اشترى الكثير من القرويين

الذين يسكنون في الصرائف نواظير، راحوا يوجهـونها كـل ليلة إلى القمر لرؤية العقيد الذي قيل إنه أخذ يطل من هناك، مانحاً العالم النور والحنان.

كـان الناس قـد تغيروا، حتى أصبـح من الصعب التعـرف عليهم. فقد عثر كل منهم على مهمة جديدة، شغلت حياتـه حتى ما عاد يذكر ماضيه الذي جاء منه. وبدا كل شيء جديـداً، مثل أرض عذراء يسلكها قادمون مبهـورون، يتبعون أدلاء، يعـرفون كـل شيء، الماضي والحـاضر والمستقبل. وانتشرت عـادة عبـادة الأصنام التي اعتاد الكهنة الجدد صبغها بالحناء ووضعها على دكات في زوايا الشوارع والأزقة وأمام المقاهي والحوانيت، مثل علامات منذرة بقدوم الزمن الذي تتحد فيه الأرض بالسماء.

وانقطـع حميد نـايلون عن مقـاتليه القـرويين الـذين تركهم لمصيرهم الجديـد، فاصطـادهم آخرون، جعلـوهم ينتمـون إلى الجمعيات الفلاحية التي كانت تغير بين الحين والآخر على المدن فتنهبها بحجة أو دون حجـة. كان السجن قـد ترك الكثـير من الندوب على روح حميد نايلون فانطفأ مثل جمرة بفعل الزمن أو الخيبات. لم يلحظ ذلك أحد غيره. كـان الكثيرون يعتقـدون أنه قـد ازداد حكمة ونضجـاً إلا هو، فقـد بـدا لـه العـالم أشبـه بمسرحية، يقدمها ممثلون هـزليون من جميـع الأصناف. وكـان يقـول لنفسه «إذا كـان الجميع قـد أصبحوا ثـواراً، فأي دور يبقى لك، أنت يا حميد نايلون؟». وراح يجلس اليوم بعد الآخر، كـل مسـاء في نـادي نقـابـة النفط ويحتسي العـرق، غـارقـاً في ذكرياته. كانوا قد عرضوا عليـه أن يكون رئيسـاً لنقابـة النفط التي كانت قد خرجت من السر إلى العلن، ولكنه إذ رفض ذلـك اختير أن يكون رئيس شرف لها حتى من دون أن يسألـه أحد.

twitter @baghdad_library

وتكررت زياراته للبرج الذي كان يقيم فيه خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري، مـأخوذاً بـالمناقشـات التي كان يخـوضها هؤلاء الـرجال. وكـان في كل مـرة يغادر فيهـا البرج يغـرق في البكاء، ممتلئاً بعواطف يجهل ينبوعها، مثل رجل توقظه نداءات بعيـدة. كانت الثـورة قـد غـيرت حميـد نـايلـون مثلمـا غـيرت الكثيرين، حتى أن الأصدقـاء أنفسهم لجأوا إلى الخصـام، بل وإلى الغدر أيضاً. كـان الواحـد منهم يمر بـالآخر فـيرفع يـده محيياً: «السلام عليكم» ثم يخرج مسدسـه ويطلق النار عليـه. ولم يكن رجـال الشرطة يسـألون عن الشهـود، إذ أنهم كانـوا يعتقلون دائماً أقرب الناس إلى القتيل، متهمينه بالقتل، في حـين يقف الفعلة متفرجـين. وانتهى الأمر إلى الخـراب عندمـا أطلق رجل النار على دلي إحسان الذي كان الجميـع يعرفـون أنه من فصيلة أخرى غير فصيلة البشر. ما كادت الرصاصـات الثلاث تختـرق جسد دلي إحسـان حتى تحول إلى نـافورة نـار هـائلـة تصاعدت نحو السماء، مبرقة ومرعدة، فاهتزت الأرض وتزلزلت فتساقط الناس فوق بعضهم الآخر، وامتدت النار إلى الأسـواق والبيوت فحولتها إلى رماد. ومن النار هبطت قبيلة دلي إحسـان، ملائكة موت فوق الخيول والدراجات البخاريـة، منزلـة الدمـار بالمدن، الواحدة بعد الأخرى. ولم ينتـه هذا الهجـوم الذي مـا توقعه أحـد إلا بعد ثـلاثة أيـام، عندمـا بسطت قوة عسكـرية متآمرة أخرى سيطرتها على العـاصمة التي هـاجمتها طـائرات القوة الجوية، منطلقة من قاعدة الحبـانية. وألقي القبض عـلى العقيد الأوحد فأعدم بالرصاص ورميت جثته في نهر دجلة.

ولكن إذا كـانت القبيلـة الهـابطـة من النـار قـد انسحبت، مكتفية بالـدمار الـذي ألحقته بكـركوك والمـدن الأخرى، فـإن

العقيد الجديد ألقى خطبة، نقلتها محطتا الإذاعة والتلفزيون، باللغتين العربية والكردية، شتم فيها الذين كانوا يؤيدون عن جهل العقيد الأوحد الذي كان يحتل المرتبة السابعة والعشرين في طائفة إبليس السرية، معلناً نفسه قائداً أوحد، يستمد شرعيته من روحه المحلقة فوق الجبال والأنهار والصحارى، والتي اخترقت الأجيال فاستخلصت جوهر الثورة. ولكنه أضاف بتواضع: «ومع ذلك فإنني بشر مثلكم حتى إذا كان أجدادي من الملائكة»، داعياً الشعب للخروج إلى الشوارع والابتهاج بعودة الرجل الذي انتظرته البشرية طويلاً.

كان الناس الذين شهدوا الدمار الذي ألحقته بهم ملائكة النار قد لجأوا إلى بيوتهم، مرعوبين وأوصدوا أبوابهم وراءهم. ولكن الجنود الذين كانوا يضعون الخوذ فوق رؤوسهم راحوا يكسرون الأبواب بأرجلهم وبنادقهم ويقتحمون البيوت. كانوا يقتادون الشبان ويوقفونهم أمام جدران بيوتهم ثم يطلقون النار عليهم. وفي مداخل الأزقة والشوارع نصبت المشانق التي كان يتدلى منها المشنوقون. وفي السجون والمعتقلات كانت فرق الحرس القومي القادمة من كل مكان في التاريخ تقيم احتفالات موت لم تخطر على بال أحد من قبل. كانوا يقتادون كل يوم ثلاثة أو أربعة من المعتقلين ثم يذبحونهم ويطعمون الآخرين لحمهم. ولكنهم كثيراً ما كانوا يقيمون حفلات طرب يغتصبون فيها الشبان الأصغر سناً أمام رفاقهم الذين كانوا يرغمون على التصفيق والغناء.

ولم يجد الناس بداً من الهرب إلى شعاب الجبال والوديان، مختفين من الموت الذي ظل يلاحقهم من مكان إلى آخر، وعاد حميد نايلون مرة أخرى إلى مقاتليه ليقود ثورة ما عاد يؤمن

twitter @baghdad_library

بها. ولجأ الشيوعيون الأحياء القليلون مـرة أخرى إلى سراديب جديدة أكثر سرية، بعد أن طالت الاعترافات سراديبهم القديمة. وحاصر الجند البرج الذي كـان يقيم فيه الشيـوخ الثلاثـة، ثم أغلقـوا بابـه ونوافـذه بالاسمنت فتحـول إلى قبر. ومثلمـا غاب الكثيرون غاب برهان عبد الله أيضـاً حتى اعتقد الكثـيرون أنه ربمـا كان قـد قتل ودفنت جثتـه في مكان مـا على عجـل داخل مقبرة جماعية ما. كان قد غـاب هكذا ببسـاطة حتى لكـأنه لم يكن موجوداً أبداً. ومرت سنوات كثيرة من دون أن يظهر له أي أثر. وانتشرت إشاعـات تقول إن الجنـود قتلوه عنـدما قـذفهم بقنبلة مولوتوف في محلة بيريادي، وادعى آخرون أنه قتل أثنـاء هجوم شنه مع آخرين عـلى وزارة الدفـاع في بغداد، وجـاء من يقول إن طائرة أطلقت النار عليه فأصـابته عنـدما كـان يحاول اجتياز الحدود إلى تـركيا. ورغم أن أمـه كانت قـد سمعت هذه القصص كلها، إلا أنها لم تصـدقها قط. فقـد ظلت تقول: «إني أثق بقلبي أكثر مما أثق بأقاويل الناس. أعرف أن ابني ما زال حياً. كل ما في الأمر أنه غائب، وسـوف يعود ذات يـوم». ولكن برهان عبد الله ظل غائباً حتى اختفى ذكره في محلة جقور التي انكفأت على نفسها أمام مواكب الغزاة التي كانت تجتاحها بين الحين والآخر، تاركة جروحاً، لا تندمل في قلبها المنطفىء.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر

twitter @baghdad_library

كل شيء هدأ فجأة. صفرة غير معهودة تلبد السماء. أهي النهاية أم البداية؟ عاد برهان عبد الله الذي أضاع نفسه بين المدن والقارات، بين أزمنة الموت وأزمنة الحياة مرة أخرى إلى مدينته التي لم تعد بالنسبة له سوى ذكريات مقذوفة في الزمن. كان قد أصبح عجوزاً يتكىء على عصاه ويعتمر قبعة رمادية تغطي صلعته بعد ستة وأربعين عاماً أمضاها وهو يتنقل من مكان إلى آخر، من مطار إلى مطار، ومن مدينة غارقة في الضباب إلى مدينة تبرق الشمس فوق معابدها. هل مرت عليه ستة وأربعون عاماً حقاً؟ كان يشعر أنه قد غادر مدينته أمس فقط. كان قد مر عليه يوم واحد فقط. لم يكبر أبداً، لأنه ما امتلك زمناً آخر غير زمن ذكرياته. ومع ذلك مرت عليه ملايين، بل ومليارات القرون. مرت به الأبدية كلها، تاركة آثارها في جسده النحيل، ولكن دون أن تمس روحه التي ظلت معلقة ما وراء جوهر الأشياء. كانت أسنانه قد تساقطت ولم يعد في رأسه سوى القليل من الشعر الذي كان يتدلى من الأطراف ويداه تغضنتا وبانت عروقهما. من وراء نظارته الطبية التي كان يضعها فوق عينيه رأى العدم وما قبله، الذرة المعتمة الأولى التي انفجرت فملأت الكون مجرات وشموساً. «يا إلهي،

لقد كنت هناك أيضاً». واستغرب أن يكون مقيداً، هكـذا بيدين ورجلـين وجذع ورأس وعينـين وأذنين وأنف، هـو المنحـدر من العتمـة والنور. وفكـر: «أية لعبـة هذه، أن أكـون كل شيء وألا أكون شيئاً». وبدا له الأمر فكاهيـاً تمامـاً وجاداً حتى اللعنـة. رفع يده ونزع نظارته التي مسحها بخرقة كان قد أعطـاها لـه صانع نظارات في شارع شونها وسر آليه في برلـين». هذه اليـد التي تتحـرك من تلقـاء ذاتهـا، حتى مـن دون محـرك، ينظم قدراتها، تكاد تشبه سمكة». كانت سمكة بصورة ما. وخطر لـه أنه ربما كـان قد قـرأ ذلك في مكـان ما، في إعـلان ملصق على جدار، أو رواية بوليسية. لا يهم أين حدث ذلك كله. فما يحدث يحدث بحكم العادة. البشر هم هكـذا دائماً. الأفكـار موجـودة دائماً. كل ما يحتاجه المرء هو أن يرى حتى تكـون له أفكـاره. وكان هو يرى. فقد تعلم في أعوام نفيه الطويلة فكاهة الرؤيا أو ما كان يسميه «تناقض المعنى». كان يرى الحيـاة كلها مقطـرة في أصابعه المنفرجة، بعقدها مثـل أصابـع روبوت في معـرض. ولكنها حياة تتجه إلى الموت. على مر الأجيال كان الناس يولدون ثم يموتون. بعـد مئة عـام على الأكثـر لن يكون هنـاك أحد من الـذين نعرفهم الآن. سيكـون هناك آخـرون، لن نعرفهم أبـداً، عمال وعاهرات وكتاب ورسامون وقادة وحكام وجنـود. ولكن ما الـذي يهمني منهم إذا لم أكن مـوجـوداً؟ كـلا، ربمـا ظللت موجوداً كذكرى أو كحركة خفية في هذه الحفلـة الفكاهيـة التي تدعى الحياة.

كان قلب برهان عبد الله قد انطفـأ ولكنه ظـل حياً، لأنـه لم يكف لحظة واحدة عن الأمـل في العودة إلى مـدينته التي هـرب منها. طوال ستة وأربعين عاماً ظـل يجلس اليوم بعـد الآخر في

twitter @baghdad_library

غرفة في مدينة بعيدة ويستمع إلى نشرات الأخبـار، لعله يسمـع شيئاً ما عن مدينته. كان هناك الكثـير الذي يقلقـه. فعلى مـدى هذه الأعوام كانت الانقلابـات تتوالى. دكتـاتور يعقب دكتـاتوراً آخر. وأخيراً اختفى البشر من المـدن والشوارع بعـد أن خرج الموتى من مخابئهم واحتلوا كل شيء. طوال ستة وأربعين عامـاً ظلت الحـروب مشتعلة بينهم أو ضـد الآخـرين. كـان المـوتى القـدامى يكرهـون الموتى الجـدد وموتى القـرن التـاسـع عشر يكـرهون مـوتى القرن الثـامن عشر. وظهر نظـام جديـد، جعل الكثيرين منهم يلجأون إلى العنف. فقد منع الموتى الذين كـانوا يعتبـرون أنفسهم متحضرين رفاقهم من مـوتى العصور الأولى للبشرية، بل وحتى موتى العصر الحجري والعصر البرونزي من مخالطتهم، بدعوى أن هياكلهم العظميـة هي أقرب إلى القـردة منهـا إلى البشر، بل إن ثمـة من اعتبرهم قـردة، لا علاقـة لهم بالبشر. وبسبب هذا الصراع الذي تسبب في جرائم كثيرة، حيث كان الأموات من الطرفين يهـاجمون بعضهم بصفـائح النفط أو البنزين ويشعلون النار فيه، وهذه هي الوسيلـة الوحيـدة لقتل الموتى، ظهرت مـذاهب موتيـة، تدعـو إلى المساواة المطلقـة بين الأموات، فالميت لا يملك سوى امتيـاز كونـه ميتاً، وهـذا وحده كفيل بأن يضمن وحـدة الموتى وتـآخيهم. في الواقـع أن هؤلاء الموتى أظهروا شيئاً من الحكمة أيضـاً، إذ أبقوا عـلى كثير من الأحياء، حتى لا يوقفوا الرافد الذي يمدهم بقوى متجـددة كل يـوم. فقد كـان من سوء حظ الأمـوات أنهم غير قـادرين عـلى التنـاسل، ولـذلك لم يكن بـد من الاعتماد عـلى الأحياء الـذين كانوا يتنـاسلون وينجبـون ويكبرون ثم يمـوتون، منضمـين إلى الجيش الأكبر للبشرية: الأموات الأبديون.

ومع ذلك لم يفقد برهان عبد الله الأمل في العـودة ذات يوم

إلى مدينته، ليلاقي الأحياء الأخيرين الذين ما فقدوا الرغبة أبداً في الحياة. لم يكن خائفاً من الموت، بقدر ما كان خائفاً من أن يكون واحداً من الموتى، ولذلك أوصى بأن تؤخذ جثته إلى المحرقة ويذر رمادها في نهر دجلة. ولكنه كان يعرف أيضاً أن الإنسان لا يموت إلا عندما يفقد الأمل في الحياة، ولم يكن هو قد فقد هذا الأمل، وما كان بمقدوره أن يفقده. كان يستيقظ في الصباحات في منفاه الذي أمضى فيه ستة وأربعين عاماً ويحدق من نافذة غرفته في الثلوج البيض المتكومة فوق الشوارع وأسطح البنايات: كل شيء ناصع وأبيض، يضيء ملتمعاً وثمة غربان سود تحلق هنا وهناك، ترتفع عالياً في الجو ثم تهبط تنقر الثلج، باحثة عن قطعة خبز أو حبة قمح، لا وجود لها. كان قد عرف كل صباح وكل مساء. طوال ستة وأربعين عاماً انتقل من مدينة إلى مدينة ومن شارع إلى شارع ومن مقهى إلى مقهى. رأى مدن العالم كلها. في أفريقيا صار محارباً مع قبائل الزولو وفي زنجبار اقتات أعواماً على البهارات. في اليمن انضم إلى حلقة للذكر في الجامع الكبير بصنعاء وأصبح دليلاً للمكتشفين الذين كانوا يقطعون الربع الخالي على الجمال. عمل طباخاً في باخرة ألمانية، كانت تنقل الشاي من سيلان. قاد ثورة الطلبة في باريس حتى من دون أن يشير أحد إلى اسمه. وفي لندن عمل مرافقاً لأثرياء الخليج بين المستشفيات ومراقص سوهو، ثم سكرتيراً لعالم فلكي كان يقرأ الأبراج ويقيم حلقات روحانية بالهاتف ويكشف الغيب. وفي مكة شكل عصابة دولية من النشالين لسرقة الحجاج، ثم هرب إلى نيويورك بجواز سعودي مزور، حيث أقام عاماً أو بعض العام في أحد أنفاق تمثال الحرية. ولما ضاقت به الأرض عاد مرة أخرى إلى أوروبا، حيث اختار أن يكون مترجماً بالقطعة في مؤسسة كانت تملك بناية

twitter @baghdad_library

تكاد تكون ملاصقة لجدار برلين. في كل مرة كان يفقد كتبه وأثاثه، يتركها فلا يعود إليها أبداً. ولكنه ما تخلى قط عن الراديو الترانسستر الذي كان يحمله معه، وهو راديو أسود اللون من صنع شركة سيمنس الألمانية بثماني موجات قصيرة. كان يجلس اليوم بعد الآخر ويبحث في الإذاعات عن خبر، يعيد إلى قلبه حياته المطفأة. كل حرب كانت تعقبها حرب أخرى في وطنه. كانت الحروب تتداخل أحياناً حتى ليصعب على المرء أن يفرق بين حرب وأخرى. حروب بين الأموات وحروب بين الأحياء. حروب في الجبال، حروب في المدن، حروب في الأهوار وحروب في الصحارى.

ومع الحروب كان كل قائد جديد، يمسك بالقائد الذي كان قبله ويذبحه، مطعماً لحمه لحاشيته التي كانت تأكل حتى الحجر، غير آبهة بعسر الهضم الذي كانت قد أصيبت به. وبين حين وآخر كانت المهرجانات تقام لتخليد آثار الحاكم الجديد. كانت لكل منهم لغته التي تختلف عن لغة الآخر، حتى أنه أصبح من مألوف العادة أن تؤلف الكتب عن عبقرية استخدام اللغة عند هذا الحاكم أو ذاك. وكان لكل منهم عاداته الخاصة به. كان بعضهم يأكل الخس مسلوقاً وبعضهم يرش السكر فوق طعامه. وقد بلغ من فساد الذوق عند أحدهم أنه كان يدخن سيجاره نائماً، حتى أصبحت عادة ملازمة للشعب كله. كانوا جميعاً أنصاف آلهة، وهذا أمر كان مفهوماً بصورة ما حتى جاء من احتقر هذه العادات الوثنية، معلناً أن لا إله إلا الله. وكان هو الله بالطبع. كان برهان عبد الله يذهب كل يوم تقريباً إلى المقهى، يتناول فنجاناً من القهوة ويدخن، منتظراً أحداً ما، قد يأتي صدفة وينقل إليه خبراً ما عن مدينته

البعيدة. كان يلتقي أحياناً بعضاً ممن كانوا هاربين مثله، مصغياً إلى كلماتهم التي كان قد حفظها عن ظهر قلب. فقد فقدت حتى الكلمات معناها مع الزمن. وعندما كان يتحدث هو ما كان يخاطب أحداً سوى نفسه مثلما كان يفعل دائماً. كان موجوداً في ماضيه، ترهقه ذكرياته، إلا أنه كان يكره أن يكون راوي ذكريات مثل شيخ يضحك جمهوره. كان يسأل أحياناً: «هل ثمة أخبار جديدة من الوطن؟». وكان الآخر يجيب بشيء من القلق: «لا بد أنك سمعت الأخبار. لقد لجأوا مرة أخرى إلى ضرب بعضهم الآخر بالقنابل الذرية. هذه هي القنبلة الثانية التي تنفجر خلال أسبوع». وكان يقول: «أجل لقد سمعت ذلك. لقد ضربت البصرة. أليس كذلك؟». ما كان يهمه كثيراً معرفة الجواب، فقد كان يعرف أن الموت في كل مكان في بلده البعيد. قبل أعوام كانوا يضربون بعضهم الآخر بالقنابل الكيميائية. أما الآن فقد انتقلوا إلى القنابل الذرية. وكان يتساءل: «لا فرق بين أن يموت المرء برصاصة أو طلقة مدفع أو صاروخ كيميائي أو قنبلة ذرية»، مردداً مع نفسه شطراً من بيت ناقص «تعددت الأسباب والموت واحد». كانت العاطفة غالباً ما تتملكه حتى ليكاد يبكي، ولكنه كان يدير وجهه ويمازح النادلة الألمانية كورنيليا: «كوني، هل لك أن تجلبي لحبيبك فنجاناً آخر من القهوة؟»، فترد عليه مؤنبة: «أنت تعرف أنني لا أحب سوى الشبان أيها الميت الهارب من المقبرة». هل كان ميتاً هو الآخر دون أن يدري؟ أبداً، أبداً. وكان يرد عليها: «لو قبلت زيارتي مرة واحدة لاختصرت لك الحياة كلها في ليلة»، فكانت تقول له متأملة: «ربما فعلت ذلك ذات يوم. أنت تغريني حقاً».

ولكن كل ذلك انتهى الآن، مثل لعنة انفك سحرها. استيقظ

twitter @baghdad_library

ذات صباح فسمع الخبر الصاعق الذي استقبله ببرود حتى لكأنه ليس حقيقياً. كان قد فقد منذ زمن بعيد كل فرح، لطول ما انتظره، مثل رجل لم تعد تهمه حتى الخسائر. ولكنه شعر لأول مرة في حياته أنه قد تحرر من كابوس التهم حياته كلها. وأصغى مرة أخرى إلى الإذاعات التي كانت تنقل أخباراً وتقارير مطولة عن الموتى الذين استسلموا في النهاية أمام الأحياء الذين أقاموا محارق في كل محلة ومدينة للموتى الذين ما عادوا قادرين على الموت. كانوا يقفون في صفوف طويلة أمام المحارق ويقفزون في النار المتقدة. لقد انتصرت الحياة في النهاية على الموت. خلال أسبوع واحد ما عاد ثمة أثر لميت في وطنه.

في مقهاه الواقع بساحة الكسندر بلاتز في برلين رأى لأول مرة منذ ستة وأربعين عاماً ملائكته، الشيوخ الثلاثة القادمين من الأبدية، حاملي الربيع داخل أكياس من قنب على أكتافهم. كانوا يسيرون هذه المرة فوق السهوب المتموجة الممتدة حتى ضواحي مدينة كركوك. ابتسموا له بمودة وعاتبوه، قائلين: «ما كان ينبغي لك أن تغيب عنا كل هذا الوقت». وفتح برهان فمه بصعوبة: «ما اعتقدت أن ثمة ربيعاً ينتظر جقور. بدا لي أنكم لم تكونوا سوى وهم، اختلقته لنفسي». وردد الرجال الثلاثة: «ما كان ينبغي لك أن تفعل ذلك يا برهان. ألا ترى أننا اقتربنا من محلة جقور أخيراً. نريدك أن تكون دليلنا عندما نصل». وسمع كورنيليا تقول وهي تضع أمامه فنجاناً آخر من القهوة: «يبدو أنك لم تنم جيداً الليلة الماضية». وفتح عينيه مرة أخرى: «حقاً إن هذا يحدث دائماً». من وراء زجاج المقهى ألقى نظرة إلى الشارع، حيث كان الناس يهبطون إلى نفق القطارات التي تقطع المدينة أو يصعدون منه. «ترى إلى أين يذهبون؟». لم

يكن يهمه أن يعثر على جواب عن سؤاله. قال: «إنهم يأتون من كل مكان ويذهبون إلى كل مكان. أما أنا فسوف أتبع ملائكتي الثلاثة، أولئك الذين ما وصلوا جقور أبداً».

كان الآن في طريقه إلى كركوك، داخل سيارة أجرة، احتل مقعدها الأمامي. على بعد مسافة من المدينة أوقف السيارة وهبط منها. كان خائفاً من المفاجأة وخجلاً من نفسه. فكر أن يعود مرة أخرى من حيث جاء ولكنه رأى المدينة تمتد أمامه في الغروب، بعيدة ومرمية مثل طائر خرافي. صعد تلة قريبة وجلس فوق ترابها الأحمر الذي نمت فوقه الأعشاب، وقد امتلأ صدره بتلك الرائحة القديمة التي طالما شمها في طفولته. كان مخنوقاً بحزن غيابه كله «لماذا توجب عليك أن تغيب كل هذه السنين يا برهان؟ لم يطردك أحد. ولكنك خفت من الموت فهربت، تاركاً أولئك للكلاب. ولكن كل ذلك انتهى الآن. انتهى العمر الذي أضعته في مدن العالم المقفولة على نفسها. انتهى كل شيء. وها أنت تعود، حاملاً في قلبك شيخوختك إلى مدينة ما عرفتك إلا كطفل». كان عاجزاً حتى عن البكاء.

في الظلمة التي هبطت فوق المدينة البعيدة غادر برهان عبد الله التلة، متجهاً نحو منارات تلتمع أهلتها تحت سماء حمراء. كانت خطواته ثقيلة، ولكن عينيه ظلتا مشدودتين باللهب البعيد المتقد. خوض في جداول مغطاة بالعشب واجتاز بساتين ما كان قد عرفها من قبل. خطوة بعد أخرى أصغى إلى الريح، تمر بين أوراق الأشجار. مدينة مكومة فوق نفسها. كتلة مجهولة، تتنفس حياة، حتى لكأنها زمجرة تسمع من قعر بئر. هذه هي إذن مدينته القديمة التي مر بها الغزاة وتركوا آثارهم فوق حجارة بيوتها. أتراها ماتت وانتهت مثل الأشياء الأخرى كلها؟

twitter @baghdad_library

كانت خطواته تشق عتمة ما شاهد مثلها قط من قبل، عتمة تتحد بالسماء فتميل إلى زرقة مبقعة بغيوم حمر، وتنحدر فوق الأرض فتكون مثل بلور يخترقه البصر. طوال ستة وأربعين عاماً ما كتب رسالة إلى أحد في مدينته أو استلم رسالة من أحد. أراد أن يظل غائباً هكذا مثل أي شيء آخر، يختفي فلا يترك وراءه أثراً. كان متأكداً تقريباً أن جميع الذين عرفوه قد ماتوا. من يمكن أن يصمد أمام الموت ستة وأربعين عاماً؟ من يمكن أن يجمد الزمن؟ كان يشق طريقه بعصاه في الليل مثلما شق موسى بعصاه طريقه في البحر. وانتبه لأول مرة إلى نباح الكلاب، قادمة من قلب الكتلة السوداء مصغياً إلى الصمت المحزن، ذاك الذي عرفه، وهو نائم في العراء فوق سطح بيت أهله في محلة جقور. «لم يبق أحد في مدينتي، فماذا أفعل بالشوارع والبيوت؟» فكر أن يعود أدراجه «ما كان ينبغي لي أن أعود وأن أسترجع هذا الألم كله». ثم تماسك «كل ما في الأمر هو أنني أصغيت لقدري قبل ستة وأربعين عاماً، وها أنذا أصغي إليه مرة أخرى». وكان يعرف أنه لم يعد ثمة ما يخسره بعد أن خسر العمر كله. وأخذ جسده يهتز ويرتجف وهو يضرب الظلام برجليه الثقيلتين. «لا أحد ينتظرك هناك، لا شيء سوى ذكرياتك. لن يعرف أحد حتى اسمك». وشعر بارتخاء في رأسه فجلس على الأرض وأجهش بالبكاء ممتلئاً بسعادة، تنبع من مصب للحزن.

ظل جالساً هناك، محدقاً في قوس الضباب والدخان الملتف على نفسه حتى شعر بالنعاس يغلق أجفانه فغفا مسنداً رأسه إلى حقيبته اليدوية الصغيرة التي كان قد حشاها بقميص أو قميصين وبيجامة وفرشاة أسنان وأدوات حلاقة ودفتر

مذكراته. عندما استيقظ شعر ببرودة الفجر تلسعـه. كان ذلـك أشبـه بحلم رآه في مكان آخر لا يتذكـره. شعر أن هـذا الأمر يحدث معه للمرة الثانية. وكان بصورة ما يعرف ما ينتظره. هل كان حقاً هنا؟ هل عاد قبل الآن أيضاً إلى هذه المدينة الـواقعة في البعيـد؟ هل قطـع الطريق نفسهـا؟ هل دخلهـا مثل لص في الليـل؟ لا يعقل ذلـك. ولكنه كـان يعرف أنـه كان هنـا. فشعـر بغصة في حلقه. كانت ثمة مرارة يتذوقها كل مـرة بلسانـه. إنه الربيع إذن. كانت العصافـير المبكرة تحلق من مكـان إلى آخر، مزقزقة مع خيـوط الشمس الأولى «يا إلهي، إنـه الربيـع الذي طـالما حلمت بـه والذي لم أجـده في أي مكان آخـر في العالم». أخـرج لفافـة تبغ من العلبـة التي يضعهـا في جيبـه. أشعلهـا وارتشف عميقاً الدخان الذي شعر أنه قـد مس قعر رئتيـه قبل أن ينفثه ثانية. أحس بخدر لـذيذ في جسـده. كان الطبيب قـد أوصاه «لا تدخن قبل تناول الفطور على الأقـل». ولكن ماذا يهم ذلك الآن؟ إن المرء سيموت في يوم ما، سواء دخن أم لم يدخن. وكان سيان عنـده أن يعيش مئة عـام أخرى أو أن يمـوت بعد مئة يوم. ها هو الربيع الذي حمله الشيوخ الثلاثة الذين طـالما نادوه وتحدثوا إليه يتفجر مرة أخرى فوق مـدينته. لا بـد أنهم قد وصلوا الآن. لا بـد أنهم قد فتحـوا أكياسهم فـاندلق منهـا الربيع. أحس أنـه يمتلك مـدينته مـرة أخرى. النهـاية تنـدمج بالبداية حتى ليصعب فصل إحـداهما عن الأخـرى مثل نهـار يتلاشى في الليل. كان قد وقف أمام حديقة محاطـة بسياج طـلي بـدهان أخضر لم يكن قـد جف بعـد. شم رائحتـه، جلس عـلى مصطبة مرمية بين الأشجار، يستجمع قـواه، حيث رأى رجلين يسيران في الشارع، كل في الاتجاه الآخـر. ضربات أقـدام تكاد تكون منتظمة. إنه الربيع حقاً. روائح متداخلـة توقظـه، روائح

twitter @baghdad_library

ندى قديم وهواء راكد بارد. لم يكن ثمة ما هو حقيقي في ما يراه. كل شيء يشبه الوهم أو ربما يشبه ذكرياته، كل شيء يشبه صوراً تندلق من مخيلة، حتى لكأنه في حلم. عينان تريان أشجاراً، ذراعان تمتدان إلى جزيرة يستيقظ فوقها فجر كان يعرفه، فتجفل طيور لا عد لها، تحلق قليلاً ثم تهبط على الساحل. ثمة عمود يرتفع هناك. وامرأة تصعد جبلاً يكاد يلتصق بالسماء، حيث يرفرف على زاويته اليمنى علم تركي ويجلس جنود يأكلون المعلبات أمام مدفع متروك فوق رابية. في الجانب الآخر تبدأ الصحراء. ثمة رعاة يعزفون على مطبق من القصب فيتبعهم أطفال قادمون من الأزقة حتى البحر. ها هي المدينة مرة أخرى. ترتفع الستارة فتطل امرأة عارية على جواد أشهب. تتجول بين فريدريش شتراسه ومحلة المصلى، بين اونتردين ليندن ومحلة جقور. ويقف خضر موسى أمام حفل من الرجال والنساء في لوست غارتين مقابل قصر الجمهورية في برلين ويتحدث عن شقيقيه اللذين ذهبا إلى مكة ولم يعودا. وكانت أمه قدرية تتجول بعباءتها في السان جيرمان بباريس أو تجلس في مقهى ميلانو بقبرص، محدقة في ندل يقدمون الماء مع القهوة دائماً. وتوقظه رائحة الربيع المسكر» كل هذا الحنان وأنت تتذكر فتيات آشوريات، ينحدرن من بناية إلى أخرى، مثل ثقب في غيمة». ها هو الفقيه على حماره الذي انحلت بردعته يتنقل بين القرى، ساكباً من قنينة عطر في يده قطرات ياسمين فوق المروج. «آه نهار آخر، استيقاظ آخر. كل شيء هنا. كلهم موجودون هنا. الأصدقاء الموتى والأصدقاء الأحياء، الذين أعرفهم والذين أجهلهم. الأشجار، دائماً الأشجار. البيوت الجصية دائماً والضوء الذي يعلم أعلى البيوت. وكالعادة دائماً أنا».

استيقظ من غفوته ومسح وجهه بيديه مثلما يفعل دائماً. أراد أن ينهض ويقصد المطبخ ليضع إناء الماء فوق الموقد قبل أن يدخل الحمام، إلا أنه توقف «لا يوجد مطبخ هنا». وفتح عينيه المثقلتين بالنعاس. كانت كركوك تمتد أمامه، فشعر بالرهبة والقلق. وانتابه شعور ما امتلكه قط طيلة الأعوام الستة والأربعين الماضية التي أمضاها متنقلاً بين القارات والمدن، بجوازات مزورة وأخرى حقيقية. اختفى الزمن وتلاشى مثل فقاعة، ترتطم بإصبع تمتد إليها فتنفجر حتى لكأنه لم يغادر مدينته أبداً. فنهض إلى صنبور ماء في الحديقة ووضع رأسه تحت الماء مثلما كان يفعل في حديقة المصلى، كلما مر بها. عندما رفع رأسه وجد ملائكته الثلاثة يقفون مبتسمين أمامه، فاضطرب حتى أنه لم يعرف ما يقوله. كان أحدهم، يحمل بيده منشفة من مخمل حلبي، قدمها له: «خذ ونشف وجهك يا برهان». وتلعثم برهان وهو يقول: «ما كنت أعتقد أن كل هذا حقيقي. ما كنت أعتقد أن كل هذا ممكن». ورد الشيوخ الثلاثة بهدوء: «ما هذا الذي تقوله يا برهان؟»، فاستدرك برهان قائلاً: «لا شيء، لا بد أنني كنت أخرف. الشيوخ هم هكذا دائماً».

ومد أحد الرجال الثلاثة يده إلى جرابه فأخرج حفنة من بذور، نثرها في الجو فاكتست الأرض بالزهور وامتلأت الحديقة بطيور ملونة، حط بعضها على كتف برهان عبد الله ورأسه، وخرجت القنافذ والأرانب والسناجب من مخابئها وراحت تلهو عابثة بين نباتات، نمت في لحظات. وجفل مذعوراً عندما رأى الحياة تدب في الأسدين الحجريين الواقفين أمام مدخل الحديقة، فظل في مكانه وقد جمد الدم في عروقه وهو يحدق في ملائكته الثلاثة. ولكن الأسدين الوديعين تقدما وجثما تحت

twitter @baghdad_library

قدميه. فقال له أحد الملائكة: «إنه السلام أخيراً يا برهان». كان شيء ما يشبه السحر قد حل فوق المدينة». هذا أكثر مما توقعته «قال برهان عبد الله لنفسه. ثم وضع قبعته فوق رأسه. حط عصفور صغير فوقها أخذ ينقر في ما بدا له حفرة، فضحك الشيوخ الثلاثة الذين كانوا يتشابهون حتى ليصعب التفريق بينهم. وقال أحدهم: «سوف يجعل منظرك هذا محلة جقور كلها تغص بالضحك». أضاف الآخر: «حسناً، سوف ننتظرك هناك يا برهان». ووضع الثالث يده على كتف برهان: «ينبغي أن تدخل محلة جقور وحيداً مثلما غادرتها وحيداً». ثم اتجهوا إلى الجهة الأخرى من الحديقة واختفوا بين أشجار الزيتون التي كانت تخفي وراءها بيوتاً بيضاً من حجر وجص، تلتمع في الضوء.

«كلا، لا أطيق كل هذا الحنان. إنه أكثر مما ينبغي، أكثر مما أستحقه، هذه النهاية السعيدة التي لا يمكن أن تخطر حتى ببال الله». واختلطت في ذهنه صور ذكريات بعيدة، صور أحلام أسرة حتى البكاء. كان يتفرج من ثقب في باب على امرأة تمشط شعرها وتدلك نهديها بالليمون. وكان ثمة رجل يجلس في مقهى ويعد نقوده خلسة. رجل أمن يترجل من دراجته ويسأل شاباً جميلاً مثل فتاة عن اسمه. شيطان يجلس أمام مائدة في مطعم ممتلىء بالدخان. تلاميذ يهربون من مدارسهم ليقرصوا مؤخرات الفتيات في المظاهرات». أثمل عادة بعد الكأس الأولى. أرقص حتى أنام على كتف المرأة. وإذ استيقظ في الصباح أرى نفسي وقد اقتادني الجلاد إلى ميدان ما ليقطع عنقي. لكنه يتركني عادة وحيداً، ذاهباً إلى المزرعة ليلتهم البقول. يا إلهي لكم كانت أيامنا جميلة، عندما كنا نصطاد الملائكة بين الأشجار

ونطارد الشياطين بين الصخور. مرة رأيت طائرة تطلق النار من رشاشة في مؤخرتها على رعاة. نساء ورجال وأطفال عراة في ساحل غرينا وفي برلين يقيمون مأتماً رمزياً لي. ورجل ذو عين زجاجية يقرأ في جريدة، تكاد تمس وجهه. أم هاملت، تقف أمام الباب، مرتدية ثوباً أسود للسهرة، يكشف عن كتفيها وتوزع الابتسامات على جنود يحملون الرؤوس في أوان برونزية: أهذا هو رأس يوحنا؟ ذاك الذي كان يحرضنا على عصيان الزمن. آه، رأيت مرة نفسي في مصح، وفي كفي دم».

كان مقذوفاً في الربيع الذي فاجأ المدينة بعد انحباس، مأخوذاً بعواطفه وذكرياته، مثل لوثة لا اسم لها. ها هي كركوك أخيراً، وقد غادرها الأموات حتى لكأنها لم تذق الموت. لقد اختفوا هكذا، مثلما يختفي أي شيء آخر. دخلوا المحارق فاختفى كل أثر لهم. واغرورقت عينا برهان عبد الله بالدموع، وهو يسير على جسر كركوك الحجري «يا إلهي، إنه ما زال قائماً حتى الآن. لا شيء تغير أبداً». واستند إلى الحاجز، متأملاً مياه نهر خاصه صو التي كانت تهدر، جارفة معها جذوع أشجار وجثث حيوانات برية، داهمتها السيول وعلباً فارغة. وشم رائحة الطمي فشعر بدوخة لذيذة، كانت تنتابه كلما سار على الجسر في طفولته. وانتبه إلى حوذيين يسوطون خيولاً تجر عربات، يتقافز وراءها صبيان بدشاديش مهلهلة. في نهاية الجسر كانت القلعة التي يرتقيها المرء بسلالم من الجانبين. فكر أن يقصد محلة جقور، صاعداً القلعة ولكنه أراد أن يعبر السوق الكبير، فعرج يميناً، حيث مر بحانوت مركب الأسنان الأرمني. كان الرجل لا يزال يجلس على كرسيه الذي يضعه أمام المدخل على الرصيف. حياه برهان عبد الله رافعاً قبعته

twitter @baghdad_library

تأدباً فرد الرجل التحية، نـاهضاً من كـرسيه، مستغـرباً رؤيـة عجوز يعتمر قبعة في مدينة مثل كركوك. ومن وراء الـزجاج رأى الحلاق التركماني تحسين يصوبن ذقن رجل متكىء عـلى كرسي بفرشاة الحـلاقة. ومـر بقفال أعـرج، كان يمـلأ جدران دكـانه بصـور ممثلات مصريـات مثل فـاتن حمامـة وسـاميـة جمـال وشـادية. ورأى الصـائـغ الكـردي عبـد الصمـد يجلس عـلى الأرض، مـاداً رجليه أمـام منفاخـه. وفي الـزاويـة المؤديـة إلى السوق الكبير كان الحمالون ينقلون أكياس حنطة إلى خان كبير، يحاذي معملاً كان يصنع قوالب ثلج كبيرة يحملها الأطفـال على أكتافهم. كان الصفارون لا يزالون يطرقـون أوانيهم النحاسيـة والبـرونزيـة. ومر ببـاعة شـاي على الأرصفـة، بمطاعم كبـاب وحوانيت تبيع كل شيء. وأسكرته رائحة كركوك القـديمة، تلـك التي يختلط فيها كل شيء فتشكل مزيجـاً ينفذ إلى الـرأس قبل الرئتين.

لا شيء تغير، سوى أن الألوان ازدادت سطوعاً. ولكنه انتبه مـأخوذاً إلى كـلاب تداعب قططـاً، ناسيـة عداءهـا الغريـزي، وغربان تدخل الدكاكين ولقالق تهبط من فوق المنارات وتقف على الأرصفة. وكان أسدا الحديقة الحجريان يتبعانـه، مثل تـابعين قديمين. بيد أن ما كـان يهمه ليس الأسـود وإنما محلـة جقور التي لم يعـد ما يفصلـه عنها سـوى القيصرية، ذات الـرائحة العطنة والتي كان لا يزال يحفظ جميع ممراتها عن ظهـر قلب. ولكنه ما كاد يجتاز القيصرية ويطل على الزقاق الذي تبـدأ منه محلة جقور حتى بوغت بما لم يخطر في باله قط.

كانوا جميعاً يقفون هنـاك ينتظرونـه، حاملـين الورود. إنهـا الوجوه القديمة عينها، حتى لكأن الزمن لم يؤثر فيهـا. عانقـوه

واحداً بعد الآخر. كانت هناك أمه التي بدت أكثر شباباً منه ووالده الذي ارتدى ملابسه العربية. كان هناك حميد نايلون الذي ألقى على عادته خطبة فكاهية وعباس بهلوان الذي شهر مسدسه وأطلق النار في الهواء واللص محمود العربي الذي أهداه مفتاحاً، يفتح جميع الأقفال. وقرع الطبالون على طبولهم، بينما نثرت النساء الملبس والشوكولاته والنقود فوق رؤوس الحشد. «يا إلهي، كيف عرفوا بعودتي فأنا لم أخبر أحداً بذلك». تساءل برهان عبد الله مع نفسه «لا بد أن ملائكتي الشيوخ هم الذين فعلوا ذلك، إذ لا أحد غيرهم كان يعرف بعودتي». وقد تأكد من الأمر عندما رأى الرجال الثلاثة يسيرون وسط الحشد المتدافع. وافتقد برهان عبد الله خاله خضر موسى الذي أغلقت عليه منافذ البرج مع درويش بهلول ودده هجري، فدفنوا أحياء. طبول تقرع ونساء ملفعات بعباءات سود يهلهلن ودراويش يطعنون أجسادهم بالحراب. ها هو الحاج يعود من سفره الطويل إلى مكة، وقد نسي مشقة الطريق. انتهت أزمنة الموت التي اجتاحت جقور واستعادت الوجوه براءتها الأولى. انتهت اللعنة التي حلت بالمدينة فاختفى الربيع ستة وأربعين عاماً. لقد وضعوا الأغلال في يد الساحر الشرير، ربطوه بصخرة ورموه في النهر. «ما كان ينبغي لك يا برهان أن تفقد الأمل. ملائكتك علمتك منذ كنت يافعاً أنها تحمل ربيع الأبدية في أكياس من قنب إلى جقور، حيث لا توجد حدود حتى للذكريات. الأسى؟ ما من أسى أسوأ من أسى قلب ينتظر. ما من أسى أشق من حنين الجنين الساقط إلى رحم أمه. الانتظارات كلها انتهت، انتظارات حياة سائبة، انتظارات نزهات بلا هدف، انتظارات قطارات تحت الثلج، انتظارات أصدقاء في المقاهي. كل ذلك انتهى الآن. فلقد عاد الجندي من

twitter @baghdad_library

الحرب. كلهم يعودون، الأصدقاء الأحياء والأصدقاء الأموات عندما يندلق الربيع فوق الأرض».

في اليوم التالي قصد برهان عبد الله البرج الذي دفن فيه خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري. فقد ظل طوال الليل، وهو في بيت أهله، يفكر في الرجال الثلاثة الذين نسيهم الجميع «ينبغي أن يدفنوا بطريقة لائقة على الأقل». بالمعول الذي كان قد جلبه معه راح يضرب الباب المبني المغطى بالاسمنت، فتداعى الجدار الرقيق الذي كانت الرطوبة قد تركت آثارها عليه وتفتت. وانكسر القفل فدفع الباب برجله، غير آبه للألم الذي كان يرج جسده. كان يعرف أنه سوف يعثر على هياكل عظمية لثلاثة رجال، دفنوا أحياء، وهو مشهد لم يفارقه طوال الأعوام التي أمضاها بعيداً عن مدينته. لا بد أنهم ماتوا الواحد بعد الآخر. فكر في الكلمات الأخيرة التي ربما كانوا قد تبادلوها. ليس أسوأ من أن يدفن المرء حياً، ذلك هو الشر المطلق.

انفتح الباب بعض الشيء. وسط الغرفة كانت ثمة شمعة مضيئة، تلقي بظلالها فوق الجدران. دفع برهان عبد الله الباب بيده فانفتح أكثر مما مضى. ظل واقفاً هكذا لا يجرؤ على الدخول. كان ثلاثة رجال يجلسون هادئين، متكئين على وسائد بيض ويدخنون. قال أحد الرجال الثلاثة: «لماذا تقف هكذا يا برهان؟ هيا ادخل». ودخل برهان عبد الله، مفعماً بالحزن والرهبة مأخوذاً بالمشهد الذي لم يتوقعه. وسمع صوتاً يقول له: «ألا تأتي لتسلم على خالك خضر الذي انتظرك هذه الأعوام كلها؟». أغمض برهان عينيه ثم فتحهما. كانوا يجلسون هناك مثلما تركهم. كان خضر موسى يلعب الشطرنج مع درويش

بهلـول بينما كـان دده هجري ينحني جـالساً فـوق دفتر كبـير أسنده على وسادته، نـاقلاً عـلى الورق مـا كان يبـدو أنه آخـر قصائده. وقف برهان عبد الله مشدوهاً ولكن ممتلئـاً بالغبطـة. لم يجد ما يقوله، فقـد انطفأت فـوق شفتيه الكلمـات. ثم وجد نفسه يطلق ضحكة مدوية مثل طفل يلعب بالسعادة. ولكن هذه السعادة الغامرة التي ملأت قلبه لم تعمر طويلاً. فقـد استيقظ ذات يوم صباحاً فوجد أن الربيع قد انطفأ مثل نـار تتحول إلى رماد «يا إلهي، هل كان كل ذلك وهماً هو الآخر؟». كان الهـواء قد ركد واصفرت السماء مرسلة أشعة صفراء مريضة. لم يعد يسمع زقزقة لعصافير أو حفيفاً لريح. كل شيء ساكن، كأن موتاً ما قد حل فوق المدينة. كـان يتنفس بصعوبـة. ارتدى مـلابسه وخرج إلى الشارع بعد أن انتابـه قلق طالمـا فكر فيـه في أعوام نفيه الطويلـة: كان يفتـح عينيه فيعثـر على جثتـه حيث آخرون يبكون عليه وهو لا يستطيع أن يصرخ بهم «لمـاذا تبكون؟ إنني لا أزال حياً». كان حياً وميتاً في الـوقت نفسه حتى من دون أن يكون قادراًعلى إزالة هذا الالتباس. في الواقع أنه ما كـان يطيق السعادة. فقد تعلم أن السعـادة تخفي وراءها دائمـاً التهديـد بضياعها، مثل زجاجة قد تسقط على الأرض فتنكسر. وما كـان يريد أن ينكسر. في الأيـام التي أعقبت عودتـه إلى جقور امتـلأ بسعادة، تكاد تكون حلماً. فقد تغير العـالم فجأة. هبط الـربيع الذي انحبس أعواماً طويلـة عن المدينـة فوق الأرض فـإذا بها تشتعـل خضرة، واستعـادت جـذوع الأشجـار التي أحـرقتهـا الشمس الساطعة نضارتها فأورقت وأزهرت مادّة أغصانهـا إلى كل مكان، وتشابكت فروعها، مشكلة ممرات لا أول لها ولا آخر، يتخللها الضوء فتنعكس ألوان مغسولة بالضبـاب، تكاد تكـون صـورة أخـرى من الطبيعـة في الأيـام الأولى لخلقهـا. غـادرت

twitter @baghdad_library

الذئاب أوجارها وقصدت المراعي، حيث راحت ترعى العشب سوية مع الأغنام، بينما الرعاة يجلسون على الصخور المتروكة في البراري ويعزفون الناي. وراحت ليلى تعود إلى جدتها في الغابة فيفتح لها الذئب الباب ويطهو لها الحساء ثم يقبع قدام سرير السيدة الجدة ويستمع إليها مبتسماً، وهي تروي لليلى حكاية عن ذئب شرير كان يأكل الجدات ويعصب رأسه بمنديل، ثم يدس نفسه في الفراش، منتظراً فتيات صغيرات، يقطفن الورود في الغابات. وغادرت الأسود والنمور والفيلة والثعالب والضباع وبنات آوى والقردة والأيائل والغزلان والاسقنفورات وأكلة النمل والبواشق والبطارق والتوابير والخراتيت مخابئها، عائدة إلى المدن التي كانت قد طردت منها، مقدمة عروضاً فكاهية مجانية لتسلية الأطفال الذين كانوا كثيراً ما يمتطون ظهور الأسود أو يتعلقون بمخالب النسور التي كانت ترفعهم عالياً في الجو، فيجلسون فوق الغيوم قبل العودة ثانية إلى الأرض. ولكن أكثر ما كان يفرحهم هو مشهد الأفاعي ذات الأجراس التي كانت تنتصب فتعزف موسيقى يرقص على إيقاعها حتى الرجال والنساء.

طوال الأيام التي أمضاها برهان عبد الله في جقور ما تخلى أبداً عن الشعور من أن ذلك كله لا يمكن أن يكون حقيقياً. ولكنه كان حقيقياً إلى الحد الذي جعله يبكي من فرط السعادة. فقد تفجرت الأرض فجأة ينابيع، راحت تتدفق حليباً وعسلاً، كان الناس يأتون فيغرفون منها ما يشاؤون. وامتلأت جقور بمتاجر وحوانيت مفتوحة ليلاً ونهاراً، من دون باعة، ممتلئة ببضائع الأرض كلها. كان الناس يقصدونها فيأخذون ما يحتاجونه ويخرجون. لم يعد أحد يفكر في النقود التي راح

الناس يرمونها في المزابل، ساخرين من الزمن الذي كان يمكن للإنسان فيه أن يجوع ما لم يملك أوراقاً ملونة يحشو بها محفظته. ونزعت نساء وفتيات محلة جقور عباءاتهن ولبسن بنطلونات الجينز التي كن يثقبنها متعمدات، في مواضع تثير شهية الرجال. ثم استبدلنها بثياب قصيرة تكشف عن سيقانهن الممتلئة. بل إنهن رحن يسبحن عاريات على شواطىء البحيرات الكثيرة التي ظهرت في برية المصلى أو يتمددن على بطونهن فوق العشب، قارئات رواية بوليسية أو ديواناً من الشعر. وكان العجوز برهان يمر بهن، متنزهاً فيرفع قبعته، محيياً حتى اللواتي لم يكن يعرفهن. «يا إلهي، لكم تغير الزمن! أهذه هي محلة جقور؟». وكانت الفتيات المزهوات يرفعن رؤوسهن ويتهامسن: «إنه العجوز العائد من المنفى». وكان هو يبتسم، غير آبه حتى لشيخوخته التي كانت تضفي عليه مسحة من وقار ما امتلكه قط. رغم أن الناس كلهم اقتنوا ربما بحكم العادة، سيارات مارسيدس وفولفو بل وحتى سيارات رولس رويس وجاكوار، أوقفوها في الباركات القريبة من بيوتهم وألصقوا على الأجزاء الأمامية منها نعال خيل، لإبعاد الحسد، فإنهم كانوا يفضلون ركوب الدراجات الهوائية أو القطارات التي تسير تحت الأرض، قاصدين الغابات القريبة من المدينة، لتزجية الوقت الكثير الذي كانوا يملكونه، إذ لم يعد أحد منهم مرغماً على العمل. كان ثمة دائماً عمال مجهولون، ربما كانوا روبوتات مصنوعة في اليابان تقوم هي من تلقاء ذاتها بإدارة كل شيء وتنظيمه. ولذلك انصرف الكثير من الناس إلى نظم الشعر وكتابة الروايات الخيالية والرسم والرقص، حتى لكأنه ما من شيء آخر في الحياة سوى الفن. وأغرق الشبان والشابات أنفسهم في الحب، ممتلئين بعواطف كانت تجعل عيونهم ترتخي وتفيض

twitter @baghdad_library

رقة وحناناً. والأكثر من ذلك أنه ما عاد أحد يموت. فقد انتهى الموت من تاريخ الناس حتى لم يعد أحد يفكر فيه. هذه الحقيقة التي انكشفت فجأة أمام عيني برهان عبد الله جعلته يفكر باضطراب، أقلقه «إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا في الجنة». ولكنه كان متأكداً أنه في محلة جقور وأن كل شيء حقيقي. ففكر «لقد تغير الزمن، وهذا كل ما في الأمر. لا ينبغي لي أن أكون شكاكاً إلى هذا الحد». ولم يدرك سر هذا التحول إلا عندما قصده ذات يوم خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري في الغرفة التي كان يسكنها في بيت أهله، قائلين إنهم جاؤوا ليشربوا الشاي معه، وهو شاي كانت تعده أمه بالهيل وتخلطه ببعض الأوراد البرية الجافة. وإذ كانوا يحتسون الشاي، ماضغين مكعبات السكر بعد كل رشفة على عادة الشيوخ، أخرج درويش بهلول من عبه دفتراً كبيراً، ذا غلاف أسود وقدمه إلى برهان عبد الله: «خذه. إنه هديتي إليك. لم أعد أحتاجه. فقد فقدت مهنتي كما ترى». وعلق خضر موسى ساخراً «لا شيء أفضل من التقاعد. لقد شخنا يا برهان». وهز دده هجري رأسه قائلاً: «من الصعب على المرء أن يتحمل العذاب الذي عاشه درويش بهلول حتى الآن. ينبغي أن يكون للمرء قلب من حجر حتى يقبل بما كان قد أوكل إليه». واستغرب برهان عبد الله هذا الحديث الذي بدا له ملغزاً، فقال: «لا أكاد أفهم شيئاً مما تقولون». إذ ذاك تدخل دده هجري، قائلاً: «ذلك لأنك لم تفتح دفتر درويش بهلول، لتلقي نظرة على ما فيه». وانتبه برهان عبد الله لأول مرة إلى الدفتر فقلب أوراقه كيفما اتفق، متمعناً في السطور التي بدأت تهتز أمام عينيه ثم قال: «يا إلهي، إن هذا يشبه السجل الذي طالما تحدث عنه الأنبياء، كتاب القدر». فأجابه درويش بهلول: «بل

إنه بعينه». وبدا لبرهان عبد الله كل شيء غـريباً، فـاختلطت في رأسه الحياة بالحلم. شعر برهبة شديدة أمـام الدرويش ففتـح فمـه بشيء من التـردد: «لا يبـدو لي أنـك اللـه». أطلق درويش بهلـول ضحكة مـدوية ثم قـال كما لـو أنه يهمس بسر خطـير: «شكـراً لله، إنني لست اللـه»(*). وسقط بـرهـان عبـد اللـه في الحيرة، بعد أن غادره الرجال الثلاثة حتى أنه أراد اللحاق بهم من دون سبب واضح. كانوا رجالاً غامضين، يظهـرون حيث لا ينتظرهم أحد، ويختفـون حيث يطلبهم الجميع. في واقـع الحال أن برهان عبد الله كان قد شـك في حقيقة هؤلاء الشيـوخ منذ اللحظة التي هدم فيها باب البرج فوجـدهم يجلسون هنـاك. لا يمكن أن يكـون هؤلاء هم خضر مـوسى ودرويش بهلـول ودده هجري حقاً. لقد مات أولئـك الرجـال منذ ستـة وأربعين عـاماً عندما دفنوا أحياء في البرج. «ترى لماذا أعطاني درويش بهلول هذا الدفتر الذي يقول عنه إنـه كتاب القـدر بعينه؟ لقـد انتهى الموت. فأي معنى للقدر إذن؟ ماذا أفعل به؟».

قلب الدفتر السميك الذي وضعه أمامه على المنضدة فإذا به يرى تاريخ البشرية كله أمامه: رجال ونساء وأطفال يـولدون ثم يموتون. قبائل وأمم تظهـر مثلما تنبت الطحـالب وتغيب في قلب الـزمن. حروب لا نهـاية لهـا، خيـانـات تكـاد تشبـه قصصـاً بوليسية، أوبئة تجتاح المدن فتفتك بالناس، طغاة وقادة يقيمون المشانق في أسواق المـدن القديمـة، سيافـون يقطعون الـرؤوس وطهـاة يرمـون ضحايـاهم في قدور القـير المغلي. أطفـال صغار أبرياء يحترقون داخل أسوار المدن المحاصرة ونساء حبالى يبقر الجند بطونهن بالرماح. ملوك تقطـع رؤوسهم بالمقصلـة وأنبياء

(*) عبارة للشاعر الأميركي ألين غينسبرغ.

twitter @baghdad_library

يقتلون أو يحرقون ويذر رمادهم في الريـح. كان درويش بهلـول قد وصف كل شيء بـدقة جعلت بـرهان عبـد الله يـرى وقائـع الزمن أمامه مثل شريط سينمائي، لا ينقطع. السعـادات تنقلب إلى فواجع والـولاءات تقود إلى الخيـانات. البطـولة تنسى بعـد نهاية الحفلة والجمال يذبل في عنفوانه. تـأمل بـرهان عبـد الله وقائع الكتاب أمامـه فأصيب بمـا يشبه الـرعدة في جسمـه «لا تاريخ سوى تاريخ الضحايـا». وانتابـه ود عميق تجاه درويش بهلول الذي كان يسحب أقدامه منذ أن ظهـر أول إنسان فـوق الأرض، قاصداً ضحاياه المرتجفين وواضعاً يده المتخشبـة فوق جباههم قبل أن يشطب أسمـاءهم «يـا إلهي لكم تعـذب هـذا الرجل! ترى كيف تحمل ذلك كله؟». واصـل القراءة حتى بلـغ الزمن الذي حل فيه الـربيع عـلى جقور وانتهى المـوت. لم يعد ثمـة ضحايـا. انحسر الشر عن العالم واختفت الشيـاطين التي كانت توسوس في قلوب الناس وانتصرت البراءة، تلـك التي بشر بها القديسون والأنبياء ودعـاة الأيديـولوجيـات الكبرى. وفكـر برهان عبد الله «ربمـا كانت عـودة إلى البدايـة المقدسـة، ربما كانت عودة إلى الجنة التي طرد منها آدم وحواء. وماذا في ذلك؟ لقـد دفعت البشرية ثمنـاً باهظـاً حتى الآن، لتشق طريقهـا إلى فـردوسها المفقـود». وقلب صفحات الكتـاب بسرعة ليعـرف إن كان الربيع الذي قد حل فـوق جقور سـوف يستمر إلى الأبـد. كـان ما يهمـه الآن هو أن يعـرف نهايـة القصة التي يقـرؤها، مثلما كان يفعـل أحيانـاً مع القصص البـوليسية التي مـا كان يطيق انتظار معرفة المجرم فيها، فيقفز إلى الفصل الأخير الذي تنحل فيه عقدة القصة. ولكنه كان يفقد عادة الـرغبة بعـد ذلك في مواصلة قراءة الفصول التي تركها. فإذا كان قد عرف السر فإن التفاصيل الأخرى تكون فائضة.

لم يكن في الكتاب فصل أخير مثل الكتب الأخرى وإنما فصل أبيض حتى النهاية يبدأ بكلمة واحدة هي: «فجأة». ثم لا شيء سوى البياض. اغتاظ برهان عبد الله بعض الشيء: «يا للدرويش الماكر. لقد ترك كل شيء مفتوحاً. لا بد أنه احتفظ لنفسه بدفتر آخر، يتضمن تكملة القصة». وشعر بالقلق وهو يعيد النظر المرة تلو الأخرى في كلمة «فجأة» التي أثارت الرعب في قلبه. فجأة يمكن أن ينتهي كل شيء. فجأة يمكن أن يموت الإنسان. فجأة يمكن أن تنزلق الأرض من محورها وتغور في أعماق الكون. ما كان يعول كثيراً على الصدف ولكنه كان يعرف أن الصدفة احتمال واقعي يمكن احتسابه حتى بالكومبيوتر. لم يكن الأمر يتعلق هذه المرة بالصدفة وإنما بالقدر المدون منذ الأبدية، وهو قدر أحزنه أن يظل بياضاً، مثل فعل ناقص. فجأة رأى الفصل الأخير يكتمل بالوقائع التي تنقصه. وقف مشدوهاً، لا يكاد يصدق ما تراه عيناه. كانت جقور قد تحولت إلى خرائب، ينعق فيها البوم، أطلال مجد غابر، محاه الزمن حتى لكأنه ما وجد أبداً. كانت الأسود والذئاب والضباع وبنات آوى تجوس المغارات التي لجأ إليها الأحياء الأخيرون وتفترس الجثث التي ترمى في الأزقة بعد أن فقد الناس الرغبة حتى في دفن موتاهم. وسمع برهان عبد الله صوتاً مدوياً ينفخ في الصور، معلناً نهاية الربيع الكاذب. كان برهان عبد الله نفسه مهدداً، ولكن الألم الذي اعتصر قلبه جعله ينسى حتى الخطر المحيق به. من وراء الصخور التي التجأ إليها رأى مخلوقات خضراء صغيرة قادمة من كل فج عميق تغزو المدينة الميتة وتشعل النار حتى في أحجارها، مخلوقات ترتدي البذلات العسكرية وتزين أكتافها بالنجوم. وفكر «ربما لم ينحسر الربيع تماماً عن المدينة كلها». ولكنهم كانوا يقصفون مدينته بالقنابل

twitter @baghdad_library

الذرية والكيميائية. وتساءل والدموع في عينيه «لماذا يفعلون ذلك؟ لقد انتهى كل شيء. فماذا يريدون؟». وأحس برجل يكاد يكون عارياً، يشبه الوحش بشعره الأشعث يزحف بين الحطام على يديه ورجليه باتجاهه فجفل ولكن الرجل طمأنه قائلاً: «إنهم يمرون كل يوم من هنا ويحرقون كل شيء أمامهم». ولم يجد برهان عبد الله بداً من أن يسأل الرجل «ولكن من هم هؤلاء؟». قال الرجل بصوت يشبه العواء: «ما هذا الذي تقوله؟ من الواضح أنك غريب في هذه المدينة». قال برهان عبد الله: «لقد أمضيت ستة وأربعين عاماً في المنفى. هذا كل ما في الأمر». قال الرجل وهو يزحف مبتعداً: «إنهم ياجوج وماجوج الذين ربما كنت قد سمعت بهم. ما كان ينبغي لك أن تعود إلى هذه المدينة الملعونة». ظل برهان عبد الله ماكثاً في مكانه وراء الصخور، لا يجرؤ حتى على أن يرفع رأسه. كان قطيع من الذئاب قد اجتاز محلة جقور لتوه. وتحت عمود كهرباء مائل رأى أسدي الحديقة الحجريين يفترسان حماراً، يبدو أنه كان قد فقد صاحبه. «كان ربيعاً كاذباً، ذاك الذي رأيته». وانتبه «ربما ما رأيت شيئاً أبداً، ربما كان ذلك كله وهماً اختلقته في ليالي منفاي الطويلة». وراح يردد مثل مريض مصاب بالحمى «ما كان ينبغي لي أن أعود أبداً. ما كان ينبغي لي أن أستمع إلى ملائكتي الثلاثة. لقد خدعت منذ اللحظة التي تشبثت فيها بأمل، تبدى عن وهم. لقد أمضيت حياتي كلها في انتظار ربيع مطفأ. أجل، كان ثمة ربيع، ولكنه انطفأ. ربما لأن الملائكة الثلاثة تأخرت أكثر مما ينبغي، ربما لأن الزمن أفسد الربيع داخل أكياس القنب المغلقة. آه، هؤلاء الذين أمضيت حياتي كلها في انتظارهم». واهتزت الأرض تحت أقدامه بفعل دوي هائل أعقبته عاصفة من تراب أحمر يثقب الوجه ورأى بعيداً كتلة هائلة من النار

تتصاعد حتى الغيوم» لا بد أنهم قصفوا مكاناً ما بقنبلة ذرية جديدة». ورفع رأسه إلى السماء فكاد يصاب بالخبال، إذ راح يردد دون انقطاع «لا يمكن ذلك. إن هذا يبدو مستحيلاً». رأى الشمس تشرق من الغرب. ولكنها بدت له شمساً أخرى، شمساً مريضة، تذكر المرء بأن كل شيء إلى زوال.

وجر جسده المتعب متخفياً بين الخرائب التي كانت قد امتلأت بالأفاعي والنمل والزواحف، محاذراً الضباع والذئاب التي كانت تنهش أجساد بعضها، ولكن أكثر ما كان يخيفه هو أن يعثر عليه جنود ياجوج وماجوج الذين كانوا يذبحون كل من يعثرون عليه من البشر أو يشنقونه ويتركونه، معلقاً على جانب من الطريق الذي يسلكونه. ما كان برهان عبد الله يعرف إلى أين يمكن أن يذهب. لم يعد أحد في جقور. لا بد أن الكثيرين اختفوا في الثقوب والمغاور والسراديب. لم يكن ثمة بد من العودة إلى البيت. «سوف أختفي هناك وأنتظر». وضحك لفكرة أن يجلس هناك وينتظر، إذ ما الذي يمكن أن ينتظر هذه المرة؟ في الماضي، في الماضي البعيد انتظر دائماً وصول ملائكته الثلاثة. أكيد أنهم تأخروا طويلاً، ولكنه ما فقد الأمل في وصولهم قط. ترى من ينتظر الآن؟ وقال برهان بصوت يكاد يكون صراخاً «لا أحد، لا أحد على الإطلاق؟».

بينما الريح العاصفة تعول مزمجرة، جارفة معها علباً فارغة، مرمية في شوارع مهجورة، ومزق جرائد ونباتات شوكية مقتلعة من جذورها، في فضاء ملطخ بصفرة داكنة ألقى برهان نظرة أخرى على الشمس الذابلة المرتفعة من الغرب. كان ذلك أكثر مما يطيقه «ما كنت أعتقد أنني سوف أشهد هذا اليوم أيضاً». كان الأمر يشبه يوم القيامة الذي ما كان أحد يشك في

twitter @baghdad_library

قدومه. ولكنه ما كان يريد أن يعترف لنفسه بذلك. لم يكن خائفاً من الموت، بقدر ما كان مرعوباً من فكرة أن يكون شاهداً على موت عالم أحبه حتى المرض. «لا يمكن أن ينتهي كل شيء، هكذا دفعة واحدة وإلا فقد كل شيء معناه». وجر نفسه حتى البرج الذي كان يقيم فيه خضر موسى وصاحباه، لعلهم يهدئون روحه، لعلهم يكشفون له سر هذه النهاية المفجعة التي فاجأته. «ربما كان الله يلعب مع البشر». وتذكر أن آينشتاين اعتاد أن يقول إن الله لا يلعب النرد أبداً. «إذا لم يكن الله يلعب النرد، فماذا يلعب إذن؟ لا بد أن أحداً ما يلعب النرد. هذه المجرات كلها، هذه الشموس التي لا عدد لها، هذه الكواكب، هذه الأقمار، هذه الفضاءات، هذه الانفجارات الكونية، هذه النهايات التي لا نهاية لها، هذه البدايات التي لا بداية لها، هؤلاء البشر الأدعياء، هؤلاء الذين يولدون ثم يموتون، هؤلاء القادة المؤمنون بالمجد، هؤلاء الأبطال الذين تعلق على صدورهم الأوسمة، هؤلاء الأطفال الذين يموتون قبل أن يولدوا، والذين يموتون بعد أن يولدوا، هؤلاء المحبون وهاته العاشقات، هذه الأجيال المضطربة والأجيال السعيدة، هذه المدن، هذه القرى، هؤلاء العرب وهؤلاء اليهود، هذه القردة المتقافزة بين جذوع الأشجار، هذه الغيوم، هذه الرعود والبروق ربما امتلكت معنى ما، ربما ما امتلكت أي معنى. ربما امتلكت معنى أنها لا معنى لها». كان برهان عبد الله يتنفس بصعوبة ويقف على حافة ما يشبه الموت، تلك الغيبوبة التي لا تشبه أية غيبوبة أخرى، مما جعله يفتح فمه مثل سمكة تمسك بها كف خارج الماء ويهمس لنفسه: «كلا، إنني لا ألعب النرد أبداً». كان الزمن قد عصف بالبرج فحوله إلى ما يشبه أثراً تاريخياً مهجوراً. جدران متصدعة وسلالم مهدومة، انفلتت حجارات كثيرة منها وتراكمت

في الزوايا. خراء كلاب وعلب كـوكاكـولا فارغـة، بقايـا صحف ومجلات قديمة، لم يعد أحد يذكرها، كتب أدعية وسحر مكتوبة بـاليد، مـا يكاد المـرء يلمسها حتى تتحـول إلى تراب، جـرذان تقـرض الحجر والحـديد ونسيـج عنـاكب وعقـارب سـوداء أو صفراء صغيرة تقف أمام ثقوبها. كان باب غرفة البرج متـآكلاً بفعل الرطوبة ومضي الزمن والأرضة التي كانت قد شقتـه طولاً وعـرضاً، ولـذلك مـا كاد يـدفع البـاب برجلـه حتى هـوى إلى الداخل، مثيراً غباراً ملأ المكان وجلبـة جعلت أسراباً من البـوم والـوطاويط تفـز مرعـوبة وتحلق من فجـوة الباب الـذي انفتح أمـامها حتى أن بعض الـوطاويط ارتطم بـه. وفتح عينيـه على ثلاثة هياكل عظمية، مرميـة في زوايا الغـرفة فـوقف جامـداً، لا يكـاد يركـز على شيء. أراد أن يقـول شيئاً مـا إلا أن فمه ظـل مغلقاً. ورأى نفسه يتأتىء لأول مرة في حيـاته: «لا لا لالا لا يم يم يم كن ذلـك. ها هـا هاذا غـير غير صحيـح». وشعر بـرغبة عارمة في الضحك، متذكراً صديقاً كان يتأتىء كلما تحـدث عن الفتاة التي يحبها. ففكر برهان متأتئاً: «وووووولكن ن ن نه لم لم لم ير جث ث ث ثا م م مثـلي.» وشعر بـرهان عبـد الله أنه مصاب بالحمى، فغادر البرج منحدراً إلى الشارع وقد نسي تأتأته.

ظل يتسلل بين أزقة مهجورة، تبدو وكـأنها مغطـاة بالـرماد، حيث رأى نساء ورجالاً وأطفالاً يتخفون وراء الصخـور وداخل أطلال بيوتهم القديمة مثل أشباح خائفة حتى من نفسهـا. كان دوي المدافع يسمـع من بعيد في الـريح التي كـانت تعول مثـل موكب نساء متشحات بالسواد، وأعتمت الشمس رغم أن النهار كـان لا يزال في منتصفـه. ثم أضيء الكون بنـور ساطـع فرفـع

twitter @baghdad_library

راسه، حيث رأى ثلاثة كواكب هائلة، كتل من النار ترعد في السماء مقتربة من بعضها الآخر، كما لو أن قوة خرافية تجتذبها ثم تصطدم مسببة دوياً، اهتزت معه الأرض فانقذف في الفراغ قبل أن يسقط على الأرض مرة أخرى، حيث ظل مضطجعاً على ظهره، لا يقدر على النهوض. وبدأت السماء تمطر قطرات نار ملتهبة، جعلت الناس تهرب من مكان إلى آخر، محنية الرؤوس وهي تصرخ بصوت موحد، يقرب من البكاء:

يا متى؟
يظهر الغائب
يا متى؟(*)

وفكر: «يا إلهي، إنهم ما زالوا ينتظرون غائبهم الذي سيعيد النظام إلى الكون». وحدق في السماء مرة أخرى. رأى أقماراً تبزغ ثم تنقذف هادرة في ظلمات الكون، وكواكب تنفجر وشموساً تنطفىء ومجرات هائلة ترتطم فتتعاقب النهارات والليالي. ابتسم مثل طفل وهو يرى هذه الألعاب النارية الكونية فتمتم «إن أحداً ما يلعب في مكان ما». كان يعرف أن ثمة قيامة ما في الفصل الأخير من هذه الدراما، ثمة نهاية أكيدة ومخيفة، حيث تحل العتمة فوق سهوب من الصقيع والجليد. كان يعرف أن الكرة الأرضية سوف تبدأ نزعها الطويل في يوم ما في المستقبل البعيد المجهول. ولكن ما كان يهمه ليس الزمن وإنما المعنى. لا يهم إذا ما جاءت النهاية الآن أو بعد مليار من السنين. فإذا كان قد حكم على هذا الكوكب بالموت والانطفاء في نهاية الرحلة فأي معنى يبقى للمجد والحب والعذاب والصبوات؟ للمحاربين يشقون طرقهم في الصحارى وفوق

(*) هتاف يردده الشيعة في جنوب العراق أثناء مواكبهم الدينية.

الجليد؟ للجلادين يسوطون ضحـايـاهم وللقـادة يلقون الخطب؟ أي معنى يبقى لعمـل العبـاقـرة ومغـامـرة المكتشفـين وتعب المبدعين؟ كان يجلس أحياناً ويبكي «لا يمكن أن نفقد كـل شيء في لعبة نرد». ولكنه كان يعـزي نفسه دائمـاً: «ثمة مـلايين من الأعـوام تفصلني عن النهايـة. ثمة وقت كثـير للحياة. فـإذا لم يكن ثمة معنى آخر في هذا العالم فـإن الحياة هي المعنى، حتى إذا كانت محكومة هي الأخرى بالموت، حتى إذا كانت حياة من دون أمـل». ولكن ها هي القيـامة تحـل قبل الأوان، ربمـا لأن أحداً ما أخطأ في اللعب أو ربما لأن الناس انتظروا مثلـه ربيعاً حل على الأرض فإذا به ربيع كاذب، ربيع انتهى مثل أي ربيـع آخر.

كـان يتنقل بـين الخـرائب أو يختبىء وراء جـذوع أشجـار محروقة، خائفاً من أن يمسك به جنود ياجوج وماجوج فيقطعوا لسانه أو يأخذوه معهم. كان مصاباً بالحمى، تمر برأسه أحلام وصور تهدر حتى لكأنها نهر يجرف أمامه كل شيء: خضر موسى يقود قطيعاً من الأغنام ووراءه في شارع كـودام في برلـين عابـراً بهـا إلى شارع نـايتس بريـدج في لندن. المـلّا زين العـابـدين القادري يساوم عـاهرة تتكىء بـرسغها عـلى نافـذة مطلة عـلى شـارع في البيغال في بـاريس. حميد نـايلون يضـع عـلى كتفـه بندقية ويعبر أدغال بوليفيا المعتمة. مقاتلون أنصار يهبطون من منطاد فوق جبل أحد وينقذون النبي المحاصر. طـائرات مـيراج وسوخوي وميغ وسكايهوك وتوبوليف تحلق قاصفة فيلة الفرس في القادسية، متبوعة بمواكب أعراب، قادمين من الربع الخـالي في الجـزيرة العـربية. ذئـاب تنهش أمهات متـروكات في بـادية عبـادان. خـونـة يضعـون آبـاءهم في قـوارب من قـير ملتهب

twitter @baghdad_library

ويرمونها في دجلة. واتكأ برهان عبد الله على شجرة «لا لن أستسلم أبداً». ثم غفا مثلما كان يفعل دائماً في منفاه الطويل. كان يتكيء على الأريكة، محدقاً في شاشة التلفزيون بإلية تنسيه ما يعرض أمامه، بسبب انهماكه في رؤية صوره الخاصة التي كان يراها على شاشة مخيلته. وأحياناً كانت الحدود تنعدم بين الشاشتين وتختلط فيروي في اليوم التالي لأصدقائه وقائع، لا وجود لها.

استيقظ على ضجة طبول تقرع بإيقاع عسكري. أبواق تنفخ وصدى خطى ثقيلة تضرب الأرض. رفع رأسه بحذر. كانت ثمة ساحة لكرة القدم. مليئة بصلبان ترتفع لصق بعضها الآخر وجنود خضر صغار يرقصون ابتهاجاً، كما لو أنهم في حفل وثني قديم. وعلى طول الساحة وقفت نساء خضراوات صغيرات يصفقن أو يوزعن اللبان على الجنود. نزع برهان عبد الله قبعته، ممسكاً بها في يده وراح يزحف على بطنه، مقترباً من الساحة الوثنية. ضغط على نظارته وحدق ملياً في الأجساد المسمرة على الصلبان، فانتابت جسده الرعدة والحمى، وشعر بالغثيان. كانوا جميعاً هناك فوق صلبانهم؛ خضر موسى الذي كان قد رأى هيكله العظمي في البرج وحميد نايلون العائد من الأحراش ودلي إحسان الذي قتل فتحول إلى كتلة من نار والملا زين العابدين القادري الذي جاؤوا به داخل عربته الذهبية ووالده عبد الله الذي ظل يرتدي بذلة عمال النفط حتى النهاية، عباس بهلوان الذي ما زال يضع مسدسه في وسطه، واللص محمود العربي الذي ما تخلى عن مفاتيحه، ودده هجري الذي ربما كان يفكر في قصيدة، لن يعرفها أحد. كانوا يحدقون فيه ويبتسمون، كما لو أنهم يريدون أن يقولوا له «وداعاً».

واهتز جسده مرة أخرى عندما رأى ما جعله يغرق في البكاء. كانوا هم أيضاً هناك. أخفض رأسه «لا يمكن أن يكون هذا حقيقة». نزع نظارته ومسحها بطرف قميصه ثم وضعها فوق عينيه «يا إلهي، كيف يمكن ذلك؟» كان شيوخه الملائكة يرقصون أمام جنود ياجوج وماجوج الخضر، وقد انقلبوا شياطين بقرون منتصبة وذيول يجرونها وراءهم. كانت صدمة لم يتوقعها أبداً، فشعر بالحنق على نفسه مردداً: «يا لي من حمار. لقد أمضيت حياتي كلها أقتفي آثار ملائكة لم تكن سوى شياطين مقنعة». كان حزيناً، ولكنه في اللحظة التي اكتشف فيها الحقيقة، شعر بقوة جديدة، ما امتلكها أبداً في حياته: الحرية.

جر نفسه مرة أخرى إلى الخرائب التي لجأ اليها البشر الأخيرون. كان قد زايله حتى خوفه، مختنقاً بعواطف لم يعرفها من قبل. وسط أنقاض غرفته التي كانت قد ضربتها الصواعق، عثر برهان عبد الله على الكتاب الذي كان درويش بهلول قد أهداه إياه. نفض عنه الغبار. كان كل شيء فيه قد محي ولم تعد ثمة سوى أوراق بيض، خلت من أي كلمة. فقال: «إنه ليس سوى دفتر أبيض مثل أي دفتر آخر». فكر أن يأخذه معه، ليدون فيه يومياته ولكنه قال: «هناك دفاتر كثيرة، فماذا أفعل به؟». وفي طريقه رماه في تنور تشتعل فيه النيران» سوف يحترق هذا الذي كان ذات يوم سجلاً للموت». وفكر في سجل آخر للحياة. ولكنه تدارك نفسه قائلاً: «ما حاجة الحياة إلى سجلات؟ إنها هي نفسها السجل الأعظم». وانتهى إلى زقاق ممتلىء بالبشر. كانوا خائفين، ولكن أحداً ما عرفه، ربما من قبعته الرمادية ونظارته الطبية فهتف: «إنه الغائب الذي عاد».

twitter @baghdad_library

فاقتربوا منه متسائلين: «هل كنت حقاً غائباً وعدت؟». قال برهان: «أجل لقد عدت بعد ستة وأربعين عاماً في المنفى». ما كاد برهان يلفظ هذه الكلمات حتى رأى البشر الأخيرين يحيطون به ويتلمسونه، قبل أن ينفجروا في صراخ جماعي وقد استبد بهم الجنون:

ظهر الغائب
وبدا
انه باق
أبدا.

كان ذلك آخر ما ينتظره برهان عبد الله «يا لهؤلاء المساكين!». كانوا قد التفوا حوله دائرين ومغنين والدموع تنهمر من أعينهم بينما راحت النساء يزغردن كما لو أنهن في عرس. التفت برهان عبد الله إليهم وقال: «أنتم مخطئون. لست الغائب الذي تنتظرونه. لقد خفت من الأعداء ففررت إلى المنفى. إنني أكثر بؤساً منكم، أكثر خوفاً منكم». هذه الكلمات جعلت الحشد يزداد حماسة وهياجاً. وتقدم رجل عجوز منه وقال بمحبة: «علامة الغائب أن ينكر نفسه، وها أنت تفعل ذلك»، فراح برهان عبد الله يصرخ وقد بدأ يحنق على غباء هؤلاء الناس: «أقسم إنني لست الرجل الذي تنتظرونه. إنني رجل ضائع، لا يعرف حتى نفسه». ولكن صوته ضاع في الضجة فظل واقفاً، لا يعرف ماذا يفعل. ورأى ألوفاً من النساء والرجال والأطفال تخرج من بين الأنقاض والثقوب وتنضم إلى الحشد البشري الذي كان يزداد اتساعاً، ناقرة على الدفوف والطبول. ونهض رجل قال: «سوف يقهر الغائب جيش ياجوج وماجوج ويعيد النظام إلى الكون». وفكر برهان عبد الله «يا

إلهي، أية ورطة هـذه! إنهم يتشبثون بقشـة. ما كـان ينبغي لي أن أعود إلى هذه المدينة».

كـانت الضجة قـد اجتذبت جنـود ياجـوج وماجـوج الذين أحاطوا بالمكان، طالبين إلى البشر الأخيرين العودة إلى مخـابئهم وراء الصخور وبين الأنقاض. دب الذعر في قلوب الرجال فرموا دفـوفهم وابتلعت النسـاء هـلاهلهن وكف حتى الأطفـال عن البكاء، فانسحبوا زاحفين على بطونهم واختبـأوا داخل الثقـوب وفي الحفر وما بين الصخور، حتى لكأنهم لم يكونـوا موجـودين أبـداً. ظل بـرهان عبـد الله واقفـاً في مكانـه، منتظراً الجنـود يتقـدمون نحـوه، شاهـرين حراب بنـادقهم. فكـر أنهم سـوف يطعنونه المرة تلو الأخرى «هذه هي النهاية إذن». كـان الجنود يقتـربون منـه خطوة بعـد أخرى. «مـا كان يمكن لي أن أطيـع أوامرهم وأن أدفن نفسي في ثقب مثل الآخرين». كان ذلـك أكثر مما يمكن احتماله. كان وحيداً وكان الجنود يتقدمـون صوبـه، شاهرين حرابهم، فقال بحزن: «لا يمكن أن أموت. لا أستطيـع أن أتصـور نفسي ميتاً حتى إذا كـان العـالم كلـه قـد انتهى». وشعر بحب طاغ للحياة، جعله يقتـرب من البكاء. كـان الجنود الخضر الصغار قد أصبحوا على بعد خطوات منه. رأى عيونهم المدورة المغسولة بالدم، تتقد وتنظر في عينيه، فرفع يديه عـالياً، مثل رجل يتأهب للموت. إذ ذاك وكان قد فقد كل أمل في النجاة رأى يـديه تتحـولان إلى جناحـين هائلـين، ضرب بهمـا الهـواء فارتفع عالياً، عالياً، عالياً، محلقاً في السماء وغاب(*).

(*) هذه الرواية كتبت في برلين ونيقوسيا، كما كتبت أجزاء صغيرة منهـا في دمشق وطرابلس وصنعاء ما بين ١٢ نيسان (أبريـل) ١٩٨٧ و ٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠.

twitter @baghdad_library

آخــر الملائكة

من قلب الحي الشعبي تطلع هذه الرواية حاملة صخب انقلابات التاريخ وجنونه. رواية تقترب من الملحمة في عالمها الغني، الممتد والمتشعب أزماناً وشخوصاً.

فمن زمن التكونات الحديثة للعراق إلى يومنا هذا، نرى حضوراً لعوالم الاحياء. وعوالم الجان والشياطين، حضوراً لوعي الشرق الخرافي وللوعي السياسي الفج. وبمهارة فنية عالية تتحرك الرواية بشخوصها وحكاياتها بين السحري/الديني والواقعي/الاجتماعي ضمن حبكة متقنة تحول الخيال إلى مادة للحقيقة، وتحول الحلمي إلى صورة ملموسة لا يركن إليها الشك.

رواية تدل على قدرة فائقة بتطويع البعد الاسطوري والغرائبي في سرد حكاية المحلي والواقعي، وتدل على موهبة ساطعة في تحميل الرواية تعبيرات واسعة عن مأساة انساننا وفداحة انفصاماتنا المعاصرة في العقل والروح.

إنها رواية لا تروي تاريخاً بقدر ما تستحضر ضميره الغائب.

1855131854

twitter @baghdad_library